

مختارات من أعمال

ميخائيل

باختين



ترجمة: يوسف الحلاق
تقديم: بطرس الحلاق

إهداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

مختارات من أعمال ميخائيل باختين

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢٤١
- مختارات من أعمال ميخائيل باختين
- يوسف الحلاق
- بطرس الحلاق
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة
مختارات من أعمال ميخائيل باختين

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٤٥٤٢٦ فاكس: ٧٣٥٤٥٥٤
Gabalaya St. , Opera House, El Gezira, Cairo
l.: 273545424 - 27354526 Fax: 27354554

المركز القومي للترجمة

مختارات من أعمال ميخائيل باختين

اختيار وترجمة : يوسف الحلاق

تقديم : بطرس الحلاق



٢٠٠٨

<p>بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية</p>	<p>باختين ، ميخائيل . مختارات من أعمال ميخائيل باختين / اختيار وترجمة: يوسف الحلاق ، تقديم: بطرس الحلاق ؛ ط ١ - القاهرة ، ٢٠٠٨ ٤٣٦ ص ؛ ٢٠ سم ، المركز القومى للترجمة ١ - الشعراء العرب . ٢ - الشعر العربى - تاريخ - العصر الحديث . أ - الحلاق ، يوسف (اختيار) ب - الحلاق ، بطرس (اختيار) ج - العنوان ٩٢٨،١</p>
<p>رقم الإيداع ١٠٠٣٠ / ٢٠٠٨ الترقيم الدولى : 7 - 742 - 437 - 977 - I.S.B.N طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>	

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

الفهرس

الصفحة

7	مقدمة بقلم بطرس الحلاق :
13	الدراسة الأولى: الأسلوبية المعاصرة والرواية
39	الدراسة الثانية: الكلمة فى الشعر والكلمة فى الرواية.
79	الدراسة الثالثة: التنوع الكلامى فى الرواية.....
129	الدراسة الرابعة: المتكلم فى الرواية
183	الدراسة الخامسة: خطان أسلوبيان فى الرواية الأوربية.
267	الدراسة السادسة: من تاريخ الكلمة الروائية
333	الدراسة السابعة : مسألة المضمون والمادة والشكل ..

مقدمة

يحظى باختين منذ عدة عقود باهتمام واسع فى الأوساط النقدية العربية، التى تعرفت إليه عن طريق الدراسات الغربية التى اكتشفتها بدورها فى سبعينيات القرن المنصرم من خلال نصوص نقلها إلى الفرنسية، فيما نقله عن "الشكلانيين الروس"، الناقد البلغارى الأصل تودروف. ومنذ ذلك الوقت، لا يزال نقدنا يستوحى مفاهيمه فى النقد الروائى وعلى رأسها تعدد الأصوات. وقد كان للترجمات التى قام بها الأستاذ الراحل يوسف الحلاق أفضل كثرة، منها فضل الأسبقية، فهى من أولى الترجمات، إن لم تكن أولها على الإطلاق.

وإضافة إلى أسبقيتها، تتميز هذه الترجمات عما عداها بثلاثة أمور. أولاها أنها الترجمة الوحيدة، فى حدود علمى، المنقولة مباشرة عن الروسية، بينما نقلت الأخرى عن اللغات الأوروبية والفرنسية بخاصة. وثانيها أنها ترجمات متكاملة، لا تمثل مقاطع من مقالات بل مقالات كاملة ومتعددة تلم بفكره النقدى من كافة جوانبه.

غير أن الميزة الأهم تتمثل فى الأسلوب الذى اعتمده المترجم. لقد كان من الرعيل الأول من الموفدين إلى موسكو، عام ١٩٥٨، حيث حصل إجازة فى "اللغة الروسية وآدابها"، وألف رسالة بالروسية عن رواية تولستوى "أنا كرينينا". وعند عودته إلى دمشق، مارس تدريس الروسية لغة وأدباً، أولاً فى الثانويات (١٩٦٤-١٩٨٠) ثم مسؤولاً عن

معهد الدراسات الروسية في جامعة دمشق، إضافة إلى اعتماده مترجمًا رسميًا في وزارة الثقافة لدى الوفود السوفياتية فالروسية. وفي الوقت نفسه، راح ينشر ترجماته لعدد كبير من الكتاب الروس - روائيين ومسرحيين ونقاد ومؤرخين - في عدة دور نشر سورية وعربية، حتى بلغت، عند وفاته المبكرة عام ٢٠٠٤، عن عمر لم يناهز ٦٤ عامًا، أكثر من ٢٩ كتابًا، أربعة منها لا تزال مخطوطة.

أتقن الروسية كما لم يتقنها إلا القلائل، وإلى جانب ذلك، أحب الأدب الروسى حبه للأدب العربى فتبحر فيه، واعتمد منهجًا نقديًا صارمًا، استقاه لا من أساتذته الروس فحسب، بل أيضًا من اللغة الفرنسية التى تملك زمامها فى الكلية الشرقية فى رحلة، ومن مدرسة الآباء العازاريين بدمشق، ولكليهما باع طويل فى تدريس العربية إضافة إلى اللغات الأجنبية ولا سيما الفرنسية.

وحين أكب على الترجمة، أصر على أن يراعى جمال التعبير العربى وسلاسته، بعيدًا عن كل تقعر أو هجانة، وأن يتوخى الدقة فى تأدية المفهوم النقدى - وكان لا يزال قليل الشيوع - معتمدًا فى سبيل ذلك على إلمامه باللاتينية واليونانية القديمة، مما أمدّه بإدراك دقيق لجذور بعض المصطلحات النقدية الأجنبية.

الترجمة فن صعب القياد، لا يتقنه إلا من تمكن من اللغتين، لغة الأصل ولغة المآل، وتمثل المفاهيم التى تقوم عليها الدراسة. عندها تأتى الترجمة كأنها صيغت أصلاً فى اللغة المترجم إليها، مهما تعقدت المفاهيم وتداخلت. وذلك ما نلمسه فى ترجمة الأستاذ الحلاق لنصوص باختين، التى تثير أكثر من غيرها شيئاً من الرهبة، بسبب جودة موضوعها على أكثر من مستوى.

جديدة هي في مقاربتها النص وفي توسلها مفاهيم نقدية على نحو لم يكن للنقد العربي الشائع، حتى لدى النقاد، عهد به. حسبنا، للتأكد من ذلك، مقارنة هذه النصوص بمجمل النقد العربي حتى العقد الأخير من القرن الماضي. إنها تنتمي إلى حداثة غير مسبقة. ومما يزيد من إشكالياتها أنها لا تسير في ركب النقد الأوروبي الحديث، بل تسير على خط مواز. فللنقد الأوروبي سياقه الخاص. انطلق من منهجية ده سوسير، مؤسس الدراسات اللسانية، واستعان بمقاربة "الشكلانيين الروس" التي، وإن نشأت في سياق الأدب الروسي ما قبل الثورة، لم تتبلور إلا خارج روسيا وفي إطار أوروبي. ثم اكتمل ابتداء من ستينيات القرن الماضي، على يد أصحاب "مدرسة باريس" الذين باثروا باستنباط "القواعد العامة" لكل نص أدبي، انطلاقاً من تحليل نصوص عينية، فأرسوا بذلك ما سمي فيما بعد "علم النص"، الذي شاعت مصطلحاته في كافة اللغات ومنها العربية. أما باختين، المنفى آنذاك في مدينة صغيرة من مدن روسيا بعيداً عن الأبحاث القائمة على قدم وساق في أوروبا، فقد صاغ، بجهد وعبقريته، أسلوبه دون أن يتاح له الحوار مع نظرائه. لذا اندرجت بعض مصطلحاته في سياق ثقافي آخر، يعسر فهمه كلياً. وأما بعضها الآخر فلم يُقدّر لها أن تكتمل، بسبب من العزلة التي رافقت علمياً حياة باختين. وكلنا يعلم أن العلم مشروع جماعي لا يستوى كلياً بجهد فردي، مهما تجلت عبقرية هذا الفرد، وباختين بكل تأكيد من سلالة العباقر.

خلاصة القول: إن ترجمة نصوص باختين لا تنقاد إلا بمراسٍ شديد ولمن أعطاها حقها من العناء والتأمل وتسليح بثقافة استثنائية. وذلك ما يدركه القارئ، باعتقادي، لدى مطالعته ترجمة يوسف الحلاق.

أما هذا النص الذي تقدمه السيدة منيرة، أرملة المرحوم، إلى القارئ العربي فيتألف من ستة فصول نشرت سابقاً تحت عنوان "الكلمة في الرواية" ومن نص آخر طويل ينشر للمرة الأولى، هو "مسألة المضمون والمادة والشكل في الإبداع الفني الكلمي". الفصول الأولى منقولة عن كتاب نشر في موسكو بعنوان "قضايا جمالية وأدبية"، أما القسم الثاني فلم يصرح عن مصدره. ولابد من التنويه أن باختين لم يصدر شيئاً تحت هذين العنوانين. فما عدا كتابيه الشهيرين: "شعرية دوستوفسكي" و"أعمال فرانسوا رابليه"، لم تصدر له إلا مقالات متفرقة بقي بعضها طي نسيان أربعين عاماً. فالمادة المترجمة هنا، إذن، عبارة عن مقالات جمع بعضها المسؤولون عن الثقافة في الاتحاد السوفياتي تحت العنوان المذكور آنفاً، ولم أتوصل إلى معرفة مصدر القسم الآخر. غير أن مجمل هذه المواد مترجم إلى الفرنسية ويشكل فصولاً في كتاب بعنوان *Esthétique et théorie du roman* صدر عن دار غاليمار في باريس عام ١٩٧٨، وهو، بدوره، منقول عن كتاب صدر بالروسية عام ١٩٧٥ في موسكو تحت العنوان السابق نفسه، "قضايا جمالية وأدبية". فکافة مواد الكتاب دراسات متفرقة، نشر أكثرها ما بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٤٠، وبقي بعضها مخطوطاً حتى تاريخ

صدوره فى موسكو. وتقضى الأمانة العلمية أن نشير إلى بعض الفروق بين الترجمة الفرنسية وترجمة الأستاذ يوسف الحلاق. فهل مرد ذلك إلى فروق بين النص الروسى الوارد فى الطبعة الرسمية السوفياتية، والنص الروسى الأصلى الذى اعتمده المترجم الفرنسى؟ أم هناك سبب آخر؟ لا تسمح لى المعطيات المتوفرة لدى الآن أن أبت فى الأمر، فأكتفى بالتتويه.

الترجمة فن كما أسلفنا، وفن مرتبط بسياق ثقافى. فلا شك والحالة هذه أن فى التصدى من جديد لمؤلفات باختين لإعادة ترجمتها مبررات كثيرة: إحاطتنا بتراث باختين النقدى وقد اتسعت بمرور الزمن، ومصطلحاتنا النقدية الراهنة وقد ازدادت دقة، وتراثنا النقدى العربى اليوم وقد تألف مع المناهج الحديثة. ولكن بانتظار ذلك اليوم، لنتمتع بقراءة هذه النصوص الرائعة بعمقها وإنسانيتها كما نقلها لنا قلم عاشق للأدب والعربية، عليه الرحمات غزيرة.

بطرس حلاق

أستاذ الأدب العربى الحديث

فى جامعة السوربون، باريس الثالثة

باريس، تشرين الأول ٢٠٠٧

الدراسة الأولى

الأسلوبية المعاصرة والرواية

لم يظهر حتى القرن العشرين طرح واضح لقضايا أسلوبية الرواية؛ طرح ينطلق من اعتراف بالأصالة الأسلوبية للكلمة الروائية (الكلمة النثرية الفنية).

ظلت الرواية رديحاً طويلاً من الزمن موضع دراسة أيديولوجية مجردة وتقويم اجتماعي دعائي فقط. كانت المسائل المشخصة لأسلوبيتها تهمل إهمالاً تاماً أو تدرس عرضاً وبلا مبدئية؛ كانت الكلمة النثرية الفنية تفهم كما تفهم الكلمة الشعرية بالمعنى الضيق للكلمة، وبالتالي كانت تطبق عليها تطبيقاً غير انتقادي مقولات الأسلوبية التقليدية (وأساسها المجاز)، أو كان يكتفى بتقويمها بأوصاف فارغة من تلك التي تطلق على اللغة كالتعبيرية والتصويرية والجزالة والبيان وما إلى ذلك دون تضمين هذه المفاهيم أى معنى أسلوبى محدد ومدرس.

مقابل هذه النظرة الأيديولوجية المجردة بدأ الاهتمام يتصاعد فى نهاية القرن الماضى بالمسائل المشخصة للمهارة الفنية فى النثر وبالقضايا التقنية للرواية والقصة. إلا أن الوضع فى مسائل الأسلوبية لم يتغير على الإطلاق: فقد انحصر الاهتمام كله أو كاد بقضايا التأليف (Composition) بالمعنى الواسع للكلمة. لكن مقاربة خصوصية الحياة الأسلوبية للكلمة فى الرواية (كما فى القصة) مقاربة مبدئية ومشخصة فى آن (وإحداهما تستحيل دون الأخرى) ظلت غائبة كما فى

السابق. فبقيت السيطرة لتلك الملاحظات التقويمية العابرة حول اللغة بروح الأسلوبية التقليدية، وهي ملاحظات لا تمس الجوهر الحقيقي للنثر الفني إطلاقاً.

هناك مثلاً وجهة نظر واسعة الانتشار وذات دلالة في هذا المجال ترى في الكلمة الروائية وسطاً خارج الفن محروماً من أى قابلية لمعالجته معالجة أسلوبية خاصة وأصيلة. ذلك أن وجهة النظر هذه، إذا لم تجد في الكلمة الروائية الشكل الشعري الخالص المنشود (بالمعنى الضيق للشعري)، أنكرت عليها أى قيمة فنية. فأصبحت هذه بالتالى، كما في الكلام العلمي أو الحياتي العملي، مجرد واسطة تواصل محايدة فنياً^(١).

إن وجهة نظر كهذه تعفينا من ضرورة العمل على تحليل الرواية تحليلاً أسلوبياً، وتلغى قضية أسلوبية الرواية ذاتها، وجل ما تمكنا منه هو بعض التحليلات المتعلقة بالموضوع^(*) (Thème).

(١) كتب ف. م. جيرمونسكى في العشرينات يقول: "في حين أن القصيدة الغنائية عمل فني كلمي خاضع في اختيار كلماته وفي ربطها سواء من حيث معناها أو من حيث أصواتها خضوعاً تاماً لغرض جمالي، نرى رواية ليف تولستوى، الحرة في تأليفها الكلمي، لا تستخدم الكلمة بوصفها عنصر تأثير قيمياً فنياً بل بوصفها وسطاً محايداً أو نظام علامات تخضع كما في الكلام العملي لمهمة توصيلية وتترج بنا في حركة عناصر الموضوع بمعزل عن الكلمة. مثل هذا العمل الأدبي لا يمكن أن يسمى عملاً من أعمال الفن الكلمي، أو أنه، على أى حال، ليس عملاً من أعمال الفن الكلمي بالمعنى المتعارف عليه في القصيدة الغنائية".

(*) راجع مقالته "إسهام في مسألة الطريقة الشكلية"، وذلك في كتاب "مسائل نظرية الأدب" لينينغراد، أكاديميا ٢٢، ١٩٢٨، ص ١٧٣.

وعلى أى حال أخذ الوضع فى العقد الثانى من القرن العشرين فى التبدل: إذ أخذت الكلمة الروائية النقدية تحتل مكانها فى الأسلوبية. فمن جهة ظهرت مجموعة من التحليلات الأسلوبية المشخصة للنثر الروائى. وقامت، من جهة أخرى، محاولات مبدئية لإدراك أصالة النثر الفنى بالنسبة إلى الشعر ورسم ملامح هذه الأصالة.

لكن هذه التحليلات المشخصة ومحاولات المقاربة المبدئية تلك هى بالذات التى بينت بوضوح كامل أن كل مقولات الأسلوبية التقليدية، وأن مفهوم الكلمة الشعرية، الفنية نفسه القائم فى أساسها، يتعذر تطبيقها على الكلمة الروائية. لقد كانت الكلمة الروائية محكاً للتفكير الأسلوبى كله أظهر ضيق أفق هذا التفكير وقصوره عن استيعاب الحياة الفنية للكلمة فى كل دوائر هذه الحياة.

وانتهت محاولات التحليلات الأسلوبية المشخصة للنثر الروائى هذه إما إلى توصيفات أسلوبية للغة الروائى أو إلى الاكتفاء بإبراز عناصر أسلوبية معينة فى الرواية يمكن إدراجها (أو بدا أنه يمكن إدراجها) ضمن المقولات التقليدية للأسلوبية. وفى الحالتين غاب الكل الأسلوبى للرواية والكلمة الروائية عن نظر الباحثين.

الرواية كلاً ظاهرة متعددة فى أساليبها متنوعة فى أنماطها الكلامية، متباينة فى أصواتها، يقع الباحث فيها على عدة وحدات أسلوبية غير متجانسة توجد أحياناً فى مستويات لغوية مختلفة وتخضع لقوانين أسلوبية مختلفة.

وإليك الأنماط التأليفية الأسلوبية الأساسية التى يتفكك إليها العمل الروائى عادة.

١- السرد الأدبى الفنى المباشر للمؤلف (فى أشكاله وصوره المختلفة كلها).

٢- أسلبة (Stylisation) أشكال السرد الحياتى اليومى الشفوى (السكاز^(*)) المختلفة.

٣- أسلبة أشكال السرد نصف الأدبى (المكتوب) الحياتى المختلفة (الرسائل، المذكرات....)

٤- الأشكال المختلفة لكلام المؤلف الأدبى^(**) لكنه الخارج عن نطاق الفن (كالمحاكمات الأخلاقية والفلسفية والعلمية والخطابة والوصف الإثنوغرافى والوثائق الرسمية من ضبوط وتقارير ومحاضر إلخ).

٥- كلام الأبطال المفرد أسلوبيا.

هذه الوحدات الأسلوبية غير المتجانسة تأتلف فيما بينها، حين تدخل الرواية، فى نظام فنى محكم وتخضع لوحدة أسلوبية عليها هى وحدة الكل. وهذه الوحدة العليا لا يمكن مطابقتها مع أى من الوحدات التابعة لها أو معادلتها بها.

(*) لعل السكاز أقرب ما يكون إلى لغة الحكواتى عندنا (المترجم).

(**) ربما قابله فى العربية الكلام الفصيح أو المكتوب بلغة عربية فصيحة.

وتقوم أصالة الجنس الروائي بالضبط على تآلف هذه الوحدات التابعة إنما المستقلة نسبياً، التي قد تكون أحياناً من أنماط لغوية مختلفة في الوحدة العليا للكل: أسلوب الرواية، في امتزاج الأساليب ولغة الرواية، منظومة "لغات". وأى عنصر من عناصر لغة الرواية محكوم بداءةً بالوحدات الأسلوبية التابعة التي يدخلها مباشرة سواء كانت هذه الوحدة كلام البطل المفرد أسلوبياً أو السرد الحياتي الشفوي للرواية (السكاز) أو الرسالة إلخ. وهذه الوحدة الأقرب هي التي تحدّد السيماء اللغوية والأسلوبية (المفرداتية، الدلالية، النحوية) لذلك العنصر. وهذا العنصر يشارك في الوقت نفسه مع الوحدة الأسلوبية القريبة منه في صنع أسلوب الكل، ويتأثر بنبرة الكل، ويسهم في بناء المعنى الواحد للكل وفي بيانه.

الرواية تنوع كلامي (وأحياناً لغوي) اجتماعي منظم فنياً وتباين أصوات فردية. والتفكك الداخلي للغة القومية الواحدة إلى لهجات اجتماعية وطرق تعبير خاصة بمجموعات معينة، ولغات مهنية jargons، ولغات أجناس أدبية، ولغات أجيال وأعمار متفاوتة، ولغات اتجاهات، ولغات أفراد ذوي نفوذ وكلمة مسموعة، ولغات حلقات وتعليقات عابرة، لغات أيام بل ساعات اجتماعية سياسية (فكل يوم شعاره ومفرداته ونبراته) – هذا التفكك الداخلي لكل لغة في كل لحظة من لحظات وجودها الاجتماعي هو المقدمة الضرورية للجنس الروائي: إذ بهذا التنوع الكلامي الاجتماعي وبالتباين الفردي بين الأصوات الذي ينمو على أرضيته توزّع الرواية مواضيعها كلها وعالم

المعاني والأشياء الذي تصوره وتعبّر عنه توزيعاً أوركسترياً. وما كلام المؤلف وكلام الرواة والأجناس الدخيلة وكلام أبطال الرواية إلا وحدات التأليف الأساسية التي يدخل التنوع الكلامي الرواية بواسطتها. فكل وحدة من هذه الوحدات تسمح بوجود تعدّد في الأصوات الاجتماعية وتتوّع في العلاقات والصلات بينها (وهي حوارية دائماً وإن بنسب مختلفة). هذه الصلات والعلاقات الخاصة بين الأقوال واللغات، وحركة الموضوع هذه من خلال أنماط اللغات والكلام، وتفتّته في تيارات التنوع الكلامي الاجتماعي وقطراته، واكتسابه الشحنة الحوارية - هذه هي الخصيصة الأساسية للأسلوبية الروائية.

الأسلوبية التقليدية لا تعرف مثل هذا القرن بين اللغات والأساليب في وحدة عليا، ولا تملك مقاربة لهذا الحوار الاجتماعي الفريد بين اللغات في الرواية. ولهذا السبب لا يتوجه التحليل الأسلوبي إلى كلية الرواية، بل إلى وحدة أسلوبية تابعة من وحداتها أو أخرى. فالباحث يغفل هنا الخصيصة الأساسية للجنس الروائي ويستبدل موضوع البحث، فيدرس بدلاً من الأسلوب الروائي شيئاً آخر تماماً في حقيقة الأمر، مثله في ذلك مثل من يحول موضوعاً سيمفونياً (موزعاً توزيعاً أوركسترياً) إلى قطعة للبيانو وحده.

ويلاحظ نمطان من هذا الاستبدال: الأول يقوم على وصف لغة الروائي (وفي أفضل الحالات على وصف "لغات" الرواية) بدلاً من تحليل الأسلوب الروائي، أما الثاني فيقوم على إبراز أحد الأساليب التابعة وتحليله بوصفه أسلوب الكل الروائي.

فى الحالة الأولى يعزل الأسلوب عن الجنس وعن العمل الأدبى
ويُنظر إليه بوصفه ظاهرة اللغة نفسها، فتتحول وحدة أسلوب هذا
العمل الفنى إما إلى وحدة لغة فردية ما ("لهجة فردية") أو إلى وحدة
كلام فردى. وفردية المتكلم بالذات هى التى تعتبر هنا العامل المنشئ
للأسلوب الذى يحول الظاهرة اللغوية، الألسنية إلى وحدة أسلوبية.

ليس بالأمر الجوهري بالنسبة إلينا هنا تبينُ الاتجاه الذى يسير
فيه مثل هذا التحليل للأسلوب الروائى، أهو باتجاه كشف لهجة الروائى
الفردية (مفرداته ونحوه) أو باتجاه كشف خصائص العمل بوصفه كلاً
كلامياً، بوصفه "قولاً". ذلك أن الأسلوب يفهم فى الحالتين هنا وبقدر
واحد بروح سوسور بوصفه (أى الأسلوب) تفريدا للغة العامة (اللغة
بمعنى نظام معايير لغوية عامة). وفى هذه الحالة تتحول الأسلوبية إما
إلى نوع من ألسنية "لغات فردية" أو إلى ألسنية القول.

وحدة الأسلوب تفترض إذن، من وجهة النظر التى نحلل، وحدة
اللغة بمعنى نظام أشكال معيارية عامة من ناحية، ووحدة الفرد التى
تحقق ذاتها فى هذه اللغة من ناحية أخرى.

إن كلا الشرطين ضرورى فعلاً فى معظم الأجناس الشعرية
العروضية، لكنهما حتى هنا أبعد من أن يستفدا أسلوب العمل الفنى
ويحدّاه. ذلك أن أدق وصف للغة الشاعر الفردية وكلامه وأكمله لا
يعنى، حتى مع التأكيد على القوة التصويرية لعناصر اللغة والكلام، أننا
قمنا بتحليل العمل تحليلاً أسلوبياً، لأن هذه العناصر تتصل بنظام اللغة

أو بنظام الكلام أى ببضعة عناصر ألسنية وليس بنظام العمل الفنى الذى تحكمه قوانين تختلف تماما عن تلك التى تحكم نظامى اللغة والكلام الألسنيين.

لكننا نعود فنكرر أن وحدة نظام اللغة فى معظم الأجناس الشعرية ووحدة (ووحداية) فردية الشاعر اللغوية والكلامية التى تحقق ذاتها تحقيقاً مباشراً فيها هما المقدمتان الضروريتان للأسلوب الشعرى. أما الرواية فليست فى غنى عن هذين الشرطين وحسب، بل إن التفكك الداخلى للغة وتتوَعها الكلامى الاجتماعى والتباين الفردى للأصوات فيها هى شرط النثر الروائى الحقيقى كما قلنا.

وعلى هذا فاستبدال الأسلوب الروائى بلغة الروائى المفردة (بقدر ما يتاح لنا اكتشافها فى نظام "لغات" الرواية " وأنماط الكلام" فيها) أمر غامض وغير محدّد مضاعفاً: فهو يشوه ماهية أسلوب الرواية ذاتها، إذ يؤدى بالضرورة إلى انتزاع عناصر معينة من الرواية وإيرازها، وهذه العناصر تحديداً هى العناصر التى يتسع لها إطار النظام اللغوى الواحد وتعتبر تعبيراً مباشراً وتلقائياً عن فردية المؤلف فى اللغة. أما كلية الرواية والمهام الخاصة ببناء هذه الكلية من عناصر متباينة كلاماً وأصواتاً وأساليب وحتى لغة فى أحيان كثيرة فتظل خارج حدود بحث كهذا.

ذلكم هو النمط الأول للاستبدال موضوع التحليل الأسلوبى للرواية. ونحن لا نريد التعرض هنا للتنوعات المختلفة على هذا النمط من الاستبدال والاسترسال فيها، وهى تنوعات يحكمها الاختلاف فى فهم مقولات "كالكل الروائى" و"نظام اللغة" و"فردية المؤلف اللغوية والكلامية"، كما يحكمها الاختلاف فى فهم العلاقة المتبادلة ذاتها بين الأسلوب واللغة (وكذلك بين الأسلوبية والألسنية)، لكننا نقول إن الماهية الأسلوبية للرواية فى كل التنوعات المحتملة على هذا النمط من التحليل الذى لا يعرف إلا لغة واحدة ووحيدة، وفردية وحيدة هى فردية المؤلف تعبر تعبيراً مباشراً عن ذاتها فى هذه اللغة، تغيب غياباً كاملاً عن عين الباحث.

ويتصف النمط الثانى من الاستبدال بالتركيز على أسلوب الرواية وليس على لغة المؤلف كما فى النمط الأول. إلا أن هذا الأسلوب يقصر حتى لا يمس إلا أسلوب وحدة من الوحدات التابعة (المستقلة نسبياً) فى الرواية.

فى معظم الحالات يُدرج الأسلوب الروائى تحت مفهوم "الأسلوب الملحمى"، وتطبق عليه بالتالى مقولات الأسلوبية التقليدية، فلا تُبرز هنا إلا عناصر التصوير الملحمى فى الرواية (وعلى الأغلب التصوير الملحمى من خلال كلام المؤلف المباشر). أما الاختلاف العميق بين التصويرية الروائية والتصويرية الملحمية الخالصة فيتم تجاهله وتغييبه، ذلك أن أوجه الاختلاف بين الرواية والملحمة لا تدرك هنا إلا على مستوى التأليف والموضوع (Thème).

ويتم في حالات غيرها إبراز عناصر أخرى من عناصر الأسلوب الروائي بوصفها عناصر تميز أكثر من غيرها نوعًا من العمل الروائي أو آخر. وهكذا على سبيل المثال يمكن النظر إلى عنصر السرد ليس من وجهة نظر تصويريته الموضوعية بل من وجهة نظر تعبيريته الذاتية. كما يمكن إبراز عناصر السرد الحياتي الشفوي الواقع خارج الأدب (السكاز)^(١) أو لحظات ذات طابع إخباري تتصل بالموضوع حدثًا وحبكةً (Sujet) كما في تحليل رواية المغامرات مثلاً. ويمكن أخيرًا إبراز العناصر الدرامية الخالصة في الرواية بالخط من مستوى اللحظة السردية إلى مجرد ملاحظة على حوارات شخوص الرواية. إلا أن نظام اللغات في الدراما قائم على أسس مختلفة تمامًا عما لها في الرواية، إذ ليس فيها من وجود للغة شاملة تتوجه حواريا إلى لغات أخرى، ولا لحوار ثانٍ شامل غير متصل بالموضوع حدثًا وحبكةً (أي حوار غير درامي).

إن أنماط التحليل هذه كلها لا تناسب أسلوب الكل الروائي، بل إنها لا تناسب حتى ذلك العنصر الذي تبرزه على أنه العنصر الأساسي بالنسبة إلى الرواية. ذلك أن هذا العنصر منفصلاً عن تفاعله مع العناصر الأخرى يغير معناه الأسلوبى ويكف عن كون ما كانه في الرواية فعلاً.

(١) درس الشكليون عندنا أسلوب النثر الفني في هذين المستويين الأخيرين بالدرجة الأولى، أي كانت تدرس إما عناصر "السكاز" بوصفها أكثر العناصر تمييزاً للنثر الفني (كما عند إيخنبروم) أو العناصر الإخبارية المتصلة بموضوع السرد (كما عند شكوفسكى).

إن الوضع الحالى لمسائل أسلوبية الرواية يبين بجلاء كامل أن كل مقولات الأسلوبية التقليدية وطرائقها عاجزة عن اكتتاه الأصالة الفنية للكلمة فى الرواية ولحياتها الخاصة فيها. "قاللغة الشعرية" و"الفردية اللغوية" و"الصورة" و"الرمز" و"الأسلوب الملحمى" وغيرها من المقولات العامة التى أنشأتها الأسلوبية واستخدمتها، وكذلك مجموعة الوسائل الأسلوبية المشخصة التى أدرجتها تحت عناوين هذه المقولات، موجهة كلها وبالتساوى، على ما بين الباحثين من اختلاف فى فهمها، إلى الأجناس الشعرية بالمعنى الضيق للكلمة. وترتبط بهذا التوجه الوحيد جملة خصائص وأوجه قصور جوهرية فى المقولات الأسلوبية التقليدية. فكل هذه المقولات، والمفهوم الفلسفى للكلمة الشعرية القائم فى أساسها، ضيقة لا تستوعب الكلمة النثرية الفنية الروائية.

وهكذا تجد الأسلوبية وفلسفة الكلمة نفسيهما أمام أحد أمرين فى حقيقة الأمر: فإما اعتبار الرواية (وبالتالى كل النثر الفنى المتصل بها) جنسا غير فنى أو شبه فنى، أو إعادة النظر جذريا فى مفهوم الكلمة الشعرية القائم فى أساس الأسلوبية التقليدية والحاكم مقولاتها كلها.

لكن هذا المأزق أبعد من أن يدركه كل الباحثين. فمعظمهم لا يميل إلى إعادة النظر جذريا فى المفهوم الفلسفى الأساسى للكلمة الشعرية. وكثيرون منهم لا يرون عامة الجذور الفلسفية لتلك الأسلوبية (ولتلك الألسنية) التى يعملون فيها، ولا يعترفون بها ويعرضون عن أى مبدئية فلسفية. إنهم لا يرون عموما الإشكالية المبدئية للكلمة الروائية وراء الملاحظات الأسلوبية والتوصيفات الألسنية المتفرقة والمتناثرة.

وآخرون منهم أكثر مبدئية يأخذون بالفردية المتماسكة في فهم اللغة والأسلوب. فتراهم يبحثون في الظاهرة الأسلوبية عن التعبير المباشر والعفوى لفردية المؤلف قبل أى شئ آخر. وإن منهما كهذا لأبعد من أن يساعد على إعادة النظر في المقولات الأسلوبية الأساسية في الاتجاه اللازم.

إلا أنه بإمكاننا العثور مع هذا على حلّ مبدئى لمعضلتنا هذه: بإمكاننا أن نذكر علم البلاغة المنسى الذى ظلّ النثر الفنى كله فى إيساره طوال قرون. ذلك أنه بإمكاننا، فيما لو أعدنا إلى البلاغة حقوقها القديمة، الوقوف عند حدود المفهوم القديم للكلمة الشعرية فننسب إلى "الأشكال البلاغية" كل ما لا يتسع له سرير بروكست من المقولات الأسلوبية التقليدية فى النثر الروائى^(١).

مثل هذا الحل تقدم به عندنا غ. غ شبيت فى حينه بكل مبدئية وتماسك. فقد أخرج النثر الروائى وتحققه الأقصى ألا وهو الرواية إخراجاً تاماً من نطاق الشعر ونسبه إلى الأشكال البلاغية الخالصة^(٢).

(١) مثل هذا الحل كان ينطوى على إغراء خاص بالنسبة إلى الطريقة الشكلية فى الشعرية. ذلك أن استعادة البلاغة حقوقها يعزز على نحو بالغ مواقع الشكليين. إن البلاغة الشكلية متم ضرورى للشعرية الشكلية. وكان شكلينا متماسكين تماماً حين تحدثوا عن ضرورة إحياء البلاغة إلى جانب الشعرية (راجع ب. م إيخنبوم، الأدب، دار نشر بريوى، ١٩٢٧، ص ١٣٧ - ١٨٤).

(٢) وذلك فى "مقتطفات جمالية" على نحو أولى، ثم كتابة "الشكل الداخلى الكلمة" على نحو أكثر تكاملاً.

إليكم ما يقوله غ.غ شبيت في الرواية: "يبدو أنه ما أن ينشأ وعى الأشكال المعاصرة للدعاية الأخلاقية - أى الرواية - وفهمها على أنها ليست أشكال إبداع شعري بل تأليفات بلاغية خالصة حتى يصطدما (أى هذا الوعي وهذا الفهم) بعائق يصعب تجاوزه يتمثل فى شكل اعتراف عام ببعض القيمة الجمالية للرواية^(١)".

إن شبيت ينكر إنكارا تاما القيمة الجمالية للرواية. فالرواية جنس بلاغى خارج الفن، إنها "الشكل المعاصر للدعاية الأخلاقية"، والكلمة الفنية هى الكلمة الشعرية (بالمعنى المشار إليه) وحسب.

وتبنى ف.ف. فينو غرادوف أيضا فى كتابه "فى النثر الفنى" وجهة نظر مماثلة مرجعا قضية النثر الفنى إلى البلاغة. إلا أن فينو غرادوف الذى يلتقى فى تعاريفه الفلسفية الأساسية للشعرى وللبلاغى بشبيت لم يكن مع هذا متماسكا كشبيت فى مفارقتة، إذ كان يعدّ الرواية شكلا يسلم بوجود عناصر شعرية خالصة فيها إلى جانب العناصر البلاغية^(٢).

ومع هذا فلو جهة النظر هذه التى تُخرج النثر الفنى بوصفه شكلا بلاغيا خالصا إخراجا كاملا من نطاق الشعر، وهى وجهة نظر خاطئة أساسا، بعض القيمة التى لا شك فيها، إذ إنها تتضمن اعترافا مبدئيا بعدم صلاحية الأسلوبية المعاصرة كلها بأساسها الفلسفى الألسنى

(١) "الشكل الداخلى للكلمة"، ص ٢١٥.

(٢) ف.ف. فينو غرادوف، "فى النثر الفنى"، موسكو - لينينغراد ١٩٣٦، ص ٧٥ - ١٠٦.

للتطبيق على الخصائص المميزة للنثر الروائي. ثم إن التوجه إلى الأشكال البلاغية ذو معنى كشفى (Euristique) كبير. فالكلمة البلاغية المدعوة لأن تدرس في كل التنوع الحى لأشكالها لا يمكن إلا أن تمارس تأثيراً تثويرياً عميقاً في الألسنية وفلسفة اللغة، إذ تتكشف في الأشكال البلاغية، لدى مقاربتها المقاربة الصحيحة والبعيدة عن الأفكار المسبقة، بوضوح خارجى كبير جوانب فى الكلمة، أى كلمة، لما تؤخذ كفاية بعين الاعتبار حتى الآن، ولما تفهم فى كل خطورتها فى حياة الكلمة (كالحوارية الداخلية للكلمة والظواهر الملازمة لها). وهنا بالضبط القيمة المنهجية والكشفية للأشكال البلاغية بالنسبة إلى الألسنية وفلسفة اللغة.

وعظيم أيضاً ما للأشكال البلاغية من قيمة متميزة فى فهم الرواية. ذلك أن النثر الفنى كله والرواية يتصلان اتصالاً منشئياً وثيقاً بالأشكال البلاغية. وعلى امتداد التطور اللاحق للرواية لم ينقطع تفاعلها الوثيق (سلماً أو صراعاً) مع الأجناس البلاغية الحية (الاجتماعية والأخلاقية والفلسفية وغيرها)، ولعل هذا التفاعل لم يكن أقلّ شأنًا من تفاعلها مع الأجناس الفنية (الملحمية والدرامية والغنائية). لكن الكلمة الروائية ظلت محتفظة فى هذا التفاعل بفرادتها النوعية، عصية على تحجيمها وردّها إلى مجرد كلمة بلاغية.

الرواية جنس فنى. الكلمة الروائية كلمة شعرية، إلا أن أطر المفهوم الراهن للكلمة الشعرية المؤسس على بعض المقدمات القاصرة تضيق عنها. ذلك أن هذا المفهوم نفسه كان يسترشد خلال تشكيله

التاريخى كله - من أرسطو حتى أيامنا - بأجناس "رسمية" ، بينة، ويرتبط باتجاهات تاريخية معينة فى حياة الكلمة الأيديولوجية، ولهذا بقيت مجموعة من الظواهر خارج أفقه.

أن فلسفة الكلمة والألسنية والأسلوبية تصادر على علاقة المتكلم البسيطة والمباشرة بلغة واحدة ووحيدة هى لغته، وعلى التحقق البسيط لهذه اللغة فى القول المونولوجى للفرد. إنها لا تعرف فى الواقع سوى قطبين فى حياة اللغة تتوضع بينهما الظواهر اللغوية والأسلوبية التى بوسعها التقاطها هما نظام اللغة الواحدة والفرد المتكلم بهذه اللغة.

لقد أضفت الاتجاهات المختلفة فى فلسفة اللغة والألسنية والأسلوبية فى الحقب المختلفة (وباتصال وثيق مع الأساليب الشعرية والأيديولوجية المختلفة المشخصة لهذه الحقب) ظلالاً وفروقاً مختلفة على مفاهيم "نظام اللغة" و"القول المونولوجى" و"الفرد المتكلم"، إلا أن مضمونها الأساسى ظل ثابتاً. وقد تحدّد هذا المضمون الأساسى بالمصائر الاجتماعية التاريخية المحددة للغات الأوروبية وبمصائر الكلمة الأيديولوجية وبالمهام التاريخية الخاصة التى تعين على الكلمة الأيديولوجية أن تحلها فى دوائر اجتماعية معينة وفى مراحل معينة من تطورها التاريخى.

هذه المصائر والمهام هى التى استدعت نشوء تنويعات معينة على جنس الكلمة الأيديولوجية، كما استدعت نشوء اتجاهات معينة خلال تطور الكلمة الأيديولوجية، وهى التى استدعت أخيراً فهماً فلسفياً معيناً للكلمة ولا سيما الكلمة الشعرية، هو الفهم القائم فى كل الاتجاهات الأسلوبية.

وفى ارتباط المقولات الأسلوبية بهذه المصائر والمهمات التاريخية للكلمة الأيديولوجية سر قوة هذه المقولات وسر ضعفها وقصورها فى آن. لقد ولدت هذه المقولات واكتملت بفعل القوى التاريخية الفاعلة فى صيرورة الكلمة الأيديولوجية التى لفئات اجتماعية معينة، وكانت التعبير النظرى عن هذه القوى الفاعلة المبدعة لحياة اللغة.

هذه القوى هى قوى توحيد عالم الكلمة الأيديولوجية ومركزتها.

إن مقولة اللغة الواحدة هى التعبير النظرى عن العمليات التاريخية لتوحيد اللغة ومركزتها، هى التعبير عن القوى الجابذة فى اللغة، للغة الواحدة ليست شيئاً معطى مرة ولكل مرة، بل إنها، فى حقيقة الأمر، شىء يعطى دائماً، فهى تجابه فى كل لحظة من لحظات حياتها التنوع الكلامى القائم فعلاً، لكنها فى الوقت نفسه واقع فعلى بوصفها قوة تتجاوز هذا التنوع الكلامى وتضع له حدوداً معينة وتضمن بعض الحد الأقصى من التفاهم وتتبلور فى وحدة فعلية وإن تكن نسبية هى وحدة اللغة المحكية (الحياتية اليومية) والأدبية (الفصحى، السليمة) السائدة.

اللغة الواحدة العامة هى منظومة معايير لغوية. لكن هذه المعايير ليست وجوباً مجرداً، بل إنها القوى التى تبدع حياة اللغة وتتجاوز التنوع الكلامى فى اللغة، وتوحد وتمركز التفكير الكلامى الأيديولوجى، وتخلق داخل اللغة القومية المتنوعة فى أنماط كلامها النواة اللغوية الصلبة والثابتة للغة الأدبية المعترف بها رسمياً، وتصد عن هذه اللغة المكتملة ضغط التنوع الكلامى المتنامى.

ما نعينه هنا ليس حدًا ألسنيا مجردًا أدنى للغة العامة بمعنى منظومة أشكال أولية (رموز لغوية) يوفر ويضمن حدًا أدنى من التفاهم فى التواصل العملى، فنحن لا نأخذ اللغة هنا بوصفها نظام مقولات صرفية نحوية مجردة، بل اللغة الممتلئة أيديولوجيا، اللغة بوصفها نظرة إلى العالم، بل حتى بوصفها رأيا مشخصًا، اللغة التى تضمن أقصى حد من التفاهم فى كل دوائر الحياة الأيديولوجية. ولهذا السبب تعبر اللغة الواحدة عن قوى التوحيد والمركزة الكليين والأيديولوجيين اللذين يجريان فى اتصال وثيق مع عمليات المركزة الاجتماعية السياسية والثقافية.

إن مذهب أرسطو الشعري ومذهب أوغسطين الشعري ومذهب كنيسة القرون الوسطى الشعري - مذهب اللغة الواحدة للحقيقة، ومذهب ديكارت الشعري - مذهب الكلاسيكية الجديدة، ومذهب لبنيس فى النحو الصرف - فكرة الصرف والنحو الكليين، ومذهب هومبولدت الأيديولوجى الشخص تعبر كلها، على ما بينها من اختلافات وفروق، عن نفس القوى الجابذة فى الحياة الأيديولوجية واللغوية الاجتماعية، وتخدم نفس الغرض وهو مركزة اللغات الأوروبية وتوحيدها. إن انتصار لغة (لهجة) سائدة واحدة على لغات أخرى، وإزاحة اللغات الأخرى واستبعادها والتتوير من خلال كلمة الحق، وتعليم البرابرة والفئات الدنيا لغة الثقافة والحقيقة الواحدة، والفيلولوجيا بطرائق دراستها وتدريسها اللغات الميتة التى هى بالتالى، وكأى شىء ميت، لغاتٌ واحدة فى حقيقة الأمر، وعلم اللغة الهندوأوروبى فى سعيه إلى

إرجاع اللغات المختلفة إلى أرومة واحدة - لغة أم واحدة -، هذا كله استتبع مضمون مقولة اللغة الواحدة في الفكر الألسنى والأسلوبى وقوتها ودورها الخلاق، المؤسلب في معظم الأجناس الشعرية التى نشأت في أحضان تلك القوى الجابذة في الحياة الـكلمية الأيدولوجية.

لكن القوى الجابذة في حياة اللغة المتجسدة في "اللغة الواحدة" تعمل في وسط التنوع الكلامى الفعلى. فاللغة في كل لحظة من لحظات صيرورتها عرضة للتفكك ليس فقط إلى لهجات ألسنية بالمعنى الدقيق للكلمة (من حيث السمات الألسنية الشكلية والصوتية منها في المقام الأول) بل، وهذا هو الشئ الجوهرى بالنسبة إلينا هنا، إلى لغات اجتماعية أيدولوجية: لغات فئات اجتماعية ومهن وأجناس أدبية وأجيال إلخ. فاللغة الأدبية، من وجهة النظر هذه، ليست إلا إحدى لغات التنوع الكلامى. زد على ذلك أن هذه اللغة تتفكك بدورها إلى لغات (من حيث الجنس الأدبى أو الاتجاه الأدبى إلخ). وهذان التفكك والتنوع الفعليان ليسا تعبيراً عن سكونية الحياة اللغوية فقط وإنما عن ديناميكيتهما أيضاً: فالتفكك أو التنوع الكلامى يتسعان ويتعمقان ما دامت اللغة تحيا وتنمو؛ فالقوى الجابذة في اللغة تعمل باستمرار إلى جانب القوى الجابذة فيها، وإلى جانب المركزة والتوحيد فى الكلمة الأيدولوجية تجرى باستمرار عمليات اللامركزة والتقسيم.

إن أى قول مشخص تقوله الذات هو نقطة ارتكاز لقوى الجبذ كما لقوى النبذ، ففيه تتقاطع عمليات المركزة واللامركزة، عمليات التوحيد والتقسيم. إنه لا يكتفى إلا باثنين: لغته بوصفها تجسيده الكلامى

المفرد والتنوع الكلامي بوصفه شريكاً فعالاً فيه. هذه المشاركة الفعالة لكل قول في التنوع الكلامي الحي تحدّد القوام اللغوي وأسلوبه لا أقلّ مما يحدّدهما انتماؤه إلى النظام المعياري الممرّكز للغة الواحدة.

إن أي قول يتصل في آن "بالغة الواحدة" (بالاتجاهات والقوى الجابذة) وبالتنوع الكلامي الاجتماعي والتاريخي (بالقوى النابذة، والمفككة).

إنه لغة اليوم، العصر، الفئة الاجتماعية، الجنس الأدبي، الاتجاه إلخ. ولا يمكن تحليل أي قول تحليلًا مشخصًا وموسعًا إلا بعد الكشف عنه بوصفه وحدة متناقضة متوترة للاتجاهين المتصارعين في حياة اللغة.

إن الوسط الحقيقي الذي يعيش فيه القول ويتشكل هو التنوع الكلامي المكتسبُ صفة الحوارية، الغفل والاجتماعي بوصفه لغة، لكنه الممتلئ مضمونًا والمنبّر بوصفه قولاً فردياً.

ففي الوقت الذي كانت فيه الأجناس الشعرية بأنواعها الرئيسية تتطور في مجرى القوى الموحدة والمركزة، القوى الجابذة في حياة الكلمة الأيديولوجية، كانت الرواية والأجناس النثرية الفنية الأخرى المتصلة بها تتشكل، تاريخياً، في مجرى قوى اللامركزة، قوى النبذ. وفيما كان الشعر في الأوساط الاجتماعية الأيديولوجية الرسمية العليا يتصدى لحلّ مهمة مركزة عالم الكلمة الأيديولوجية ثقافياً وقومياً وسياسياً، كانت تتردّد في الأوساط الدنيا، على خشبات المسارح في

مواسم المعارض والاحتفالات الشعبية، أصوات المهرجين فى تنوع كلامهم وفى محاكاتهم الساخرة لكل اللغات واللهجات، وكان ينمو أدب الفابليو والشفانك(*)، أدب أغانى الشارع والأمثال والنكات حيث لم يكن هناك وجود لأى مركز لغوى، وحيث كان يجرى اللعب الحى "بلغات" الشعراء والعلماء والرهبان والفرسان، هناك حيث كانت "اللغات" كلها أقنعة، ولم يكن وجود لأى وجه لغوى حقيقى وأكد.

هذا التنوع الكلامى المنظم فى هذه الأجناس الدنيا لم يكن مجرد تنوع كلامى بالنسبة إلى اللغة الأدبية المعترف بها (فى كل أجناسها)، أى بالنسبة إلى المركز اللغوى للحياة الكلمية الأيديولوجية للأمة وللعصر، بل كان مجابهة واعية لها. كان مشحونا بالمحاكاة الساخرة (Parodie) وموجها بشكل محاجى ضد لغات العصر الرسمية. كان تنوعا كلاميا أشيعت فيه الحوارية.

إن فلسفة اللغة والألسنية والأسلوبية التى ولدت فى مجرى اتجاهات المركزة فى حياة اللغة ونشأت فيه تجاهلت هذا التنوع الكلامى الحوارى المجسّد للقوى النابذة فى حياة اللغة، فكانت أعجز من أن تدرك الحوارية اللغوية التى أشاعها وحكمها صراع وجهات النظر الاجتماعية اللغوية وليس الصراع داخل اللغة ذاتها بين إرادات الأفراد أو التناقضات المنطقية. وعلى أى حال فحتى الحوار القائم داخل اللغة

(*) الفابليو قصة شعرية تحمل فى أكثر الأحيان طابعا معاديا للإقطاع ورجال الدين وتمتاز بفجاجة فكاهيتها، ازدهرت فى فرنسا بين القرنين ١٢ - ١٤. والشفانك هو المقابل الألمانى للفابليو الفرنسى.

(الحوار الدرامي، البلاغي، المعرفي، الحياتي اليومي) ظل حتى عهد
جد قريب دون دراسة تقريبا سواء من الناحية الألسنية أو الأسلوبية.
ويمكن القول صراحة إن اللحظة الحوارية في الكلمة وكل الظواهر
المرتبطة بها ظلت حتى الفترة الأخيرة خارج منظور الألسنية.

أما الأسلوبية فقد أصمت أذنيها عن هذا الحوار تماما، فتمثلت
العمل الأدبي على أنه كل مغلق مكتف بذاته تشكل عناصره نظاما
معلقا لا يفترض شيئا خارج ذاته، لا يفترض أى أقوال أخرى،
و درست نظام العمل الأدبي قياسا على نظام اللغة الذى لا يمكن أن
يتفاعل حواريا مع اللغات الأخرى. فالعمل الأدبي كلاً، وأيا كان هذا
العمل، هو من وجهة نظر الأسلوبية مونولوج مغلق ومكتف بذاته
ينشئه المؤلف ويعود إليه، لا يفترض خارج نطاقه هو إلا سامعا سلبيا.
فلو تصورنا العمل الأدبي ردًا^(*) في حوار ما يتحدد أسلوبه (أسلوب
هذا الرد) بعلاقته المتبادلة مع الردود الأخرى فى هذا الحوار
(المحادثة)، لما وُجدت، من وجهة نظر الأسلوبية التقليدية، مقاربة
تتناسب وهذا الأسلوب المكتسب الطبيعة الحوارية. فأكثر مظاهر هذا
النوع حدة وبروزا، وهى أسلوب المحاجة والمحاكاة الساخرة
والسخرية، توصف عادة بأنها ظواهر بلاغية وليست شعرية. إن
الأسلوبية تقفل على أى ظاهرة أسلوبية داخل السياق المونولوجي للقول
المكتفى بذاته والمغلق كأنما تحبسها فى زنزانة السياق الواحد، فلا هى

(*) قد يكون الرد جوابا أو اعتراضا أو ملاحظة على قول ما.

بقادرة على التجاوب مع أقوال الآخرين ولا هي بقادرة على تحقيق معناها الأسلوبى بالتفاعل معها، بل عليها أن تستغرق ذاتها فى سياقها المغلق وحده.

وبما أن فلسفة اللغة والألسنية والأسلوبية كانت تخدم الاتجاهات الممركزة العظمى فى حياة الكلمة الأيديولوجية فى أوروبا، كانت تبحث أول ما تبحث عن الوحدة فى التنوع. وهذا التركيز الفريد على الوحدة فى حاضر اللغات وماضيها لفت اهتمام الفكر الفلسفى الألسنى وصبه على أكثر لحظات الكلمة ثباتا وصلابة وأقلها قابلية للتغير أو لتعدد التفسير (على اللحظات الصوتية فى الكلمة فى الدرجة الأولى) وعلى أبعداها عن الدوائر الاجتماعية المعنوية المتغيرة فى الكلمة، فظل "الوعى اللغوى" الفعلى، الممتلئ أيدىولوجيا، المشارك فى التنوع الكلامى واللغوى والقائم واقعيا، خارج منظورها. هذا التركيز على الوحدة دون سواها جعلها تتجاهل كل الأجناس الكلمية (الحياتية، البلاغية، النثرية الفنية) التى كانت الحاملة لاتجاهات اللامركزة فى اللغة أو التى كانت، على أى حال، تشارك مشاركة جوهرية زائدة فى التنوع الكلامى. وظل التعبير عن وعى التنوع الكلامى واللغوى هذا فى أشكال وظواهر خاصة من أشكال حياة الكلمة وظواهرها دون أى تأثير محدّد فى الفكر الألسنى والأسلوبى.

ولهذا فالإحساس الخاص المتميز باللغة وبالكلمة الذى عبّر عن نفسه فى الأساليب والسكاز وفى أشكال التمويه الكلامى المتعدّدة "فى الكلام غير المباشر" وفى أشكال فنية أخرى أعقد من أشكال تنظيم التنوع الكلامى وتوزيع موضوعاته توزيعا أوركسترياليا باللغات، وفى

كل نماذج النثر الروائي المتميزة والعميقة، عند غريميلسهاوزن وسرفانتس وفيلدينغ وستيرن وغيرهم، هذا الإحساس لم يتمكن من إيجاد الوعي والتفسير النظريين المناسبين.

إن قضايا أسلوبية الرواية تؤدي حتما إلى ضرورة التطرق إلى جملة مسائل مبدئية تتصل بفلسفة الكلمة وبجوانب من حياتها يكاد الفكر الألسني والأسلوبي لم يلق عليها ضوءاً، ألا وهي حياة الكلمة وسلوكها في عالمي التنوع الكلامي والتنوع اللغوي.

الدراسة الثانية
الكلمة في الشعر
والكلمة في الرواية

ظَلَّت الكلمة في ظواهرها الخاصة المحكومة بالتوجه الحوارى للكلمة وسط الأقوال الأخرى في نطاق اللغة الواحدة (الحوارية الأصلية للكلمة)، ووسط "اللغات الاجتماعية" الأخرى في نطاق اللغة القومية الواحدة، وأخيرا وسط اللغات القومية الأخرى في نطاق الثقافة الواحدة والمنظور الاجتماعى الأيديولوجى الواحد، ظَلَّت على نحو يكاد يكون كاملاً خارج مجال رؤية مجال رؤية فلسفة اللغة والألسنية والأسلوبية التى نهضت على قاعدتهما^(١).

صحيح أن هذه الظواهر أخذت تثير اهتمام علمى اللغة والأسلوب فى العقود الأخيرة، لكن معناها المبدئى والواسع فى كل دوائر حياة الكلمة لم يدرك بعد الإدراك الواجب.

إن التوجه الحوارى للكلمة وسط كلمات الغير (فى كل درجات هذا الغير" وصفاته) يخلق فى الكلمة إمكانات فنية جديدة وجوهرية، يخلق فنياتها النثرية الخاصة التى تجد تعبيرها الأكمل والأعمق فى الرواية.

(١) لا تعرف الألسنية إلا التأثيرات والاختلاطات الآلية (الاجتماعية اللاواعية) المتبادلة بين اللغات تلك التى تتعكس فى عناصر لغوية مجردة (صوتية وصرقية).

وسنركز اهتمامنا على مختلف أشكال التوجه الحوارى للكلمة ودرجاته، والإمكانات النثرية الفنية الخاصة المتصلة بهذه الأشكال والدرجات.

الكلمة فى الفكر الأسلوبى التقليدى لا تعرف إلا ذاتها (أى سياقها هى) وموضوعها وتعبيريتها المباشرة ولغتها الواحدة والوحيدة. أما الكلمة الأخرى، الموجودة خارج سياقها، فلا تعرفها إلا بوصفها كلمة محايدة من كلمات اللغة، إلا كلمة لا تخص أحداً، إلا مجرد إمكانية كلامية. الكلمة المباشرة، كما تفهمها الأسلوبية التقليدية، لا تلقى فى توجهها إلى الموضوع إلا مقاومة الموضوع نفسه (عجز الكلمة عن استنفاده، عجزها عن قوله كاملاً)، لكنها لا تلقى فى توجهها إلى موضوعها مقاومة جوهرية ومتعددة الأشكال من كلمة الغير. فلا أحد يعيق الكلمة ولا أحد ينازعها فيها.

لكن الكلمة الحية، أى كلمة حية، لا تواجه موضوعها بشكل واحد: فبين الكلمة والموضوع، وبين الكلمة والمتكلم، وسطٌ لدن يصعب النفاذ منه فى الكثير من الأحيان، وسط من الكلمات الأخرى، كلمات الغير فى هذا الشئ نفسه وفى الموضوع نفسه. ولا تستطيع الكلمة التفرد والتشكل أسلوبياً إلا فى عملية التفاعل الحى مع هذا الوسط الخاص، المتميز.

ذلك أن كل كلمة مشخصة (كل قول) تجد دائماً الشيء، الموضوع المتوجهة إليه مفترى عليه إن صح التعبير، مُختلفاً فيه، مقوِّماً، ملفوفاً بسديم كلمات الآخرين التي قيلت فيه أو على العكس، مُضاءً بنورها، إنه مكبل ومُخرقٌ بالأفكار العامة ووجهات النظر المختلفة وبتقويمات الآخرين ونبراتهم. والكلمة الموجهة إلى موضوعها تدخل في هذا الوسط المتوتر والمضطرب حوارياً من كلمات الآخرين وتقويماتهم ونبراتهم وفي شبكة علاقاتهم المتبادلة المعقدة فتندمج في بعضها وتنفر من بعضها الآخر وتتقاطع مع بعضها الثالث. وهذا كله يمكن أن يسهم جوهرياً في تشكل الكلمة ويترسب في كل طبقات معانيها، ويعقد تعبيريتها ويؤثر في قوامها الأسلوبى كله.

إن القول الحى، الناشئ عن وعى فى لحظة تاريخية ما، وفى وسط اجتماعى ما، لا يمكن إلا أن يلامس آلاف الخيوط الحوارية الحية التى نسجها الوعى الاجتماعى الأيديولوجى حول موضوع هذا القول، لا يمكن إلا أن يصبح شريكاً نشطاً فى الحوار الاجتماعى. إنه ينشأ منه، من هذا الحوار، تنمة له ورداً عليه، ولا يأتى موضوعه من مكان ما جانبى.

إن احتواء الكلمة موضوعها فعلٌ معقد: ذلك أن أى موضوع "مفترى عليه" ومختلفٌ فيه" مضاءً من جهة ومعتمٌ عليه من جهة أخرى بالآراء الاجتماعية المختلفة وبكلمات الآخرين فيه^(١)، وفي لعبة النور والظل المعقدة هذه تدخل الكلمة وتتشبع بها راسمة فيها ملامحها الخاصة أسلوباً ومعنى. إن احتواء الكلمة موضوعها يتعقد بالتفاعل الحوارى الجارى داخل الموضوع بين مختلف لحظات إدراكه والطعن فيه من خلال الكلمة الاجتماعية. والتصوير الفنى للموضوع أى "صورته" يمكن أن يخترق بهذه اللعبة الحوارية بين مقاصد الكلمات التى تلتقى فيه وتتشابك، ويمكن لهذا التصوير ألا يطمس هذه المقاصد، بل على العكس أن ينشطها وينظمها. فإذا ماتصورنا قصد مثل هذه الكلمة، أى توجهها إلى الموضوع، على شكل شعاع، فإن لعبة اللون والضوء الحية الفريدة فى سطوح الصورة التى يبنيتها هذا الشعاع يمكن تفسيرها بانكسار الكلمة - الشعاع ليس فى الموضوع ذاته (كما هو الحال فى لعبة الصورة - المجاز فى الكلام الشعرى بالمعنى الضيق، أى فى "الكلمة المنعزلة")، بل بانكساره فى وسط كلمات الآخرين وتقويماتهم ونبراتهم الذى يعبره الشعاع متوجّهاً إلى الموضوع: فجوّ الكلمة الاجتماعى المحيط بالموضوع يجعل سطوح صورته (صورة هذا الموضوع) تشرق وتتلألأ.

(١) مما له دلالة فى هذا الشأن الصراع ضد الاقتراء على الموضوع (فكرة العودة إلى الوعى الأولى، الوعى البدائى، إلى الشيء فى ذاته، إلى الإحساس الخالص إلخ) فى (الروسوية والطبيعية والانطباعية، والأكماتية، والدائنية، والسريالية وغيرها من الاتجاهات المماثلة).

إن الكلمة تستطيع، وهى تشق طريقها إلى معناها وإلى تعبيريتها عبر كلمات الآخرين ونبراتهم المتباينة، أن تشكل فى تناغمها مع هذه اللحظات المختلفة أو فى تناقرها معها نغمتها وقوامها الأسلوبيين فى هذه العملية الحوارية.

تكمل هى صفة الصورة النثرية الفنية، ولاسيما صورة النثر الروائى. إن القصد المباشر والتلقائى للكلمة فى جو الرواية يبدو أمراً على قدر لا يغتفر من السذاجة، وهو فى الواقع أمر مستحيل. ذلك أن السذاجة فى ظروف الرواية الحقيقية تكتسب هى نفسها طابعاً محاجياً داخلياً، فتصبح هى أيضاً حوارية (مثال ذلك ما نجده عند أصحاب الاتجاه العاطفى وشاتوبريان وتولستوى). مثل هذه الصورة الحوارية يمكن أن توجد فى كل الأجناس الشعرية أيضاً (دون أن تشكل العنصر الحاسم فى حقيقة الأمر) وحتى فى الشعر الغنائى^(١). لكن مثل هذه الصورة لا يمكن أن تتفتح وتتعدّ وبالتالي تبلغ الاكتمال الفنى إلا فى ظروف الجنس الروائى.

ففى الصورة الشعرية بالمعنى الضيق (فى الصورة - المجاز) الفعل كل الفعل - أى ديناميكية الصورة - الكلمة - يجرى بين الكلمة (بكل لحظاتها) والموضوع (بكل لحظاته). الكلمة هنا تغوص فى الثراء الذى لا ينفد للموضوع وفى تنوع صورته المتناقضة، فى طبيعته

(١) غنائيات هوراسيوس وفيون وهابنى ولا فورج وأينسكى وغيرهم على ما فى هذه الظواهر من تباين.

"البكر"، التى لما تُقَل؛ ولهذا فهى لا تفترض شيئاً خارج حدود سياقها (اللهم إلا كنوز اللغة ذاتها بطبيعة الحال). الكلمة تتسى تاريخ إداراكها المتناقض لموضوعها، وحاضرَ هذا الإدراك الذى لا يقل تناقضا عن ماضيه.

أما بالنسبة للناثر الفنان فالموضوع، على العكس، يكشف له على وجه الدقة أول ما يكشف هذا التنوع الاجتماعى المتباين لأسمائه وتعريفاته وتقويماته. وبدلاً من الامتلاء البكر للموضوع ولانفاده يتكشف للناثر تنوع الطرق والدروب والمسالك التى شقها الوعى الاجتماعى فيه. كما يتكشف للناثر، بالإضافة إلى التناقضات الداخلية فى الموضوع نفسه، التنوع الكلامى الاجتماعى حول هذا الموضوع، تتكشف له بليلة الألسن البابلية التى تثور حول أى موضوع. الموضوع للناثر نقطة التقاء أصوات متباينة، وعلى صوته أن يُسمع بين هذه الأصوات؛ وهذه الأصوات تشكل الخلفية الضرورية لصوته، وخارج هذه الخلفية لا تلتقط الفروق النثرية الفنية التى يحملها صوته "ولا تُسمع" أو يكون لها وقع.

والناثر الفنان يرقى بهذا التنوع الكلامى الاجتماعى حول الموضوع إلى مرتبة الصورة الناجزة المخترقة بامتلاء الأصداء الحوارية والردود المحسوبة فنيا على كل أصوات هذا التنوع الكلامى ونغماته. لكن أى كلمة نثرية خارج الفن سواء كانت حياتية أو بلاغية أو علمية، لا يمكنها أيضاً، كما قلنا سابقاً، إلا أن تتوجه وسط "ما قيل"، وسط "ما هو معروف"، وسط "الرأى العام"، إلخ. فالتوجه الحوارى

للكلمة ظاهرة تتصف بها أى كلمة بطبيعة الحال. إنه الوضع الطبيعي
لأى كلمة حية. ذلك أن الكلمة فى كل طرقها على الموضوع وفى كل
توجهاتها إليه تلتقى بكلمة الآخر، ولا يمكنها إلا أن تدخل فى تفاعل
حتى متوتر معها. آدم الذى توجه بالكلمة الأولى إلى عالم بكر لم يُفترَ
عليه، آدم هذا هو الوحيد الذى كان بإمكانه فعلاً تفادى هذا التوجه
المتبادل مع كلمة الآخر فى الموضوع الواحد حتى النهاية. أما الكلمة
الإنسانية التاريخية المشخصة فلم تغط هذا: فهي لا تستطيع أن تنأى
بنفسها عن هذا إلا افتعالاً وإلى درجة معينة ليس إلا.

والأغرب أن فلسفة الكلمة والألسنية ركزت على هذه الحالة
المفتعلة للكلمة المنزوعة من الحوار فى المقام الأول، واعتبرتها الحالة
الطبيعية (على الرغم من التشدق المتواتر بأولوية الحوار على
المونولوج).

كان الحوار يُدرس على أنه شكل تأليفى لبناء الكلام وحسب،
بينما كانت الحوارية الداخلية للكلمة (فى الرد كما فى المونولوج) التى
تخترق كل بنية هذه الكلمة وكل طبقات معانيها وتعبيريتها يجرى
تجاهلها تجاهلاً يكاد يكون تاماً. لكن هذه الحوارية الداخلية للكلمة
بالذات، التى (الحوارية) لا تأخذ أشكالاً حوارية تأليفية خارجية، ولا
تتفصل فى فعل مستقل عن احتواء الكلمة لموضوعها، تمتلك قدرة
هائلة على خلق الأسلوب. إن الحوارية الداخلية تتجلى فى عدد من
خصائص الدلالة والنحو والتأليف التى لم تدرسها الألسنية والأسلوبية
إطلاقاً حتى الآن (كما لم تدرس بالمناسبة حتى خصائص الدلالة فى
الحوار العادى).

إن الكلمة تولد في الحوار بوصفها ردّ الحى، وتتشكل في التفاعل الحوارى مع كلمة الآخر داخل الموضوع. إن احتواء الكلمة موضوعها حوارى دائماً.

لكن هذا لا يستنفد الحوارية الداخلية للكلمة. فالكلمة، أى كلمة، لا تلتقى بكلمة الآخر في الموضوع فقط، بل تتوجه إلى جواب، ولا يمكنها تفادى التأثير العميق الذى للكلمة الجوابية المتوقعة.

إن كلمة الحديث الحية تتوجه مباشرة وبفظاظاة إلى كلمة الجواب الآتية: إنها تستثير الجواب وتتوقعه وتتوضع باتجاهه. فالكلمة وهى تتشكل فى جو المقول سابقاً، تتحدّد أيضاً بالكلمة الجوابية التى لمّا تكل، لكنها الإجابارية والمتوقعة. هذا ما يجرى فى كل حوار حى.

إن الأشكال البلاغية كلها، وهى مونولوجية من حيث بنيانها التأليفى، موجهة إلى السامع وإلى جوابه. ويعتبر بعضهم هذا التوجه إلى السامع الخصوصية التكوينية الأساسية للكلمة البلاغية^(١). صحيح فعلاً أن الذى يميّز البلاغة هو أن الموقف من سامع معين وأخذ هذا السامع فى الحسبان يدخلان فى البناء الخارجى للكلمة البلاغية ذاته. أن استهداف الجواب مفتوح، مكشوف ومشخص.

(١) راجع كتاب ف. فينو غراجوف "فى النثر الفنى"، فصل "البلاغية والشعرية" الصفحة ٧٥ وما يليها حيث تساق تعاريف من البلاغيات القديمة.

هذا الاستهداف المكشوف للسامع وللجواب في الحوار الحياتي وفي الأشكال البلاغية لفت انتباه الألسنيين. لكن الألسنيين توقفوا هنا وفي المقام الأول أيضا على الأشكال التأليفية التي تقتضيها مراعاة السامع وحسب، دون البحث عن تأثير هذا السامع في طبقات المعنى والأسلوب التي تحكمها مقتضيات الفهم والوضوح؛ أي بالضبط، الجوانب المحرومة من الحوارية الداخلية والتي تأخذ السامع في اعتبارها بوصفه فاهما سلبيا وليس بوصفه مجيبا ومعترضا نشطا.

يتصف الحوار الحياتي اليومي والبلاغة بمراعاة السامع وجوابه مراعاة صريحة وظاهرة تأليفيا، لكن أي كلمة أخرى موجهة أيضا إلى فهم مقابل (جوابي)، إلا أن هذا التوجه لا يستقل في فعل قائم بذاته ولا يحتفي به تأليفيا. إن الفهم المقابل (الجوابي) قوة جوهرية تسهم في تشكيل الكلمة، وهو إلى ذلك فهم نشط تحس به الكلمة مقاومة أو إسنادا يثريانها.

إن فلسفة الكلمة والألسنية لا تعرفان إلا الفهم السلبي للكلمة، وفهمها، إلى هذا، على مستوى اللغة العامة، أي فهم المعنى المحايد للقول وليس مرماه الحيوي.

إن المعنى اللغوي لقول ما يفهم على خلفية اللغة، أما مرماه الحيوي فعلى خلفية الأقوال الأخرى المشخصة في الموضوع ذاته، على خلفية الآراء ووجهات النظر والتقويمات المتضاربة، أي بالضبط على ما يعقد طريق أي كلمة إلى موضوعها كما سبق ورأينا. إلا أن

هذا الوسط المتباين من أقوال الآخرين لا يُعطى المتكلم في داخل الموضوع، بل في نفس السامع بوصفها خلفيته الزكانية (apperceptif) التي تضج بالأجوبة والاعتراضات. وإلى خلفية الفهم الزكانية هذه، وهي ليست لغوية بل مضمونية تعبيرية، يتجه أى قول، فيحدث لقاء جديد للقول بكلمة الآخر التي تمارس تأثيراً جديداً أصيلاً في أسلوبه (أسلوب القول).

إن الفهم السلبي للمعنى اللغوي ليس فهماً على وجه العموم. فهو ليس إلا لحظة مجردة من لحظاته. لكن الفهم السلبي، حتى حين يكون أكثر تشخيصاً لمعنى القول أى لقصد المتكلم لا يحمل مع بقائه سلبياً خالصاً ومتلقياً خالصاً أى جديد إلى الكلمة موضوع الفهم، إنه يكررها وحسب، وجل ما يسعى إليه كحد أقصى هو الاستعادة الكاملة لما أعطى في الكلمة المفهومة. فهو لا يخرج عن سياقها ولا يثرى الشيء المفهوم بأى جديد. ولهذا فحتى أخذ المتكلم لمثل هذا الفهم السلبي فى الحسبان لا يمكن أن يضيف أى لحظات جديدة سواء إلى تعبيريته أو إلى موضوعه. ذلك أن مختلف المتطلبات السلبية الخالصة التي يمكن أن تصدر عن الفهم السلبي كالمزيد من الوضوح والإقناع والبيان إلخ... تبقى المتكلم في سياقه الخاص، في حدود منظوره، لا تخرجه عن نطاقهما فهي محايثة بالكامل لكلمته لا تفكها من إसार اكتفائها بذاتها معنى وتعبيراً.

فى حياة الكلام الفعلية كل فهم مشخص نشط: فهو يقحم المفهوم فى أفق موضوعه وتعبيريته ويندغم اندغامًا كاملاً بالجواب، بالاعتراض المعل أو الموافقة المعللة. فالأولية للجواب بالذات بمعنى ما بوصفه البداية النشطة: ذلك أن الجواب يخلق أرضية للفهم ويعد له بنشاط واهتمام. الفهم لا ينضج إلا فى الجواب، الفهم والجواب مندغمان دياليكتيكيا أحدهما بالآخر ومشروطان أحدهما بالآخر ولا وجود لأحدهما دون الآخر. وعلى هذا فالفهم النشط إذ يدخل الشئ المفهوم فى الأفق الجديد للفاهم، إنما يرسى بذلك جملة علاقات متبادلة معقدة وجملة تناغمات أو تنافرات صوتية مع الشئ المفهوم ويغنيه بلحظات جديدة. والمتكلم إنما يقيم حساباً لمثل هذا الفهم بالذات. ولهذا فتوجهه إلى السامع هو توجه إلى الأفق الخاص للسامع، إلى العالم الخاص للسامع. وهذا التوجه يضيف إلى كلمة المتكلم لحظات جديدة كل الجدة. ذلك أنه يجرى فى هذه العملية تفاعل سياقات مختلفة ووجهات نظر مختلفة وآفاق مختلفة نظم نبرات تعبيرية مختلفة "ولغات" اجتماعية مختلفة. فالمتكلم يسعى إلى توجيه كلمته مع أفقه المحدد لهذه الكلمة فى أفق آخر. (أفق الفاهم) وبالتالي يدخل فى علاقات حوارية مع لحظات أفق الآخر. المتكلم يخترق أفقا آخر هو أفق السامع ويبنى قوله على أرض الغير، على الخلفية الزكانية للسامع.

هذا النوع الثانى من الحوارية الداخلية للكلمة يختلف عن الأول المحكوم بقاء الكلمة بكلمة الآخر داخل الموضوع نفسه. فالأفق الذاتى للسامع هنا، وليس الموضوع، هو حلبة اللقاء. ولهذا تحمل هذه

الحوارية طابعا ذاتيا نفسيا أقوى وعارضا في كثير من الأحيان، امتثاليا فظاً حيناً، ومحاجيا متحديا حيناً آخر. وفي أحيان كثيرة جداً ولا سيما في الأشكال البلاغية يمكن لهذا التوجه إلى السامع وما يتصل به من حوارية داخلية للكلمة أن يحجب الموضوع بكل بساطة: إذ يصبح إقناع السامع غاية قائمة بذاتها ومكتفية بذاتها مما يصرف الكلمة عن معالجة الموضوع نفسه معالجة خلقة.

ولئن كانت العلاقة الحوارية بكلمة الغير داخل الموضوع والعلاقة الحوارية في جواب السامع المتوقع مختلفين اختلافا جوهرياً وتحدثان في الكلمة آثاراً أسلوبية مختلفة، إلا أنه بإمكانهما، مع هذا، التواشج الوثيق بحيث تصبحان غير قابلين للتفريق بينهما بالنسبة إلى التحليل الأسلوبى.

وعلى سبيل المثال تتميز الكلمة عند تولستوى بحواريتها الداخلية الحادة، وهذه الحوارية الحادة تلقاها في الموضوع كما في أفق القارئ الذى يحس تولستوى إحساساً مرهفاً بخصائصه المعنوية والتعبيرية. هذان الخطان في الحوارية (ذات الشحنة المحاجية في معظم الأحيان) يتواشجان تواشجاً وثيقاً جداً في أسلوبه. فالكلمة عند تولستوى حتى في أوفر تعابيرها "غنائية" وفي أشد أوصافه "ملحمية" تتناغم وتتنافر (وتتنافر أكثر مما تتناغم) مع مختلف لحظات الوعي اللمى الاجتماعى المتباين الذى يلف الموضوع، وتقتحم فى الوقت نفسه على نحو محاجى أفق القارئ بموضوعاته وقيمه فى محاولة منها إصابة الخلفية الزكانية لفهمه النشط وتخريبها. وتولستوى فى هذا وريث القرن الثامن

عشر ولا سيما روسو. من هنا يأتي أحياناً تضيق الوعي الاجتماعي المتضارب الذي يحتاجه تولستوى حتى حدود وعى أقرب معاصريه، معاصر يومه وليس حقبة. ومن هنا بالتالى التشخيصية المفرطة للحوارية (التي تكاد تكون محاجة دائماً). ولهذا السبب تحتاج الحوارية، التي نسمعها بوضوح زائد فى تعبيرية أسلوبه، إلى تعليق تاريخى أدبى خاص أحياناً. فنحن لا نعرف مع أى شىء بالضبط يتناغم النغم الأساسى أو يتنافر. مع هذا فالتنافر أو التناغم من مهمة الأسلوب^(١). إلا أن هذه التشخيصية المفرطة (التي تكاد تقترب من تشخيصية المقالة الصحفية الهجائية) لا تسم إلا اللحظات والأصوات الثانوية للحوارية الداخلية فى كلمة تولستوى.

أن الموقف من كلمة الآخر ومن قول الآخر من مهمة الأسلوب كما رأينا فى ظواهر الحوارية الداخلية للكلمة التى درسناها (الداخلية تميزاً لها من الحوار ذى الطابع التأليفى الخارجى). والأسلوب يشتمل عضوياً الإشارات التى فى الخارج وتتاسب عناصره مع عناصر السياق الآخر. فالسياسة الداخلية للأسلوب (القرن بين العناصر) تتحد بسياسته الخارجية (موقفه من كلمة الآخر). كأنى بالكلمة تعيش على تخوم سياقها هى وسياق الغير.

(١) راجع كتاب ب.م. ايخنبوم "كيف تولستوى"، الكتاب الأول، لينينغراد ١٩٢٨، حيث يزخر الكتاب بالمعطيات المناسبة وعلى سبيل المثال كشفه عن موضوع الساعة الملح فى قصة تولستوى "سعادة عائلية".

والرد فى أى حوار فعلى يعيش أيضاً مثل هذه الحياة المزدوجة. فهو يُبنى ويفهم فى سياق الحوار الكامل الذى يتكوّن من أقواله هو (من وجهة نظر المتكلم) ومن أقوال الآخر (نذّه). ولا يمكن انتزاع الردّ من هذا السياق المتداخل المكوّن من كلمات المتكلم ونذّه دون أن يفقد الردّ معناه ونغمته. فهو جزء لا يتجزأ من كل متضارب.

تبدو ظاهرة الحوارية الداخلية بقدر أو بآخر للعيان فى كل مجالات حياة الكلمة كما قلنا. لكن إذا كانت الحوارية فى النثر الخارج عن الفن (الحياتى اليومى، البلاغى، العلمى) تتمايز عادة فى فعل خاص وتفتّح فى حوار مباشر أو فى أشكال واضحة أخرى من أشكال الاقتراق والمحاكاة مع كلمة الآخر معبر عنها تأليفاً، فالحوارية فى النثر الفنى، والرواية على وجه التخصيص، تخترق عملية احتواء الكلمة لموضوعها وتعبيريتها من الداخل مغيرة من دلالة الكلمة وبنيتها النحوية. فيصبح التوجه الحوارى المتبادل هنا كأنه حدثُ الكلمة ذاتها يشيع من الداخل الحياة والدرامية فى كل لحظات هذه الكلمة.

فى معظم الأجناس الشعرية (بالمعنى الضيق للكلمة) لا تُستخدم الحوارية الداخلية للكلمة فناً كما قلنا، فهى لا تدخل فى الموضوع الجمالى للعمل الفنى، وتُخمدُ افتعالاً فى الكلمة الشعرية. أما فى الرواية فتصبح الحوارية الداخلية إحدى أكثر لحظات الأسلوب النثرى جوهرية، وتخضع هنا لمعالجة فنية خاصة.

ولا يمكن للحوارية الداخلية أن تصبح القوة الجوهرية المبدعة للشكل إلا حيث يصب التنوع الكلامي الاجتماعي الخلافات والتناقضات الفردية، وحيث لا تتردد الأصداء الحوارية في قمم معاني الكلمة (كما في الأجناس البلاغية) بل تنفذ إلى الطبقات العميقة للكلمة وتجعل اللغة ذاتها والرؤية اللغوية (الشكل الداخلي للكلمة) حواريتين، وحيث ينشأ حوار الأصوات تلقائيا من الحوار الاجتماعي بين "اللغات"، وحيث يأخذ قول الآخر يتردد كأنه لغة اجتماعية غريبة، وحيث يتحول توجه الكلمة وسط أقوال الآخرين إلى توجه وسط لغات غريبة اجتماعيًا في نطاق اللغة القومية الواحدة.

إن الحوارية الطبيعية للكلمة لا تستخدم فنيا في الأجناس الشعرية بالمعنى الضيق. الكلمة هنا تكتفى بذاتها ولا تفرض أقوالاً أخرى خارج حدودها. والأسلوب الشعري مقطوع الصلة اصطلاحاً بأي تفاعل مع كلمة الآخر، بأي تطلع إلى كلمة الآخر.

كما هو غريب على الأسلوب الشعري وبنفس القدر أيضاً أي تطلع إلى لغات الآخرين، إلى إمكانية وجود مفردات أخرى ودلالية أخرى وأشكال نحوية أخرى إلخ وإلى وجود وجهات نظر لغوية أخرى. وعليه فغريب على الأسلوب الشعري الإحساس بمحدودية لغته وتاريخيتها ومشروطيتها وخصوصيتها الاجتماعية، ولهذا فغريب عليه أيضاً الموقف النقدي، والمتحفظ من لغته بوصفها إحدى لغات التنوع الكلامي الكثيرة وما يرتبط بهذا الموقف من تمنعه عن تسليم ذاته كلها ومعناه كله لهذه اللغة.

وبطبيعة الحال لم يكن ممكناً لأي شاعر وُجد تاريخياً بوصفه إنساناً يحيط به تنوع كلامي ولغوي حيّ أن يكون هذا الإحساس بلغته وهذا الموقف منها غريبين (بقدر أو بآخر) عليه؛ لكنه لم يكن ممكناً لهذا الإحساس وهذا الموقف أن يجدا لهما مكاناً في الأسلوب الشعري لعمله دون أن يخلّ بهذا الأسلوب ودون أن يحيلاه إلى نمط نثري ويحिला الشاعر إلى ناثر.

في الأجناس الشعرية يحقق الوعي الفني (بمعنى وحدة كل مقاصد المؤلف المعنوية والتعبيرية) ذاته تحقيقاً كاملاً في لغته، فهو محايد لها تماماً، يعبر عن ذاته فيها مباشرة وتلقائياً، دون تحفظات ودون تغريب. لغة الشاعر هي لغته، إنه فيها حتى النهاية وبنسج ووثيق بها، يستخدم أي شكل فيها وأي كلمة رأى عبارة تبعاً لمهمتها المباشرة (دون معترضتين إن صح التعبير)، أي بوصفها تعبيراً خالصاً ومباشراً عن قصده. ومهما يكن من شأن "عذابات الكلمة" التي يعيشها الشاعر ويعانيها أثناء عملية الإبداع، فاللغة في العمل الذي يبدع أداة طيعة تتكافأ تماماً وقصد المؤلف.

اللغة في العمل الشعري تحقق ذاتها بوصفها لغة يقينية فوق مستوى الشك وشاملة. كل ما يراه الشاعر ويدركه ويفكر فيه إنما يراه ويدركه ويفكر فيه بعيون هذه اللغة، وبأشكالها الداخلية، وليس هناك ما يقتضي اللجوء إلى مساعدة لغة أخرى، غريبة للتعبير عنه. لغة الجنس الشعري عالم بطليموسى واحد ووحيد، لا وجود ولا حاجة لأي شيء خارجه. إن فكرة تعدد العوالم اللغوية المحتملة بقدر واحد من المعانى والتعبيرية مرفوضة عضوياً بالنسبة للأسلوب الشعري.

إن عالم الشعر، هما كشف فيه الشاعر من تناقضات ونزاعات لا مخرج منها، مناراً دائماً بكلمة واحدة ويقينية. التناقضات والنزاعات والشكوك تبقى في الموضوع، في الأفكار، في مشاعر المعاناة، وباختصار تبقى في المادة الشعرية. لكنها لا تنتقل إلى اللغة. في الشعر الكلمة حول الشكوك والريب يجب أن تكون كلمة يقينية فوق مستوى الشك والريبة.

إن مسؤولية الأسلوب الشعري المباشرة والمتساوية عن لغة العمل كله بوصفها لغته، والتضامن الكامل مع كل لحظة من لحظات هذه اللغة وكل نغمة من نغماتها وكل ظل من ظلالها، هما المطلب الجوهري لهذا الأسلوب. إنه يكفي بلغة واحدة ووعي لغوي واحد. والشاعر لا يستطيع إن يقابل وعيه الشعري ومقاصده باللغة التي يستخدمها. إذ إنه فيها كاملاً ولهذا لا يستطيع أن يجعلها في نطاق الأسلوب موضوع إدراك أو فكرة أو موقف. اللغة معطاة له من الداخل فقط، في عملها القصدي وليس من الخارج، في خصوصيتها ومحدوديتها الموضوعية. أن القصديّة المباشرة المطلقة للغة وقيمتها الكاملة وإظهارها الموضوعي في الوقت نفسه (بوصفها واقعاً لغوياً محدوداً من الناحيتين الاجتماعية والتاريخية) أمور متنافية في حدود الأسلوب الشعري. ذلك أن وحدة اللغة ووحدةانيّتها هما الشرطان الضروريان لتحقيق فردية الأسلوب الشعري القصديّة المباشرة ولتماسكه المونولوجي.

هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن التنوع الكلامي أو حتى لغات الغير لا يمكن أن تدخل في العمل الشعري إطلاقاً. الحقيقة أن هذه الإمكانيات محدودة: هناك مجال معين للتنوع الكلامي في الأجناس الشعرية "الوضيعة" فقط (الهجائية، الكوميديّة إلخ). ومع هذا بالإمكان دخول التنوع الكلامي (اللغات الأيديولوجية الاجتماعية الأخرى) حتى في الأجناس الشعرية الخالصة، وفي المقام الأول في كلام الشخص. لكن هذا التنوع الكلامي هنا ذو علاقة بالموضوع (object)، إنه يُعرّض بوصفه شيئاً في حقيقة الأمر، فهو ليس واللغة الفعلية للعمل في مستوى واحد: إنه حركة (geste) مصوّرة من حركات الشخص وليس كلمة مصوّرة. أن عناصر التنوع الكلامي لا تدخل هنا على قدم المساواة مع اللغة الأخرى، اللغة التي تحمل وجهات نظرها الخاصة والتي يمكنك أن تقول بها شيئاً لا تستطيع قوله بلغتك، بل على قدم المساواة مع الشيء المصوّر. ذلك أن الشاعر يتكلم بلغته، بل على الشيء الغريب. فهو لا يلجأ أبداً، كي ينير عالم الآخرين، إلى لغة الآخرين بوصفها اللغة الأنسب لهذا العالم. أما الناثر كما سنرى فيحاول التكلم بلغة الآخرين حتى على ما يخصه هو (باللغة غير الأدبية للرواية أو ممثل فئة أيديولوجية اجتماعية معينة على سبيل المثال)، وكثيراً ما يقيس عالمه بمقاييس الغير اللغوية.

وجراء المتطلبات التي تبيّناها، كثيرا ما تصبح لغة الأجناس الشعرية حيثما تقترب هذه الأجناس من مداها الأسلوبى الأقصى^(١)، لغة مستبدة، عقائدية ومحافضة، منغلقة على تأثير اللهجات الاجتماعية الخارجة عن الأدب. ولهذا السبب بالذات تصبح واردة وممكنة على أرضية الشعر. هذه الفكرة "اللغة الشعرية الخاصة"، لغة آلهة الشعر وسدنته" إلخ. ومما له دلالة الخاصة أن الشاعر، إذ يرفض لغة أدبية ما، يحلم فى أغلب الأحيان باصطناع لغة شعرية جديدة خاصة بدلاً من استخدام اللهجات الاجتماعية المتاحة والقائمة فعلا. أن اللغات الاجتماعية تتعلق بالموضوع - الشيء وذات خصوصية مميزة، محدّدة اجتماعيا ومحصورة مكانيا، أما لغة الشعر المنشأة اصطناعاً فستكون لغة قصدية صريحة لا يخالطها شك أو ريبة، واحدة ووحيدة. وعلى سبيل المثال حين أخذ الناثرون الروس يبدون اهتماماً فريداً باللهجات والسكاز فى بداية القرن العشرين، كان الرمزيون (بلمونت وف. إيفانوف) ثم المستقبلون يحلمون بإنشاء "لغة خاصة بالشعر"، بل قاموا بمحاولات لإنشاء لغة كهذه (محاولات خليبنيكوف).

إن فكرة لغة واحدة ووحيدة خاصة بالشعر فلسفة طوباوية مميزة للكلمة الشعرية، يقوم فى أساسها الشروط والمتطلبات الفعلية للأسلوب الشعرى المكتفى بلغة واحدة ذات قصدية مباشرة ترى إلى اللغات

(١) نحن نصف دائما المدى الأمثل للأجناس الشعرية بطبيعة الحال. أما فى الأعمال الفعلية فبالإمكان وجود مستويات نثرية جوهريّة، بوجود أنواع هجينة متعددة من هذه الأجناس تنتشر خاصة فى عصور تغير اللغات الأدبية الشعرية.

الأخرى (المحكّية، العملية، النثرية إلخ) على أنها تنصبّ على الموضوع - الشيء ولا تساويها إطلاقاً^(١).

إن اللغة، بوصفها الوسط الشخص الحى الذى يعيش وعى فنّان الكلمة فيه، لا تكون واحدة أبداً. أنها واحدة فقط بوصفها نظاماً صرفياً نحويّاً لأشكال معيارية مأخوذاً بمعزل عن التأويلات والإدراكات الأيديولوجية المشخصة التى يزخر بها. وعن الصيرورة التاريخية المستمرة للغة الحية. أن الحياة الاجتماعية الحية والصيرورة التاريخية تخلقان فى نطاق اللغة القومية، الواحدة نظرياً، تعدّدية عوالم مشخصة ومنظورات أيديولوجية كلمية واجتماعية مغلقة، وضمن هذه، المنظورات المختلفة تمتلئ العناصر المجردة الواحدة فى اللغة بمضامين قيم ومعان مختلفة وبايقاعات مختلفة.

واللغة الأدبية نفسها - محكّية وكتابية - وإن كانت واحدة ليس من حيث سماتها اللغوية العامة المجردة وحسب، بل من حيث أشكال إدراك هذه اللحظات المجردة، هى لغة مفككة ومتنوعة كلامياً فى جانبها المتصل بالمعنى الشخص والتعبيرى للموضوع.

هذا التفكك تحكمه قبل كل شيء البنية العضوية للأجناس. فبعض لحظات اللغة (المفردانية، الدلالية، النحوية أو غيرها) تلتحم التزاماً وثيقاً بالتطلّع القصدى والنظام النبروى العام لهذا الجنس أو ذاك: جنس الخطابة أو الأدب الاجتماعى أو الصحافة أو أدب الصحفيين أو الأدب الرخيص (رواية البولفار مثلاً) وأخيراً أجناس

(١) هكذا كانت وجهة نظر اللغة اللاتينية فى اللغات القومية فى القرون الوسطى.

الأدب الكبير المختلفة، فتكتسب بصمة هذه الأجناس الخاصة: تشاركها وجهات نظرها الخاصة ومقارباتها وأشكال تفكيرها والفروق بينها ونبراتها الخاصة.

ويضاف إلى تفكك اللغة حسب الأجناس تفكك آخر يتوافق مع الأول حيناً ويختلف عنه حيناً آخر هو تفكك اللغة مهنيًا (بالمعنى الواسع للكلمة): فهناك لغة المحامي والطبيب والتاجر والسياسي والمعلم إلخ. هذه اللغات لا تتميز بمفرداتها وحسب طبيعة الحال، بل تغير في أشكال معينة من التوجه القصدي، ومن الإدراك والتقويم المشخصين. ولغة الكاتب (الشاعر، الروائي) نفسها يمكن اعتبارها أرغة إلى جانب أرغات أخرى.

ما يهمنا هنا هو الجانب القصدي في تفكك "اللغة العامة"، أي الجانب المتعلق بالموضوع في معناه وتعبيريته. ذلك أن ما يتفكك ويتميز ليس لقوام الألسنى المحايد للغة، بل إمكاناتها القصدية هي التي تنتهب: فهي تتحقق في اتجاهات معينة، وتمتلئ بمضمون معين، وتتشخص وتتعين، وتتشرب بتقويمات مشخصة وتتدغم مع موضوعات معينة وآفاق تعبير معينة سواء من حيث الجنس الأدبي أو المهنة. لغات الأجناس والأرغات المهينة هذه هي، من داخل هذه الآفاق أي بالنسبة إلى المتكلمين أنفسهم، قصدية صريحة أي معبرة تعبيراً مباشراً وكاملاً، أما من الخارج، أي لمن هم خارج هذا الأفق القصدي، فيمكن أن تكون ذات خصوصية وصفية أو تلوينية إلخ. المقاصد التي تخترق هذه اللغات تثخن بالنسبة لغير المشاركين في الأفق القصدي، تصبح تقييدات معنوية تعبيرية بالنسبة لهم، تثقل عليهم الكلمة وتغربها عنهم، وتعسر عليهم الكلمة في استخدامها القصدي المباشر غير المتحفظ.

لكن الأمر أبعد من أن يُستنفَد بالتفكك الجنسي والمهني للغة الأدبية العامة. فمع أن اللغة الأدبية في نواتها الأساسية كثيرًا ما تكون متجانسة إجتماعيًا بوصفها اللغة المحكية والكتابية لفئة اجتماعية مسيطرة، إلا أنه يتوفر فيها دائما حتى في هذه الحالة قدر من التباين الاجتماعي والتفكك الاجتماعي يمكن أن يصبح في غاية الحدة في بعض الحقب: هذا التفكك الاجتماعي يمكن أن يتطابق في حالة أو أخرى والتفكك الجنسي أو المهني، لكنه في حقيقة الأمر تفكك قائم بذاته ومتميز بطبيعة الحال.

أن التفكك الاجتماعي محكوم أيضا وقبل أي شيء باختلاف الآفاق المعنوية والتعبيرية الموضوعات، أي إنه يتبدى في الاختلافات النمطية لإدراك عناصر اللغة وإبرازها ويمكنه ألا يخل بالوحدة اللهجية اللغوية المجردة للغة الأدبية العامة.

ثم إى نظرة قيمة إجتماعيًا إلى العالم تملك القدرة على نهب الإمكانيات القصدية للغة عن طريق تحقيقها تحقيقا مشخصا خاصا ومتميزا. فالإتجاهات (الفنية وسواها) والحلقات والمجالات وبعض الصحف وحتى بعض الأعمال الهامة وبعض الأفراد يملكون القدرة كل بقدر ما أوتى من أهمية اجتماعية على تفكيك اللغة بإثقالهم كلماتها وأشكالها بنواياهم ونبراتهم النموذجية الخاصة، وبهذا يغربونها إلى حد ما عن الإتجاهات والأحزاب والأعمال الأخرى والأشخاص الآخرين.

إن أى كلام قِيم إجتماعيا يملك القدرة على التأثير بمقاصده تأثيراً قد يستمر طويلاً ويصيب دائرة واسعة فى لحظات اللغة الدقمة فى سياق اندفاعته المعنوية والتعبيرية، إذ يفرض على هذه اللحظات فروقا معينة فى المعنى وتترجات معينة فى القيم؛ وهكذا يمكنه أن ينشئ الكلمة الشعار والكلمة التيمة والكلمة الثناء إلخ.

ولكل جيل فى كل فئة اجتماعية فى كل لحظة تاريخية من حياة الكلمة الأيديولوجية لغته. زد على ذلك أن لكل عمر، فى الواقع، لغته ومفرداته ونظام نبراته الخاص التى تتغير تبعا للشريحة الاجتماعية وللمنشأة التعليمية (ف لغة طالب المدرسة الحربية ولغة طالب الثانوية ولغة طالب المعهد العلمى لغات مختلفة) ولعوامل التفكير الأخرى. وهذه كلها لغات نمطية إجتماعياً مهما كانت دائرتها الاجتماعية ضيقة. وحتى الأربعة العائلية يمكن أن تكون الحد الاجتماعى للغة. مثال ذلك أرغة آل إيرتنييف التى صورها تولستوى بكل ما فيها من مفردات خاصة ونظام نبرات خاص متميز.

وأخيراً، تتعايش فى كل لحظة لغات حقب وفترات مختلفة من حقب الحياة الأيديولوجية الاجتماعية وفتراتها. بل توجد أيضاً لغات أيام: فيومنا وأمسنا السياسى والأيدىولوجى الاجتماعى ليس بينهما، بمعنى ما، لغة مشتركة؛ ولكل يوم وضعه الاجتماعى الأيدىولوجى المعنوى ومفرداته ونظام نبراته وشعاره وكلماته فى الشتم والثناء. إن الشعر يفقد الأيام وجهها فى اللغة. أما النثر كما سنرى فكثيراً ما يفرق بينها عمداً وبحساب، ويجسدها فى ممثلين من لحم ودم ويواجه واحداهم بالآخر فى حوارات روائية لا مخرج منها.

وهكذا فاللغة فى كل من لحظات وجودها التاريخى متنوعة كلاميا: إنها التعايش مجسدا بين تناقضات الحاضر والماضى الاجتماعية الأيدىولوجية، بين مختلف حقب الماضى، وبين مختلف فئات الحاضر الأيدىولوجية الاجتماعية، بين الاتجاهات والمدارس والحلقات إلخ. "ولغات" التنوع الكلامى هذه تتلاقح بأشكال مختلفة مشكلة "لغات" جديدة نمطية اجتماعيا.

إلا أن بين "لغات" التنوع هذه كلها إختلافات منهجية جد عميقة: ذلك أنه يقوم فى أساسها مبادئ فرز واشتقاق متباينة تماما (المبدأ الوظيفى فى بعض الحالات، مضمون الموضوع فى حالات ثانية. المبدأ اللهجوى الاجتماعى فى حالات ثالثة). ولهذا السبب نرى أن هذه "اللغات" لا تتفى إحداها الأخرى، بل تتقاطع معها بصور مختلفة (اللغة الأوكرانية، لغة القصيدة الملحمية، لغة الرمزية المبكرة، لغة الطالب، لغة جيل الأطفال، لغة المثقف الصغير، لغة نصير النيتشوية إلخ). حتى ليبدو أحيانا أن كلمة "اللغة" تفقد فى هذه الحالة أى معنى، إذ ليس هناك مستوى واحد، على ما يظهر، يمكن أن تلتقى فيه كل هذه اللغات.

لكن هذا المستوى الواحد الذى يبرر مقارناتنا موجود فعلا: ذلك أن كل لغات التنوع الكلامى، أيا كان المبدأ القائم فى أساس تمايزها وانفرادها، هى وجهات نظر خاصة إلى العالم وأشكال من أشكال وعيه بالكلمة، ومجالات خاصة من مجالات رؤية الموضوعات فى معانيها وقيمها. وبوصفها كذلك يمكن أن تقارن إحداها بالأخرى، وأن تكمل

إحداها الأخرى وتتاقض إحداها الأخرى وترتبط بالأخرى حواريا. ويمكنها، بوصفها كذلك، أن تلتقى وتتعايش في وعى الناس، وفي المقام الأول في الوعي الإبداعي للروائي الفنان. وبما هي كذلك فهي تعيش فعلا تكافح وتتشكل في التنوع الكلامي الاجتماعي. ولهذا السبب يمكن لهذه اللغات جميعا أن تنتظم في مستوى واحد هو مستوى الرواية التي يمكنها أن توحد في ذاتها أساليب المحاكاة الساخرة للغات الأجناس الأدبية، ومختلف أنواع أسلبة وعرض لغات المهن، والاتجاهات، والأجيال، واللهجات الاجتماعية إلخ (مثال ذلك ما نجده في الرواية الفكاهية الإنكليزية). هذه اللغات كلها يمكن للروائي أن يشركها بهدف توزيع موضوعاته أوركستراليا والتعبير عن نواياه وأحكامه تعبيراً مواربا (غير مباشر).

ولهذا السبب ترانا نبرز طوال الوقت اللحظة المعنوية والتعبيرية للموضوع أي اللحظة القصدية بوصفها القوة المفككة والممايزة للغة الأدبية العامة، وليس السمات الألسنية (تلاوين المفردات، الفروق الثانوية في الدلالة إلخ) للغات الأجناس الأدبية والأرغات المهنية إلخ. فما تلك السمات سوى ترسبات متصلبة إن صح التعبير من عمل القصد، ليست سوى علامات متروكة على طريق العمل الحي للقصد، لتأويل الأشكال اللغوية العامة. هذه السمات الخارجية، الملاحظة والمثبتة ألسنيا، لا يمكنها أن تفهم وتدرس دون فهم تأويلها القصدي.

إن الكلمة تعيش خارج ذاتها، فى توجهها الحى إلى الموضوع؛ فإذا غفلنا عن هذا التوجه حتى النهاية، لن يبقى بين أيدينا إلا جثة الكلمة عارية لا نستطيع أن نعرف منها شيئاً لا عن وضع الكلمة الاجتماعى ولا عن مصير حياتها. إن دراسة الكلمة فى ذاتها مع إغفال توجهها خارج ذاتها عبث كعبث دراسة المعاناة النفسية خارج الواقع الفعلى المتوجهة إليه هذه المعاناة والمحكومة به.

إننا حين نقدم الجانب القصدى لتفكك اللغة الأدبية، نستطيع أيضاً، كما قلنا سابقاً، وضع ظواهر غير متجانسة منهجياً كاللهجات المهنية والاجتماعية والنظرة إلى العالم والمؤلفات الفردية فى صف واحد، إذ فى الجانب القصدى منها يقوم ذلك المستوى المشترك الذى يمكنها أن تتقابل فيه وتتقابل حوارياً. القضية كل القضية أن قيام علاقات حوارية (أصيلة) بين اللغات، أيًا كانت هذه اللغات، أمر ممكن، أى أنه يمكن إدراك هذه "اللغات" على أنها وجهات نظر فى العالم. ومهما يكن من اختلاف وتباين القوى الاجتماعية التى تنتج عملية التفكيك هذه (سواء كانت المهنة أو الاتجاه الأدبى أو الجنس الأدبى، أو الشخصية الفردية) فإن العملية نفسها تتلخص بإشباع اللغة إشباعاً مديداً (نسبياً) وقيماً اجتماعياً (جماعياً) بمقاصد ونبرات معينة (وبالتالى مقيدة).

وبقدر ما يكون هذا الإشباع المفكك أطول ديمومة والدائرة الاجتماعية التى يشملها أوسع، وبالتالي بقدر ما تكون القوة المحدثة لعملية تفكيك اللغة جوهرية، تكون تلك الآثار، تلك التغيرات الألسنية

فى سمات اللغة (الرموز الألسنية) التى تبقى فى اللغة نتيجة عمل هذه القوة - من الفروق الدلالية الثابتة (والاجتماعية بالتالى) وحتى السمات اللهجوية الحقيقية (الصوتية والصرفية وغيرها) التى تمكننا من القول بتشكل لهجة اجتماعية متميزة فعلا - تكون تلك الآثار أكثر حدة ورسوخاً.

ونتيجة عمل كل هذه القوى المفككة لا تبقى فى اللغة أية كلمات وأشكال محايدة "لا تخصّ أحداً": فاللغة كلها تبدو متنازعة، مختركة بالمقاصد ومشبعة بالنبرات. اللغة بالنسبة إلى الوعى الذى يعيش فيها ليست نظام أشكال معيارية مجرداً، بل رأيا متضارباً مشخّصاً فى العالم. الكلمات كلها تفوح منها رائحة المهنة، الجنس أو الاتجاه الأدبى، الحزب، عمل معين، أنسان معين، جيل معين، عمر معين، يوم معين، ساعة معينة، كل كلمة تفوح منها رائحة السياق والسياقات التى عاشت فيها هذه الكلمة حياتها المتوترة اجتماعياً؛ كل الكلمات والأشكال مأهولة بالمقاصد؛ فى الكلمة لا مفرّ من الفروق السياقية (المتصلة بالأجناس والاتجاهات والأفراد).

وفى حقيقة الأمر أن اللغة بوصفها واقعاً اجتماعياً حياً مشخّصاً، بوصفها رأياً متضارباً، تقع بالنسبة إلى وعى الفرد عند تخومه وتخوم الآخرين، كلمة اللغة كلمة نصف غريبة، إنها لا تصبح كلمة المتكلّم إلاّ حين يملؤها هذا بقصده، إلاّ حين يملكها ويزجّها فى اندفاعته المعنوية والتعبيرية. وحتى لحظة الامتلاك هذه، الكلمة لا تكون فى لغة محايدة وعديمة الشخصية (فالمتكلم لا يأخذ الكلمة من القاموس!) بل على شفاه

الآخرين، فى سياقات الآخرين وفى خدمة مقاصد الآخرين: من هنا يترتب على المرء أن يأخذ الكلمة ويجعلها كلمته. لكن ليست كل الكلمات تتصاع بقدر واحد من السهولة واليسر لئى كان كى يملكها ويتأثر بها: بعض الكلمات تقاوم بعناد، وبعضها الآخر يبقى غريباً، ذا وقع غريب بين شفتى المستأثر به، لا يمكنه الاندماج فى سياقه وبالتالي يسقط منه؛ كأن هذه الكلمات تضع نفسها رغم إرادة المتكلم بين معترضين. اللغة ليست وسطاً محايداً ينتقل بيسر وسهولة إلى ملكية المتكلم القصديّة، لأنها مأهولة وغاصة بمقاصد الآخرين. وتملك شخص ما لها وإخضاعه إياها لمقاصده ونبراته عملية صعبة ومعقدة.

انطلقنا حتى الآن من افتراض وحدة ألسنية مجردة (لهجوية) للغة الأدبية. لكن اللغة الأدبية بالذات أبعد من أن تكون لهجة مغلقة. فبين اللغة الأدبية الحياتية المحكية واللغة الأدبية المكتوبة يمكن تبين حدود على قدر أو آخر من الوضوح. والفروق بين الأجناس الأدبية كثيراً ما تتطابق مع الفروق اللهجوية (الأجناس الرفيعة مع اللهجات الكنسية السلافية، والوضيعة المحكية مع أجناس القرن الثامن عشر على سبيل المثال)؛ وأخيراً يمكن لبعض اللهجات أن تأخذ وضغاً شرعياً فى الأدب، وبهذا تندمج إلى حدّ ما فى اللغة الأدبية.

وبدخول اللهجات الأدب واندماجها فى اللغة الأدبية تفقد بطبيعة الحال على أرضية اللغة الأدبية صفتها كنظم لغوية اجتماعية منغلقة، فتتشوّه وتكف، فى واقع الأمر، عن كون ما كانته لوصفها لهجات. لكن هذه اللهجات بدخولها اللغة الأدبية واحتفاظها فيها ببلدانها اللغوية

اللهجوية، بلغتها المغايرة، تشوّه، من ناحية أخرى، اللغة الأدبية ذاتها، فتكف هذه بدورها عن كون ما كانته سابقا أى نظاما لغويا اجتماعيا مغلقا. أن اللغة الأدبية، كالوعى اللغوى للمتقف ثقافة أدبية الملازم لها، ظاهرة عميقة الخصوصية والأصالة؛ إذ إن التضارب القصدى فيها (والموجود فى أى لهجة مغلقة) يتحول إلى تنوّع لغات؛ إنه ليس لغة بل حوار لغات.

إن اللغة الأدبية القومية لشعب ذى ثقافة نثرية متطورة، ولا سيما روائية، وتاريخ كلمة أيديولوجية غنى ومتوتر هي، فى الواقع عالم أصغر لا يعكس فقط العالم الكبير للتنوّع الكلامى القومى بل الأوروبى أيضا. إن وحدة اللغة الأدبية ليست وحدة نظام لغة واحد مغلق، بل وحدة عميقة الخصوصية "لغات" تماسست فيما بينها ووعت إحداها الأخرى (وإحدى هذه اللغات هي اللغة الشعرية بالمعنى الضيق). وفى هذا خصوصية الإشكالية المنهجية للغة الأدبية.

إن الوعى اللغوى الاجتماعى الأيديولوجى المشخص إذ يصبح نشطا بشكل خلاق، أى نشطا من الناحية الأدبية، يجد نفسه محاطا بتنوّع كلامى وليس بلغة واحدة وحيدة فوق مستوى الشك والخلاف. أن الوعى اللغوى النشط أدبيا كان يجد فى كل زمان ومكان (وفى كل عهود الأدب التى نعرفها تاريخيا) "لغات" وليس لغة. كان يجد نفسه أمام ضرورة اختيار اللغة. وكان فى كل خطاب كلمى أدبى يتوجه بنشاط فى التنوّع الكلامى، ويتخذ فيه موقعا، ويختار "اللغة". وحده

الإنسان الذى يبقى فى إطار حياته اليومية المغلقة، والمحرومة من الكتابة والفاقة أى معنى، الذى يبقى بمعزل عن كل دروب الصيرورة الاجتماعية الأيديولوجية، يمكنه ألا يحس بهذه الفاعلية اللغوية الاصطفائية وبوسعه بالتالى أن يبقى على اطمئنانه واسترخائه فى يقينية لغته وحتميتها.

لكن حتى مثل هذا الإنسان لا يتعامل، فى الواقع، مع لغة واحدة، بل مع لغات. لكن مكان كل من هذه اللغات ثابت متأصل وفوق الشك، وانتقاله من لغة إلى أخرى محتم سلفا وغير واعٍ كانتقاله من غرفة إلى أخرى. فهذه اللغات لا تتصادم فيما بينها فى وعيه، وهو لا يحاول الوصل بينها، كما لا يحاول النظر إلى لغة بعين لغة أخرى.

وهكذا كان الفلاح الأمى البعيد كل البعد عن أى مركز، والغارق بسذاجة فى حياة الجمود والثبات التى لا يمكن أن تتزعزع فى وعيه، يعيش فى دعة نظم لغوية فى آن: كان يصلّى لربه بلغة (اللغة السلافية الكنسية)، وينشد الأغاني بثانية، وفى أسرته يتكلم ثالثة، وحين بدأ يملأ على المتعلم التماسا لتقديمه إلى مركز المنطقة حاول التكلم برابعة (بلغة رسمية سليمة، لغة العرائض). لكن هذه كلها لغات مختلفة حتى من وجهة نظر سماتها الاجتماعية اللهجية المجردة. إلا أن هذه اللغات كلها لم تكن مترابطة فيما بينها حواريا فى وعى الفلاح اللغوى؛ كان ينتقل من لغة إلى أخرى دون تفكير أو روية، كان ينتقل بشكل آلى: فكل لغة فوق الشك فى مكانها، ومكان كل منها أكيد، لا شك فيه.

فالفلاح لم يكن قد تعلّم بعد النظر إلى اللغة (وعالم الكلمات المقابل لها) بعينى اللغة الأخرى (إلى لغة حياته اليومية وحياة عالمه بعينى لغة الصلاة أو الأغنية - وبالعكس)^(١).

وما أن بدأت الإنارة النقدية المتبادلة بين اللغات فى وعى فلاحنا، وما أن تبين أن هذه اللغات ليست مختلفة وحسب، بل متناقضة أيضا، وأن النظم الأيديولوجية ومقاربات العالم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه اللغات لا تستقر الواحدة إلى جانب الأخرى بسلام بل تناقضها، حتى انتهت يقينية هذه اللغات وحتميتها المسبقة، وبدأ التوجه الاصطفائى النشط فى وسطها.

لغة الصلاة وعالمها، لغة الأغنية وعالمها، لغة العمل والحياة اليومية وعالمها، لغة مركز المنطقة وعالمها الخاصان، لغة عامل المدينة القادم فى إجازة وعالمه الجديدان - كل هذه اللغات والعوالم أخذت تخرج بعد وقت قصير أو طويل من حالة التوازن الهادئ والميت وتكشف عن تناقضها.

إن الوعى اللغوى النشط أدبيا يجد بطبيعة الحال تعدداً كلامياً أشد عمقاً وتنوعاً فى داخل اللغة الأدبية كما فى خارجها. من هذه الحقيقة الأساسية يجب أن تطلق أى دراسة جوهرية للحياة الأسلوبية للكلمة. ذلك أن طابع التنوع الكلامى الموجود سابقاً ووسائل التوجه فيه تحكم الحياة الأسلوبية المشخصة للكلمة.

(١) نحن هنا نبسط الأمر قصداً: فالفلاح كان يعرف إلى حد ما كيف يصنع هذا، وكان يصنعه.

إن الشاعر محكوم بفكرة اللغة الواحدة والوحيدة القول الواحد المغلق مونولوجيا. وهذه الأفكار محايدة للأجناس الشعرية التي يتعامل معها. وهذا ما يحدّد وسائل توجه الشاعر في التّنوُّع الكلامي الفعلي. على الشاعر امتلاك لغته امتلاكاً شخصياً كاملاً وتحمل مسؤولية واحدة متساوية عن كل لحظة من لحظاتها وإخضاعها كلها لمقاصده ومقاصده وحدها. وعلى كل كلمة التعبير تعبيراً تلقائياً ومباشراً عن قصد الشاعر؛ يجب ألا تكون هناك مسافة بين الشاعر وكلمته. عليه الانطلاق من اللغة بوصفها كلاً قصدياً واحداً: فليس لأي تفكك أو تنوُّع كلامي ناهيك عن التّنوُّع اللغوي أن يكون له أي انعكاس جوهري في العمل الشعري.

وفي سبيل ذلك يجرّد الشاعر الكلمات من المقاصد الغريبة، ولا يستخدم الكلمات والأشكال، حين يستخدم هذه الكلمات والأشكال، إلاّ بحيث تفقد صلتها بطبقات قصدية معينة من طبقات اللغة وسياقات معينة فيها. فليس لأي كان أن يحس وراء كلمات العمل الشعري بالصور النموذجية لموضوعات الأجناس الأخرى (اللهم إلا صور الجنس الشعري الموجود بين يديه) ولا للمهن والاتجاهات (إلاّ اتجاه الشاعر نفسه) ولا للنظرات إلى العالم (إلا نظرة الشاعر الواحدة والوحيدة)، ولا بصور المتكلّمين الفردية والنموذجية ولا أساليبهم الكلامية ونبراتهم النموذجية. كل ما يدخل العمل عليه أن يغرق في

الليتيه(*)، أن ينسى حياته السابقة فى السياقات الأخرى: اللغة لا تستطيع أن تتذكر إلا حياتها فى السياقات الشعرية (وبعض التذكريات المبهمة المشخصة ممكن هنا).

وبطبيعة الحال هناك دائماً حلقة محدودة من السياقات التى تتفاوت فى تشخيصيتها والتى يجب على العلاقة بها أن يُحسَّ بها عن قصد فى الكلمة الشعرية. لكن هذه السياقات معنوية خالصة وذات نبرة مجردة إن صح التعبير. أما هذه السياقات من حيث اللغة فهى عديمة الشخصية أو، على أى حال، يجب ألا يُحسَّ خلفها بخصوصية لغوية مشخصة بالغة، أو بطريقة كلام معينة إلخ. كما يجب ألا يطلَّ من ورائها أى وجه لغوى نمطى اجتماعيا (وجه الراوية المحتمل). ففى كل مكان ليس هناك إلا وجه واحد هو الوجه اللغوى للمؤلف المسؤول عن كل كلمة مسؤوليته عن كلمته هو. ومهما يكن من شأن تعدد وتنوع الخيوط والتداعيات والإشارات والتلميحات والمطابقات المعنوية والذبروية التى تصدر عن كل كلمة شعرية، فهى كلها تتكافأ وتتناسب مع لغة واحدة ومنظور واحد، وليست تتكافأ وتتناسب مع سياقات اجتماعية متباينة. زد على ذلك أن حركة الرمز الشعرى (تطوير الاستعارة على سبيل المثال) يفترض تحديداً وحدة اللغة المتطابقة

(*) الليتيه فى الأساطير اليونانية نهر الجحيم ومعناه الحرفى "النسيان".

تطابقاً مباشراً وموضوعياً. ولو افترضنا أن التباين الكلامي الاجتماعي دخل العمل وفكك لغته، فلن يكون من شأن ذلك إلا جعل التطور الطبيعي للرمز فيه وحركته أمراً مستحيلاً.

والإيقاع في الأجناس الشعرية نفسه لا يساعد أيضاً على أي تفكيك جوهري للغة. فالإيقاع بإشراكه كل لحظة إشراكاً مباشراً في النظام النبروي للكل (من خلال الوحدات الإيقاعية الأقرب) يخلق في المهد تلك العوالم والوجوه الكلامية الاجتماعية الموجودة بالقدرة في الكلمة: وعلى أي حال يرسم لها حدوداً معينة، ولا يمكنها من التطور والتجسد مادياً. فهو بهذا يعزز ويضيّق على نحو أقوى وحدة مستوى الأسلوب الشعري واللغة الواحدة المصادرة بهذا الأسلوب وانغلاقهما.

وما نشوء الوحدة المتوترة للغة في العمل الشعري إلا نتيجة هذا العمل الدؤوب على تخليص كل لحظات اللغة من نوايا الغير ونبراته وعلى محو كل آثار التنوع الكلامي واللغوي. هذه الوحدة يمكن أن تكون ساذجة وموجودة في حقب نادرة جداً من حياة الشعر فقط، حين لا يتعدّى الشعر حدود الدائرة الاجتماعية المنغلقة على نفسها بسذاجة، الواحدة التي لما تتباين ولما تتفكك أيديولوجيتها ولغتها فعلاً. أما نحن فنشعر عادةً بذلك التوتر العميق والواعي الذي تبذله لغة العمل الشعرية الواحدة في نهوضها من فوضى التنوع الكلامي واللغوي للغة الأدبية الحية المعاصرة لها.

هكذا يصنع الشاعر. أما الناثر الروائي (وأي ناثر تقريبا) فيسلك طريقا آخر تماما. إنه يحتفى فى عمله بالتنوع الكلامى واللغوى للغة الأدبية والخارجة عن الأدب، فلا يضعفه بل على العكس يعمل على تعميقه (إذ إنه يساعده على إدراك ذاته إدراكا متمائزا). وعلى تفكك اللغة هذا، على تنوعها الكلامى وحتى اللغوى إنما يبنى أسلوبه مع الاحتفاظ إلى هذا كله بوحدة شخصيته الإبداعية وبوحدة أسلوبه (وهى وحدة من نمط آخر فى حقيقة الأمر).

الناثر لا يخلص الكلمات من المقاصد والأصوات الغريبة عنه، ولا من بذور التنوع الكلامى الاجتماعى فيها، ولا يزيح الوجوه اللغوية والطرق الكلامية (أى شخوص الرواة المحتملين) التى تتراءى وراء كلمات اللغة وأشكالها، بل يصف كل هذه الكلمات والأشكال على مسافات مختلفة من النواة المعنوية النهائية لعمله ومن مركز قصده الخاص.

لغة الناثر تتوضع على درجات متفاوتة فى قربها أو بعدها من المؤلف ومن رأيه الأخير: بعض لحظات اللغة يعبر مباشرة وتلقائيا (كما فى الشعر) عن مقاصده المعنوية والتعبيرية، وبعضها الآخر يعكسها بشكل موارب؛ إنه لا يتضامن مع هذه الكلمات تضامنا كاملا فتراه يضيف عليها نبرة خاصة، نبرة فكاهة أو ساخرة أو محاكاة

ساخرة إلخ^(١)؛ وبعضها الثالث يقع على مسافة أبعد من رأيه الأخير ويعكس بحدّة أكبر مقاصده؛ وهناك أخيراً ورابعاً كلمات محروقة نهائياً من أى مقصد من مقاصد المؤلّف، لذلك تراه يعرضها كشىء كلامى خاص، فهي خارجة (خارج المؤلّف) تماماً. ولهذا فتفكك اللغة على اختلافه - التفكك من حيث الجنس أو المهنة أو التفكك الاجتماعى بالمعنى الضيق أو من حيث النظرة إلى العالم أو الاتجاه أو الفرد - وتتوّعها الكلامى واللغوى (اللهجات) الاجتماعى يتسقان فى الرواية، حين يدخلانها، بطريقتهما الخاصة ويصبحان نظاماً فنياً متميزاً يوزّع قصد الكاتب من حيث هو موضوع توزيعاً أوركستريالياً.

وهكذا يمكن للنّاثر أن يفصل نفسه عن لغة عمله الفنى، وبقدر أو بآخر، عن مختلف طبقاتها ولحظاتها. إنه يستطيع استخدام اللغة دون أن يمنحها ذاته كاملة، فهو يتركها نصف غريبة أو غريبة تماماً، لكنه يجعلها، مع هذا، تخدم مقاصده فى نهاية المطاف. المؤلّف لا يتكلّم اللغة التى يفصل نفسه عنها بقدر أو بآخر، بل كأنما يتكلّم من خلال لغة ثخنت قليلاً وتشيات وتغربت عنه قليلاً.

النّاثر الروائى لا يخلّص مقاصد الغير من لغة عمله المتنوعة فى أنماطها الكلامية، ولا يهدم المنظورات الأيديولوجية الاجتماعية (العوالم الكبيرة والصغيرة) التى تتكشف وراء لغات التتوّع اللكلامى،

(١) أى إن الكلمات، إذا فهمت على أنها كلمات مباشرة، ليست كلماته، لكنها كلماته بوصفها منقولة بلهجة ساخرة، معروضة إلخ أى بوصفها مفهومة من مسافة مناسبة.

بل يدمجها فى عمله. الناثر يستخدم الكلمات المأهولة بمقاصد اجتماعية غريبة، ويجعلها فى خدمة نواياه الجديدة، يجعلها تخدم سيدا ثانيا، جديدا. ولهذا فمقاصد الناثر تتعكس منكسرة وبزوايا مختلفة تبعا للغات التنوع الكلامى العاكسة من حيث غرابتها الاجتماعية الأيديولوجية، وثخانتها، وشيئيتها.

إن توجه الكلمة وسط أقوال الآخرين ووسط لغات الآخرين وكل ما يرتبط بهذا التوجه من ظواهر وإمكانات خاصة يكتسب فى الأسلوب الروائى معنى فنيا. فتتعدد الأصوات والتنوع الكلامى يدخلان الرواية وينتظمان فيها فى نظام فنى متماسك. وفى هذا الخصوصية المميزة للجنس الروائى.

والأسلوبية المناسبة لخصوصية الجنس الروائى هذه لا يمكن أن تكون إلا الأسلوبية السوسولوجية. فالحوارية الاجتماعية الداخلية للكلمة الروائية تستلزم تبيان سياق الكلمة الاجتماعى الشخص الذى يحكم بنيتها الأسلوبية كلها، "شكلها" ومضمونها"، ويحكمها إلى هذا ليس من الخارج، بل من الداخل؛ ذلك أن الحوار الاجتماعى يتردد فى الكلمة ذاتها، فى لحظاتها كلها ما اتصل منها "بالمضمون" وما اتصل منها "بالشكل" نفسه.

إن تطور الرواية يقوم على تعميق الحوارية وتوسيعها وإحكامها. وبذلك يتقلص عدد العناصر المحايدة، الصلبة التي لا تدرج في الحوار. فيتغلغل الحوار بالتالي إلى أعماق الجزيئات وأخيرًا إلى أعماق الذرات في الرواية.

الكلمة الشعرية اجتماعية بطبيعة الحال، لكن الأشكال الشعرية تعكس العمليات الاجتماعية الأطول مدى، أو قل نزعات الحياة الاجتماعية على مدى قرون. أما الكلمة الروائية فرد فعلها على أصغر وأقل تطور أو اهتزاز في الجو الاجتماعي مرهف جدًا وسريع، وهي إلى ذلك، تردّ كلها، في كل لحظاتها.

والتنوع الكلامي الذي يدخل الرواية يخضع فيها لمعالجة فنية. فكل الأصوات الاجتماعية والتاريخية التي تسكن اللغة، أصواتها كلها وأشكالها كلها، وتعطى هذه اللغة معاني محدّدة مشخّصة، تستظم في الرواية في نظام أسلوبى متماسك يعبر عن موقع المؤلف الأيديولوجى الاجتماعى المتميز فى التنوع الكلامى للعصر.

الدراسة الثالثة

التنوع الكلامي في الرواية

إن الأشكال التأليفية لإدخال وتنظيم التنوع الكلامي في الرواية التي توفرت لدينا خلال التطور التاريخي لهذا الجنس في مختلف أنواعه شديدة التنوع. وكل شكل من هذه الأشكال يرتبط بإمكانات أسلوبية معينة، ويتطلب أشكالا معينة من المعالجة الفنية "لغات" التنوع الكلامي المدرجة في الرواية. ولن نتوقف هنا إلا على الأشكال الأساسية والنمطية بالنسبة لمعظم أنواع الرواية.

إن الشكل الأوضح خارجيا والجوهري جدًا من الناحية التاريخية في الوقت نفسه من بين أشكال إدخال التنوع الكلامي وتنظيمه هو ذاك الذي يقدمه ما يسمى الرواية الفكاهية، وممثلوها الكلاسيكيون هم فيلدينغ وسموليت وستيرن وديكنز وتيكرى وغيرهم في إنكلترا، وهيل وجان بول في ألمانيا.

فنحن نقع في الرواية الفكاهية الإنكليزية على إعادة صياغة لكل طبقات اللغة الأدبية المحكية الكتابية المعاصرة لهذه الرواية تقريبا عن طريق المحاكاة الفكاهية. فكل رواية تقريبا من روايات الممثلين الكلاسيكيين لهذا النوع من الرواية الذين ذكرناهم سابقا موسوعة تتضمن كل طبقات اللغة الأدبية وأشكالها: فالقصة، تبعا لموضوع التصوير، يستعيد عن طريق المحاكاة الساخرة أشكال البلاغة البرلمانية حيناً، وبلاغة رجال القانون والقضاء حيناً ثانياً، والأشكال الخاصة بلغة

المحاضر البرلمانية الرسمية حيناً ثالثاً، والقضائية حيناً رابعاً، وأشكال التحقيق الصحفي حيناً خامساً، ولغة "السيتي" العملية الجافة حيناً سادساً، وتقولات النمامين حيناً سابعاً، وكلام أدعياء العلم حيناً ثامناً، والأسلوب الملحمي الرفيع أو الأسلوب التوراتي حيناً تاسعاً، وأسلوب الوعظ الأخلاقي المنافق حيناً عاشراً، وأخيراً الطريقة الكلامية للشخص المعين والمحدد اجتماعياً الذي يدور الكلام عنه.

هذه الأسلبة لطبقات اللغة الجنسية والمهنية وغيرها، وهى أسلبة محاكاة ساخرة عادة، تُقاطع أحياناً بكلمة المؤلف المباشرة (الحماسية أو العاطفية الحاملة عادة) التى تجسد مباشرة (دون موارد) مقاصده معانى وقيماً. لكن أساس اللغة فى الرواية الفكاهية هو نمط خاص تماماً من أنماط استخدام "اللغة العامة". هذه "اللغة العامة"، وهى عادة اللغة المحكية الكتابية المتوسطة لفئة ما، يأخذها المؤلف بوصفها رأياً عاماً بالضبط، بوصفها المقاربة الكلامية للناس والأشياء المألوفة بالنسبة لفئة ما من فئات المجتمع، بوصفها وجهة النظر الشائعة والتقويم الشائع. المؤلف يفصل نفسه بقدر أو بآخر عن هذه اللغة العامة، يتخى جانباً ويشيء هذه اللغة، جاعلاً مقاصده تتعكس خلال وسط الرأى العام هذا (السطحي دائماً والمرائى فى كثير من الأحيان) المتجسد فى اللغة.

إن علاقة المؤلف هذه باللغة بوصفها رأياً عاماً ليست علاقة جامدة، بل إنها دائماً فى حالة حركة حية ما واهتزاز قد يكون أحياناً اهتزازاً إيقاعياً: فالمؤلف يشدد فى محاكاته الساخرة بقوة أكبر أو أقل على لحظات أو أخرى من لحظات "اللغة العامة"، فتراه يكشف بحدة

أحيانا عدم تطابق "اللغة العامة" والموضوع، وتراه فى أحيان أخرى يكاد، على العكس من ذلك، يتضامن معها غير محتفظ إلا بمسافة ضئيلة بينه وبينها، وتراه فى أحيان غيرها يجعل "حقيقته" تتردد فيها مباشرة، أى يوحد صوته بصوتها توحيدا كاملا. وفى هذا كله تتغير على التوالى تلك اللحظات فى اللغة العامة، التى يجرى التشديد عليها فى المحاكاة الساخرة فى هذه الحالة، أو تلك التى يلقى عليها ظل الموضوعات - الأشياء. إن الأسلوب الفكاهى يقتضى حركة المؤلف الحية هذه باتجاه اللغة أو ارتداد عنها، يقتضى هذا التغير المستمر فى المسافة بينهما والانتقال المتتالى من ضوء هذه أو تلك من لحظات اللغة إلى ظلها وبالعكس، وإلا لكان هذا الأسلوب رتيبا أو لاقتضى تفريد الرواية، أى لاقتضى شكلا آخر من أشكال إدخال التنوع الكلامى وتنظيمه.

عن هذه الخلفية الأساسية "اللغة العامة" للرأى الشائع العديم الشخصية، تنفصل فى الرواية الفكاهية وتبرز تلك الأساليب القائمة على المحاكاة الساخرة للغات الأجناس والمهن وغيرها من اللغات التى تكلمنا عليها والكتل المتراسة لكلمة المؤلف المباشرة الانفعالية^(١) والتعليمية الأخلاقية والعاطفية الحزينة أو الوداعة.

(١) الانفعالية هنا وفيما يتبع نورها ترجمة لكلمة "باتيتيك"، والكلمة الروسية مشتقة من الكلمة اليونانية "باتوس" التى هى جذرها وجذر مفردات مماثلة فى اللغات الأوروبية وتعنى بالأصل التلقى إلى حد الاستغراق والانصهار، وتشير اعتياديا إلى وضع عاطفى، وقد تشير إلى العذاب المطلق أى الذى يمتص الإنسان كله.

وعلى هذا فكلمة المؤلف المباشرة تتحقق فى الرواية الفكاهية فى أسلbat مباشرة مطلقة للأجناس الشعرية (الريفية، الرعوية إلخ) أو البلاغية (الانفعالية والتعليمية الأخلاقية). ويمكن للانتقالات من اللغة العامة إلى محاكاة لغات الأجناس وغيرها محاكاة ساخرة، وإلى كلمة المؤلف المباشرة، أن تكون تدريجية بقدر أو بآخر أو، على العكس، حادة. ذلكم هو نظام اللغة فى الرواية الفكاهية.

ولنتوقف قليلا لتحليل بعض أمثلة من ديكنز فى روايته "الفتاة الصغيرة دوريت". ولنستعن بترجمة م.أ. ابنغيلغارت، فهى تحافظ بشكل كاف على الخطوط الأساسية والعريضة لأسلوب الرواية الفكاهية التى هى موضع اهتمامنا هنا.

(١) "كان الحديث يدور فى نحو الرابعة أو الخامسة بعد الظهر، حين يضج هارلى ستريت وكافندش سكفير بقرقة العربات ومداق الأبواب. وفى تلك الدقيقة إياها التى انتهى فيها الحديث إلى النتيجة المذكورة عاد مستر ميردل - إلى البيت بعد أعماله اليومية التى لم يكن لها من هدف سوى نشر الاسم البريطانى وتمجيده على نطاق أوسع فى كل أرجاء العالم القادر على تقدير الأعمال التجارية الضخمة والمشروعات العملاقة القائمة على دعامتين من عقل ورأس مال حق قدرها. ومع أن أحدا لم يكن يعرف على وجه الدقة ما فحوى أعمال المستر ميردل هذه بالضبط (كان المعروف فقط أنه يصنع المال صنعا)، إلا أنه بهذه العبارات بالذات كان نشاطه يوصف فى كل المناسبات الاحتفالية، وكانت هذه هى الصيغة الجديدة المهدبة التى تبناها الجميع دون نقاش لمثل الجمل وخرم الإبرة" (الكتاب الأول، الفصل الثالث والثلاثون).

لقد أبرزنا أسلبة لغة الخطب الاحتفالية (فى البرلمان، فى المآدب) عن طريق المحاكاة الساخرة. وقد مهد تركيبُ الجملة المؤداة من بدايتها بنفس ملحمي فخم بعض الشيء الانتقال إلى هذا الأسلوب. تلا ذلك إنما بلغة المؤلف هذه المرة (وبالتى بأسلوب آخر) كشف معنى المحاكاة الساخرة الذى ينطوى عليه الوصف الفخم لأعمال ميردل: إذ يتبين أن هذا الوصف ("بهذه العبارات كان نشاطه يوصف فى كل المناسبات الاحتفالية...").

هنا إذن أدرج فى كلمة المؤلف (القصة) كلام الآخر فى شكل خفى أى دون أى سمات شكلية لكلام الآخر (المباشر أو غير المباشر). لكن هذا ليس فقط كلام الآخر باللغة ذاتها، بل إنه قول الآخر بلغة غريبة على المؤلف، هى اللغة القديمة للأجناس الخطابية الرسمية الاحتفالية المرائية.

(٢) "وبعد يوم أو يومين عرفت المدينة كلها أن إدموند سباركر الوجيه^(٣) وربيب المستر ميردل الذى (ميردل) طبقت شهرته آفاق العالم كله أصبح واحدا من أقطاب وزارة المستعمرات، وأعلن لكل المخلصين أن هذا التعيين المدهش لفئة عطف وكرم من صاحب العطف والكرم ديتسيموس نحو طبقة التجار التى يجب أن تكون مصالحها فى بلد تجارى عظيم دائما... إلى آخره إلى آخره إلى آخره؛ - مع كل ما يلزم ذلك من أبهة وكلمات طنانة. وانطلق المصرف

(*) Esquire وهو لقب شرف.

المدهش وغيره من المشروعات المدهشة دفعة واحدة تنمو وتتوسع بعد أن حظيت بلفتة التشجيع الرسمية، وأخذت جموع المتسكعين والمتعطلين تتزاحم في هارلى ستريت وكفندش سكفير لمجرد إلقاء نظرة على منزل الثرى" (الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر).

إن كلام الآخر المؤدى بلغة أخرى، غريبة (اللغة الرسمية الفخمة) وهو الذى أبرزناه هنا، مدرج فى شكل مكشوف (إنه كلام غير مباشر). لكنه محاط أيضا بشكل خفى يتمثل فى كلام الآخر المتناثر (والمؤدى بنفس اللغة الرسمية الفخمة) الذى يمهد إدخال الشكل المكشوف ويمكنه من أن يكون له وقعه. فإضافة كلمة "وجيه" إلى اسم سباركلر، وهى صفة تميز اللغة الرسمية، تمهد لهذا الشكل كما تكمله الصفة "مدهش". وهذه الصفة لا يطلقها المؤلف بطبيعة الحال بل "الرأى العام" الذى أثار لغطا شديدا حول أعمال ميردل المغالى فى تضخيمها.

(٣) "أما الغداء فكان قمينا بإثارة الشهية فعلا. أطباق لذيذة أعدت بشكل رائع وقدمت بشكل رائع؛ وفواكه فاخرة وخمور نادرة؛ وأدوات طعام هى آيات فنية صنعت من الذهب والفضة والبلّور والخزف؛ متع لا تحصي للذوق وللشم وللنظر. أوه، يا له من إنسان مدهش ميردل هذا، يا له من إنسان عظيم، يا له من إنسان موهوب، يا له من إنسان عبقرى، وباختصار يا له من إنسان غنى!" (الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر).

المطلع هو أسلبة عن طريق المحاكاة الساخرة للأسلوب الملحمي الرفيع. يليها تبجيل مبهور لميردل، كلام غريب خفى هو كلام جوقة المعجبين به (وهو الكلام المبرز). ونقطة النهاية تتمثل فى فضح مراعاة هذه الجوقة بالكشف عن السبب الحقيقى لهذا التبجيل: ف كلمات "مدهش"، "عظيم"، "عبرى" يمكن أن تستبدل بكلمة واحدة هى "غنى". إن الفضح الذى يقوم به المؤلف مباشرة فى نطاق الجملة البسيطة نفسها يندمج بكلام الآخر الذى يجرى فضحه. إن النبرة الحماسية للتبجيل تتراكب مع نبرة أخرى، نبرة استياء ساخرة تهيمن فى كلمات الفضح الأخيرة من الجملة.

أمامنا هنا تركيب هجين نموذجى ثنائى النبرة وثنائى الأسلوب.

إننا نسمّى تركيباً هجيناً ذلك القول الذى يعود بسماته النحوية والتأليفية إلى متكلم واحد، إنما يختلط فيه، فى الواقع، قولان، طريقتان فى الكلام، أسلوبان، "لغتان"، أفقان من المعانى والقيم. ونعود فنكرر أن لأحد شكلياً - تأليفيّاً أو نحويّاً - بين هذين القولين، الأسلوبين، اللغتين، الأفقين؛ الانقسام بين الأصوات واللغات يجرى فى نطاق الكل النحوى الواحد وغالباً ما يكون فى نطاق الجملة البسيطة، بل كثيراً ما تعود كلمة واحدة فى الوقت نفسه إلى لغتين، أفقين يتقاطعان فى التركيب الهجين، وبالتالى تكتسب هذه الكلمة معنيين ونبرتين مختلفتين (وسنورد أمثلة على ذلك فيما بعد). وللتراكيب الهجينة أهمية هائلة فى الأسلوب الروائى^(١).

(١) المزيد من التفصيل فى التراكيب الهجينة وأهميتها فى الفصل الرابع من هذه الدراسة.

٤) "لكن المستر تيت بوليب كان يبكّل كل أزراره وبالتالي كان إنساناً له وزنه" (الكتاب الثاني، الفصل الثاني عشر).

هذا مثال على التعليل الموضوعي الكاذب، وهو أحد أنواع كلام الآخر الخفي الذي هو في مثالنا الراهن كلام "الرأى العام" تحديداً. إن التعليل من حيث سماته الشكلية كلها هو تعليل المؤلّف، والمؤلّف متضامن معه شكلياً، لكن التعليل، في حقيقة الأمر، يقع في نطاق الأفق الذاتى للشخص أو للرأى العام.

إن التعليل الموضوعي الكاذب، وهو أحد أنواع التركيب الهجين في شكل كلام الآخر الخفي، ويميّز الأسلوب الروائي عامة^(١). فأدوات الربط بين الجمل وأدوات العطف (حيث إن، لأن، بسبب أن.. على الرغم من... إلخ) وكل الكلمات الاعتراضية المنطقية (وهكذا، وبالتالي..)^(*) تُضيع قصد المؤلّف المباشر وتتردّد كلغة غريبة، تصبح عاكسة بل حتى متصلةً تماماً بالموضوع - الشيء.

ويميّز هذا النوع من التعليل بشكل خاص الأسلوب الفكاهي الذي يهيمن فيه شكل كلام الآخر (كلام شخص معين أو، في حالات أكثر، الكلام الجماعي)^(٢).

(١) لكنه غير ممكن في الملحمة.

(*) لا نرى ضرورة للتذكير هنا بأن الباحث يشير إلى تركيب الجملة في اللغات الأوروبية عامة: الجملة البسيطة، الجملة المركبة، بشقيها: الجملة الرئيسية والجملة التابعة. (المترجم)

(٢) قارن التعليقات الموضوعية ومبالغاتها الساخرة عند غوغول.

٥) "وكما يملأ الحريق الكبير الفضاء بهديره إلى مسافات هائلة، هكذا الشعلة المقدسة التي أوقدها أمثال بوليب من كبار المتنفذين في محراب ميردل العظيم مضت تملأ الجو أبعد فأبعد بدوى هذا الاسم. كان هذا الاسم يتردد على كل الشفاه ويصم كل الأذان.

لا، لم يوجد ولن يوجد شخص كالمستر ميردل.

لم يكن أحد يعرف، كما قلنا، ما هي هذه المآثر التي اجتريتها. لكن كل واحد كان يعرف أنه أعظم بنى البشر طرّاً" (الكتاب الثانى، الفصل الثالث عشر).

إنها بداية ملحمة "هوميروسية" (تتسم بالمحاكاة الساخرة طبعاً) وقد أدرج فى إطارها تبجيل الجمهور لميردل (كرم الآخر الخفى مؤدى بلغة الآخر، بلغة غريبة). يلى ذلك كلمات المؤلف، إلا أن عبارة: كان واحد يعرف إلخ (وهى التى أبرزناها) أكسبت طابعاً موضوعياً، فكان المؤلف نفسه لا يشك فى هذا القول.

٦) "وتابع الرجل المشهور زينة الوطن وعنوانه المستر ميردل مسيرته الباهرة. شيئاً فشيئاً أخذ الجميع يدركون أن رجلاً له هذه الأيادى البيض على المجتمع، الذى اعتصر منه هذه الكمية الهائلة من المال، لا يجوز أن يبقى مواطناً بسيطاً، عادياً. قال بعضهم إنه سيُنعم عليه بلقب باروفيست، وتكلم آخرون عن لقب بير" (الكتاب الثانى، الفصل الرابع والعشرون).

هنا أيضًا نفس التضامن الوهمي مع الرأي العام المستحس مراعاة لميردل. كل الصفات الملصقة بميردل في الجملة الأولى هي وصفات أطلقها الرأي العام، أي هي كلام الآخر الخفي. أما الجملة الثانية "وشيئًا فشيئًا أخذ الجميع يدركون إلخ" فمؤداة بأسلوب موضوعي مؤكد عليه، ليس بوصفها رأيًا ذاتيًا، بل بوصفها حقيقة موضوعية لا مجال للشك فيها على الإطلاق. أما الصفة "له هذه الأيادي البيض على المجتمع" فتتوضع كلها في نطاق الرأي العام الذي يكرر التبجيل الرسمي. لكن الجملة التابعة المتعلقة بهذا التبجيل: "الذي اعتصر منه هذه الكمية الهائلة من المال" هي كلمات المؤلف نفسه (كأنه وضع بين قوسين كمقبوس). ثم تأتي تنمة الجملة الرئيسية لتتوضع من جديد في نطاق الرأي العام. وعلى هذا تتدرج كلمات المؤلف الفاضحة على شكل استشهاد "من الرأي العام". أمامنا هنا تركيب هجين نموذجي الجملة التابعة فيه هي كلام المؤلف المباشر، والجملة الرئيسية هي كلام الآخر. والجملتان الرئيسية والتابعة مبنيتان في أفقى قيم ومعان مختلفين.

إن كل ذلك الجزء من العمل في الرواية الذي يدور حول ميردل والشخص المرتبطين به مصورٌ بلغة (أو الأدق بلغات) الرأي العام المستحس مراعاة لميردل، فأحيانًا تؤسلب، عن طريق المحاكاة الساخرة، اللغة الحياتية لثرثرة المجتمع الراقى المتملقة، وأحيانًا اللغة الفخمة للإعلانات الرسمية وخطب المآدب، وحينًا ثالثًا الأسلوب الملحمي الرفيع، وحينًا آخر الأسلوب التوراتي. هذا الجو الذي أوجد

حول ميردل، وهذا الرأي العام فيه وفي مشروعاته أثر حتى في أبطال الرواية الإيجابيين وعلى الأخص في بنكس الواعي اليقظ وجعله يوظف كل ثروته وثروة دوريت في مشاريع ميردل الوهمية.

(٧) "أخذ الدكتور على عاتقه إيصال هذا الخبر إلى هالي ستريت. ولم يكن بوسع المحامي العودة فوراً إلى إقناع أروع محلفين اتفق له أن رآهم في حياته على هذا المقعد وأوسعهم علماً، محلفين يجرؤ على التأكيد لزملائه في المهنة أن لا جدوى من اللجوء إلى السفسطة المبتذلة معهم ولا أمل في التأثير فيهم ببراعتهم المهنية وفنهم (بهذه الجملة كان يتهيأ لبدء خطابه)، ولهذا تطوَّع للذهاب مع الدكتور قائلاً له إنه سينتظره في الشارع إلى أن يخرج من البيت" (الكتاب الثاني، الفصل الخامس عشر).

أمامنا هنا تركيب هجين واضح كل الوضوح، فقد وُضع في إطار كلام المؤلف (الإخباري) "ولم يكن بوسع المحامي العودة فوراً إلى إقناع... محلفين... ولهذا تطوَّع للذهاب مع الدكتور" إلخ مطلع الخطاب الذي أعدّه المحامي، هذا إلى أن الخطاب جاء بمثابة وصف موسع للإضافة المباشرة في كلام المؤلف "المحلفين" أما كلمة "محلفين" ذاتها فتدخل في سياق كلام المؤلف الإخباري (بوصفها تنمة ضرورية لكلمة "إقناع")، كما تدخل في الوقت نفسه في سياق كلام المحامي المؤسلب عن طريق المحاكاة الساخرة. أما كلمة المؤلف "إقناع" فتبرز المحاكاة الساخرة في استعادة خطاب المحامي الذي يتلخص معنى المراءاة فيه بالضبط في استحالة إقناع محلفين كهؤلاء.

٨) "وباختصار أُخِذَتْ المستريس ميردل بوصفها سيدة من سيدات المجتمع الراقى رفيعة التهذيب وضحية تعيسة لبربرى جلف (إذ التصقت هذه الصفة بالمستر ميردل وغطته من رأسه حتى أخمص قدميه من اللحظة التي تبين فيها أنه فقير) تحت رعاية وسطها الراقى وحمايته لمصلحة هذا الوسط" (الكتاب الثانى، الفصل الثالث والثلاثون).

هنا أيضاً تركيب هجين يمتزج فيه وصف الرأى العام السائد فى الطبقة الراقية للمستريس ميردل بأنها "ضحية تعيسة لبربرى جلف" بكلام المؤلف الذى يفضح رياء هذا الرأى العام وأثرته.

هكذا رواية ديكنز كلها. بوسعنا، فى الواقع، وضع نصها كله ضمن علامات تنصيص وبالتالى فصل جزر صغيرة من كلام المؤلف المباشر والخالص المتناثر هنا وهناك، جزر تغمرها أمواج التنوع الكلامى من كل جوانبها. لكن هذا ليس بالأمر الممكن لو أردناه فعلاً، ذلك أن الكلمة الواحدة، كما رأينا، كثيراً ما تتدرج فى الآن عينه فى كلام المؤلف وكلام الآخر.

أن كلام الآخر المروى والمحاكى بسخرية والمعروض فى إنارة معينة والمتوضع كتلاً ضخمة حيناً أو المتناثر حيناً آخر، العديم الشخصية فى معظم الأحيان ("الرأى العام"، لغات المهن والأجناس) لا ينفصل فى أى مكان انفصالا واضحاً عن كلام المؤلف: الحدود هنا مائعة وغامضة عن قصد، وكثيراً ما تخترق كلاً نحويًا واحدًا هو

الجملة البسيطة غالبًا، أو تفصل في أحيان كثيرة أخرى العناية سر الرئيسية في الجملة. هذا اللعب المتعدد الأشكال بحدود أنماط الكلام واللغات والآفاق هو إحدى أكثر لحظات الرواية الفكاهية جوهرية.

إن الأسلوب الفكاهي (في نمطه الإنكليزي) يقوم إذن على إمكانية تفكيك اللغة العامة وعلى إمكان فصل مقاصده بقدر أو بآخر عن طبقاتها (اللغة) دون أن يتضامن معها تضامنا كاملاً. أن التنوع الكلامي بالذات وليس وحدة اللغة العامة المعيارية هو قاعدة الأسلوب. صحيح أن هذا التنوع الكلامي لا يخرج هنا عن حدود اللغة الأدبية الواحدة ألسنيا (من حيث سماتها اللغوية المجردة)، ولا يتحول هنا إلى تنوع لغوي حقيقي، بل يتركز على الفهم اللغوي المجرد على مستوى اللغة الواحدة (أى لا يقتضى معرفة لهجات أو لغات مختلفة). لكن الفهم اللغوي هو لحظة مجردة من فهم التنوع الكلامي الحي، المُدرَج في الرواية والمنظم فيها فنياً، فهما مشخفاً وفعّالاً (حواريًا).

ونجد عند رواد الرواية الفكاهية الإنكليزية أسلاف ديكنز - فيلدينغ وسموليت وستيرن - نفس الأساليب لمختلف طبقات اللغة الأدبية وأجناسها عن طريق المحاكاة الساخرة، لكن المسافة عندهم أكبر مما عند ديكنز والمبالغة أشدّ (خصوصاً عند ستيرن) إلى أعماق طبقات التفكير الأيديولوجي الأدبي، ويتحول إلى محاكاة ساخرة للبنية المنطقية والتعبيرية لأى كلمة أيديولوجية (علمية، أخلاقية بلاغية، شعرية) بما هي كذلك (بنفس الجذرية التي نجدها عند رابليه تقريباً).

وتلعب المحاكاة الساخرة الأدبية بالمعنى الضيق للكلمة (محاكاة رواية ريتشاردسن عند فيدلنيغ وسموليت، ومحاكاة كل أنواع الرواية المعاصرة عند ستيرن) دوراً جوهراً جداً في بناء اللغة عند هؤلاء الروائيين. فالمحاكاة الساخرة الأدبية تزيد من إبعاد المؤلف عن اللغة ومن تعقيد علاقته بلغات عصره الأدبية بما في ذلك مجال الرواية بالذات. إذ تصبح الكلمة الروائية السائدة في حقبة ما هي نفسها موضوعاً - شيئاً، وتصبح بالتالي وسطاً لانعكاس مقاصد المؤلفين الجديدة أنعكاساً موارباً.

ودور المحاكاة الساخرة الأدبية للنوع الروائي السائد عظيم جداً في تاريخ الرواية الأوروبية. ويمكننا القول إن أهم النماذج والأنواع الروائية قد أبدعت خلال عملية هدم العوالم الروائية السابقة عن طريق المحاكاة الساخرة. هكذا فعل سرفانتس وميندوسا وغريميلسها وزن ورابليه وليساج وغيرهم.

فعند رابليه الذي مارس تأثيراً عظيماً على النثر الروائي كله ولا سيما الرواية الفكاهية، كان موقف المحاكاة الساخرة من كل أشكال الكلمة الأيديولوجية تقريباً - الفلسفية، الأخلاقية، العلمية، البلاغية، الشعرية - وخصوصاً من كل الأشكال العاطفية الانفعالية لهذه الكلمة (فبين العاطفية الانفعالية والكذب كان رابليه يرى على الدوام تقريباً علامة مساواة)، كان هذا الموقف يتعمق إذن حتى يصل إلى مستوى المحاكاة الساخرة للتفكير اللغوي عامة. وتبدو سخرية رابليه وتهكمه من الكلمة الإنسانية الكاذبة، بالمناسبة، في هدمه التراكيب النحوية عن

طريق المحاكاة الساخرة وإيصال بعض لحظاتها المنطقية والنبروية التعبيرية حتى حدود اللا معقول (المواعظ والتفسيرات على سبيل المثال). الابتعاد عن اللغة (بوسائل اللغة ذاتها بالطبع) والتشهير بأى قصدية وتعبيرية مباشرة وتلقائية (بأى رصانة "خطيرة") للكلمة الأيديولوجية بوصفها قصدية وتعبيرية مفتعلة وكاذبة لا تتفق والواقع عن سوء نية يبلغان عند رابليه دائما نقاء نثريا أقصى لكن الحقيقة التى تقف فى وجه الكذب تكاد لا تحظى أبدا بتعبيرها القصدى الكلمى المباشر هنا، تكاد لا تحظى بكلمتها الخاصة، بل نشعر بها تتردد من خلال إبراز الكذب والتشديد الفاضح عليه عن طريق المحاكاة الساخرة. الحقيقة تعاد إلى نصابها عن طريق دفع الكذب حتى حدود اللامعقول، لكن الحقيقة نفسها لا تبحث لها عن كلمات، إنها تخاف أن تتعثر فى الكلمة وتتورط وتغوص الانفعالية الكلمية.

ونحن إذ ننوّه بالتأثير الهائل "لفلسفة الكلمة" عند رابليه فى النثر الروائى الذى تلاه كله ولا سيما فى النماذج العظيمة للرواية الفكاهية، وهى فلسفة لم تعبّر عن نفسها فى أقواله المباشرة بقدر ما عبّرت عن نفسها فى ممارسته الأسلوبية، لا بدّ لنا من إيراد اعتراف بطل ستيرن "إيوريك" وهو اعتراف مفعم بروح رابليه تماما وقمين بأن يكون تصديرا لتاريخ أهم خطّ أسلوبى فى الرواية الأوروبية:

"وإنى لأفكر إن لم يكن ميله المشؤوم إلى الظرافة هو سبب هذا الهرج والمرج ؟ إلى حدّ ما، ذلك أن إيوريك، إذا شئنا الحقيقة، كان يكنّ اشمئزا فطريا لا يقاوم للرصانة، ليس للرصانة الحقيقة القيّمة

بذاتها، فحين كانت هذه ضرورية ولازمة كان يصبح أرصن إنسان في العالم أياما وحتى أسابيع كاملة، بل للرصانة المتكلفة التي تكون ستارًا للجهل والغباء؛ مع هذه كان دائما في حرب معلنة، ولم يكن يهادنها أو يرحمها مهما أجادت التستر أو الاحتماء.

وأحيانا كان يؤكد، وقد استغرق في الحديث، أن الرصانة كسول حقيقى وأنها إلى ذلك من أخطر أنواع الكسالى، من النوع الماكر، وكان على قناعة عميقة بأنها خربت في عام وشردت من الناس الشرفاء والسليمى الطوية والتفكير أكثر مما خربت وشردت كل لصوص الجيوب والمحلات في سبعة أعوام. وكان يقول: طيبة القلب المرح ليست خطرا على أحد، ولا يمكن أن تضر إن أضرت إلا بصاحبها، في حين أن جوهر الرصانة يكمن في النية المسبقة السيئة وبالتالي في الخداع؛ إنها طريقة مدروسة ومحفوظة في تظاهر الإنسان أمام الناس بأنه أذكى وأعرف مما هو في الواقع. وعلى هذا فهي رغم دعاويها العريضة كلها ليست أبدا أفضل، بل هي أحيانا أسوأ مما عرفها أحد الظرفاء الفرنسيين القدامى في حينه إذ قال: الرصانة سلوك خفى للجسم يفترض فيه ستر نواقص الروح. وعن هذا التعريف قال إيوريك باندفاع وجرأة ما معناه أنه خليك أن يكتب بأحرف من ذهب".

ويقف سرفنتس إلى جانب رابليه، بل حتى متفوقا عليه إلى حد ما من حيث تأثيره الحاسم في النثر الروائى كله. والرواية الإنكليزية الفكاهية مشبعة إشباعا عميقا بروح سرفنتس. وليس من قبيل المصادف أن يردد إيوريك إياه وهو على فراش الموت كلمات سانتشوبنسا.

أما الفكاهيون الألمان ونذكر منهم هيل وبالذات جان بول فموقفهم من اللغة وتفككها من حيث الجنس أو المهنة وغيرها، وهو موقف ستيرنى أساساً، يتعمق كما عند ستيرن حتى يبلغ مستوى الإشكالية الفلسفية الخالصة للكلام الأدبي والأيدولوجى بما هو كذلك. إذ أن الجانب الفلسفى النفسى فى موقف المؤلف من كلمته كثيراً ما يدفع إلى المؤخرة لعب القصد بالطبقات المشخصة، الجنسية الأيدولوجية فى الدرجة الأولى، للغة الأدبية (راجع انعكاس ذلك فى نظريات جان بول الجمالية^(١)).

وعلى هذا فتفكك اللغة الأدبية وتتوَّع أنماطها الكلامية هما المقدمة الضرورية للأسلوب الفكاهى الذى يجب أن تسقط عناصره فى مختلف المستويات اللغوية، فى حين أن مقاصد المؤلف يمكنها، وهى تنعكس فى كل هذه المستويات، ألا تمنح ذاتها كاملةً إلى أى من هذه المستويات. فكأنما ليس للمؤلف لغته الخاصة، إنما له بالمقابل أسلوبه، قانونه العضوى الواحد المتصل بتلاعبه باللغات وبعكس مقاصده المعنوية والتعبيرية الحقيقية فى هذه اللغات. هذا التلاعب باللغات والغياب الكامل فى أحيان كثيرة لكلمة المؤلف المباشرة، الخاصة به حتى النهاية لا ينتقص بطبيعة الحال من القصديّة العميقة العامة للعمل كله أى من تأويله الأيدولوجى.

(١) العقل المتجسد فى أشكال التفكير الكلى الأيدولوجى وطرائقه أى الأفق اللغوى العقل الإنسانى العادى يصبح حسب جان بول ضئيلاً ومضحكاً دون حدود فى ضوء فكرة العقل (بمعنى ملكة الفهم). والفكاهة لعب مع العقل بمعناه الضيق وأشكاله.

يتصف إدخال التنوع الكلامي في الرواية الفكاهية واستخدامه الأسلوبى فيها بخاصتين:

(١) يتم إدخال تعدد اللغات والآفاق الـكـلمـية الأيديولوجية المتصلة بالأجناس والمهن والمجموعات الفتوية (لغة رجل البلاط، المزارع، التاجر، الفلاح) والاتجاهات والحياة اليومية (لغة النميمة وثرثرة المجتمع الراقى والخدم) إلخ فى نطاق اللغة الكتابية والمحكية فى المقام الأول فى حقيقة الأمر؛ إلا أن هذه اللغات لا يختص بها شـخـوص معينون فى معظم الأحوال (أبطال رواة) بل يتم إدخالها فى شكل عديم الشخصية "من قبل المؤلف" متناوبة مع كلمة المؤلف المباشرة (دون اعتبار لحدود شكلية واضحة).

(٢) ومع أن اللغات والآفاق الأيديولوجية الاجتماعية المدخلة تُستخدم بطبيعة الحال لتحقيق مقاصد المؤلف بطريقة الانعكاس الموارب، إلا أنه يجرى فضحها وتقويضها بوصفها كاذبة، مرائية، مغرضة، محدودة، حيوية، لا تتطابق والواقع. هذه اللغات فى معظم الأحيان لغات مكتملة معترف بها رسمياً، سائدة، سلطوية، رجعية محكوم عليها بالموت أو الاستبدال. ولهذا تهيمن أشكال ودرجات مختلفة من أشكال أسلبة اللغات المدخلة عن طريق المحاكاة الساخرة ودرجاتها التى تقترب عند أشد الممثلين الرابليويين^(١) لهذا النوع من الرواية راديكالية (عند ستيرن وجان بول) من رفض أى رصانة

(١) لا يمكننا إدراج رابليه ذاته لا من حيث الزمان ولا من حيث جوهر الموضوع فى عداد ممثلى الرواية الفكاهية بالمعنى الدقيق للكلمة.

صريحة ومباشرة (الرصانة الحقيقية تقوم على تقويض أى رصانة كاذبة، وليس الرصانة الانفعالية وحسب، وإنما العاطفية أيضا) من النقد المبدئي للكلمة بما هى كلمة.

عن هذا الشكل الفكاهى لإدخال التنوع الكلامى فى الرواية وتنظيمه تختلف اختلافا جوهرياً مجموعة الأشكال التى يحكمها إدخال مؤلف مفترض (الكلام المكتوب) أو راوية مفترض (الكلام الشفوى) مجسد ومشخص.

إن اللعب بالمؤلف المفترض أمر يميز الرواية الفكاهية أيضا (ستيرن، هيل، جان بول) وقد ورثته عن "دون كيخوت". لكن هذا اللعب هنا وسيلة تأليفية خالصة تعزز المستوى العام لنسبية الأشكال والأجناس الأدبية وموضوعيتها ومحاكاتها الساخرة.

إلا أن الراوية أو المؤلف المفترض يأخذ معنى مختلفاً تماماً حين يدخل بوصفه حامل أفق لغوى، إيديولوجى كلى خاص، وجهة نظر خاصة إلى العالم وإلى الأحداث، تقويمات ونبرات خاصة، خاصة بالنسبة إلى المؤلف، إلى كلمته الفعلية المباشرة كما بالنسبة إلى السرد واللغة الأدبيين "العاديين".

إن تمايز أو ابتعاد المؤلف أو الراوية المفترض عن المؤلف وعن الأفق اللغوى "العادى" يمكن أن يكون على درجات مختلفة وذا طابع مختلف. إلا أن المؤلف على أى حال يستعين بهذا الأفق الغريب

الخاص وبوجهة النظر الغربية الخاصة هذه إلى العالم لمردودها،
لقدرتها على إظهار موضوع التصوير نفسه في ضوء جديد من ناحية
(على كشف جوانب ولحظات فيه)، وعلى إنارة ذاك الأفق الأدبي
"العادي" الذي تُدرك خصائص حديث الرواية على خلفيته إنارة جديدة.

وعلى سبيل المثال اختار بوشكسن بيليكن (أو على الأصح
أبدعه) راوية بوصفه وجهة نظر خاصة "لا شاعرية" إلى أشياء
وموضوعات كانت تعتبر شاعرية بالتقليد (فحكاية "روميو وجولييت"
في "الفلاحة النبيلة" أو "رقصات الموت" الرومنطيقية في "حفار القبور"
مقصودة وذات دلالة خاصة). فبيليكن كرواة الصف الثالث الذين أخذ
أقاصيصه عنهم إنسان "ثرى" محروم من الانفعالية الشعرية، والحلول
"النثرية" السعيدة لموضوعات قصصه، وإدارة القصة ذاتها تُخلّ بما
كان ينتظر منها من تأثيرات شعرية تقليدية. وفي عدم فهم الانفعالية
الشعرية يكمن هذا المردود النثرى الخصب لوجهة نظر بيليكن.

فمكسيم مكسيمتش في "بطل من هذا الزمان" ورودي بنكو
والرواة في "الأنف" و"المعطف" وصحفيو الأخبار عند دوستويسفكي،
والرواة الفولكلوريون والشخوص الرواة عند ميلنيكوف بيتشيرسكي
ومامين سيبيرياك، والرواة الفولكلوريون ورواة الأحداث اليومية عند
ليسكوف والشخوص الرواة في أدب "الشعبية"، وأخيراً رواة النثر
الرمزي وما بعد الرمزي - عند ريميزوف وزامياتين وغيرهما - على
كل ما بينهم من اختلاف في أشكال السرد (الشفوية والكتابية) ومن

اختلاف لغات السرد (الأدبية، المهنية، الاجتماعية الفئوية، الحياتية، اللهجوية المحلية جدًا واللهجوية عامة إلخ) يستعان بهم ويُدرجون بوصفهم وجهات نظر وآفاقاً أيديولوجية كلمية خاصة ومحدودة، لكنها مثمرة ومنتجة في محدوديتها وخصوصيتها هاتين، تقابل تلك الآفاق ووجهات النظر التي تُترك (أى الآفاق ووجهات النظر الخاصة) على خلفيتها.

إن كلام أمثال هؤلاء الرواة هو دائماً كلام غريب بلغة غريبة (كلام غريب بالنسبة إلى كلمة المؤلف المباشرة الفعلية أو المحتملة، ولغة غريبة بالنسبة إلى ذلك النوع من اللغة الأدبية الذى تواجهه لغة الراوية).

وفى هذه الحالة أمامنا كلام غير مباشر، كلام ليس باللغة إنما من خلال اللغة، من خلال وسط لغوى غريب، فهو بالتالى انعكاس مقاصد المؤلف مواربة.

المؤلف يحقق ذاته ويحقق وجهة نظره ليس فقط إلى الراوية - كلامه (الراوية) ولغته (اللذين هما شيئان، معروضان)، وإنما إلى موضوع القصة أيضاً، وهى وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر الراوية. فنحن نقرأ وراء حديث الراوية حديثاً ثانياً هو حديث المؤلف عما يتحدث عنه الراوية بالإضافة إلى حديثه عن الراوية ذاته. ونحس إحساساً واضحاً بكل لحظة من لحظات الحديث هذا على مستويين: على مستوى الراوية - مستوى أفقه من حيث معنى الموضوع

وتعبيريته، وعلى مستوى المؤلف الذى يتكلم مواربة بواسطة هذا الحديث ومن خلاله. وفى أفق المؤلف هذا مع كل ما يجرى الحديث عنه يدخلُ الراوية أيضا بكلمته. فنحن نحرز نبرات المؤلف المستقرة على موضوع الحديث كما على الحديث نفسه وعلى صورة الراوية التى تتكشف خلال مجرى هذا الحديث. وعدم إحساسنا بهذا المستوى النبوى القصدى الثانى الذى للمؤلف معناه أننا لم نفهم العمل الأدبى.

إن حديث الراوية أو المؤلف المفترض يُبنى، كما قلنا، على خلفية اللغة الأدبية العادية، على خلفية الأفق اللغوى العادى. وكل لحظة من هذا الحديث تتربط مع هذه اللغة أو الأفق العادى وتقابله - تقابله حواريا: كما تقابل وجهة نظر وجهة نظر أخرى، وتقويم تقويما ونبرة نبرة (وليس كظاهرتين ألسنيتين مجردتين). هذا الترابط، هذا القرن الحوارى بين لغتين وأفقين هو الذى يمكن قصد المؤلف من تحقيق ذاته بحيث يشعر به بوضوح فى كل لحظة من لحظات العمل الأدبى. المؤلف ليس فى لغة الراوية وليس فى اللغة الأدبية العادية التى يرتبط بها الحديث (مع أنه يمكن أن يكون أقرب إلى لغة دون أخرى)، لكنه يستخدم هذه وتلك كى لا يفضى بمقاصده إلى أى منهما حتى النهاية؛ إنه يستخدم هذا التجاوب، هذا الحوار بين اللغات فى كل لحظة من لحظات عمله كى يظل هو كأنه شخص محايد لغوياً، كأنه شخص ثالث فى نقاش بين اثنين (مع أن هذا الشخص الثالث يمكن أن يكون شخصا متحيزا).

إن كل الأشكال التي تُدخل الراوية أو المؤلف المفترض تدل بقدر أو بآخر على تحرر المؤلف من اللغة الواحدة والوحيدة، تحرر يرتبط باكتساب النظم اللغوية الأدبية صفة النسبية، تدل على قدرة المؤلف على عدم الاستقرار (عدم تحديد مصيره) لغويًا، وعلى قدرته على تحويل مقاصده من نظام لغوي إلى آخر، ومزج "لغة الحقيقة" بلغة "الحياة اليومية"، وقول ما يريد هو بلغة الآخر، وقول ما يريد الآخر بلغته هو (المؤلف).

وبما أنه يتم في هذه الأشكال كلها (حديث الراوية أو المؤلف المفترض أو أحد الشخصيات) انعكاس مقاصد المؤلف مواربة، فمن الممكن أن تتشكل فيها، كما في الرواية الفكاهية، مسافات مختلفة بين مختلف لحظات لغة الراوية والمؤلف: الانعكاس قد يزداد أو يتضاءل، كما يمكن في بعض الحالات حدوث اندماج شبه كامل بين الصوتين.

والشكل التالي الذي تستخدمه أي رواية دون استثناء إدخال التنوع الكلامي في الرواية وتنظيمه هو كلام البطل.

إن كلام البطل الذي (أي البطل) يتمتع في الرواية بقدر أو بآخر من الاستقلال المعنوي الكلامي الذاتي ويمتلك أفقا خاصا، وهو كلام غريب بلغة غريبة، يمكنه أيضا أن يعكس مقاصد المؤلف، وبالتالي أن يكون إلى حد ما لغة المؤلف الثانية. زد على ذلك أن كلام البطل يؤثر في كل الأحيان تقريبا (على نحو قوى جدا في بعض الأحيان) في كلام المؤلف، إذ ينثر فيه كلمات غريبة (كلام البطل الغريب المستتر)، وبهذا يحمل إليه التفكك والتنوع الكلامي.

ولهذا السبب يظل التنوع الكلامي وتفكك اللغة أساس الأسلوب الروائي حتى حين لا يكون هناك وجود للفكاهة والمحاكاة الساخرة والسخرية إلخ، وحتى حين لا يكون هناك وجود لراويّة أو مؤلف مفترض أو بطل محدث. وحتى حين تبدو لغة المؤلف للنظرة السطحية واحدة متماسكة وذات قصدية مباشرة وعفوية، فإننا سنكتشف دائما مع هذا ثلاثية الأبعاد النثرية والتنوعية الكلامية العميقة التي هي من مهمة الأسلوب والمحددة له في أن تحت هذا السطح اللغوي الواحد الأملس.

وهكذا تبدو لغة تورغنيف في رواياته واحدة وصافية وأسلوبه واحداً وصافياً. لكن هذه اللغة الواحدة، حتى عند تورغنيف، بعيدة جداً عن المطلق الشعري. فهي في جملتها منضمة ومقحمة قى حلبة الصراع بين وجهات النظر التي يحملها الأبطال إليها وتقويماتهم ونبراتهم، متأثرة بمقاصدهم وانقساماتهم المتصارعة، تنتثر فيها كلمات وكلمات صغيرة وعبارات وأوصاف ونعوت متأثرة بمقاصد الآخرين التي لا يتضامن المؤلف تضامناً كاملاً معها والتي يعكس من خلالها مقاصده الخاصة. ونحن نحس إحساساً واضحاً بمختلف المسافات التي تفصل بين المؤلف وبين مختلف لحظات لغته التي (اللحظات) تفوح منها روائح عوالم اجتماعية غريبة وآفاق غريبة. ونحن إحساساً واضحاً بدرجات حضور المؤلف المختلفة وحكمه المعنوي النهائي في مختلف لحظات لغته. إن التنوعية الكلامية في لغة تورغنيف وتفككها هما العامل الأسلوبي الأكثر جوهرية، وهو الذي يوزع الحقيقة التي يريد المؤلف قولها توزيعاً أوركستريالاً، وعلى هذا فوعى المؤلف اللغوي، وعى الناثر موزع بنسب.

إن التنوع الكلامي الاجتماعي يتم إدخاله عند تورغنيف في الحديث المباشر بين الأبطال، في الحوار بينهم. لكنه ينثر هنا وهناك حتى ضمن حديث المؤلف حول أبطاله كما قلنا، مشكلا مناطق خاصة للأبطال. وهذه المناطق تتشكل من أنصاف كلام الأبطال ومن مختلف أشكال النقل الخفي لكلمة الغير، ومن كلمات الغير وكلماته الصغيرة المتناثرة، ومن تدخل لحظات تعبيرية غريبة في كلام المؤلف (ثلاث نقاط متعاقبة، أسئلة، تعجب). المنطقة هي دائرة فعل صوت البطل المختلط بطريقة أو بأخرى بصوت المؤلف.

إلا أننا نكرر القول إن التوزيع الروائي الأوركستراي للموضوع عند تورغنيف يتركز في الحوارات المباشرة، فالأبطال عند تورغنيف لا يوجدون مناطق واسعة ومشبعة حولهم، والتراكيب الهجينة الأسلوبية المطورة والمعقدة عنده نادرة نسبيا.

ولنتوقف عند بعض أمثلة التنوع الكلامي المتناثر عند تورغنيف.

(١) "كان اسمه نيقولاى بيتروفتش كيرسانوف. وكان يملك على بعد خمسة عشر فرسخا من الخان الصغير ضيعة جيدة بمائتي نفس، أو كما كان يقول هو بعد أن خطط الحدود مع الفلاحين وأنشأ "مزرعة": قطعة أرض من ألفى ديسياتينا^(*) ("الآباء والبنون"، الفصل الأول).

(*) وتساوى نحو هكتار.

التعابير الجديدة المميّزة لروح العصر والمؤدّة هنا بأسلوب الليبرالية موضوعة ضمن علامة تنصيص أو متحفّظ عليها.

(٢) "بدأ يشعر بحنق خفى. فقد كان رفع الكلفة الكامل الذى يبيده بازاروف يجرح طبيعته الأرستقراطية. فابن الطبيب هذا لم يكن يشعر بالوجل، بل إنه كان يجيب باقتضاب وفى غير إقبال، وكان فى نبرة صوته شىء ما فظ يكاد يكون وقاحة" ("الآباء والبنون"، الفصل السادس).

الجملة الثالثة فى هذا المقطع، رغم كونها جزءا من كلام المؤلف من حيث سماته النحوية الشكلية، هى فى الوقت نفسه حيث انتقاء تعابيرها ("ابن الطبيب هذا") ومن حيث بنيتها التعبيرية كلام غريب خفى (هو كلام بافل بيتروفيتش).

(٣) "جلس بافل بيتروفيتش إلى طرف الطاولة. كان يرتدى بدلة صباحية، أنيقة، حسب الذوق الإنكليزى ويعلو رأسه طربوش صغير. هذا الطربوش وربطة العنق الصغيرة المعقودة بعدم اكثرات كانا ينبئان بحرية الحياة فى القرية؛ لكن ياقة القميص الضيقة، والقميص لم يكن أبيض فى الحقيقة بل أرقش كما هو المفترض فى لباس الصباح، كانت تنغرز بقسوة مألوفة فى ذقنه الحليقة" ("الآباء والبنون"، الفصل الخامس).

هذا الوصف الساخر للباس بافل بيتروفتش الصباحى مؤدى بأسلوب جنّلمان من طراز بيتروفتش بالذات. والعبارة التقريرية "كما هو مفترض فى لباس الصباح" ليست مجرد تقرير من قبل المؤلف بطبيعة الحال، بل هو المؤلف فى تصرف جنّلمان من طبقة بافل بيتروفتش أدى بسخرية، ويحق لنا إلى حد ما وضعه ضمن علامة تنصيص. إنه تعليل موضوعى كاذب.

٤) لم يكن يعدل دماثة متففى ايليتش إلا وقاره. كان يلاطف الجميع - بعضهم بشيء من الاستخفاف وبعضهم بشيء من الاحترام؛ وأمام السيدات كان يبالغ فى إطرائهن "كفارس فرنسى حقيقى"، دون أن يكف عن إطلاق ضحكته الواحدة الرنانة كما هو المفترض فى موظف كبير ("الآباء والبنون"، الفصل الرابع عشر).

هنا أيضا نفس الوصف الساخر من وجهة نظر الموظف الكبير نفسه. كما أن عبارة: "كما هو المفترض فى موظف كبير" تعليل موضوعى كاذب.

٥) "فى صباح اليوم التالى توجه نبجدانوف إلى شقة سيبياغين فى المدينة، وهناك فى مكتب فاخر مفروش بأثاث من طراز كلاسيكى رصين يتناسب تماما ومقام رجل دولة ليبرالى وجنّلمان..." ("الأرض البكر"، الفصل الرابع).

نفس التركيب الموضوعى الكاذب.

٦) "كان سيميون يستروفيتش يخدم فى وزارة البلاط وكان يحمل لقب كامر يونكر؛ كانت وطنيته قد حالت دون انخراطه فى السلك الدبلوماسى، حيث كان كل شىء، فيما بدا، يدعو إليه: تربيته واعتياده المجتمع الراقى، ونجاحه لدى النساء ومظهره الخارجى نفسه..." ("الأرض البكر"، الفصل الخامس).

إن تعليل رفضه الانخراط فى السلك الدبلوماسى تعليل موضوعى كاذب. والوصف كله هنا مؤدى من وجهة نظر كالوميتسيف أيضا ويقفل بكلامه المباشر الذى هو من حيث سماته النحوية جملة تابعة للجملة الرئيسية التى هى كلام المؤلف (كل شىء كان يدعو... لكن مغادرة روسيا... إلخ).

٧) قدم كالوميتسيف إلى مقاطعة س فى إجازة لمدة شهرين ليتولى شؤون أملاكه قليلا، أى "ليخيف من تجب إخافته ويضغط على من يجب الضغط عليه". فبدون هذا لا يمكن أن تستقيم الأمور! ("الأرض البكر"، الفصل الخامس).

نهاية هذا المقطع مثال نموذجى على التأكيد الموضوعى الكاذب. فهو لم يوضع ضمن علامة تنصيص كما وضعت كلمات كالوميتسيف السابقة التى أدرجت ضمن كلام المؤلف، بل وضعت قصدا بعد هذه الكلمات وذلك بالضبط لإعطائها مظهر الحكم الموضوعى الذى هو فى هذه الحالة حكم المؤلف.

٨) "إلا أن كالوميتسيف غرز بتؤدة بلورته المدورة بين الحاجب والأنف وركز نظره على الطويلب الذى تجرأ على عدم مشاطرته "تخوفاته" ("الأرض البكر"، الفصل السابع).

تركيب هجين نموذجي. فليست الجملة التابعة وحدها، بل كلمة "الطويلب" فى الجملة الرئيسية التى هى كلام المؤلف مؤداتان بلهجة كالوميتسيف ومشبعتان بنفسه. إن نبرة الاستياء لدى كالوميتسيف هى التى حكمت اختيار كلمات "الطويلب" وتجرأ على عدم مشاطرته...، وهذه الكلمات أيضا الواردة فى سياق كلام المؤلف مشبعة فى الوقت نفسه بنبرة المؤلف الساخرة، ولهذا السبب فالتركيب هنا ثنائى النبرة (الأداء الساخر من قبل المؤلف والمحاكاة الساخرة لاستياء البطل).

ولنورد أخيرا أمثلة على اقتحام لحظات تعبيرية من الكلام الآخر (ثلاث نقط متعاقبة، أسئلة، كلمات تعجب) النظام النحوى لكلام المؤلف.

٩) "غريبة كانت حالته النفسية. فكم من الأحاسيس الجديدة التى أحس بها فى اليومين الأخيرين وكم من الوجوه الجديدة التى رآها... لقد التقى لأول مرة بفتاة بدا له أنه أحبها على الأرجح؛ كان واعيا لبدايات أمر كرس له، على الأرجح، قواه كلها... وماذا كانت النتيجة؟ هل أحس بالسرور؟ لا. هل شعر بالتردد؟ بالوجل؟ بالارتباك؟ آه، لا طبعاً. إذن هل شعر على الأقل بتوتر كيانه كله، بذلك الاندفاع بين الصفوف الأولى من المحاربين الذى يستدعيه اقتراف المعركة؟ أيضا

لا. لكن.. هل يؤمن أخيرا بهذا الأمر؟ هل يؤمن بحبه؟ - صامتا، -
لماذا هذا التعب، هذا العزوف حتى عن الكلام، ولماذا لا يصرخ فقط
ولا يثور؟ وأى صوت فى داخله يريد أن يخنقه فى صدره بصراخه
هذا؟" ("الأرض البكر"، الفصل الثامن عشر).

أمامنا هنا فى حقيقة الأمر شكل من أشكال كلام البطل غير
المباشر تماما. فهذا الشكل من حيث سماته النحوية هو كلام المؤلف،
لكن بنيته التعبيرية كلها بنية نوجدانوفية. إنه كلام نوجدانوفية الباطنى،
لكن المؤلف ينقله وينظمه بأسلوبه طارحا الأسئلة ومبدىا التحفظات
الفاضحة بسخرية ("على الأرجح")، ومع هذا يظل هذا الكلام مصبوغا
بصبغة نوجدانوف التعبيرية.

ذلكم هو الشكل العادى المؤلف لنقل الكلام الباطنى عند
تورغنيف (وهو بشكل عام أحد أكثر أشكال نقل الكلام الباطنى فى
الرواية انتشارا). إن شكل النقل هذا يحمل إلى المجرى الفوضى
والمقطع لكلام البطل الباطنى (وهذه الفوضى وهذا التقطع كان على
المؤلف أن يصورهما فى حالة استخدامه الكلام المباشر) النظام
والتماسك الأسلوبى. زد على ذلك أن هذا الشكل يمكن من حيث سماته
النحوية (الشخص الغائب) والأسلوبية الأساسية (المفرداتية وغيرها)
من قرن الكلام الباطنى الغريب بسياق المؤلف قرنا عضويا ومتماسكا.
ثم إن هذا الشكل بالذات يمكن فى الوقت نفسه من الاحتفاظ بالبنية
التعبيرية لكلام البطل الباطنى، وبذلك القدر من عدم الصراحة
والاستقرار اللذين يتميز بهما كلام البطل الباطن، الأمر الذى يتعذر بل

يستحيل تصويره لدى نقله فى شكل كلام غير المباشر الجاف والمنطقى. هذه الخصائص هى التى تجعل من هذا الشكل أنسب الأشكال لنقل كلام البطل الباطن، وهذا الشكل هجين بطبيعة الحال، يمكن لصوت البطل فيه أن يكون على درجات متفاوتة من الفاعلية، كما يمكنه أن يدخل على الكلام المنقول نبذة ثانية هى نبرته الخاصة (نبذة السخرية أو الاستياء أو غيرهما).

كما يمكن بلوغ هذا النوع من التهجين، هذا النوع من خلط النبرات ومحو الحدود بين كلام المؤلف وكلام الآخر، عن طريق أشكال أخرى من نقل كلام البطل. ونظرا لوجود هذه الأنماط النحوية الثلاثة من النقل فقط (أى الكلام المباشر، الكلام غير المباشر، الكلام غير المباشر الخالص تماما) يمكن بتركيب هذه الأنماط تراكيب مختلفة، وعلى الأخص بتأطير سياق المؤلف لها تأطيرا يستثير فيها الاستجابة (Rèplique) وبتوزيعها بطريقة مختلفة، تحقيق أشكال عديدة متنوعة من لعب أنماط الكلام وتمازج إيقاعاتها وتأثيرها المتبادل.

إن الأمثلة التى أوردناها من تورغنيف تصف بشكل كاف دور البطل بوصفه عامل تفكيك للغة الرواية ولحمل التنوع الكلامى إليها. إن لبطل الرواية منطقته الخاصة كما قلنا، دائرة نفوذه فى سياق المؤلف المحيط به، دائرة نفوذ تتجاوز (وتتجاوز كثيرا فى العديد من الحالات) نطاق الكلمة المباشرة المخصصة للبطل. إن دائرة فعل صوت البطل الجوهرى يجب أن تكون، على أى حال، أوسع من

كلامه المباشر الفعلى. وهذه المنطقة التى تحيط بأبطال الرواية الجوهريين أصلية جدا من الناحية الأسلوبية: إذ تغطي فيها أشكال متنوعة جدا من التراكيب الهجينة، كما أنها دائما ذات صبغة حوارية بقدر أو بآخر؛ ففيها يجرى الحوار بين المؤلف وأبطاله، وهو ليس ذلك الحوار الدرامى، القائم على سؤال وجواب، أخذ ورد، بل إنه الحوار الروائى الخاص الذى يتحقق فى حدود تراكيب مونولوجية ظاهرية. وإمكانية هذا النوع من الحوار هى إحدى ميزات النثر الروائى الأكثر جوهرية التى تعجز عنها الأجناس الدرامية والأجناس الشعرية الخالصة.

إن مناطق الأبطال موضوع جد مثير بالنسبة إلى التحاليل الأسلوبية والألسنية: إذ يمكننا الوقوع فيها على تراكيب قمينة بإلقاء ضوء جديد تماما على مسائل النحو والأسلوبية.

ونتوقف أخيرا عند واحد من أكثر أشكال إدخال التنوع الكلامى فى الرواية وتنظيمه أهمية وجوهرية ألا وهو الأجناس الداخيلة.

تسمح الرواية بدخول أجناس مختلفة، فنية (كالقصص الاستطردية، والتمثيلات الغنائية والقصائد والمشاهد الدرامية إلخ)، وخارجة عن الفن (كالأجناس الحياتية اليومية والبلاغية والعملية والدينية وغيرها) فى قوامها. فمن حيث المبدأ يمكن لأى جنس أن يدخل فى تركيب الرواية، ومن حيث الواقع فمن العسير جدا العثور على جنس لم يدخل الرواية فى وقت ما وعند كاتب ما. وتحفظ الأجناس المدخلة إلى الرواية عادة بلدونتها البنائية واستقلالها الذاتى وفرادتها اللغوية والأسلوبية.

وهناك بالإضافة إلى ذلك مجموعة خاصة من الأجناس التى تضطلع فى الروايات بدور بنائى جوهري جدا، بل إنها تحدد أحيانا بناء الكل الروائى إذ تخلق أجناسا روائية جديدة خاصة مثال ذلك الاعترافات، اليوميات، الرحلات، السيرة الذاتية، الرسائل وغيرها. هذه الأجناس قد لا تدخل فى الرواية بوصفها جزءا بنائيا جوهريا منها وحسب، بل قد تحدد أيضا شكل الرواية ككل (رواية الاعترافات، رواية المذكرات، الرواية فى رسائل إلخ). إن كل جنس من هذه الأجناس يمتلك أشكاله اللفظية المعنوية الخاصة لاستيعاب جوانب مختلفة فى الواقع. والرواية تستخدم هذه الأجناس بوصفها بالضبط أشكالا جاهزة لاستيعاب الواقع بالكلمة.

إن دور هذه الأجناس التى تدخل الرواية عظيم بحيث قد يبدو أن الرواية تفتقد مقاربتها اللفظية الأصلية الخاصة للواقع، وأنها فى حاجة إلى أشكال أخرى لتمهيد لها سبل معالجة هذا الواقع، أما هى فليست سوى توحيد تلفيقى ثانوى لتلك الأجناس اللفظية الأولى.

إن كل الأجناس التى تدخل الرواية تحمل إليها لغاتها، ولهذا فهى تفكك الوحدة اللغوية للرواية وتعمق على نحو جديد تنوعها اللفظى. وكثيرا ما تكتسب لغات الأجناس الخارجة عن الفن التى تدخل الرواية أهمية بحيث ينشئ إدخال جنس ما (كالرسائل مثلا) عصرا كاملا ليس فى تاريخ الرواية وحسب، بل فى تاريخ اللغة الأدبية أيضا.

إن الأجناس التي تدخل الرواية يمكن أن تكون ذات قصدية مباشرة، كما يمكن أن تكون موضوعية شئئية بالكامل أى محرومة حرمانا تاما من مقاصد المؤلف (أى أن الكلمة لا تقول هذه الأجناس بل تعرضها فقط كأشياء)، إلا أن هذه الأجناس تعكس فى أكثر الأحيان مقاصد المؤلف بقدر أو بآخر، وإن كانت بعض لحظاتها يمكن أن تظل بعيدة بشكل أو بآخر عن المعنى الأخير للعمل الأدبى.

وعلى هذا يمكن للأجناس الشعرية العروضية التي تدخل الرواية (كالأجناس الغنائية مثلا) أن تكون من الناحية الشعرية ذات قصدية مباشرة وذات امتلاء معنوى كامل. مثال ذلك القصائد الغنائية التي أدخلها غوته فى "ويلهيلم ميستر". وعلى هذا النحو أيضا أدرج الرومنطيقيون أشعارهم فى النثر. وهؤلاء، كما هو معروف، كانوا يعتبرون وجود الشعر فى الرواية (بوصفه التعبير المباشر عن نوايا المؤلف) مقوما من مقومات هذا الجنس (أى الرواية). وفى حالات أخرى تعكس القصائد الشعرية الدخيلة نوايا المؤلف؛ مثال ذلك قصيدة لينسكى فى "يفغينى أونيجين" "أين، أين ابتعدت...". وإذا كانت القصائد الشعرية فى "ويلهيلم ميستر" يمكن نسبتها نسبة مباشرة إلى شعر غوته الغنائى (وهو الحاصل فعلا)، فإن قصيدة "أين، أين ابتعدت..." لا تصح نسبتها إطلاقا إلى شعر بوشكين الغنائى، أو على أبعد تقدير، تصح نسبتها إلى نوع خاص هو "أسليات المحاكاة الساخرة" (وإلى هذا النوع أيضا يجب نسبة أبيات غرينيوف فى "ابنة الضابط"). أخيرا يمكن للأبيات الشعرية المدخلة إلى الرواية أن تكون موضوعية (شئئية) على نحو يكاد يكون كاملا؛ مثال ذلك أشعار الكابتن ليبيادين فى رواية دوستويفسكى "الأبالسة".

ويصح الأمر نفسه على إدخال مختلف أنواع الحكم والأقوال الماثورة: فهذه أيضا يمكن أن تتأرجح من الموضوعية الخالصة، ("الكلمة المعروضة") وحتى القصدية المباشرة أى التى تكون فيها أقوالا فلسفية كاملة المعنى يقولها المؤلف ذاته (أى كلمة مطلقة مقولة دون أى تحفظ أو مسافة). وعلى سبيل المثال نجد فى روايات جان بول الغنية جدا بالأقوال الماثورة سلما طويلا من التدرجات بين هذه الأقوال: من الموضوعية الخالصة حتى القصدية المباشرة مع مختلف أشكال ودرجات عكس مقاصد المؤلف.

وفى "يفغينى أونيجين" تأتى الأقوال الماثورة والحكم فى مستوى محاكاة ساخرة أو سخرية، أى أن مقاصد المؤلف تنعكس فى هذه الأقوال بدرجات متفاوتة. إليكم هذه الحكمة على سبيل المثال:

من عاش وفكر لا بد

أن يحتقر الناس فى قرارة نفسه؛

ومن كان ذا إحساس لا بد

أن يقلقه شبح الأيام التى لن تعود،

لا بد أن يعزف عن المباهج،

لا بد أن تلسعه أفعى الذكريات

وأن يتأكله الندم، -

إنها مؤداة على مستوى محاكاة ساخرة خفيفة، لكننا نشعر طوال الوقت بقربها من مقاصد المؤلف قربا يكاد يكون اندماجا.

لكن البيتين التاليين (وهما للمؤلف المفترض مع أونيجين):

وهذا كله كثيرا ما يضافى

على الحديث رونقا كبيرا

يعززان نبرات المحاكاة والسخرية ويلقيان ظلا موضوعيا (شيئيا) على هذه الحكمة. فنحن نرى أنها مبنية فى مجال فعل صوت أونيجين، فى أفق أونيجين ونبرات أونيجين أيضا.

لكن انعكاس مقاصد المؤلف هنا - أى فى مجال تردد صوت أونيجين، فى منطقة أونيجين - هو غيره عما فى منطقة لينسكى (قارن المحاكاة الساخرة لأبيات لينسكى التى تكاد تكون موضوعية (شيئية)).

هذا المثال يمكن أن يكون توضيحا لما بحثناه سابقا من تأثير كلام البطل فى كلام المؤلف: فالقول المأثور الذى أوردناه مخترق بمقاصد أونيجين (المشبعة بروح بايرون السائدة آنذاك)، ولهذا لا يتعاطف المؤلف معها تعاطفا تاما، بل يحتفظ بمسافة ما بينه وبينها.

ويزداد الأمر تعقيدا فى حالة إدخال أجناس تعتبر جوهرية بالنسبة إلى الرواية (كالاعترافات واليوميات وغيرها). هذه الأجناس تحمل أيضا لغاتها الخاصة إلى الرواية، لكن هذه اللغات مهمة فى المقام الأول بوصفها وجهات نظر خصبة بالنسبة إلى الموضوع،

وجهات نظر محرومة من الاصطلاحية الأدبية، موسعة للأفق اللغوى الأدبى، مساعدة على غزو عوالم جديدة من الوعى بالكلمة لحساب الأدب، عوالم سبق أن سبرت وغزيت فى دوائر أخرى (خارجة عن الأدب) من دوائر حياة الكلمة.

إن اللعب الفكاهى باللغات، والحديث "غير الصادر عن المؤلف مباشرة" (حديث الرواية، أو المؤلف المفترض أو شخص من أشخاص الرواية) وكلام الأبطال ومناطقهم، وأخيرا الأجناس الدخيلة أو المؤطرة هى الأشكال الأساسية لإدخال التنوع الكلامى فى الرواية وتنظيمه. وهذه الأشكال كلها تمكن من تحقيق طريقة استخدام غير مباشر، متحفظ عليه، تغريبى للغات. وهى كلها تدل على اكتساب الوعى اللغوى صفة النسبية، وتعتبر عما يتناسب وهذا الوعى من إحساس بموضوعية (شينية) اللغة وحدودها التاريخية والاجتماعية وحتى المبدئية (أى حدود اللغة بما هى لغة). إن اكتساب الوعى اللغوى صفة النسبية لا يفترض أبدا إكساب المقاصد المعنوية ذاتها هذه الصفة: فالمقاصد حتى على أرضية الوعى اللغوى النثرى يمكن أن تكون مطلقة. ولأن فكرة اللغة الوحيدة (بوصفها لغة فوق الشك والريبة ومطلقة) غريبة عن النثر الروائى يجب على الوعى النثرى، لهذا السبب بالذات، أن يوزع مقاصده المعنوية حتى وإن كانت مطلقة توزيعا أوركسترياليا. فهذا الوعى يشعر بالضيق حين يجد نفسه فى واحد من لغات التنوع الكلامى العديدة فقط، كما أن رنة لغوية واحدة لا تكفيه.

لقد تعرضنا إلى الأشكال الأساسية المميزة لأهم أنواع الرواية الأوروبية فقط، لكن هذه الأشكال لا تستنفد بطبيعة الحال كل الطرق الممكنة لإدخال التنوع الكلامي في الرواية وتنظيمه. إذ من الممكن، بالإضافة إلى ما سبق، قرن ومزاوجة كل هذه الأشكال في بعض الروايات، وبالتالي في أنواع أخرى جديدة من هذا الجنس تنشأ هذه الروايات. والنموذج الكلاسيكي الذي لا تشوبه شائبة للجنس الروائي هو رواية سرفانتس "دون كيخوت" التي حققت بعمق وشمول فريدين كل ما في الكلمة الروائية المتنوعة كلامياً والحوارية داخلياً من إمكانيات فنية.

إن التنوع الكلامي الذي يدخل الرواية (ومهما كانت أشكال إدخاله) هو كلام غريب بلغة غريبة يعمل على التعبير عن مقاصد المؤلف تعبيراً موارباً. والكلمة في كلام من هذا النوع هي كلمة ذات ثنائية صوتية خاصة. إنها تخدم في آن متكلمين، وتعبّر في آن عن قصدين مختلفين: القصد المباشر للمتكلم في الرواية والقصد غير المباشر للمؤلف. في كلمة كهذه صوتان، معنيان وتعبيران. إلا أن هذين الصوتين مترابطان حوارياً، فكأنهما يعرفان أحدهما الآخر (كما يعرف الردان، السؤال والجواب، في الحوار أحدهما الآخر وبينيان على أساس معرفتهما أحدهما للآخر)، كأنهما يتحادثان.. إن الكلمة الثنائية الصوت ذات صفة حوارية داخلية دائماً. ذلكم هو حال الكلمة الفكاهية والكلمة الساخرة وكلمة المحاكاة الساخرة، ذلكم هو أخيراً حال كلمة الجنس الدخيل – إنها كلها كلمات ثنائية الصوت حوارية داخلياً، يكمن فيها كلها حوار محتمل، لكنه ليس حواراً موسعاً، بل مركز بين صوتين، نظرتين إلى العالم، لغتين.

إن الكلمة الثنائية الصوت الحوارية داخليا ممكنة أيضا، بطبيعة الحال، في النظام اللغوى المغلق، الخالص والواحد، الخالى من نسبية الوعى النثرى اللغوى، وهى بالتالى ممكنة أيضا فى الأجناس الشعرية الخالصة. إنما ليس لها هنا أى أرضية مهمة وجوهرية لتطورها. والكلمة الثنائية الصوت واسعة الانتشار فى الأجناس البلاغية، إلا أنها، ببقائها هنا فى حدود النظام اللغوى الواحد، لا تثيرها العلاقة العميقة بقوى الصيرورة التاريخية المفككة للغة ولا تخصبها، فهى ليست فى أحسن الأحوال سوى صدى بعيد وضيق لهذه الصيرورة، ضيق حتى مستوى الحاجة الفردية.

إن الثنائية الصوتية الشعرية والبلاغية هذه، المقطوعة الصلة بعملية التفكك اللغوى، يمكن أن تتطور بشكل مناسب إلى حوار فردى، نقاش فردى وحديث بين شخصين، إلا أن حدود هذا الحوار ستكون محايدة للغة واحدة وحيدة: قد تكون هذه الحدود متنافرة، متناقضة، إلا أنها لن تكون ذات تنوع كلامى ولا لغوى، إن مثل هذه الثنائية الصوتية التى تبقى فى حدود نظام لغوى واحد مغلقة يمكن أن تكون رفيقا ثانويا للحوار وللأشكال المحاجية^(١) من الناحية الأسلوبية فقط. إن الازدواجية الداخلية (الثنائية الصوتية) للكلمة المكتفية بلغة واحدة ووحيدة وبأسلوب متماسك مونولوجيا لا يمكن أن تكون جوهرية أبدا: إنها لعب، إنها زوبعة فى فنجان.

(١) إنها لا تصبح جوهرية فى الكلاسيكية الجديدة إلا فى الأجناس الوضيعة ولا سيما فى الهجاء.

وليست هذه حال الثنائية الصوتية النثرية. فثنائية الصوت هنا، على أرضية النثر الروائي، لا تمتح طاقتها وازدواجية معناها الحوارية من تنوع الأصوات وحالات سوء التفاهم التناقضات الفردية (وإن كانت هذه مأساوية ولها أسبابها العميقة في المصائر الفردية)^(١)، بل إن هذه الثنائية الصوتية في الرواية تمتد بجذورها عميقا في التنوع الكلامي والتنوع اللغوي الاجتماعي الجوهري. صحيح أن التنوع الكلامي يتمثل في الرواية عامة في أشخاص دائما، ويتجسد في صور فردية لأناس ذوي اختلافات وتناقضات مفردة. لكن هذه التناقضات هنا بين إرادات الأفراد وعقولهم تغوص في التنوع الكلامي الذي يعيد إدراكها. إن تناقضات الأفراد هنا ليست سوى القمم الظاهرة فوق سطح التنوع الكلامي الاجتماعي، هذا التنوع الذي يلعب ويعصف ويجعلها بسلطانه متناقضة، ويشبع وعيها وكلماتها بتناقضيته الجوهري.

ولهذا فالحوارية الداخلية للكلمة النثرية الفنية الثنائية الصوت لا يمكن أن تستنفد أبدا من حيث موضوع السرد أو التصوير (كما لا يمكن للطاقة الاستعارية للغة أن تستنفد في هذا المجال)، لا يمكن أن تنتشر حتى النهاية في حوار مباشر يتصل بالحكاية أو في حوار إشكالي يفعل تفعيلا كاملا القدرة الحوارية الكامنة في التنوع الكلامي اللغوي. أن الحوارية الداخلية للكلمة النثرية الحقة التي تنشأ عضويا من اللغة المفككة المتنوعة كلاميا لا يمكن أن تكتسب صفة درامية

(١) في نطاق العالم الشعري واللغة الواحدة كل ما هو جوهري في هذه الاختلافات والتناقضات يمكن ويجب أن يتطور في حوار مباشر ودرامي خالص.

جوهرية وتكتمل دراميا (تكتمل بشكل حقيقى)، إنها أوسع من أن تحتوى احتواء كاملا فى إطار حوار مباشر أو حديث أشخاص، ولا يمكن تقسيمها تقسيما كاملا إلى ردود مفصولة فصلا واضحا^(١). ثنائية الصوت هذه متشكلة مسبقا فى اللغة ذاتها (تماما كاستعارة الحقيقة والأسطورية)، فى اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية تتشكل تاريخيا وتتفكك وتتمزق اجتماعيا فى صيرورتها هذه.

إن إشاعة النسبية فى الوعي اللغوى ومشاركته الجوهرية فى التنوع والتعدد الكلامى للغات التى فى طور التشكل، توهان مقاصد هذا الوعي المعنوية والتعبيرية ونواياه فى اللغات (الموعاة بنفس النسبة، والموضوعية بنفس النسبة)، وحتمية تكلم هذا الوعي كلاما غير مباشر، متحفظا، مواربا - هذه كلها هى المقدمات الضرورية للثنائية الصوتية النثرية، الفنية للكلمة. هذه الثنائية الصوتية يجدها الروائى قائمة فى التنوع الكلامى اللغوى والتنوع اللغوى اللذين يغمران وعيه ويغذيانه، ولا تنشأ فى غمار الحاجة البلاغية الفردية مع الأشخاص الآخرين.

فإذا فقد الروائى الأرضية اللغوية للأسلوب النثرى، ولم يستطع الارتفاع إلى مستوى الوعي اللغوى النسبى، وأصم أذنيه عن الثنائية الصوتية العضوية للكلمة الحية المتكونة وعن حواريتها الداخلية، فإنه لن يفهم أبدا إمكانات الجنس الروائى الفعلية ومهامه ولن يحققها.

(١) هذه الردود تكون عادة أكثر حدة ودرامية واكتمالا بقدر ما تكون اللغة أكثر تماسكا ووحداية.

سيكون بوسعه، بطبيعة الحال، أن يخلق عملا يشبه الرواية إلى حد بعيد تأليفا وموضوعا، عملا "مصنوعا" تماما كالرواية، لكنه لن يخلق رواية، إذ أن الأسلوب سيفضحه دائما. سنرى وحدة وثقة بنفسها، سداجة أو غباء، للغة أحادية الصوت سيالة وخالصة (أو لغة ذات ثنائية صوتية مختلفة ومصطنعة بشكل بدائي). سنرى أن تطهير اللغة وتخليصها من التناقض جاءه بسهولة ويسر: فهو بكل بساطة لا يسمع التنوع الكلامي الجوهرى للغة؛ إذ إنه يعتبر النغمات الثانوية الاجتماعية التى تعطى الكلمات رنتها الخاصة تشويشات تتبغى إزالتها، فتتحول الرواية المقطوعة الصلة بالتباين اللغوى الحقيقى فى معظم الأحيان إلى دراما للقراءة ذات ملاحظات مطورة "ومشغولة فنيا" (أى إلى دراما سيئة بطبيعة الحال)، وتجد لغة المؤلف نفسها فى رواية كهذه مقطوعة الصلة بالتباين اللغوى فى وضع حرج وسخيف - وضع لغة الملاحظة الدرامية^(١).

إن الكلمة النثرية الثنائية الصوت ذات معنيين. لكن الكلمة الشعرية بالمعنى الضيق للكلمة هى أيضا ثنائية المعنى متعددة المعنى. وفى هذا إختلافها الأساسى عن الكلمة المفهوم والكلمة المصطلح. الكلمة الشعرية مجاز يستوجب إحساسا جليا بمعنيين فيه.

(١) شيبيلغاهن فى دراساته المعروفة فى نظرية الرواية وتقنياتها يسترشد بالضبط بمثل هذه الرواية غير الروائية، ويتجاهل بالضبط إمكانات الجنس الروائى الخاصة. فشيبيلغاهن منظرا أصم أذنيه عن التباين اللغوى وإلى نتيجته المتميزة التى هى الكلمة الثنائية الصوت.

ولكن كيفما كان فهم العلاقة المتبادلة بين المعنيين فى الرمز الشعري (المجاز)، إلا أن هذه العلاقة المتبادلة ليست على أى حال ذات طبيعة حوارية، ولا يجوز أبداً وفى أى ظرف من الظروف تصور المجاز (الاستعارة مثلاً) مطوراً فى حدى حوار، أى تصور المعنيين موزعين بين صوتين مختلفين. ولهذا السبب ثنائية معنى الرمز (أو تعددية معناه) لا تستدعى أبداً ثنائية نبرته، بل على العكس، ذلك أن ثنائية المعنى الشعرية تكفى بصوت واحد وبنظام نبروى واحد. يمكن تفسير العلاقات المتبادلة بين المعانى فى الرمز تفسيراً منطقياً (كعلاقة الفردى أو الخاص بالعام، مثال ذلك اسم العلم الذى يصبح رمزا، أو كعلاقة الشخص بالمجرد إلخ)؛ ويمكن تفسير فهمها فهما فلسفياً أنطولوجياً بوصفها علاقة العرض بالجواهر إلخ، كما يمكن إبراز الجانب التقويى الانفعالى لهذه العلاقة المتبادلة فى المقام الأول، إلا أن كل أنواع العلاقة المتبادلة بين المعانى هذه لا تخرج ولا يمكن أن تخرج عن نطاق علاقة الكلمة بموضوعها وبمختلف لحظات هذا الموضوع. فبين الكلمة والموضوع يجرى الحدث كله، ولعب الرمز الشعري كله. الرمز لا يستطيع أن يفترض علاقة جوهرية بالكلمة الغريبة، بالصوت الغريب. إن تعددية معنى الرمز الشعري تفترض وحدة الصوت وتطابقه معها ووحدانيته الكاملة فى كلمته. وما أن يقتحم لعب الرمز هذا صوت غريب أو نبرة غريبة أو وجهة نظر أخرى حتى ينهار المستوى الشعري ويتحول الرمز إلى المستوى النثرى.

ويكفينا لفهم الفرق بين ثنائية المعنى الشعرية وثنائية الصوت
النثرية أن ندرك أى رمز ونضفى عليه نبرة ساخرة (فى سياق
جوهري مناسب بطبيعة الحال) أى يكفى أن ندرج صوتنا فيه، ونعكس
قصدنا الجديد فيه مواربة^(١). بهذا يتحول الرمز الشعرى، مع بقائه
رمزا بطبيعة الحال، إلى المستوى النثرى ويصبح كلمة ثنائية الصوت:
إذ تتدخل بين الكلمة والموضوع كلمة غريبة، نبرة غريبة، ويسقط على
الرمز ظل الموضوع (وفى هذه الحالة تكون البنية ثنائية الصوت بدائية
وبسيطة).

مثالنا على أبسط أنواع إسباغ النثرية على الرمز الشعرى فى
"يفغينى أونيجين" هو المقطع المتعلق بلينسكى:
كان يعنى الحب، هو المؤتمر بأمر الحب.
وكانت أغنيته صافية
كأفكار عذراء ساذجة
كحلم طفل صغير، كالقمر...^(٢)

(١) اعتاد الكسى ألكسندروفتشف كارينين أن ينأى بنفسه عن بعض الكلمات والتعبيرية
المرتبطة بها. كان يبنى تراكيب ثنائية الصوت دون أى سياق، بل حصرا على مستوى
قصدي: "وكما ترين، زوج رقيق، رقيق كما فى السنة الثانية من زواجه، كان يتحرق
شوقا لرؤيتك - قال بصوته الرفيع البطئ وينبرته التى كان يستعملها على الدوام تقريبا
معها، نبرة السخرية ممن كان يمكن أن يتكلم على هذا النحو فعلا" ("أنا كارنينا"،
الجزء الأول، الفصل الثلاثون).

(٢) سنقوم بتحليل هذا المثال فى مقالتنا "من تاريخ الكلمة الروائية".

إن الرموز الشعرية في هذا المقطع موجهة فورا في مستويين: مستوى أغنية لينسكى ذاتها - أى في الأفق المعنوى والتعبيرى. لنفس مشبعة بروح تجمع "غابة غوتينغن"^(١)،...، وفي مستوى كلام بوشكين الذى كانت روح غوتينغن بالنسبة إليه ظاهرة جديدة لكنها آخذة لأن تصبح نموذجية من ظواهر التنوع الكلامى الأدبى للعصر: نغمة جديدة، صوت جديد فى تنوع أصوات اللغة الأدبية، والمذاهب الأدبية والحياة المحكومة لهذه المذاهب. والأصوات الأخرى فى هذا التنوع الكلامى الأدبى الحياتى هى: لغة أونيجين البيرونية - الشاتوبريانية ولغة ريتشاردسون، وعالم تاتيانا القروية، واللغة الحياتية لعزبة آل لارين، ولغة تاتيانا البطرسبورجية وعالمها، ولغات أخرى بما فيها لغات المؤلف المختلفة، غير المباشرة، المتغيرة باستمرار على مدى الرواية الشعرية. هذا التنوع الكلامى كله (و"يفغينى أونيجين" موسوعة أساليب العصر ولغاته) يوزع مقاصد المؤلف توزيعا أوركستراليا وينشئ الأسلوب الروائى حقا لهذا العمل.

وهكذا تغدو صور المقطع الذى أوردناه، وهى رموز شعرية ثنائية المعنى (استعارية) فى منظور لينسكى القصدى، رموزا نثرية ثنائية الصوت فى نظام كلام بوشكين. إنها، بطبيعة الحال، رموز نثرية فنية حقيقية نشأت من التنوع الكلامى للغة العصر الأدبية التى هى فى طريق التشكل، وليست محاكاة بلاغية سطحية ساخرة أو سخرية.

(١) هو تجمع شعراء فى مدينة غوتينغن الألمانية بين عامين ١٧٧٢ و ١٧٧٤ قريب فى اتجاهه من اتجاه "العاصفة والاقترام" لكنه أكثر اعتدالا. نادى بتقديس الطبيعة، وبالإخلاص للمثل العليا الأخلاقية. (المترجم)

ذلكم هو الفرق بين ثنائية الصوت العملية الفنية وثنائية معنى الرمز الشعري الخالص أو تعدديته الأحادية الصوت. إن ثنائية المعنى للكلمة ثنائية الصوت حوارية داخليا، مشحونة بالحوار، ويمكنها، بالفعل أن تولد حوارات بين أصوات مفرقة فعلا (لكنها ليست حوارات درامية، بل حوارات نثرية لا مخرج لها). إلا أن ثنائية الصوت فى هذا لا تستنفد ذاتها أبدا فى هذه الحوارات، ولا يمكن أن تستخرج استخراجا تاما من الكلمة لا عن طريق تجزئتها المنطقية العقلانية وتوزيعها على عناصر الجملة المركبة الواحدة مونولوجيا (كما فى البلاغة)، ولا عن طريق التقطيع الدرامى للردود فى الحوار الناجز. وثنائية الصوت الحقيقة، إذ تولد حوارات روائية نثرية، لا تستنفد ذاتها فيها، بل تبقى فى الكلمة، فى اللغة مصدرا للحوارية لا ينضب، ذلك أن الحوارية الداخلية للكلمة هى الرفيق الضرورى لتفكك اللغة، ونتيجة اكتظاظها بالمقاصد المتباينة. وهذا التفكك وما يرتبط به من اكتظاظ كل الكلمات والأشكال بالمقاصد وإثقالها بها هو الرفيق الضرورى للصيرورة التاريخية المتناقضة اجتماعيا للغة.

وإذا كانت مشكلة الرمز الشعري هى المشكلة المركزية لنظرية الشعر، فمشكلة الكلمة ثنائية الصوت، ذات الحوارية الداخلية فى مختلف أشكالها وأنماطها، هى المشكلة المركزية لنظرية النثر الفنى.

إن الموضوع محاط ومغلف بالنسبة إلى الناثر الروائى بكلمة الآخر عن هذا الموضوع، فهو متحفظ عليه، محتاج فيه، مفسر بمعان مختلفة ومقوم بتقويمات مختلفة، لا يمكن فصله عن الوعى الاجتماعى

المناقض له (للموضوع). والروائي يتكلم عن هذا "العالم المتحفظ عليه" بلغة متناقضة، حوارية داخليا. وعلى هذا تتكشف اللغة والموضوع للروائي في مظهرهما التاريخي، في صيرورتهما الاجتماعية المتناقضة. فلا وجود بالنسبة إليه لعالم خارج المقاصد المتناقضة المفككة لهذه اللغة. ولهذا السبب تصبح وحدة اللغة في الرواية كما في الشعر (وبكلام أدق وحدة اللغات) وحدة عميقة لكنها أصيلة مع موضوعها، مع عالمها. وكما تبدو الصورة الشعرية مولودة من اللغة ذاتها وناشئة منها بشكل عضوي ومتشكلة فيها مسبقا، كذلك تبدو الصور الروائية ملتحمة التحاما عضويا بلغتها المتنوعة الأصوات، فكانها متشكلة مسبقا فيها، في ثانيا بتأقيصيتها العضوية الخاصة. إن "تحفظية" العالم "وتحادثية" اللغة تتدمجان في الرواية في حدث واحد هو حدث الصيرورة المتناقضة للعالم في الوعي الاجتماعي والكلمة.

وعلى الكلمة الشعرية بالمعنى الضيق أيضا أن تشق طريقها إلى موضوعها عبر كلمة الغير التي تلفه، وهي أيضا تلقى أمامها مسبقا لغة متناقضة، وعليها أن تشق طريقها إلى وحدتها (أي اللغة) المبدعة (وليست المعطاة أو الناجزة) وإلى قصديتها الخالصة. إلا أن طريق الكلمة الشعرية هذا إلى موضوعها وإلى وحدة اللغة، وهو طريق تلتقي فيه دائما بكلمة الغير وتتبادل التوجه معها، يبقى في خبث عملية الإبداع ويُزال كما تزال الأخشاب بعد أن ينتهي البناء، فينهض بعدها العمل الناجز كلاما وحيدا مركزا من حيث موضوعه عن الألم "البكر".

ولا تبلغ الكلمة الشعرية الناجزة هذا المستوى من النقاء فى وحدانية الصوت، ومن صراحة القصد المطلقة إلا على حساب قدر معين من اصطلاحية اللغة الشعرية.

وإذا كانت فكرة اللغة الشعرية الخالصة، المسحوبة من التداول اليومي الحياتي، الواقعة خارج التاريخ، فكرة لغة الآلهة قد ولدت على أرضية الشعر بوصفها فلسفة طوباوية لأجناسه، ألصق بالنثر الفني وقريبة منه. أن النثر الفني يفترض إحساسا مقصودا بعيانية الكلمة الحية ونسبيتها التاريخيتين والاجتماعيتين ومشاركتها فى الصيرورة التاريخية والصراع الاجتماعى؛ فيأخذ الكلمة ولما تبرد من أتون الصراع والعداء ولما يحسم أمرها، بل وهى متناهية بين المقاصد والنبرات المتعادية، ويخضعها وهى كذلك إلى وحدة أسلوبه الديناميكية.

الدراسة الرابعة المتكلم فى الرواية

رأينا أن التنوع الكلامي الاجتماعي، والإدراك المتناقض للعالم والمجتمع الذي يوزع الموضوع الروائي أوركستراليا، يدخل الرواية إما كأسلbat للغات الأجناس والميّن واللغات الاجتماعية الأخرى، وهي أسلbat غير شخصية لكنها واعدة بصور المتكلمين، وإما كصور مجسدة للمؤلف الإصطلاحى والرواة وأخيرا الأبطال.

الروائي لا يعرف لغة واحدة ووحيدة فوق الشك والريبة ويقينية يقينية ساذجة (أو اصطلاحية). اللغة تعطى الروائي مفككة ومتنوعة كلاميا. ولهذا السبب فحتى حين يبقى التنوع الكلامي خارج الرواية، وحتى حين يُعمل الروائي لغته الواحدة والمستقرة نهائيا (دون مسافة، دون انعكاس موارد، دون تحفظ)، فإنه يعرف، مع هذا، أن اللغة ليست ذات دلالة عامة، وليست يقينية يقينية مطلقة، بل إنها تتردد فى وسط تنوع كلامي، وأنه يجب حمايتها وتثقيتها والدفاع عنها وتعليلها. ولهذا السبب فلغة واحدة ومباشرة كهذه لغة للرواية هي لغة محاجة وتقريضية، أى أنها مترابطة حواريا مع التنوع الكلامي. وهذا هو الذى يحدد التوجه الخاص تماما للكلمة فى الرواية - توجهها المنازع فيه، الخلافى والمحاجج. فهي (أى الكلمة) لا تستطيع أن تتسى (ساذجة أو اصطناعا) التنوع الكلامي المحيط بها أو أن تتجاهله.

وهكذا يدخل التنوع الكلامي إما بشخصه في الرواية، إن صح التعبير، فيتجسد فيها ماديا في صور المتكلمين، أو يدخلها بوصفه خلفية مشبعة للحوارية فيحدد بذلك الوقع الخاص للكلمة الروائية المباشرة.

ومن هنا تأتي الأهمية الخصوصية الاستثنائية للجنس الروائي وهي أن الإنسان في الرواية هو، جوهريا، إنسان متكلم؛ فالرواية تحتاج إلى أناس متكلمين يحملون كلمتهم الأيديولوجية المتميزة، يحملون لغتهم الخاصة.

إن موضوع الجنس الروائي الأساسي "المميز" الذي يخلق أصالة هذا الجنس الأسلوبية هو الإنسان المتكلم وكلمته.

ولفهم تأكيدنا هذا فهما صحيحا ينبغي أن نبرز بجلاء كامل ثلاث لحظات:

١- الإنسان المتكلم وكلمته في الرواية هما موضوع تصوير كلمي وفني. إن كلمة الإنسان المتكلم في الرواية لا تنقل وتستعاد فقط، بل إنها تحديدا تصور فنيا، وهي بخلاف الدراما، تصور إلى هذا بكلمة أخرى هي كلمة المؤلف. لكن الإنسان المتكلم وكلمته بوصفهما موضوع الكلمة الأخرى هما موضوع خاص متميز: فالكلمة لا يمكن التكلم عنها كما نتكلم عن موضوعات الكلام الأخرى - عن الأشياء الصامته والظواهر والأحداث إلخ، بل إنها تتطلب وسائل كلام وتصوير كلمي شكلية خاصة جدا.

٢- الإنسان المتكلم فى الرواية هو، جوهريا، إنسان اجتماعى، مشخص، محدد تاريخيا، وكلمته لغة اجتماعية (حتى وإن كانت جنينية) وليست "لهجة فردية". إن الخلق الفردى والمصائر الفردية والكلمة الفريدة التى لا يحكمها إلا هذا الخلق وهذه المصائر لا تهم بحد ذاتها الرواية. فمن خصائص كلمة البطل أنها تهدف إلى قيمة اجتماعية ما، إلى انتشار اجتماعى ما، فهى لغة بالقدرة. ولهذا السبب يمكن لكلمة البطل أيضا أن تكون عامل تفكيك للغة وإقحام للتنوع الكلامى فيها.

٣- الإنسان المتكلم فى الرواية هو دائما صاحب أيديولوجيا بقدر أو بآخر، وكلمته هى دائما قول أيديولوجى واللغة الخاصة فى الرواية هى دائما وجهة نظر خاصة إلى العالم تدعى قيمة اجتماعية. والكلمة قولا أيديولوجيا هى التى تصبح موضوع تصوير فى الرواية، ولهذا السبب لا يتهدد الرواية أى خطر لأن تصبح لعبا بالكلمات لا موضوع له. زد على ذلك أن الرواية، بفضل التصوير المشبع حواريا للكلمة الممثلة أيديولوجيا (والكلمة فى معظم الأحوال هنا كلمة حيوية وفعالة) هى أقل الأجناس الكلامية الأخرى كلها مواتاة "للجمالية" (esthétisme)، واللعب الشكلانى الخالص بالكلمات. على هذا فلا "جمالية" القائل بها، حين يعكف على روايته، فى بنائها الشكلى، بل فى أن الذى يصور فى الرواية هو الإنسان المتكلم، صاحب أيديولوجيا "الجمالية" الذى يقول قناعته التى تتعرض بدورها للاختبار فى الرواية. هذه هى حال "صورة دوريان غربى" لأويالد، وتكلم هى حال توماس مان المبكر وهنرى دى رينيه وهو يسمنس المبكر وبريس المبكر

واندريه جيد المبكر. وهكذا يصبح حتى القائل بالجمالية، إذ يعكف على كتابة روايته، صاحب أيديولوجيا في هذا الجنس الفنى يدافع عن مواقفه الأيديولوجية ويختبرها، يصبح مقرظا ومحاججا.

الإنسان المتكلم وكلمته هما الموضوع المميز للرواية والخالق لخصوصية هذا الجنس كما قلنا. لكن ليس الإنسان المتكلم هو الذى يصور وحده فى الرواية، بل إن هذا الإنسان لا يصور فى الرواية بوصفه متكلم وحسب. فالإنسان فى الرواية يمكنه أن يفعل لا أقل مما يفعل فى الدراما والملحمة، لكن فعله هذا ينار هنا فى الرواية من الناحية الأيديولوجية دائما، يقترن دائما بالكلمة (حتى وإن كانت ممكنة فقط)، بفكرة أيديولوجية، ويحقق موقفا أيديولوجيا معينا. إن فعل البطل فى الرواية وسلوكه ضروريان لكشف موقفه الأيديولوجى كما لاختبار هذا الموقف، لاختبار كلمته. والحقيقة أن القرن التاسع عشر أوجد نوعا هاما جدا من الرواية، البطل فيه هو الإنسان المتكلم فقط، العاجز عن الفعل، المحكوم عليه بالكلمة المجردة: بالحلم، بالوعظ الباطل، بالاستاذية، بالتأمل العقيم إلخ. تكلم على سبيل المثال رواية الاختبار الروسية - اختبار المثقف صاحب الأيديولوجيا (وأبسط نماذجها رواية "رودين").

إن مثل هذا البطل غير الفاعل ليس سوى أحد أنواع موضوعات البطل الروائى. إن البطل فى الرواية يفعل فى الرواية لا أقل مما يفعل فى الملحمة عادة. لكن الفرق الجوهرى بينه وبين البطل الملحمى أنه لا يفعل فقط بل يتكلم أيضا، لكن فعله ليس ذا قيمة عامة وليس مسلما

به بشكل مطلق ولا يحدث في عالم ملحمي ذي قيمة عامة ومسلم به. ولهذا السبب يحتاج مثل هذا الفعل دائما إلى تحفظ أيديولوجي، فوراؤه دائما موقف أيديولوجي معين ليس هو الممكن الوحيد، ولهذا فهو خلافي، عرضة للنقاش. إن الموقف الأيديولوجي للبطل الملحمي ذو قيمة عامة للعالم الملحمي كله، إذ ليس له (أي للبطل) أيديولوجيته الخاصة التي يمكن أن تقوم إلى جانبها وتعيش أيديولوجيات أخرى. يمكن للبطل الملحمي بطبيعة الحال أن يلقى خطبا طويلة (بينما يمكن للبطل أن يصمت)، لكن كلمته غير مميزة أيديولوجيا (إنها مميزة من الناحية الشكلية فقط أي من حيث التأليف والموضوع (Subjct)، بل إنها مندمجة في كلمة المؤلف. لكن المؤلف لا يبرز هو الآخر أيديولوجيته، فهذه مندمجة بالأيديولوجيا العامة التي هي الأيديولوجيا الوحيدة الممكنة. في الملحمة أفق واحد ووحيد، أما في الرواية فعدة آفاق، والبطل يفعل عادة في حدود أفقه هو. لهذا السبب ليس في الملحمة متكلمون بوصفهم ممثلي لغات مختلفة. المتكلم هنا هو، في الواقع، المؤلف وحده، والكلمة هنا هي كلمة المؤلف الواحدة والوحيدة فقط.

وفي الرواية يمكن أيضا إبراز بطل يفكر ويفعل (ويتكلم أيضا بطبيعة الحال) بطريقة لا غبار عليها كما يعتقد المؤلف (تماما كما يجب على أي كان أن يفعل)، لكن هذه العصمة الروائية بعيدة عن اليقينية الملحمية السانجة. فإذا كان الموقف الأيديولوجي لبطل كهذا غير متميز عن أيديولوجيا المؤلف (لاندماجه فيه)، فإنه متميز على

أى حال عن التنوع الكلامى المحيط: ذلك أن عصمة البطل تواجه التنوع الكلامى تقرىظيا ومحاجيا. مثال ذلك أبطال رواية الباروكو المعصومون الذين لا تشوبهم شائبة وأبطال الراوية العاطفية كغرانديسون على سبيل المثال. أن تصرفات هؤلاء الأبطال منارة أيديولوجيا ومتحفظ عليها بالكلمة التقريظية والمحاجية.

إن فعل بطل الرواية متميز دائما من الناحية الإيديولوجية: فهو (أى بطل) يعيش ويفعل فى عالمه الأيديولوجى الخاص (وليس فى عالم الملحمة الواحد الوحيد)، وله إدراكه الخاص للعالم الذى يتجسد فى الفعل والكلمة.

ولكن لماذا يتعذر جلاء الموقف الأيديولوجى للبطل ولعالمه الأيديولوجى القائم فى أساس هذا الموقف من خلال أفعال البطل ذاتها ومن خلالها وحدها دون اللجوء إلى تصوير كلمته؟

إن العالم الأيديولوجى للآخر (العالم الأيديولوجى الغريب) يتعذر تصويره التصوير المناسب ما لم نمكنه من إسماع صوته، وما لم نبين كلمته الخاصة. ذلك أن الكلمة المناسبة فعلا لتصوير العالم الأيديولوجى الغريب الخاص لا يمكن أن تكون إلا كلمته هو، حتى وإن لم تكن وحدها بل مشتركة مع كلمة المؤلف. قد لا يفسح الروائى المجال أمام بطله ليقول كلمته المباشرة، وقد يقتصر على تصوير أفعاله فقط، لكن لابد من أن تسمع فى تصوير المؤلف بالضرورة، هذا إذا كان هذا التصوير جوهريا ومناسبا، كلمة الآخر، كلمة البطل إلى جانب كلام المؤلف (راجع التراكيب الهجينة التى حللناها فى الفصل السابق).

ليس من الحتمى أبدا كما رأينا فى الفصل السابق أن يتجسد الإنسان المتكلم فى الرواية فى بطل. فالبطل ليس سوى أحد أشكال الإنسان المتكلم (وهو أهم هذه الأشكال فى حقيقة الأمر). ذلك أن لغات التنوع الكلامى تدخل الرواية فى شكل أساليب محاكاة ساخرة عديمة الشخصية (كما عند الفكاهيين الإنكليز والألمان)، وفى شكل أساليب غير أساليب المحاكاة الساخرة، فى شكل "سكاز" وأشكال أجناس دخيلة وفى شكل مؤلفين اصطلاحيين؛ وأخيرا، حتى كلام المؤلف المطلق نراه، لكونه محاجيا وتقريظيا أى لكونه يضع نفسه من حيث هو لغة خاصة فى مواجهة لغات التنوع الكلامى الأخرى، مركزا على ذاته إلى حد ما، أى إنه لا يصور فقط بل يصور.

هذه اللغات كلها، حتى تلك التى لا تتجسد منها فى بطل، تكون مشخصة اجتماعيا وتاريخيا وشيئية بقدر أو بآخر (فوحدها اللغة الواحدة الوحيدة التى لا تعرف لغات أخرى إلى جانبها يمكن ألا تكون موضوعا - شيئا)، ولهذا السبب تتراءى وراء هذه اللغات كلها صور المتكلمين فى لباسهم الاجتماعى والتاريخى الشخصى. فما يتصف به الجنس الروائى ويتميز ليس صورة الإنسان بحد ذاته، بل صورة اللغة. لكن على اللغة، كيما تصبح صورة فنية، أن تصبح كلاما على شفاه متكلمة وتقترب بصورة الإنسان المتكلم.

فإذا كان الموضوع الخاص لجنس الروائى هو الإنسان المتكلم وكلمته الطامحة إلى قيمة اجتماعية وانتشار بوصفها لغة خاصة من لغات التنوع الكلامى، فإن المشكلة المركزية للأسلوبية الروائية يمكن صياغتها على أنها مشكلة التصوير الفنى للغة، مشكلة صورة اللغة.

ينبغي القول إن هذه المشكلة لم تطرح حتى الآن بكل حجمها ومبدئيتها. ولهذا كانت خصوصية الأسلوبية الروائية تغيب عن نظر الباحثين. إلا أن بعضهم كان، مع هذا، يتحسس هذه المشكلة: فقد أخذ اهتمام الباحثين في دراستهم النثر الفني يتركز بصورة متزايدة على ظواهر خاصة متميزة كأسلبة اللغات والمحاكاة الساخرة للغات والسكاز. فما تتصف به هذه الظواهر جميعا أن الكلمة فيها لا تصور فقط، إنها هي نفسها تصور، وأن اللغة الاجتماعية فيها، سواء كانت لغة جنس أو مهنة أو اتجاه، تصبح موضوع استعادة حرة وموجهة فنيا، موضوع إعادة تشكيل، موضوع تحويل فنى: إذ كانت تختار اللحظات النموذجية في اللغة والمميزة لها أو حتى الجوهرية من حيث الرمز. هذا الابتعاد عن الواقع التجريبي للغة المصورة قد يكون، إلى هذا، ذا شأن كبير ليس بمعنى الفرز المتميز للحظات متوفرة في لغة ما والمغالاة في تشويها وحسب، وإنما بمعنى الخلق الحر بروح هذه اللغة للحظات غريبة تماما عن تجريبية هذه اللغة. مثل الرفع للحظات في اللغة إلى مستوى رموز اللغة أمر يميز السكاز خاصة (ليسكوف وعلى الأخص ريميزوف). زد على ذلك أن هذه الظواهر كلها (من أسلبة ومحاكاة ساخرة وسكاز) ظواهر ثنائية الصوت وثنائية اللغة كما بينا سابقا.

وفي الوقت نفسه وبالتوازي مع هذا الاهتمام بظاهرة الأسلبة والمحاكاة الساخرة والسكاز ظهر اهتمام حاد بمسألة نقل كلام الغير وبمسألة الأشكال النحوية والأسلوبية لهذا النقل. وقد ظهر هذا الاهتمام

فى علم اللغة والأدب الرومانى الجرمانى خاصة. وعلى الرغم من أن ممثلى هذا العلم ركزوا اهتمامهم أساسا على الجانب الألسنى الأسلوبى لهذه المسألة (أو حتى على جانبها الصرفى النحوى الضيق)، فقد اقتربوا اقترابا كبيرا جدا مع هذا (وخصوصا ليوشبيتسر) من مسألة التصوير الفنى للغة الآخر (اللغة الغريبة) التى هى المسألة المركزة فى النثر الروائى. إلا أن هؤلاء لم يطرحوا على الرغم من هذا كله مشكلة صورة اللغة بوضوح كامل، كما أن طرح مسألة نقل كلام الآخر لم يكن هو نفسه على المستوى المطنوب من الشمول والمبدئية.

إن نقل كلام الغير وكلمة الغير ومناقشتها واحد من أكثر موضوعات الكلام الإنسانى انتشارا وجوهريّة. فكلامنا فى كل مجالات الحياة والإبداع الأيدىولوجى يزخر بكلمات الآخرين ننقلها بدرجات متفاوتة جدا من الدقة والنزاهة. بقدر ما تكون الحياة الاجتماعية للجماعة المتكلمة أكثر توترا وتباينا وسموا، تكتسب كلمة الغير وقوله بوصفهما مادة للنقل المتحيز والتفسير والمناقشة والتقويم والدحض والتأييد والتطوير اللاحق مزيدا من الأهمية بين موضوعات الكلام.

إن موضوع الإنسان المتكلم وكلمته يتطلب دائما وسائل كلام شكلية خاصة. فالكلمة بوصفها موضوع كلمة أخرى هى، كما قلنا، موضوع (Sui Generis)^(*) يطرح على لغتنا مهام خاصة.

(*) أصيل: خاص.

وعليه نرى من الضروري التعرض لأهمية موضوع الإنسان المتكلم وكلمته في مجالات الحياة والإيديولوجيا الخارجة عن الفن قبل الانتقال إلى مسائل التصوير الفنى للكلام الغريب فى استهدافه صورة اللغة. ولئن لم يكن فى كل أشكال نقل الكلام الغريب خارج الرواية استهداف حاسم لصورة اللغة، فهذه الأشكال كلها تستخدم فى الرواية وتخصبها إذ تتحول فيها وتخضع إلى وحدة غائية جيدة (كما أن الرواية بدورها تؤثر تأثيرا هائلا فى الإدراك الخارج عن الفن للكلمة وفى نقلها).

ولموضوع الإنسان المتكلم أهمية عظيمة فى حياتنا اليومية. فنحن نسمع فى كل خطوة من خطواتنا كلاما عن المتكلم وكلمته. ويمكن القول دون تردد إن الناس فى حياتهم اليومية يتكلمون أكثر ما يتكلمون عما يقوله الآخرون: ينقلون كلمات الغير وآراءه ومزاعمه وآراءه، يتذكرونها، يزنونها، يناقشونها، يستأوون منها، يوافقونه عليها، يعارضونه فيها، يستشهدون بها إلخ. وإذا ما أنصتنا إلى مقاطع من حوار خام فى الشارع، بين الجمهور، فى الطوابير، فى ردهات المسارح ودور السينما، لابد أن نسمع مقدار ما تتردد كلمات مثل: "يقول"، "يقولون"، "قال"، وفى الحديث السريع بين الناس فى الشارع كثيرا ما تختلط هذه الكلمة فى كل واحد - "يقول... تقول... أقول..." وما أخطر كلمة "كلهم يقولون" وكلمة "قال" فى رأى العام، فى النميمة الاجتماعية، فى التقولات، فى اغتياب الناس إلخ. كما علينا أيضا الأخذ بعين الاعتبار القيمة النفسية (السيكولوجية) الحياتية لما يقوله الآخرون فىنا وأهمية فهمنا وتفسيرنا لهذه الكلمات ("التفسير الحياتي").

ولا تتضاءل قيمة موضوعنا إطلاقاً في مجالات التواصل
الحياتي الأرقى والأكثر تنظيماً. فأى محادثة تزخر بنقل كلمات الغير
وتأويلها، وفي كل خطوة نقع فيها على "مقبوس" أو "استشهاد" بما قاله
فلان، بـ"يقولون"، بـ"كلهم يقولون"، بكلمات محادثنا، بكلماتنا التي
قلناها نحن سابقاً، بالصحيفة، بقرار ما، بوثيقة ما، بكتاب ما إلخ
ومعظم هذه المعلومات والآراء لا تتقل بشكل مباشر على أنها
معلوماتنا أو آراؤنا، بل نعزوها إلى مصدر عام غير محدد: "سمعت"،
"يعتقد" "يظن" إلخ. ولناخذ حالة كثيرة الانتشار في حياتنا، ولتكن حديثاً
عن اجتماع ما؛ سنرى أن كل أحاديثنا تبنى على نقل مختلف
المداخلات والقرارات والتعديلات المقترحة على هذه القرارات سواء
ما رفض منها أو ما قبل إلخ. وعلى هذا فالكلام يدور دائماً عن الناس
المتكلمين وكلماتهم؛ وهذا الموضوع يتكرر من جديد كل مرة؛ فهو إما
يحكم الكلام بوصفه الموضوع الأساسي، وإما أن يلزم تطور
الموضوعات الحياتية الأخرى ويواكبها.

إن إيراد المزيد من الأمثلة على الأهمية الحياتية اليومية
لموضوع الإنسان المتكلم أمر ناقل. حسبنا الإصغاء إلى الكلام الذي
يتردد في كل مكان حولنا والتمعن فيه حتى نصل إلى الحقيقة التالية
وهي أن ما لا يقل عن نصف الكلمات التي ينطقها أي إنسان يعيش
حياة اجتماعية في كلامه اليومي كلمات غريبة (وموعاة على أنها
غريبة) منقولة بدرجات متفاوتة جداً من الدقة والنزاهة (أو الأدق القول
التحيز).

وبطبيعة الحال ليس من الممكن وضع الكلمات الغريبة المنقولة كلها فى حال تسجيلها كتابة ضمن علامة تنصيص. فدرجة تفرد الكلمة الغريبة ونقائها التى تقضى فى الكلام المكتوب علامة تنصيص (كما يرى المتكلم نفسه هذه الدرجة وكما يحددها) قلما نعثر عليها فى الكلام الحياتى.

ثم إن الصياغة النحوية النهائية للكلام الغريب المنقول أبعد من أن تستنفد بكليشيهات الكلام المباشر وغير المباشر الصرفية النحوية التقليدية: ذلك أن طرق إدخال الكلام الغريب وصياغته وإبرازه باللغة التنوع. وهذا ما يجب أخذه بعين الاعتبار إذا ما أردنا تقويم قولنا إن لا أقل من نصف الكلمات المنطوقة فى الحياة اليومية كلمات غريبة تقويما سليما.

إن الإنسان المتكلم وكلمته ليسا موضوع تصوير فنى بالنسبة إلى الكلام الحياتى، بل إنهما موضوع نقل متحيز عمليا. ولهذا السبب يمكن أن يدور الكلام هنا لا على أشكال التصوير بل على أشكال النقل. وهذه الوسائل متنوعة جدا سواء من حيث الصياغة اللمية الأسلوبية للكلام الغريب أو من حيث طرق تأطيره تأطيرا يدفع إلى تأويله وتفسيره تفسيراً جديداً وإعادة تنبيره، وقد يتدرج هذا التأطير من الحرفية الخالصة فى نقل الكلمة الغريبة حتى تشويها الخبيث والمقصود عن طريق محاكاتها محاكاة ساخرة والافتراء عليها^(١).

(١) متنوعة هى وسائل تزييف كلمة الغير لدى نقلها ومتنوعة إيصالها حد اللامعقول عن طريق تأطيرها وكشف مضمونها المحتمل. والبلاغة وفن الجدل ألقيا الضوء على أشياء فى هذا المجال.

ولا بد من التنويه بما يلي وهو أن الكلام الغريب المدرج فى سياق ما يتعرض دائماً، ومهما بلغت الدقة فى نقله، إلى تغييرات معينة فى المعنى. إذ إن السياق الذى يشتمل الكلمة الغريبة يخلق خلفية حوارية يمكن أن تكون على قدر عظيم جداً من التأثير. فباللجوء إلى وسائل تأطير مناسبة يمكن التوصل إلى إحداث تغييرات جوهرية جداً فى قول مقبوس بدقة. والمحتاج غير النزيه والبارع يعرف معرفة تامة، وهو يورد كلمات خصمه بدقة، أى خلفية حوارية عليه أن يفرشها تحت هذه الكلمات كيما يتمكن من تشويه معناها. ومن اليسير بشكل خاص رفع درجة شينئية الكلمة الغريبة عن طريق التأثير السياقى استشارة ردود فعل حوارية تكون مرتبطة بهذه الشينئية. وهكذا يسهل جداً جعل أكثر الأقوال رصانة أقوالاً مضحكة. إن الكلمة الغريبة المدرجة فى سياق الكلام لا تتصل بالكلام المؤطر لهذه الكلمة اتصالاً آلياً، بل على شكل تركيب كيميائى (فى المستوى المعنوى والتعبيرى)، ويمكن لدرجة التأثير المتبادل المشيع للحوارية أن تكون هائلة. ولهذا السبب لا يجوز لنا لدى دراسة مختلف أشكال نقل الكلمة الغريبة فصل طرق صياغة الكلام نفسه عن طرق تأطيره السياقى المشيع للحوارية، فهما مترابطان أحدهما بالآخر ترابطاً وثيقاً لا ينفصل. فصياغة الكلام الغريب وتأطيره (والسياق يمكن أن يبدأ من فترة مبكرة جداً التمهيد لإدخال الكلام الغريب) يعبران عن فعل واحد من العلاقة الحوارية بهذا الكلام، فعل يحدد طابع نقله وكل التغييرات المعنوية والنبروية التى تحدث فيه خلال عملية النقل هذه.

إن الإنسان المتكلم وكلمته فى الكلام الحياتى هما، كما قلنا، موضوع نقل معرض من الناحية العلمية، وليس موضوع تصوير إطلاقاً. وهذه الفرضية العملية هى التى تحدد كل الأشكال الحياتية اليومية لنقل الكلمة الغريبة وما يرتبط بهذه الأشكال من تغيرات تطراً عليها - من الفروق المعنوية والنبروية الدقيقة حتى التشويه الخارجى والفظ لقوامها الكلى. لكن هذا التركيز على النقل المغرض لا ينفى وجود بعض لحظات تصويرية. ذلك أنه فى عملية التقويم الحياتى للكلمات الغريبة وتخمين معناها الفعلى قد تكون لمعرفتنا بصاحب هذه الكلمات وبالظروف التى قيلت فيها أهمية حاسمة. فالفهم الحياتى والتقويم الحياتى لا يفصلان الكلمة هنا عن شخصية قائلها وشخصيته فى كامل عيانيتهما (كما قد يكون وارداً فى مجال الأيديولوجيا). ثم إن مجمل الموقف الذى جرى فيه الكلام - من كان حاضراً، وبأى لهجة تعبيرية وبأى إيماءات وبأى فروق نبروية قيل هذا الكلام - أمر فى غاية الأهمية. ذلك أن هذا الحوار المحيط بالكلمة الغريبة كله، وشخصية المتكلم يمكنها، لدى النقل الحياتى للكلمة الغريبة، أن يصوراً بل حتى أن يمثلاً (بدءاً من الاستعادة الدقيقة وحتى المحاكاة الساخرة والمبالغة فى تصوير الإشارات والنبرات). وهذا التصوير إنما هو مسخر لمهام النقل المغرض عملياً ومحكوم بالكامل بهذه المهام. فلا مجال هنا بطبيعة الحال للكلام عن صورة فنية للإنسان المتكلم ولا عن صورة فنية لكلمته ناهيك عن صورة فنية للغة. ومع هذا يمكن أن نلاحظ فى الأحاديث الحياتية المترابطة عن الإنسان المتكلم وسائل نظرية فنية لتصوير الكلمة الغريبة تصويراً ثنائى الصوت وحتى ثنائى اللغة.

هذه الأحاديث التى تتناول المتكلم والكلمة الغريبة فى الحياة اليومية لا تتعدى نطاق اللحظات السطحية للكلمة، نطاق قيمتها الموقفية إن صح التعبير؛ أما طبقات الكلمة المعنوية والتعبيرية الأكثر عمقا فلا تدخل فى هذه اللعبة. ولموضوع الإنسان المتكلم فى الاستعمال الأيديولوجى اليومى لوعينا، فى عملية اتصاله بالعالم الأيديولوجى شأن آخر. ذلك أن صيرورة الإنسان الأيديولوجية فى هذا القاطع هى عملية استيعاب اصطفاى للكلمات الغريبة.

إن تدريس المواد الكلمية يعرف طريقتين مدرستين أساسيتين فى النقل المستوعب للكلام الغريب (النص، للقاعدة، للنموذج): "عن ظهر قلب"، "بكلماته هو". وهذه الطريقة الأخيرة تطرح على مستوى ضيق مهمة أسلوبية نثرية فنية خالصة: ذلك أن رواية النص "بالكلمات الخاصة لشخص ما" هى إلى حد ما حديث ثنائى الصوت عن كلمة غريبة، فكلمات "الشخص الخاصة" يجب ألا تذيب حتى النهاية خصوصية الكلمات الغريبة، بل عليها أن تحمل طابعا مختلطا، فتحفظ فى الأماكن الضرورية بأسلوب النص المنقول وتعبيريته. وهذه الطريقة الثانية فى النقل المدرسى لكلمة الغير بكلمات شخص ما الخاصة تنطوى على مجموعة كاملة من أشكال النقل المستوعب لكلمة الغير تبعا لطابع النص المستوعب والأهداف التربوية المتوخاة من فهمه وتقويمه.

ويكتسب التركيز على استيعاب الكلمة الغريبة في عملية التكون الأيديولوجي للإنسان بالمعنى الدقيق للكلمة أهمية أكثر عمقا وجوهريّة. إذ أن الكلمة الغريبة هنا لا تكون بصفة خبر، توجيه، قاعدة، نموذج إلخ، بل تسعى إلى تحديد أسس علاقتنا الأيديولوجية بالحياة، وسلوكنا، فهي هنا بوصفها كلمة سلطوية وكلمة مقنعة داخليا.

إن سلطة الكلمة وإقناعيتها الداخلية، على الرغم من الاختلاف العميق بين هاتين المقولتين من مقولات الكلمة الغريبة، يمكنهما أن تتحدا كلاهما في كلمة واحدة - سلطوية ومقنعة داخليا في آن. لكن هذا الإتحاد نادرا ما يكون معطى، ذلك أن عملية التكون الأيديولوجية تتصف عادة باختلاف يمكنه أن يكون حادا على وجه الضبط بين هاتين المقولتين: فالكلمة السلطوية (الدينية، السياسية، الإخلاقية، كلمة الأب، كلمة الأكبر سنا، كلمة المعلمين إلخ) تقتقر إلى الإقناعية الداخلية بالنسبة إلى الوعي، أما الكلمة المقنعة داخليا فتفتقر إلى السلطوية، إذ لا تسندها أى سلطة، بل كثيرا ما تفتقر افتقارا تاما إلى الاعتراف الاجتماعي (من قبل رأى العام، والعلم الرسمي والنقد)، بل تفتقر حتى إلى الشعرية. إن الصراع بين مقولتي الكلمة الأيديولوجية هاتين والعلاقات الحوارية المتبادلة بينهما هي التي تحكم عادة تاريخ الوعي الأيديولوجي الفردي.

الكلمة السلطوية تقتضى منا الاعتراف والاستيعاب، فهي مفروضة علينا بغض النظر عن درجة إقناعيتها الداخلية بالنسبة إلينا، إذ نجدها مسبقا متحدة بممثل سلطة ما. الكلمة السلطوية في الماضي

البعيد مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالماضى المراتبى. إنها كلمة الآباء إن صح التعبير. إنها كلمة معترف بها فى الماضى، إنها كلمة موجودة مسبقاً. إنها ليست كلمة علينا أن نختارها من بين كلمات مساوية لها. معطاة (تتردد) فى دائرة عليا وليس فى دائرة التواصل الأليف. لغتها لغة خاصة (كهنوتية مقدسة إن صح التعبير). هذه الكلمة يمكن أن تكون عرضة للتدنيس، إنها أشبه بالتأبى - الاسم الذى لا يجوز التفوه به سدى.

لا نستطيع هنا الخوض فى دراسة الأنواع المتعددة للكلمة السلطوية (سلطوية العقيدة الدينية على سبيل المثال، أو الشخصية العلمية المعترف بها أو الكتاب الرائج) ولا فى دراسة درجات سلطويتها. الشئ المهم بالنسبة لموضوعنا هنا هو الخصائص الشكلية لنقل الكلمة السلطوية وتصويرها، وهى خصائص مشتركة بين كافة أنواعها ودرجاتها.

إن ارتباط الكلمة بسلطة، سواء اعترفنا بهذه السلطة أم لم نعترف، هو الذى يخلق تفرداً وخصوصيتها؛ فهى (أى الكلمة السلطوية) تستلزم مسافة بالنسبة إليها (قد تكون هذه المسافة ذات صبغة إيجابية أو سلبية، كما قد تكون علاقتنا لها خشوعية أو عدائية) يمكن للكلمة السلطوية أن تنظم حولها أعداداً كبيرة من الكلمات الأخرى (التي تؤولها، أو تمدحها، تستثمرها فى غاية أو أخرى إلخ). لكنها لا تندمج فى هذه الكلمات (عن طريق انتقالات أو تجولات

تدرجية)، بل تظل على درجة كبيرة من التميز والتراص والخمول. فهي لا تستلزم علامة تنصيب وحسب، بل إبرازاً أضخم (حروفاً خاصة على سبيل المثال^(١)). مثل هذه الكلمة يصعب جداً شحنها بتغييرات معنوية بمساعدة سياق يؤطرها، كما أن بنيتها المعنوية جامدة وميتة لأنها مكتملة وذات معنى واحد، ذلك أن معناها يكتفى بالحرف، يتحجر.

الكلمة السلطوية تتطلب منا اعترافاً مطلقاً بها وليس امتلاكها امتلاكاً حراً، ودمجها في كلمتنا الخاصة. ولهذا السبب فهي لا تمكن من أى لعب مع السياق المؤطر لها، من أى لعب مع حدودها، وأى أنتقالات متدرجة ومائعة، وأى تنوعات مؤسسية إبداعية حرة. إنها تدخل وعينا اللفظي كتلة واحدة كثيفة لا تتجزأ، وعليها إما القبول بها قبولاً كاملاً أو رفضها كاملاً فهي قد التحمت التحاماً وثيقاً بالسلطة (السلطة السياسية، أو سلطة المؤسسة أو الشخص)، توجد معها وتسقط معها. ولذلك لا تجوز تجزئتها: القبول بكلمة وعدم القبول بأخرى إلا جزئياً ورفض ثالثة رفضاً كاملاً. ولهذا فالمسافة بالنسبة إلى الكلمة السلطوية تظل ثابتة على امتداد هذه الكلمة: فلعب المسافات هنا - الاندماج والافتراق، التقارب والتباعد - أمر غير ممكن.

(١) كثيراً ما تكون الكلمة السلطوية كلمة أجنبية غريبة (اللغة الأجنبية للنصوص الدينية عند معظم الشعوب على سبيل المقارنة).

وهذا كله يحدد أصالة الوسائل المشخصة لإعطاء الكلمة السلطوية شكلها النهائي لدى نقلها كما يحدد أصالة وسائل تأطيرها بالسياق. ومنطقة السياق المؤطر يجب أن تكون هي الأخرى من الماضى الأبعد. ذلك أن التواصل الأليف غير ممكن هنا. فمتلقى الكلمة السلطوية وفاهمها هو الخلف البعيد، وبالتالي النقاش هنا مستحيل.

وهذا يحدد أيضا الدور الممكن للكلمة السلطوية فى الإبداع النثرى الفنى. الكلمة السلطوية لا تصوّر بل تتقل فقط. فخمولها واكتمالها المعنوى وتحجرها وتفردا الخارجى المفرط والصارم وتعذر أى تطوير مؤسلب حر لها - هذا كله ينفى إمكان تصوير الكلمة السلطوية تصويرا فنيا. ولهذا فدورها فى الرواية تافه. فهى (أى الكلمة السلطوية) لا يمكنها أن تكون ذات ثنائية صوتية بشكل جوهري وتدخل فى تراكيب هجينة. وعندما تفقد سلطتها نهائيا. تصبح، ببساطة، موضوعا، ذخيرة، شيئا. إنها تدخل السياق الفنى كجسم غريب، لا لعب من حولها ولا انفعالات متناقضة، ولا حياة حوارية مضطربة متعددة الأصداء. حولها السياق يموت والكلمات تتيبس. ولهذا لم تتجح أبدا فى الرواية صورة الحقيقة أو الفضيلة السلطوية الرسمية (الملكية، الروحية، الأخلاقية أو تلك التى يحملها الموظفون إلخ). حسبنا التذكير بمحاولات غوغول ودستوفسكى الياثسة. ولهذا السبب يظل النص السلطوى فى الرواية دائما مقبوسا ميتا يسقط من السياق الفنى (وعلى سبيل المثال النصوص الإنجيلية عند تولستوى فى نهاية روايته "البعث"^(١)).

(١) لابد لنا لدى التحليل الشخص للكلمة السلطوية فى الرواية من الأخذ فى الحسبان أن الكلمة السلطوية الخالصة يمكن أن تكون فى عصر آخر كلمة مقنعة داخليا، وهذا ينطبق على الأخلاق بصفة خاصة.

ويمكن للكلمات السلطوية أن تجسد مضامين مختلفة: فهناك السلطة بما هي كذلك، وهناك قوة النفوذ أو الهيبة وهناك قوة التقليد. وهناك قوة المتعارف عليه أو قوة الصفة الرسمية إلى آخره. ويمكن أن تكون لهذه الكلمات مناطق متنوعة (درجة الابتعاد عن منطقة التواصل وعلاقات مختلفة بالسامع - الفاهم المفترض - الخلفية الزكانية التي تفترضها الكلمة، درجة الاستجابة إلخ).

يجرى في تاريخ اللغة الأدبية صراع ضد الصفة الرسمية وضد الابتعاد عن منطقة التواصل، صراع ضد مختلف أنواع السلطوية ودرجاتها. هكذا يتحقق إدراج الكلمة في منطقة التواصل وما يرتبط به من تغيرات دلالية وتعبيرية (نبروية): ضعف وخفض الشحنة الاستعارية، اكتساب صفة التشيؤ والعيانية، إسباغ الصفة الحياتية وما شاكل ذلك. وهذا كله درس على مستوى علم النفس وليس من وجهة نظر تشكله اللفظي في المونولوج الداخلي المحتمل للإنسان وصيرورته، لمونولوج حياة بكاملها. وتثور أمامنا مشكلة معقدة هي مشكلة أشكال هذا المونولوج (الذي أشيعت فيه الحوارية).

وتتكشف الكلمة الأيديولوجية الغريبة المقنعة داخليا بالنسبة إلينا والمعترف بها من قبلنا عن إمكانات مختلفة تماما. فلهذه الكلمة دور حاسم في عملية التكون الأيديولوجي للوعي الفردي: ذلك أن الوعي يستيقظ على الحياة الأيديولوجية المستقلة في عالم كلمات غريبة يحيط به ولا يستطيع في البدء فصل نفسه عنه. فالتمييز بين كلمته وكلمة الآخر، بين فكره وفكر الآخر يأتي في وقت متأخر إلى حد ما. وعندما

يبدأ عمل الفكر المستقل المختبر والمصطفى، فإن أول ما يحدث هو انفصال الكلمة المقنعة داخليا عن الكلمة السلطوية والمفروضة وعن كتلة الكلمات اللامبالية التي لا تمسنا.

إن الكلمة المقنعة داخليا. بخلاف الكلمة السلطوية خارجيا، تتداخل لدى عملية استيعابها الإيجابي تداخلا وثيقا "بكلماتنا نحن"^(١). فالكلمة المقنعة داخليا حين يستخدمها وعينا هي كلمة نصفها لنا ونصفها لغيرنا. وخصبها الخلاق يقوم بالضبط على أنها توقظ الفكر المستقل والكلمة الجديدة المستقلة، وعلى أنها تنظم من الداخل مجموعات كلماتنا فلا تظل الكلمة في وضع منعزل وجامد. فنحن لا نؤولها بقدر ما هي نفسها تستمر في تطورها بحرية فتستخدم في مادة جديدة وفي ظروف جديدة وتتبادل الإنارة مع سياقات جديدة. زد على ذلك أنها تتفاعل تفاعلا متوترا وتتصارع مع كلمات أخرى مقنعة داخليا. وما تكوننا الأيديولوجي إلا صراع متوتر في داخلنا على السيطرة بين مختلف وجهات النظر، والمقاربات والإتجاهات والتقويمات اللمية الأيديولوجية. إن البنية المعنوية للكلمة المقنعة داخليا ليست مكتملة بل مفتوحة، وهي قادرة في كل سياق جديد يبعث فيها الحوارية أن تتكشف باستمرار عن إمكانات معنوية جديدة.

(١) ذلك أن كلماتنا تتشكل تدريجيا وبيطء من الكلمات الغريبة التي نتعرف بها ونتمثلها، والحدود بينها وبين هذه الكلمات تكاد لا يشعر بها في البداية.

الكلمة المقنعة داخليا هي الكلمة المعاصرة، الكلمة المولودة فى منطقة التماس مع العصر غير المكتمل أو الكلمة المُعَصَّرنة؛ إنها تتوجه إلى الإنسان المعاصر وإلى الخلف كأنه إنسان معاصر؛ إن العنصر المكون بالنسبة إليها هو فهم خاص للسامع - القارئ - الفاهم فكل كلمة تتضمن فهما معينا للسامع ولخلفيته الزكانية ودرجة استجابته، تتضمن مسافة معينة. وهذا كله مهم جدا لفهم الحياة التاريخية للكلمة. وتجاهل هذه اللحظات والفروق يؤدي إلى تشيئ الكلمة (إلى إخماد حواريتها الفطرية).

إن هذا كله يحدد وسائل إعطاء الكلمة المقنعة داخليا شكلها النهائى لدى نقلها ووسائل تأطيرها بالسياق. وهذه الوسائل تتيح المجال لأقصى حد من التفاعل بين الكلمة والسياق ومن التأثير المتبادل المشيع للحوارية بينهما، ومن تدرجية الانتقالات ولعب الحدود ومن التمهيد للسياق فى وقت مبكر كى يدخل الكلمة الغريبة (ذلك أن "الموضوع" الكلمة الغريبة قد يبدأ يتردد فى السياق قبل وقت طويل من ظهور الكلمة ذاتها)، كما تتيح المجال لخصائص أخرى تعبر عن ماهية الكلمة المقنعة داخليا: عن عدم اكتمال معناها بالنسبة إلينا وعن قدرتها على الاستمرار فى الحياة خلاقة فى سياق وعينا الأيديولوجى، وعدم اكتمال، عدم نفاذ تواصلنا الحوارى معها. إننا لم نعرف كل ما يمكن أن نقوله لنا، فنحن ندخلها فى سياقات جديدة ونستخدمها فى مادة جديدة، ونضعها فى وضع جديد كى نظفر منها بأجوبة جديدة وبأشعة جديدة من معناها وبكلمات جديدة خاصة بنا (ذلك أن الكلمة الغريبة المنتجة تستدعى حواريا كلمتنا الجوابية الجديدة).

إن وسائل إضفاء الشكل النهائي على الكلمة المقنعة داخليا وتأطيرها من المرونة والديناميكية بحيث يمكن لهذه الكلمة أن تكون، بالحرف الواحد ، حاضرة في كل مكان من السياق تضيف على كل شيء ألوانها الخاصة، كما يمكنها أن تبرز وتتباين من وقت إلى آخر وتتجسد تجسدا ماديا كاملا بوصفها كلمة غريبة متميزة ومتفردة (راجع مناطق الأبطال). ومثل هذه التتويجات على موضوع الكلمة الغريبة واسعة الانتشار في كل مجالات التأليف الأيديولوجي وحتى التأليف العلمي المتخصص. هذا هو حال أى عرض موهوب وخلاق لوجهات النظر الغريبة الأساسية: فهذا العرض يعطى دائما تتويجات أسلوبية حرة على الكلمة الغريبة، ويبسط الفكرة الغريبة بأسلوبها فى تطبيقها على مادة جديدة وعلى طرح جديد لمسألة ما، إنه يختبر ويتلقى إجابات بلغة الكلمة الغريبة.

وفى حالات أخرى أقل وضوحا نلاحظ ظواهر مماثلة، منها المقام الأول كل حالات التأثير القوى للكلمة الغريبة فى مؤلف ما. ويتلخص إظهار التأثيرات على وجه الضبط فى كشف هذه الحياة نصف الخفية التى للكلمة الغريبة فى السياق الجديد لهذا المؤلف. ولدى وجود تأثير عميق ومثمر لا يعود هناك مجال لمحاكاة خارجية أو لاستعادة بسيطة، بل هناك تطوير خلاق أبعد للكلمة الغريبة (أو الأدق القول نصف الغريبة) فى سياق جديد وفى شروط جديدة.

وفى هذه الحالات كلها لا تعود المسألة أشكال نقل الكلمة الغريبة، ذلك أن بداءات تصويرها (أى الكلمة الغريبة) الفنية قائمة دائما فى هذه الأشكال. ومع تغيير طفيف فى وضعها تصبح الكلمة

المقنعة داخليا بيسر موضوع تصوير فنى. حتى صورة الإنسان المتكلم تلتحم التكاما جوهريا وعضويا ببعض أنواع الكلمة المقنعة داخليا: الأخلاقية (صورة البار) الفلسفية (صورة الحكيم)، الاجتماعية السياسية (صورة القائد). فيحاولون عن طريق اختبار الكلمة الغريبة وتطويرها اختبارا وتطويرا مؤسليين خلاقين تخمين وتصور الكيفية التى سيتصرف بها إنسان ذو سلطة فى ظروف كهذه وكيف سينير هذه الظروف بكلمته. وفى مثل هذا التخمين الاختبارى تصبح صورة المتكلم وكلمته موضوع تخيل إبداعى فنى^(١).

ويكتسب هذا التجسيد المادى الاختبارى للكلمة المقنعة ولصورة المتكلم خطورة خاصة حيثما يبدأ الصراع معهما وحيثما يظهر النزوع إلى التخلص من تأثيرهما بل حتى إلى فضحهما عن طريق مثل هذا التجسيد. وأهمية عملية الصراع هذه ضد الكلمة الغريبة ونفوذها عظيمة فى تاريخ الصيرورة الأيديولوجية للوعى الفردى. ذلك أن صوتنا وكلمتنا اللذين ولدا من الكلمة الغريبة أو اللذين نبهتهما ونشطتهما الكلمة الغريبة يأخذان فى وقت يقصر أو يطول فى التخلص من سلطة هذه الكلمة. ومما يزيد هذه العملية تعقيدا أن الأصوات الغريبة المختلفة تدخل فى صراع على النفوذ فى وعى الفرد (تماما كما تتصارع فى الواقع الاجتماعى المحيط). وهذا كله يخلق أرضية مناسبة لتجسيد (تشبيء) الكلمة الغريبة اختباريا. ذلك أن الحديث مع

(١) هكذا هو سقراط عند أفلاطون. إنه الصورة الفنية المختبرة فنيا للحكيم والمعلم.

مثل هذه الكلمة المقنعة داخليا المعرأة يستمر لكنه يتخذ طابعا آخر: فهم يسألون هذه الكلمة ويضعونها في مقام أو موقف جديد لكشف جوانبها الضعيفة وتلمس حدودها وتحسس شئيتها. ولهذا السبب كثيرا ما تكتسب مثل هذه الأسلبة مسحة من المحاكاة الساخرة لكنها ليست محاكاة ساخرة فظة، ذلك أن الكلمة الغريبة التي كانت في وقت ما كلمة مقنعة داخليا تبدى مقاومة، وكثيرا ما تأخذ في التردد دون أى نبرة ساخرة. على هذه الأرضية تولد الصور الراوئية الثنائية الصوت والثنائية اللغة، العميقة، المجسدة للصراع مع الكلمة الغريبة المقنعة داخليا التي سيطرت في وقت ما على المؤلف (ذلكم على سبيل المثال هو اونيغين عند بوشكين وبيتشورين عند ليرمنتوف). ففي "رواية الاختبار" كثيرا ما تكون العملية الذاتية للصراع مع الكلمة الغريبة المقنعة داخليا وللتحرر منها عن طريق التجسيد (التشيء) هي القائمة في أساس هذا النوع من الروايات. ويمكن "للرواية التربوية" أن تنهض دليلا آخر على الأفكار التي عرضناها هنا، لكن عملية الصيرورة الأيديولوجية الاصطفائية فيها تعرض فيها كموضوع (Thème) للرواية، في حين أن العملية الذاتية للمؤلف نفسه في رواية "الاختبار" تظل خارج العمل.

وتحتل مؤلفات دوستوفسكى موقفا استثنائيا ومتميزا بهذا الخصوص. فالتفاعل الحاد والمتوتر مع الكلمة الغريبة يبدو بطريقتين: أولا في كلام الشخص حيث يطرح نزاع عميق وغير محسوم مع الكلمة الغريبة على الصعيد الحياتي ("كلمة الغير عنى") وعلى الصعيد

الأخلاقى الحياتى (حكم الغير على، اعترافه أو عدم اعترافه بى) وأخيرا على الصعيد الأيديولوجى (وجهات نظر الأبطال إلى العالم بوصفها حوارا غير مكتمل ولا يمكن أن يكتمل). أن أقوال أبطال دوستوفسكى حلبة صراع لا مخرج مه مع الكلمة الغريبة فى كل دوائر الحياة والإبداع الأيديولوجى. ولهذا السبب تصلح هذه الأقوال لأن تكون أمثلة رائعة على مختلف أشكال نقل الكلمة الغريبة وتأطيرها. ثانيا، أن أعماله (رواياته) فى مجملها تبدو هى أيضا، بوصفها أقوال مؤلفها، حوارات لا مخرج منها ولا يمكن أن تكتمل داخليا بين الأبطال (بوصفهم وجهات نظر مجسدة) وبين المؤلف نفسه وأبطاله؛ فكلمة البطل لا يتم تجاوزها تجاوزا نهائيا وتبقى حرة ومفتوحة (كلمة المؤلف ذاته). أن اختبارات الأبطال وكلمتهم، المكتملة من حيث موضوعها (Thème)، تظل فى روايات دوستوفسكى غير مكتملة وغير محسومة داخليا^(١).

وغنى عن البيان ما لموضوع الإنسان المتكلم من أهمية هائلة فى دائرة التفكير والكلمة الأخلاقيين والحقوقيين. فالإنسان المتكلم وكلمته هنا هما الموضوع الأساسى للتفكير والكلام. وكل مقولات الحكم والتقويم الأخلاقيين والحقوقيين الجوهرية تتصل الإنسان المتكلم بما هو كذلك بالذات: الضمير ("صوت الضمير"، "الكلمة الباطنية")،

(١) راجع كتابنا "قضايا إيداع دوستوفسكى"، طبعة ١٩٢٩، وطبيعته الثانية (١٩٦٣) والثالثة (١٩٧٢) تحت عنوان "قضايا الفن الشعرى لدى دوستوفسكى" حيث قمنا بتحليلات أسلوبية لأقوال الأبطال تبين مختلف أشكال النقل والتأطير السياقى.

الندم (الاعتراف الحر الطوعي للإنسان نفسه)، الحقيقة والصدق، المسؤولية الأهلية المدنية، حق إبداء الرأي إلخ. أن الكلمة المستقلة والمسؤولة والفعالة هي السمة الجوهرية للإنسان الأخلاقي والحقوقي والسياسي. فاستدعاء هذه الكلمة والتوجه إليها واستثارته وتأويلها وتقويمها وتعيين حدود وأشكال فعاليتها (الحقوق المدنية والسياسية) والموازنة بين مختلف الإرادات والكلمات وما إلى ذلك - كل هذه الأفعال ذات قيمة هائلة في المجال الأخلاقي والحقوقي. حسبنا أن نشير إلى ما لتسجيل شهاداتهم وتصريحاتهم للاتفاقات ولمختلف الوثائق وغيرها من أنواع أقوال الآخرين وتحليلها وتأويلها وأخيرا ما لتفسير القوانين من دور في المجال القانوني الخالص.

وهذا كله يتطلب دراسة. صحيح أنه نشأت تقنية قانونية (وأخلاقية) للتعامل مع الكلمة الغريبة وللتأكد من صحتها ودرجة مصداقيتها إلخ (مثال ذلك تقنية عمل الكاتب بالعدل)، لكن المسائل المتصلة بالطرق التأليفية والأسلوبية والدلالية وغيرها من طرق صياغتها لم تطرح بعد.

لقد عولجت مسألة الاعتراف في قضايا التحقيق القضائي (طرق استدراجه وانتزاعه) على المستوى القانوني والأخلاقي والنفسي فقط. ويقدم لنا دوستوفسكي مادة عميقة جدا لطرح هذه المسألة على مستوى فلسفة اللغة (الكلمة): إشكالية الفكرة الحقيقة، الرغبة الحقيقية، الدافع الحقيقي والكشف عنهما كلميا كما عند إيفان كرامازوف على سبيل المثال دور الآخر، إشكالية التحقيق وما إلى ذلك.

إن الإنسان المتكلم وكلمته بوصفها مادة التفكير والكلام لا يدرسان في المستويين الأخلاقي والحقوقي إلا على ضوء المصلحة الخاصة لهذين المستويين بطبيعة الحال. ولهذه المصالح والأهداف تسخر كل وسائل نقل الكلمة الغريبة وصياغتها وتأطيرها. إلا أن عناصر التصوير الفني للكلمة الغريبة واردة حتى هنا، ولا سيما على المستوى الأخلاقي: مثال ذلك تصوير صراع صوت الضمير مع أصوات الإنسان الأخرى، والحوارية الداخلية للندم إلخ. وقد يكون العنصر الروائي النثرى الفني في الأبحاث الأخلاقية ولا سيما في الإعترافات ذا شأن عظيم: مثال ذلك وجود بداءات "رواية الاختبار" و"رواية التربية" عند إبيكتيت ومارك أفريلى وأغوستين وبيترارك.

ولموضوعنا شأن أعظم على مستوى التفكير الدينى والكلمة الدينية (الأسطورية، الصوفية، الغيبية، السحرية). إن الموضوع الرئيسى لهذه الكلمة هو كائن متكلم: كائن إلهى، جنى، كاهن، نبى. والتفكير الأسطورى لا يعرف عادة أشياء جامدة وخرساء. فالتعرف إلى إرادة الكائن الإلهى أو الجنى (الخير أو الشرير) وتفسير آيات غضبه أو رضاه وصفاته ووصاياه وأخيرا نقل كلماته المباشرة وتفسيرها (الوحى) وكلمات أنبيائه وقديسيه وكهانه وباختصار نقل كلمة الوحى الإلهى (تميزا لها من الكلمة الدنيوية) - هذه كلها أفعال على جانب عظيم من الخطورة فى التفكير والكلمة الدينيين. وكل النظم الدينية حتى البدائية منها تملك جهازا منهجيا خاصا ضخما لنقل مختلف أنواع الكلمة الإلهية وتفسيرها.

ويختلف الأمر بعض الشيء في التفكير العلمى، فموضوع الكلمة هنا ذو أهمية غير كبيرة نسبيا. ذلك أن العلوم الرياضية والطبيعية لا تعرف الكلمة موضوع نزعة على الإطلاق. لا بد بطبيعة الحال من التعامل مع الكلمة الغريبة خلال العمل العلمى (التعامل مع الأعمال السابقين وآراء النقاد والرأى العام إلخ). كما لا مندوحة من التعامل مع مختلف أشكال نقل الكلمة الغريبة وتفسيرها - الصراع ضد كلمات ذوى النفوذ، تجاوز التأثيرات، المحاججة، الاستشهادات والاقتباسات إلخ. لكن هذا كله يبقى فى عملية العمل ذاتها لا يتعداها إلى مضمون مادة العلم التى لا يدخل الإنسان المتكلم وكلمته فى قوامها بطبيعة الحال. أن كل الجهاز المنهجى للعلوم الرياضية والطبيعية يتوجه إلى تملك موضوع (شئ) مادى، أخرس لا يكتشف ذاته فى الكلمة ولا ينبئ شيئا عن ذاته. فالمعرفة هنا غير مرتبطة بالحصول على كلمات أو علامات الشئ موضوع المعرفة وتفسيرها.

وفى العلوم الإنسانية تنشأ، بخلاف ما هو الحال فى العلوم الرياضية والطبيعية، مهمة خاصة هى إعادة إنشاء الكلمات الغريبة ونقلها وتأويلها (مثال ذلك مشكلة المصادر فى منهجية العلوم التاريخية). أما فى العلوم الفيلولوجية (علوم اللغة والأدب) فالإنسان المتكلم وكلمته هما الموضوع الأساسى للمعرفة.

والفيلولوجيا أهدافها ومقارباتها الخاصة لموضوعها الذى هو الإنسان المتكلم وكلمته. وهذه الأهداف والمقاربات تحدد كل أشكال نقل الكلمة الغريبة وتصويرها (وعلى سبيل المثال الكلمة بوصفها موضوع

تاريخ اللغة). إلا أنه من الممكن في حدود العلوم الإنسانية (وفي حدود الفيلولوجيا بالمعنى الضيق) أن تقارب الكلمة الغربية بوصفها موضوع المعرفة بطريقتين.

فالكلمة يمكن أن تدرك بشكل كامل على أنها موضوع (على أنها شيء في حقيقة الأمر). هذه هي حال الكلمة في معظم العلوم اللسانية. في مثل هذه الكلمة - الموضوع حتى المعنى يتشياً: إذ لا يمكن مقاربتة مقارنة حوارية التي هي المقاربة المحايدة لأي فهم عميق وفعال. ولهذا السبب الفهم هنا مجرد: فهو مقطوع الصلة تماماً بالمعنى الأيديولوجي الحي للكلمة - صدق هذه الكلمة أو كذبها، عظمتها أو تفاوتها، جمالها أو قبحها. وفهم مثل هذه الكلمة الشبئية يكون محروماً من أي استكناه حوارى للمعنى الذى هو موضوع المعرفة، وإجراء حديث مع كلمة كهذه أمر غير ممكن.

إلا أن الاستكناه الحوارى أمر لازم وضرورى فى الفيلولوجيا (فبدونه يستحيل أى فهم): إنه يكتشف لحظات جديدة فى الكلمة (لحظات معنوية بالمعنى الواسع) تتشياً بعد أن تكتشف حوارياً. إن أى تقدم فى علم الكلمة لا بد أن يكون مسبقاً "بالمرحلة العبقرية" لهذا العلم أى بموقف حوارى متوتر من الكلمة يجلو جوانب جديدة فيها.

ونحن بحاجة إلى مقارنة كهذه بالضبط: مقارنة تكون أكثر تشخيصية، لا تنفصل عن المعنى الأيديولوجي الفعال للكلمة وتقرن موضوعية الفهم بحيويته وعمقه الحواريين. وفى فن الشعر وتاريخ

الأدب (فى تاريخ الأيدولوجيات عامة) وفى فلسفة الكلمة إلى حد بعيد تستحيل مقارنة غير هذه: ذلك أن الوضعية الأكثر جفافا وتسطيحا فى هذه الميادين لا يمكنها أن تعامل الكلمة بحياد كأنها شىء، وتجد نفسها مضطرة أن تتكلم ليس عن الكلمة وحسب بل مع الكلمة أيضا كيما تستطيع النفاذ إلى معناها الأيدولوجى الذى لا يسلس قيادة إلا للفهم الحوارى (أى الذى يتضمن التقويم والجواب). إن إشكال النقل والتأويل التى تحقق مثل هذا الفهم الحوارى للكلمة يمكنها، إذا ما اقترنت بعمق الفهم وحيويته، أن تقترب إلى حد كبير من التصوير النثرى الفنى الثنائى الصوت للكلمة الغريبة. ومن الضرورة التتويه هنا بأن الرواية تتضمن هى أيضا لحظة معرفة الكلمة الغريبة التى تصورها هذه الرواية.

وأخيرا بضع كلمات عن أهمية موضوعنا فى الأجناس البلاغية. أن الإنسان المتكلم وكلمته هما واحد من أهم مواضيع الكلام البلاغى دون شك (وكل الموضوعات الأخرى أيضا تقتزن هنا بموضوع الكلمة حتما). فالكلمة البلاغية فى البلاغة القضائية على سبيل المثال تتهم الشخص المسؤول، المتكلم أو تدافع عنه، وهى تستند فى هذا إلى كلماته وتؤولها وتحاججها وتستعيد على نحو خلاق الكلمة المحتملة للمتهم أو الموكل (ومثل هذا الإنشاء الحر لكلمات لم تقل وأحيانا لخطب كاملة "كما كان بوسعه أن يقول" أو "لو... لقال" طريقة واسعة الانتشار جدا فى البلاغة القديمة)، وتحاول استباق اعتراضاته المحتملة وتنتقل كلمات الشهود وتقارن بينها إلخ. والكلمة فى البلاغة السياسية تؤيد على سبيل المثال ترشيح شخص ما فتصور شخصيته وتعرض

وجهة نظره ومقترحاته الـكلمية وتدافع عنها، أو تحتج، فى حالة أخرى، على قرار، قانون، أمر، تصريح، خطاب أى على أقوال كلمية معينة تتوجه إليها الكلمة حواريا.

وكلمة الأدب الاجتماعى تتعامل أيضا مع الكلمة ومع الإنسان بوصفه حامل الكلمة: فهى تنتقد خطابا، مقالة، وجهة نظر، وتحتاج وتفضح وتسخر إلخ. فإذا ما حُلَّت تصرفا كشفت دوافعه الـكلمية ووجهة النظر التى يقوم عليها وصاغتـها كلميا مع إعطائها نبرة مناسبة - نبرة ساخرة أو نبرة إستياء وما إلى ذلك. وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أن البلاغة تتسّى ما وراء الكلمة من قضية أو تصرف أو واقع خارج عن الكلام. لكنها تتعامل مع إنسان اجتماعى كل فعل جوهرى من أفعاله يكشف معناه الأيديولوجى بالكلمة أو يتجسد مباشرة فى الكلمة.

إن الكلمة الغريبة بوصفها موضوعا ذات أهمية عظيمة فى البلاغة بحيث كثيرا ما تأخذ الكلمة فى حجب الواقع والحلول محلّه، فتضيق أكثر ما ينبغى وتفقد عمقها. إن البلاغة كثيرا ما تكتفى بانتصارات كلمية خالصة على الكلمة، وفى هذه الحالة تتحول إلى لعب شكلى بالكلمات. لكننا نعود فنكرر أن انفصال الكلمة عن الواقع مدمر للكلمة ذاتها: فهذه تسقم وتفقد من عمقها المعنوى وقدرتها على الحركة وتوسيع معناها فى السياقات الحية الجديدة وتجديده، إنها تموت فى حقيقة الأمر بوصفها كلمة، ذلك أن الكلمة ذات المعنى تحيا خارج ذاتها أو بتوجيهها إلى الخارج. إلا أن التركيز الاستثنائى على الكلمة الغريبة بوصفها موضوعا لا يفترض بذاته انقطاع الكلمة عن الواقع بالضرورة.

وتعرف الأجناس البلاغية أشكالا متنوعة جدا من نقل الكلام الغريب ومشحونة في أغلب الحالات بحوارية حادة. فالبلاغة تستخدم استخداما واسعا للتغييرات الحادة في نبر الكلمات المنقولة (إلى درجة تشويها تشويها كاملا في أحيان كثيرة) عن طريق تأطيرها تأطيرا مناسباً بالسياق. وتمدنا الأجناس البلاغية بمادة خصبة جدا لدراسة مختلف أشكال نقل الكلام الغريب ومختلف وسائل صياغته وتأطيره. ومن الممكن أيضا، على أرضية البلاغة، تصوير الإنسان المتكلم وكلمته تصويرا نثريا، لكن ثنائية الصوت البلاغية لمثل هذه الصور نادرا ما تكون عميقة: فهي لا تضرب بجذورها في حوارية لغة في طور التشكل، ولا تبنى على تنوع كلامي جوهري، بل على تنافر أصوات، فهي مجردة في معظم الأحيان، قابلة لأن يعين الصوتان فيها ويفصلان تعيينا وفصلا منطقيين شكليين يستفدانها تماما. ولهذا ينبغي الكلام عن ثنائية صوتية بلاغية خاصة تميزها لها من الثنائية الصوتية النثرية الفنية الأصلية، أو بعبارة أخرى ينبغي الكلام عن نقل بلاغي ثنائي الصوت للكلمة الغريبة (وإن يكن هذا النقل لا يخلو من لحظات فنية) تميزا له من التصوير الثنائي الصوت في الرواية الذي يستهدف صورة اللغة.

تلكم هي خطورة موضوع الإنسان المتكلم وكلمته في كل مجالات الحياة اليومية وحياة الكلمة الأيديولوجية. ويمكننا التأكيد استنادا إلى ما قلناه أن في قوام كل قول يقوله الإنسان الاجتماعي تقريبا - من الرد القصير في الحوار اليومي الحياتي وحتى المؤلفات

الأيدولوجية اللمية الكبيرة (الأدبية والعلمية وغيرها) - قءرا كبيراً من الكلمات الغريبة الموعة فى شكل مكشوف أو مستتر؁ والمنقولة بطريقة أو بأخرى. ويجرى على أرض أى قول تقريباً تفاعل متوتر وصراع بين كلمتا وكلمة الأخر. وعملية انفصال وتمايز بينهما أو عملية إنارة متباعدة حوارية. وعلى هذا فالقول جهاز أكثر تعقيداً ودينامكية مما يبدو لنا حين لا نأخذ فى الاعتبار إلا توجهه إلى موضوعه وقدرته التعبيرية الأحادية الصوت المباشرة.

إن حقيقة أن الكلمة ذاتها هى أحد أهم موضوعات الكلام الإنسانى لم تؤخذ بعين الاعتبار ولم تقوم بكل أهميتها المبدئية بما فيه الكفاية حتى الآن. فلم تتم حتى الآن إحاطة فلسفية واسعة بكل الظواهر التى تتصل بهذه الكلمة؁ ولم تفهم خصوصية موضوع الكلام هذا الذى يتطلب نقل كلمة الغير ذاتها وإعادة صياغتها: تلك أن الكلمة الغريبة لا يمكن الكلام عليها إلا بمساعدة كلمة أخرى غريبة تحمل إليها مع هذا مقاصدها هى وتثيرها على طريقته بسياقها هى. إن التكلم على الكلمة كإ موضوع آخر أى من حيث هى ثيمة (Thème)؁ أى دون نقل مشحون بالحوارية؁ غير وارد إلا حين تكون هذه الكلمة شيئاً؛ هكذا على سبيل المثال يمكننا الكلام على الكلمة فى القواعد حيث ينصب اهتمامنا بالضبط على القشرة الشبئية الميتة للكلمة.

إن الأشكال البالغة التنوع لنقل الكلمة الغريبة نقلاً مشحوناً بالحوارية والتى نشأت فى خضم الحياة اليومية والتواصل الأيدولوجى الخارج عن الفن تستخدم كلها فى الرواية بطريقتين. فأولا كل هذه

الأشكال تعطى وتستعاد في الأجناس الدخيلة: المذكرات، الاعترافات، المقالات الاجتماعية السياسية إلخ. وثانياً، يمكن تسخير كل أشكال النقل المشحون بالحوارية للكلمة الغريبة تسخيراً مباشراً لمهام تصوير الإنسان المتكلم وكلمته تصويراً فنياً مع استهداف صورة اللغة، وهى (هذه الأشكال) تخضع فى ذلك إلى إعادة صياغتها صياغة فنية معينة.

ففيما الفرق الأساسى بين كل هذه الأشكال الخارجة عن الفن لنقل الكلمة الغريبة وتصوير هذه الكلمة تصويراً فنياً فى الرواية؟

إن كل هذه الأشكال، حتى حين تكون أقرب ما تكون إلى التصوير الفنى كما فى بعض الأجناس البلاغية الثنائية الصوت مثلاً (أساليب المحاكاة الساخرة)، تتوجه إلى نقل الإنسان الفردى. إنها نقل (ونقل مغرض عملياً) لأقوال غريبة متفرقة يرقى بهذه الأقوال، فى أحسن الأحوال، إلى مستوى تعميمها فى طريقة كلامية غريبة أى بوصفها طريقة نمطية اجتماعياً أو مميزة اجتماعياً. لكن هذه الأشكال المنصبة على نقل الأقوال (حتى وإن كان نقلاً حراً وإبداعياً) لا تسعى إلى أن ترى وراء الأقوال صورة اللغة الاجتماعية التى تحقق ذاتها فيها ولا تستند بها وإلى تثبيت هذه الصورة، وأقول صورة اللغة وليس تجريبيتها الوضعية. فنحن فى الرواية الأصلية نحس وراء كل قول بالحياة العفوية للغات الاجتماعية بمنطقها الداخلى وضرورتها الداخلية: إن الصورة هنا لا تكشف الواقع وحسب، بل تكشف إمكانات هذه اللغة، حدودها المثلى إن صح التعبير، ومعناها الكامل الشامل، حقيقتها ومحدوديتها.

ولهذا السبب نرى ثنائية الصوت فى الرواية تتزعج بخلاف الأشكال البلاغية وغيرها إلى ثنائية اللغة دائما بوصفها مداها الأقصى. ولهذا السبب أيضا لا يمكن لهذه الثنائية الصوتية تحقيقا كاملا فى التناقضات المنطقية، ولا فى المواجهات الدرامية الخالصة. وهذا ما يحدد خصوصية الحوارات الروائية التى تتزعج إلى الحد الأقصى من عدم التفاهم المتبادل بين أناس يتكلمون لغات مختلفة.

ومن الضرورى التنويه مرة أخرى أننا لا نقصد باللغة الاجتماعية جملة السمات الألسنية التى تحدد تميز لغة ما وفرادتها اللهجوية، بل الجملة المشخصة والحية لتفردها الاجتماعى الذى يمكنه أن يحقق ذاته فى نطاق اللغة الواحدة أيضا عن طريق النقلات الدلالية والتدخل المفرداتى. إنه أفق لغوى اجتماعى مشخص يمايز نفسه فى نطاق اللغة الواحدة المجردة. وهذا الأفق اللغوى كثيرا ما يستعصى على التحديد اللسانى الدقيق لكنه مشحون بإمكانات التمايز اللهجوى اللاحق: إنه لهجة محتملة، جنين لم يكتمل شكله بعد. إن اللغة فى حياتها التاريخية، فى صيرورتها المتعددة كلاميا، زاخرة بمثل هذه اللهجات المحتملة: فهذه تتلاقح فيما بينها بأشكال مختلفة، بعضها يضمم ويموت، بينما بعضها الآخر ينمو ويزدهر ويصبح لغات حقيقة. ونكرر القول: إن اللغة لا تكون حقيقة تاريخية إلا بوصفها صيرورة متباينة تعج باللغات المقبلة والماضية، بلغات الأرستقراطيين المفرطة فى تأديها الصائرة إلى الزوال، ولغات حديثى النعمة واللغات الدعية الأخرى التى لا حصر لها التى أصابت قدرا أو آخر من النجاح وملكت درجة أو أخرى من سعة الشمولية الاجتماعية وكان لها مجال استخدام أيديولوجى أو آخر.

إن صورة لغة كهذه فى الرواية هى صورة أفق اجتماعى، صورة وحدة إيدىولوجية التحمت بكلمتها، بلغتها. ولهذا السبب فمثل هذه الصورة يمكنها أقل من أى شىء آخر أن تكون صورة شكلية، واللعب الفنى بمثل هذه اللغات لعباً شكلياً. فالسمات الشكلية للغات والطرق والأساليب فى الرواية هى رموز آفاق اجتماعية. والخصائص اللغوية الخارجية كثيراً ما تستخدم هنا بوصفها سمات ثانوية للتباين اللغوى الاجتماعى، بل حتى قد يكون هذا الاستخدام أحياناً على شكل تعليقات مباشرة من قبل المؤلف على كلام الأبطال. وعلى سبيل المثال نرى تورغنوف يعطى فى روايته "الآباء والبنون" أحياناً مثل هذه الإشارات إلى خصائص نطقهم لهذه الكلمة (وهى خصائص نقول بالمناسبة إنها مميزة جداً من وجهة النظر الاجتماعية التاريخية).

وعلى هذا فاختلاف لفظ كلمة "برينسيبى" (مبادئ) فى الرواية هو سمة تميز عالَمين ثقافيين واجتماعيين مختلفين: عالَم ثقافة السادة الإقطاعيين فى العقدين الثانى والثالث وهى ثقافة تربت على الأدب الفرنسى وكانت بعيدة عن اللاتينية والعلم الألمانى، وعالَم المثقفين الرزنوتشينيين فى العقد الخامس الذى كان طلاب المعاهد والمعاهد الطبية وأساتذتها الذين تربوا على اللاتينية والعلم الألمانى ذوى تأثير كبير فيه. وقد انتصر اللفظ اللاتينى الألمانى المفخم لكلمة "برينسيبى" فى اللغة الروسية. لكن استعمال كولشنا لكلمة "سيد" بدلاً من "شخص" رسخ بالمقابل فى الأجناس الدنيا والوسطى من اللغة الأدبية.

مثل هذه الملاحظات الخارجية والمباشرة على خصائص لغات الشخص مميّزة للجنس الروائي، لكنها ليست هي بالطبع التي تكون صورة اللغة في الرواية. فهذه الملاحظات تنصب على الشيء وحده: إذ إن كلمة المؤلف هنا لا تمس اللغة الموصوفة بوصفها شيئاً إلا مسا خارجياً، فلا وجود هنا للحوارية الداخلية التي تتصف بها صورة اللغة. إن للصورة الحقيقية للغة ملامح حوارية ثنائية الصوت وثنائية اللغة دائماً.

(مثال ذلك مناطق الأبطال التي تكلمنا عليها في الفصل السابق).

إن للسياق المؤطر للكلام المصور أهمية من الدرجة الأولى في إنشاء صورة اللغة. فالسياق المؤطر كأزميل النحات يشدّ حدود الكلام الغريب ويقدّ صورة اللغة من التجربة الخام لحياة الكلام؛ فهو يمزج ويقرن الاندفاع الداخلية للغة المصورة ذاتها بمرتسماتها الشبئية الخارجية. أما كلمة المؤلف التي تصور الكلام الغريب وتؤطره فتعطيه المنظور (الأفق) وتوزع الظل والضوء وتخلق له الموقف وكل الشروط اللازمة لتردده، وتخرقه من الداخل وتحمل إليه نبراتها وتعابيريتها، وتفرش له الخلفية المشيعة للحوارية.

وبفضل ما للغة المصورة للغة الغير من قدرة على التردد خارج لغة الغير وفيها، والكلام عنها وبها ومعها في آن، وبفضل قدرة اللغة المصورة، من ناحية أخرى، على أن تكون موضوع تصوير وعلى أن تتكلم في آن، يمكن أن تنشأ صور روائية خاصة للغات.

ولهذا السبب فاللغة المصورة يمكنها أقل من أى شيء آخر أن تكون، بالنسبة إلى سياق المؤلف المؤطر لها، شيئاً، موضوع كلام أصم وأبكم يبقى خارج الكلام مثله مثل أى موضوع كلام آخر.

بالإمكان إرجاع كل طرق إنشاء صورة اللغة فى الرواية على ثلاث مقولات أساسية:

١- التهجين.

٢- العلاقة المتبادلة المشحونة بالحوارية بين اللغات.

٣- الحوارات الخالصة.

هذه المقولات الثلاث لا يمكن فصلها إلا نظرياً، أما عملياً فهى متشابكة ومتداخلة بشكل وثيق فى النسيج الفنى الواحد للصورة.

ما هو التهجين؟ إنه المزج بين لغتين اجتماعيتين فى نطاق القول الواحد، إنه اللقاء على ساحة هذا القول بين وعيين لغويين مختلفين تفصل بينهما حقبة تاريخية أو تباين اجتماعى (أو كلاهما معاً).

إن هذا المزج بين لغتين فى نطاق القول الواحد فى الرواية طريقة فنية مقصودة (أو بتعبير أدق نظام طرائق). لكن التهجين غير الواعى وغير المقصود هو أيضاً واحدة من أهم طرائق الحياة التاريخية للغات وصيرورتها. ويمكن القول دون تردد إن اللغة واللغات تتغير تاريخياً عن طريق التهجين أساساً، عن طريق المزج بين "لغات" مختلفة متعايشة فى نطاق لهجة واحدة، لغة قومية واحدة، فرع واحد،

مجموعة واحدة لفروع مختلفة ولزمر مختلفة، وفي ماضى اللغات التاريخى كما فى ماضيها ما قبل الأنطولوجى، والمرجل الذى يتم فيه هذا المزج هو القول دائماً^(١).

إن الصورة الفنية للغة يجب أن تكون بجوهرها ذاته تركيباً لغوياً هجيناً (مقصوداً): إذ يجب أن يتوفر هنا بالضرورة وعيان: وعى مصوّر وعى مصوّر ينتمى إلى نظام لغوى آخر. فإذا لم يوجد أمامنا هذا الوعى الثانى، المصوّر، هذه الإرادة اللغوية الثانية المصوّرة لن تكون أمامنا صورة لغة، بل مجرد نموذج لغة غريبة قد يكون مزيفاً أو حقيقياً.

إن صورة اللغة بوصفها (أى الصورة) تركيباً هجيناً مقصوداً هى قبل كل شىء تركيب هجين واع (بخلاف التركيب اللغوى الهجين العضوى التاريخى والغامض)؛ إنها، بالضبط، وعى لغة من قبل لغة أخرى، وإنارتها بوعى لغوى آخر. فصورة اللغة لا يمكن أن تبنى إلا من وجهة نظر لغة أخرى تؤخذ على أنها معيار.

ثم إنه لا يمتزج فى التركيب الهجين المقصود والواعى وعيان لغويان غير شخصيين (متلازماً لغتين)، بل وعيان لغويان مفردان (متلازماً قولين وليس لغتين فقط) وإرادتان لغويتان فرديتان: وعى المؤلف الفردى المصوّر وإرادته ووعى الشخص المصوّر اللغوى

(١) مثل هذه التراكيب الهجينة اللا واعية هى ثنائية اللغة من حيث هى تراكيب هجينة، لكنها وحيدة الصوت. وما يميز نظام اللغة الأدبية هو التهجين نصف العضوى ونصف المقصود.

المفرد وإرادته. ذلك أنه تبنى في هذه اللغة المصوِّرة أقوال متفرقة
مشخصة، وبالتالي يجب حتماً أن يتجسد هذا الوعي اللغوي المصوِّر
في "مؤلفين" من^(١) يتكلمون بهذه اللغة ويبنون عليها الأقوال، ويبثون،
لهذا السبب، في قدرات اللغة إرادتهم اللغوية المفعلة. وعلى هذا يشترك
في التركيب الهجين الفنى المقصود والواعى وعيان، إرادتان، صوتان
وبالتالى نبرتان.

لكننا نرى من الضروري، ونحن ننوه باللحظة الفردية فى
التركيب الهجين المقصود، التأكيد مرة أخرى بكل قوة أن اللحظة
الفردية فى التركيب الهجين الفنى الروائى الذى يقوم ببناء صورة
اللغة، وهى لحظة ضرورية لتفعيل اللغة وإخضاعها لكل الفنى
للاووية (ومصائر اللغات تتشابه هنا مع المصائر الفردية للمتكلمين)،
مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باللحظة اللغوية الاجتماعية، أى أن التركيب
الهجين الروائى ليس ثنائى الصوت وثنائى النبيرة فقط (كما فى
البلاغة)، بل إنه ثنائى اللغة أيضاً، إذ ليس فيه وعيان فرديان، صوتان،
نبرتان فقط وإنما فيه أيضاً وعيان لغويان اجتماعيان، عصران لم
يمتزجا هنا امتزاجاً لا واعياً فى حقيقة الأمر (كما فى التركيب الهجين
العضوى)، بل التقيا عن وعى على أرض القول والتحما فى صراع
(بل يمكننا حتى القول إن التركيب الهجين لا ينطوى على وعيين
فرديين، صوتين، نبرتين بقدر ما ينطوى على وعيين اجتماعيين، على
عصرين).

(١) حتى ولو كان هؤلاء "المؤلفون" دون شخصية، كانوا أنماطاً كما فى أساليب لغات
الأجناس والرأى العام.

ثم إنه لا تمتزج فى التركيب الهجين الروائى الأشكال اللغوية للغتين وأسلوبين وسماتهما فقط، إنما يتم فيه قبل كل شىء تصادم بين وجهات النظر إلى العالم الكامنة فى هذه الأشكال. بل نقول أكثر من ذلك وهو أنه لا يحدث فى هذا التركيب مزج بين الأشكال بقدر ما يحدث تصادم بين وجهات النظر إلى العالم الكامنة فيه. وعليه فالتركيب الهجين الفنى المقصود تركيب هجين معنوى، لكنه ليس مجرداً، منطقياً (كما فى البلاغة)، بل معنوى اجتماعى شخص.

وفى التركيب الهجين العضوى التاريخى لا تمتزج لغتان وحسب، وإنما نظرتان لغويتان اجتماعيتان (هما الأخريان عضويتان)، لكنه هنا مزج هامد غامض، وليس مقارنة ومواجهة واعية. إلا أنه من الضرورى الإشارة، مع ذلك، إلى أن هذا المزج الهامد والغامض لوجهات النظر اللغوية فى التراكيب الهجينة العضوية واعد تاريخيا: إذ أنه مشحون بنظرات جديدة إلى العالم، "وبأشكال داخلية"، جديدة من وعى العالم بالكلمة.

إن التركيب الهجين المعنوى المقصود حوارى داخليا بالضرورة (بخلاف التركيب الهجين العضوى). فوجهتا النظر هنا لا تمتزجان بل تتواجهان (تتقابلان) حواريا. وحوارية التركيب الهجين الروائى الداخلية هذه، بوصفها حوار وجهات نظر لغوية اجتماعية، لا يمكن بطبيعة الحال أن تتطور إلى حوار معنوى فردى مكتمل وواضح، ذلك أنها تتصف بعفوية عضوية ولا مخرجية معينة.

وأخيرا يملك التركيب الهجين الثنائي الصوت المقصود الذى أشيعت فيه حوارية داخلية بنية نحوية خاصة جدا: إذ يندمج فى نطاق القول الواحد فيه قولان محتملان كأنهما ردان فى حوار محتمل. صحيح أن هذين الردين المحتملين لا يمكن أبدا أن يُفعلا تفعيلا كاملا وأن يسفرا عن قولين مكتملين، لكن أشكالهما غير المطورة تطويرا كاملا ملموسة بشكل واضح فى التركيب النحوى للتركيب الهجين الثنائي الصوت. والقضية هنا ليست بطبيعة الحال قضية امتزاج أشكال نحوية غير متجانسة تنتمى إلى نظم لغوية مختلفة (كما يمكن أن يحصل فى التراكيب الهجينة العضوية)، بل القضية بالضبط هى إنصهار قولين فى قول واحد. مثل هذا الانصهار ممكن فى التراكيب الهجينة البلاغية الأحادية الصوت أيضا (ولعله هنا أيضا أشد وضوحا من الناحية النحوية). إلا أن ما يتصف به التركيب الهجين الروائى هو انصهار قولين مختلفين اجتماعيا فى قول واحد. فالتركيب النحوى للتراكيب الهجينة المقصودة متناهب وممزق بين إرادتين لغويتين مفرّدتين.

ونستطيع تلخيص صفات التركيب الهجين الروائى بالتالى: التركيب الهجين الروائى هو، بخلاف المزج الغامض بين اللغات فى الأقوال الحية المقولة بلغة فى طريقها إلى التكوّن تاريخيا (وأى قول حى بلغة حية يتصف، فى الواقع، بقدر أو آخر من الهجانة)، نسق مزاجية بين اللغات منظم فنيا، نسق يرمى إلى إنارة لغة بلغة وتشكيل صورة حية للغة بلغة أخرى.

إن التهجين المقصود الموجه فنياً أحد أهم الوسائل فى بناء صورة اللغة. ومن الضروري الإشارة إلى أن اللغة المنيرة (وهى عادة نظام اللغة الأدبية المعاصرة) تتشياً هى ذاتها إلى حد ما فى عملية التهجين لتبلغ هى نفسها مستوى الصورة. وبقدر ما يزداد التهجين فى الرواية اتساعاً وعمقاً، أى حين لا يقتصر التهجين على لغة واحدة بل يتعدى إلى عدة لغات، تزداد اللغة المصورة والمنيرة نفسها تشيؤاً وتتحول فى النهاية إلى واحدة من صور لغات الرواية. والأمثلة الكلاسيكية على ذلك "دون كيخوت"، الرواية الإنكليزية الفكاهية (فيدلينغ، سموليت، ستيرن) والرواية الفكاهية الرومنطيقية الألمانية (هيل وجان بول). وفى هذه الحالات تتشياً عادة عملية كتابة الرواية ذاتها وصورة الروائى (كما فى "دون كيخوت جزئياً"، ثم عند ستيرن وهيل وجان بول).

وتختلف الإنارة الحوارية الداخلية للنظم اللغوية ككل عن التهجين بالمعنى الدقيق للكلمة. إذ لا يوجد فى الإنارة المتبادلة مزج مباشر للغتين فى نطاق القول الواحد، بل إن اللغة الواحدة تُفَعِّلُ فى القول إنما تعطى على ضوء لغة أخرى. وهذه اللغة الثانية لا تُفَعِّلُ بل تبقى خارج القول.

والشكل الأكثر وضوحاً وتميزاً لهذا النوع من الإنارة الحوارية الداخلية المتبادلة بين اللغات هو الأسلبة.

إن أى أسلوبية حقيقية هى تصوير فنى لأسلوب لغوى غريب كما قلنا، هى صورة فنية للغة غريبة. وهى تنطوى بالضرورة على وعيين لغويين مفردين: الوعى المصوّر (أى الوعى اللغوى المؤسلب)، والوعى المصوّر، المؤسلب، وتتميز الأسلية عن الأسلوب المباشر بهذا الوجود للوعى اللغوى بالضبط (أى وعى المؤسلب وجمهوره)، الذى يعاد على ضوئه إنشاء الأسلوب المؤسلب، وعلى خلفيته يكتسب معنى وبعدا جديدين.

وهذا الوعى اللغوى الثانى للمؤسلب ومعاصريه يعمل بمادة اللغة المؤسلبة؛ فالمؤسلب لا يتكلم بصورة مباشرة فى موضوع ما إلا بهذه اللغة المؤسلبة الغريبة عنه. لكن هذه اللغة المؤسلبة نفسها تعرض على ضوء الوعى اللغوى المعاصر للمؤسلب. واللغة المعاصرة توفر إضاءة معينة للغة المؤسلبة: تبرز لحظات وتبقى فى الظل لحظات أخرى، تسبغ نبرة خاصة على لحظاتها بوصفها لحظات لغة، وتستثير أصداء (استجابات) معينة بين اللغة المؤسلبة والوعى اللغوى المعاصر، ونقول باختصار إنها تنشئ صورة حرة للغة الغريبة لا تعبر عن الإرادة المؤسلبة وحسب وإنما عن الإرادة اللغوية والفنية المؤسلبة أيضا.

تكلم هى الأسلية. والنمط الآخر الأقرب إليها من أنماط الإنارة المتبادلة هو التنويع. ففى الأسلية لا يشتغل الوعى اللغوى للمؤسلب إلا بمادة اللغة المؤسلبة حصرا: فهو ينير هذه اللغة المؤسلبة ويدخل عليها اهتماماته اللغوية الغريبة، لكنه لا يدخل عليها مادته اللغوية الغريبة

المعاصرة. الأسلبة بما هي كذلك يجب أن تكون منسجمة حتى النهاية. فإذا ما دخلتها مادة لغوية معاصرة (كلمة، شكل، عبارة إلخ) فهذا عيب فيها وخطأ منها (خطأ قائم على مغالطة تاريخية، أو تحديث مفرط).

لكن هذا اللا انسجام قد يكون مقصودا ومنظما: فالوعى اللغوى المؤسلب قد لا ينير اللغة المؤسلبة وحسب، بل قد يتلقى هو نفسه الكلمة ويدخل مادته موضوعا أو لغة في اللغة المؤسلبة. وفي هذه الحالة لا نكون أمام أسلبة بل تنويع (كثيرا ما يتحول إلى تهجين).

إن التنويع يدخل المادة اللغوية الغريبة في الموضوعات المعاصرة بحرية، ويقرن العالم المؤسلب بعالم الوعى المعاصر، ويضع اللغة المؤسلبة على محك الاختبار في مواقف جديدة وغير ممكنة بالنسبة إليه هو نفسه.

إن أهمية الأسلبة المباشرة في تاريخ الرواية عظيمة جدا كأهمية التنويع، لا يفوقها في ذلك إلا المحاكاة الساخرة. لقد تعلم النثر بواسطة الأساليب تصوير اللغات تصويرا فنيا - اللغات المكتملة بناء وأسلوبا في حقيقة الأمر (ولنقل مباشرة: الأساليب) وليس لغات التنوع الكلامي الحى الخام والموجودة بالقوة غالبا (أى اللغات التى هى فى طور التكون وليس لها أسلوبها بعد). إن صورة اللغة التى تتشبه الأسلبة هى الأكثر استقرارا واكتمالا من الناحية الفنية وهى التى تتيح الحد الأقصى الممكن من الجمالية (Esthétisme) بالنسبة إلى النثر الروائى. ولهذا كان أساتذة الأسلبة الكبار كميريميه وفرانس وهنرى دي رينبييه وغيرهم ممثلى الجمالية فى الرواية (هذه الجمالية غير المتاحة إلا فى حدود ضيقة بالنسبة إلى هذا الجنس).

أما أهمية الأسلبة فى عهود تشكّل اتجاهات الجنس الروائى ومساراته الأسلوبية الأساسية فموضوع خاص سنتطرق إليه فى الفصل الأخير، التاريخى من هذه الدراسة.

وفى نمط آخر من أنماط الإنارة الحوارية الداخلية المتبادلة بين اللغات لا تكون مقاصد الكلمة المصوّرة على وفاق مع مقاصد الكلمة المصوّرة بل تقاومها، فهى لا تصور العالم المادى الفعلى بمساعدة اللغة المصورة بوصفها وجهة نظر مثمرة، بل تصوره عن طريق تهديمه الفاضح. تلكم هى أسلبة المحاكاة الساخرة.

إلا أن أسلبة المحاكاة الساخرة هذه لا يمكنها أن تنشئ صورة اللغة والعالم المناسب لهذه اللغة إلا بشرط ألا تكون تهديما جانبا وسطحيا للغة الغريبة كما فى المحاكاة الساخرة البلاغية. فعلى المحاكاة الساخرة، فيما لو أرادت أن تكون جوهرية ومثمرة، أن تكون أسلبة محاكاة ساخرة بالضبط، أى عليها أن تستعيد اللغة المحاكاة محاكاة ساخرة بوصفها كلا جوهريا يملك منطقته الداخلى ويكشف العالم الخاص المرتبط ارتباطا وثيقا باللغة المحاكاة محاكاة ساخرة.

وتتوضع بين الأسلبة والمحاكاة الساخرة كما بين حدين أقصى أشكال بالغة التنوع من الإنارة المتبادلة بين اللغات والتراكيب الهجينة المباشرة. هذه الأشكال تحكمها العلاقات المتبادلة البالغة التنوع بين اللغات والإرادات اللغوية والكلامية التى تلتقى فى حدود القول الواحد. فالصراع الذى يدور داخل الكلمة ودرجة المقاومة التى تبديها الكلمة

المحاكاة محاكاة ساخرة للكلمة المحاكية محاكاة ساخرة، ودرجة اكتمال اللغات الاجتماعية المصوّرة ودرجة تفريدها لدى تصويرها، وأخيرا التنوع الكلامي المحيط الذى يكون دائما بمثابة الخلفية والمرنان الذى يشيع الحوارية، هى التى تخلق التنوع فى طرق اللغة الغريبة.

إن التقابل الحوارى بين اللغات الخالصة فى الرواية هو، بالإضافة إلى التهجين، وسيلة جبارة فى إنشاء صور اللغات. إن التقابل الحوارى بين اللغات (وليس بين المعانى فى حدود اللغة الواحدة) هو الذى يرسم حدود اللغات ويخلق الإحساس بهذه الحدود، ويجعلنا نلمس الأشكال اللدائنية للغات.

والحوار فى الرواية، بوصفه شكلا تأليفيا، مرتبط هو نفسه ارتباطا وثيقا بحوار اللغات المتردد فى التراكيب الهجينة وفى الخلفية المشيعة للحوارية فى الرواية. ولهذا فالحوار فى الرواية حوار من نوع خاص. فهو، قبل كل شيء، لا يمكن أن يستنفد كما قلنا سابقا فى حوارات الشخصيات العملية المتصلة بالموضوع (Sujet)، بل إنه يزخر بتنوع لا متناه من المواجهات الحوارية العملية المتصلة بالموضوع التى لا تنتهى بهذا الحوار ولا يمكن أن تنتهى به إلى حل، والتى تبدو كأنها توضح فقط (بوصفها إحدى المواجهات الكثيرة المحتملة والممكنة) هذا الحوار الصمى الذى لا مخرج منه بين اللغات والذى تحكمه الصيرورة الاجتماعية الأيديولوجية للغات والمجتمع. إن حوار اللغات ليس حوار قوى اجتماعية فى سكونية تعايشها وحسب، وإنما هو أيضا حوار أزمنة وعصور وأيام ما يموت منها وما لا يزال يعيش

وما يولد: التعايش والصيرورة يندمجان هنا فى وحدة مشخصة لا تتفصل لتتووع متناقض ومتباين. فى الحوار تستغرق الحوارات الروائية العملية المتصلة بالموضوع (Sujet)، ومنه أى من حوار اللغات هذا تستمد لا مخرجيتها ومبتورية قولها والتباسيتها وعيانيتها الحياتية "وطبيعتها"، أى كل ما يميزها تميزا حادا عن الحوارات الدرامية الخالصة.

واللغات الخالصة فى الرواية المتبدية فى حوارات شخوص الرواية ومونولوجاتها مسخرة لنفس الغرض الذى هو إنشاء صورة اللغة.

وموضوع (Sujet) الرواية نفسه مسخر لهذا الغرض أى للربط بين اللغات ولكشف إحداها الأخرى. وعلى هذا الموضوع تنظم الكشف عن اللغات والإيديولوجيات الاجتماعية وعرضها واختبارها: اختبار الكلمة، النظرة إلى العالم، التصرف المعلى أيديولوجيا أو تبيان حياة العوالم والعوالم الصغيرة الاجتماعية والتاريخية والقومية (الروايات الوصفية والمعيشية والجغرافية) أو عوالم العصر الأيديولوجية الاجتماعية (روايات المذكرات، الرواية التاريخية على أنواعها)، أو الأعمار والأجيال فى علاقتها بالحقب والعوالم الأيديولوجية الاجتماعية (رواية التربية والصيرورة). ونقول باختصار إن موضوع (Sujet) الرواية يسخر لمهمة تصوير الناس المتكلمين وعوالمهم الأيديولوجية. فى الرواية يتم التعرف على لغتنا فى لغة الغير، وعلى أفقنا فى أفق الغير. وفيه تتم ترجمة لغة الغير ترجمة

إيديولوجية، وتجاوز الغرابة التي ليست سوى غرابة عارضة، خارجية، وأهمية. إن ما يميز الرواية التاريخية هو التحديث الإيجابي، هو محو الحدود بين الأزمنة، والتعرف على الحقيقي الخالد في الماضي. إن إنشاء صور اللغات هو المهمة الأسلوبية الأولى للجنس الروائي.

إن أي رواية هي بكيبتها تركيب هجين من وجهة نظر اللغة والوعي اللغويين المتجسدين فيها. لكننا نعود فنؤكد مرة أخرى القول إنه تركيب هجين مقصود وواع ومنظم فنيا، وليس خلطا آليا وعشوائيا للغات (وبدقة أكبر لعناصر لغات). والصورة الفنية للغة هي غاية التهجين الروائي المقصود.

ولهذا السبب نرى الروائي لا يسعى إطلاقا إلى استعادة تجريبية اللغات التي يدخلها استعادة لسانية (لهجوية) دقيقة وتامة، بل يسعى فقط إلى التماسك الفني لصور هذه اللغات.

التركيب الهجين الفني يتطلب جهدا هائلا: فهو مؤسلب كله ومدرّوس وموزون ومغرب. وهو يختلف بهذا اختلافا جذريا عما نجده عند المتوسط من خلط طائش وأهوج وغير منسق بين اللغات كثيرا ما يقترب من الجهل المطبق بها. ففي تراكيب هجينة كهذه لا توجد مزاجية بين النظم المتناسكة للغة، إنما هناك مجرد خلط بين عناصر لغات. إنه ليس توزيعا أوركسترياليا بواسطة التنوع الكلامي، إنما هو، في معظم الحالات، مجرد لغة المؤلف المباشرة غير الخالصة وغير المشغولة.

إن الرواية لا تعفينا من ضرورة المعرفة العميقة والدقيقة باللغة الأدبية، بل إنها تتطلب فوق ذلك معرفة بلغات التنوع الكلامي. الرواية تتطلب توسيع الأفق اللغوي وتعميقه وإحكام إدراكنا للتباينات اللغوية الاجتماعية.

الدراسة الخامسة
خطان أسلوبيان
في الرواية الأوروبية

الرواية تعبير عن وعى لغوى غاليلىنى يرفض مطلقية اللغة الواحدة والوحيدة، أى يرفض اعتبار لغته المركز الكلمى المعنوى الوحيد للعلم الأيديولوجى ويدرك فى الوقت ذاته تعددية اللغات القومية ولا سيما اللغات الاجتماعية التى يمكنها أن تكون بقدر واحد "لغات الحقيقة"، لكنها فى الوقت نفسه وبقدر واحد أيضا لغات نسبية، شئية ومحدودة لمجموعات بشرية ومهن كما إنها لغات الحياة اليومية. الرواية تفترض لا مركزة معنوية كلمية للعالم الأيديولوجى ونوعا من التشرذم اللغوى للوعى الأدبى الذى فقد التوسط اللغوى الواحد الذى لا يقبل الجدل للتفكير الأيديولوجى ووجد نفسه وسط لغات اجتماعية فى حدود اللغة الواحدة، ووسط لغات قومية فى حدود ثقافية واحدة (الهيلينية، المسيحية، البروتستنتية) وعالم سياسى ثقافى واحد (الدول الهيلينية، الإمبراطورية الرومانية وما إلى ذلك).

إن الأمر يتصل هنا بانقلاب هام جدا، بل جذرى، فى الحقيقة، فى مصائر الكلمة الإنسانية: إنه تحرر المقاصد المعنوية الثقافية والتعبيرية تحررا جوهريا من سلطة اللغة الواحدة والوحيدة وبالتالي إنه فقدان الأحساس باللغة بوصفها أسطورة، شكلا مطلقا للتفكير. ولأجل هذا لا يكفينا اكتشاف التعدد اللغوى للعالم الثقافى أو التعدد الكلامى للغة القومية الخاصة وحدها، بل من الضرورة الكشف عن جوهرية هذه الحقيقة الواقعة وعن كل النتائج المترتبة عليها الأمر الذى لا يمكن تحقيقه إلا فى ظل ظروف تاريخية اجتماعية معينة.

ولكى يصبح اللعب العميق فنا باللغات الاجتماعية ممكنا، من الضروري إحداث تغيير جذري بالإحساس بالكلمة على المستوى الأدبي العام واللغوى. من الضروري أن نألف الكلمة بوصفها ظاهرة شبيهة، مميزة، وفي الوقت نفسه ظاهرة قصدية (تحمل قصدا ما)، من الضروري أن نتعلم الإحساس "بالشكل الداخلى"، فى اللغة الغريبة (الشكل بالمعنى الذى قصده همبولدت)، "وبالشكل الداخلى" للغتنا بوصفه شكلا غريبا، علينا أن نتعلم الإحساس ليس فقط بشيئية الأفعال والحركات وبعض الكلمات والتعبير ونمطيتها وخصوصيتها، وإنما أيضا بشيئية وجهات النظر والنظرة إلى العالم والإحساس بهذا العالم ونمطيتها وخصوصيتها المتحدة عضويا باللغة التى تعبر عنها. وهذا أمر لا يستطيع بلوغه إلا وعى مشترك مشاركة عضوية فى العالم الكلى للغات المنيرة إحداها الأخرى. ومن أجل هذا يجب أن يكون هناك تقاطع جوهري بين اللغات فى وعى واحد متصل اتصالا متساويا بهذه اللغات العديدة.

إن لا مركزية العالم الأيديولوجى الكلى التى تعبر عن نفسها فى الرواية تفترض جماعة اجتماعية متميزة تمايزا جوهريا تكون فى حالة تفاعل متوتر وجوهري مع جماعات اجتماعية أخرى. إن الفئة أو الطائفة أو الطبقة المنغلقة على نفسها فى نواتها الواحدة داخليا والثابتة لا يمكن أن تكون أرضا خصبة لتطور الرواية إن لم يدركها الانحلال أو إن لم تخرج عن توازنها الداخلى واكتفائها بذاتها: إذ إن الوعى اللغوى الأدبى يمكنه من علياء لغته الواحدة المتسلطة التى لا يرقى

إليها الشك تجاهل واقع التعددين الكلامي واللغوي هنا بهدوء. ذلك أن التنوع الكلامي المصطنع وراء حدود هذا العالم الثقافي المنغلق، ذي اللغة الأدبية لا يمكنه أن يبعث إلى الأجناس الدنيا إلا صورا كلامية شبيهة خالصة وفاقة لأي قصد، كلمات أشياء محرومة من الإمكانيات النثرية الروائية. أما المطلوب واللازم فهو أن يجتاح التنوع الكلامي الوعي الثقافي ولغته وينفذ إلى نواته ويشيع النسبية في النظام اللغوي الأساسي للأيدولوجيا والأدب ويحرمه من يقينته الساذجة.

لكن هذا أيضا قليل. فحتى الجماعة التي يمزقها الصراع الاجتماعي لا تشكل أرضية اجتماعية كافية لإشاعة نسبية عميقة في الوعي اللغوي الأدبي وإعادة تشكيله على نمط نثرى جديد فيما لوبقيت هذه الجماعة منغلقة ومنعزلة. إن التناقض الداخلي للهجة الأدبية ولحوارها الخارج عن الأدب أي لكل القوام اللغوي للغة قومية ما يجب أن يحس بأنه مغمور ببحر التنوع الكلامي، إنما ببحر التنوع الكلامي الجوهرى المتكشف بملء قصديته ونظمه الأسطورية والدينية والسياسية الاجتماعية والأدبية وغيرها من النظم الأيدولوجية الثقافية. وحتى إن لم ينفذ هذا التنوع اللغوي الواقع خارج القومية إلى نظام اللغة الأدبية والأجناس النثرية (مثلما تنفذ اللهجات الخارجة عن الأدب للغة الأدبية إلى هذا النظام) فإن هذا التنوع اللغوي الخارجى يعزز ويعمق التناقض الداخلى للغة الأدبية ذاتها ويضعف سلطة الموروث الأسطوري والتقاليد التي ما زالت تكبل الوعي اللغوي، ويفكك نظام الأسطورة القومية الملتحمة عضويا باللغة، وبالذات يقوض تقوينا تاما

الإحساس الأسطوري والسحري باللغة وبالكلمة. إن التواصل الجوهرى بالثقافات واللغات الغريبة (وإحداها تستحيل بدون الأخرى) يؤدى حتما إلى الفصل بين المقاصد واللغة، بين الفكر واللغة، بين التعبير واللغة.

إننا نتكلم عن الفصل بمعنى تحطيم ذلك التلاحم المطلق بين المعنى الأيديولوجى واللغة الذى يحكم التفكير الأسطوري والسحري. إن التلاحم المطلق بين الكلمة والمعنى الأيديولوجى المشخص هو دون شك إحدى الخصائص الجوهرية المكونة للأسطورة والمحددة لتطور الصور الأسطورية من جهة وللإحساس الخصوصى بالأشكال اللغوية والمعانى والتراكيب الأسلوبية من جهة أخرى. إن التفكير الأسطوري هو فى قبضة لغته التى توجد من ذاتها واقعا أسطوريا وتقدم علاقاتها وعلاقاتها المتبادلة اللغوية على أنها العلاقات والعلاقات المتبادلة بين لحظات الواقع نفسه (تحول المقولات والارتباطات السببية اللغوية إلى مقولات عن أنساب الآلهة ونشوء الكون)، لكن اللغة بدورها هى فى قبضة صور التفكير الأسطوري التى تكبل حركتها القصدية بعرقلتها اكتساب المقولات اللغوية شمولية ومرونة وشكلية أنقى (نتيجة اتحامها بالعلاقات الشبئية المشخصة) وتحد من الامكانات التعبيرية للكلمة^(١).

(١) لا مجال هنا للتطرق إلى جوهر مسألة العلاقة المتبادلة بين اللغة والأسطورة. إلا أننا نقول إن هذه المسألة لم تعالج حتى وقت قريب فى الأدبيات المختصة إلا على المستوى السيكولوجى مع التركيز على الفولكلور وبمعزل عن المسائل المشخصة لتاريخ السوى اللغوى (شتينثال، لتساروس، فوندت وغيرهم). أما عندنا فقد طرح بوتيتيا وفيسيلوفسكى هذه المسائل فى علاقتها الجوهرية هذه.

إن هذه السلطة الكاملة التى للأسطورة على اللغة واللغة على إدراك الواقع وعقله هى الماضى ما قبل التاريخى للوعى اللغوى^(١) وبالتالى من ماضيه الافتراضى حتماً، ولكن حتى هناك، حيث سقطت السلطة المطلقة هذه منذ أمد طويل - وقد كان هذا فى العهود التاريخية للوعى اللغوى - ما زال الإحساس الأسطورى بسلطة اللغة وعفوية وهبها كل معناها وكل تعبيريتها لوحدها التى لا يرقى إليها الشك قوين بما فيه الكفاية فى كل الأجناس الأيديولوجية الرفيعة بحيث لا يمكننا استبعاد إمكانية استخدام التباين اللغوى فى أشكال الأدب الكبرى استخداماً جوهرياً من الناحية الفنية. فمقاومة اللغة المعيارية الواحدة المعززة بوحدة الأسطورة القومية التى لما تتزعزع ما زالت أقوى من أن يستطيع التنوع الكلامى إشاعة النسبية فى الوعى اللغوى الأدبى ولا مركزته. ولن تحدث هذه اللامركزية الأيديولوجية الكلمية إلا حين تفقد الثقافة القومية انغلاقها واكتفاءها بذاتها، إلا حين ترى إلى نفسها على أنها واحدة من ثقافات ولغات أخرى. وهذا بالضبط هو الذى سيقوض جذور الإحساس الأسطورى باللغة القائم على أساس الانصهار المطلق بين المعنى الأيديولوجى واللغة، وهو الذى سيخلق الإحساس الحاد بحدود اللغة، حدودها الاجتماعية والقومية والمعنوية، فتتكشف اللغة فى كل خصوصيتها الإنسانية وتأخذ وجوه المتكلمين وصورهم المتميزة قومياً والنمطية اجتماعياً تتلامح من خلال كلماتها وأشكالها وأساليبها،

(١) لأول مرة يبدأ هذا المجال الافتراضى فى أن يصبح فى متناول العلم وذلك فى علم "المعانى القديمة" الذى يحاول علماء الياقثيات إنشائه.

ومن خلال كل طبقات اللغة دون استثناء بما فى ذلك أشد طبقاتها
قصدية، أى لغات الأجناس الأيديولوجية الرفيعة. وبذلك تصبح اللغة
نفسها (وعلى وجه أدق: تصبح اللغات) صورة مكتملة فنيا لإحساس
بالعالم ونظرة إليه مميزين إنسانيا، وتتحول اللغة من كونها التجسيد
الوحيد غير المنازع للمعنى والحقيقة إلى واحد من جملة افتراضات
ممكنة للمعنى.

ويحدث شىء مشابه تماما لما تقدم حيثما تكون اللغة الأدبية
الواحدة والوحيدة لغة غريبة، إذ من الضرورى أن يحدث انحلال
السلطة الدينية والسياسية والأيديولوجية المرتبطة بهذه اللغة وسقوطها.
وخلال عملية الانحلال هذه يأخذ الوعي اللغوى النثرى الفنى
اللا مركز المستند إلى التنوع الكلامى الاجتماعى للغات القومية
المحكىة فى النضوج.

هكذا ظهرت بواكر النثر الروائى فى عالم العصور الهيلينية
المتعدد اللغات وأنماط الكلام وفى الإمبراطورية الرومانية خلال عملية
انحلال وسقوط المركزة الأيديولوجية الكلامية الكنسية فى العصور
الوسطى. وهكذا الأمر فى عصرنا الحديث حيث ازدهار الرواية
مرتبط دائما بانحلال النظم الأيديولوجية الكلامية الثابتة ومرتبطة فى
الوقت نفسه وعلى نحو مقابل بتعزيز التباين الكلامى اللغوى وقصديته
داخل اللهجة الأدبية نفسها وخارجها على حد سواء.

إن مسألة النثر الروائي القديم (اليوناني واللاتيني) مسألة معقدة جدا. بدايات النثر الثنائي الصوت والثنائي اللغة الحقيقي هنا لم تكن تستوفي دائما شروط الرواية بوصفها تشكيلا تأليفيا وثيماويا (Thematiaque) بل إنها ازدهرت في المقام الأول في أشكال أجناس أخرى: في القصص الواقعية والأهاجي^(١) وبعض أشكال السيرة الذاتية^(٢) وفي بعض الأجناس البلاغية الخاصة (كما في الدياتريب^(٣) diatribe مثلاً) وفي الأجناس التاريخية وأخيراً في جنس

(١) نعرف جميعاً إنارة هوراس الفكاهية "لأنه" في أهاجيه، وهذا التركيز الفكاهي على "الأنه" في الأهاجي يتضمن دائماً عناصر أسلبية عن طريق المحاكاة الساخرة للمقاربات المألوفة ووجهات النظر الغريبة والآراء الشائعة. وتعتبر أهاجي مارك فارون أقرب من أهاجي هوراس إلى التوزيع الأوركستراي الروائي للمعنى. كما يمكننا الحكم من المقاطع التي وصلت إلينا على وجود أسلبية عن طريق المحاكاة الساخرة للكلام العلمي والكلام الأخلاقي الوعظي.

(٢) عناصر التوزيع الأوركستراي بواسطة التنوع الكلامي وبدايات الأسلوب النثري الحقيقي في "تقريظ" سقراط مثلاً. ويمكن القول عامة أن صورة سقراط وخطاباته تحمل عند أفلاطون طابعاً نثرياً حقيقياً. إلا أن الأهم منها هي أشكال السيرة الذاتية الهيلينية المتأخرة والمسيحية التي تقرر قصة الاهتداء ذات الطابع الاعترافي بعناصر رواية المغامرة ووصف الأخلاق والعادات، وهي كتب لم تصلنا عنها إلا معلومات متفرقة أما الكتب ذاتها فقد اندثرت (ومنها كتب ديون خريزوستوم ويوستينوس (الشهيد) وكيريانوس وما يسمى سلسلة الحكايات عن كليمنتينوس). وأخيراً سنجد العناصر نفسها عند بوليسيوس.

(٣) ينطوي الدياتريب من بين كل الأشكال البلاغية للهيلينية على أكبر قدر من الإمكانيات النثرية والروائية، فهو يسمح بوجود بل يقضي بوجود تنوع في طرق الكلام وتصوير اكتسب صفة الدرامية والمحاكاة الساخرة لوجهات النظر الغريبة كما يسمح بالمزج بين الشعر والنثر إلخ. راجع علاقة الأشكال البلاغية بالرواية في موضع لاحق من هذا الفصل.

المراسلات^(١). ففي كل مكان هنا بدايات توزيع أوركسترالى نثرى روائى حقيقى للمعنى عن طريق التنوع الكلامى. وعلى هذا المستوى النثرى الحقيقى الثنائى الصوت بنى النصان المختلفان اللذان وصلا إلينا لرواية "الحمار" (النص المنسوب خطأ إلى لوقيانوس ونص أبوبينيوس) ورواية بترونيوس.

وهكذا تشكلت فى تربة العالم القديم (اليونانى واللاتينى) أهم عناصر الرواية الثنائية الصوت والثنائية اللغة التى أثرت تأثيرا هائلا فى أهم أنواع الجنس الروائى فى العصور الوسطى وفى عصرنا الحديث: فى رواية الاختبار (فى فرعها السنكسارى^(*)) الاعترافى الإشكالى المغامراتى إلى دوستويفسكى فأيامنا هذه، وفى رواية الاختبار والصيرورة ولاسيما فى فرعها السيرى الذاتى، وفى الرواية الحياتية الهجائية وغيرها، أى بالضبط فى تلك الأنواع من الجنس الروائى التى تدخل التنوع الكلامى المكتسب صفة حوارية إدخالا مباشرا فى قوامها، وتحديد التنوع الكلامى العائد للأجناس الدنيا والتنوع الكلامى الحياتى. إلا أن هذه العناصر المتناثرة فى أجناس متعددة لم تنصب فى الأدب القديم وتتدمج فى مجرى الرواية الدافق الواحد، بل شكلت فقط نماذج متفرقة غير معقدة لهذا الخط الأسلوبى فى الرواية (أبوليوس وبترونيوس).

(١) حسبنا ذكر رسائل شيشرون إلى أتيكوس.

(*) السنكسار هو سير القديسين.

وتتنمى الراويات المسماة "الروايات السفسطائية"^(١) إلى خط أسلوبى مختلف تمامًا. إذ تتصف هذه الروايات بأسلبة مركزة ومتماسكة للمادة كلها، أى بالتماسك الأحادى الصوت الخالص (المونولوجى) للأسلوب (المؤمئل أمثلة تجريدية) إلا أن الروايات السفسطائية بالذات هى التى عبرت أكمل تعبير على الأرجح، تأليفيا وثيماويا، عن طبيعة الجنس الراوى فى الأدب القديم. فهى التى أثرت التأثير الهائل فى تطور الأنواع الرفيعة للرواية الأوروبية حتى القرن التاسع عشر تقريبا: فى رواية القرون الوسطى وفى الرواية الغرامية المتأنقة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ("أماديس" وعلى الأخص فى الرواية الرعوية)، وفى رواية الباروكو وأخيرا حتى فى رواية المنورين (فولتير على سبيل المثال) وهى التى حددت إلى درجة كبيرة تلك التصورات النظرية عن الجنس الروائى ومستلزماته التى ظلت سائدة حتى نهاية القرن الثامن عشر^(٢).

إن الأسلبة المؤمثلة المجردة التى تتصف بها الرواية السفسطائية تفسح المجال مع هذا لوجود تنوع معين فى الطرق الأسلوبية، وهو أمر لا مفر منه مع وجود تنوع فى تلك الأجزاء والأجناس المكونة

(١) راجع: ب. غريفتسوفز نظرية "ولسيب وكليتوفونت" (دار نشر "الأدب العلمى"، موسكو، ١٩٢٥)؛ فقد ألقى الضوء فى هذه المقالة على موضوع الرواية السفسطائية.

(٢) عبر عن هذه التصورات فى أول وأرصن بحث خاص فى الرواية ظهر فى كتاب إيوى عام ١٦٧٠. ولذلك يظهر بديل واستمرار لهذا الكتاب فى مجال قضايا الرواية القديمة إلا فى أعمال إ. روى أى بعد قرنين (عام ١٨٧٧).

والمستقلة نسبيا التي تتدرج فى قوام الرواية بمثل هذه الوفرة: حديث المؤلف، حديث الشخص وشهود، وصف البلد والطبيعة والمدن والمعالم والأعمال الفنية وهو وصف ينزع إلى الاكتمال وإلى قيمة خاصة معينة، وكذلك المحاكمات التي تسعى بدورها إلى استنفاد موضوعاتها العملية أو الفلسفية أو الأخلاقية استنفادا كاملا، والأقوال المأثورة والقصص الدخيلة (الاستطرازية) والكلام البلاغى الذى يعود إلى أشكال بلاغية مختلفة، والرسائل والحوار المتطور. صحيح أن درجة الاستقلالية الأسلوبية لهذه الأجزاء تتفاوت تفاوتاً حاداً ودرجة الاستقلالية المكونة لهذه الأجزاء واكتمالها جنساً، لكن الشيء الرئيسى هنا هو أن هذه الأجزاء كلها، على ما يبدو، على درجة واحدة من القصدية ودرجة واحدة من الاصطلاحية، ومن مستوى معنوى كلى واحد، تعبر بقدر واحد وبشكل مباشر عن مقاصد المؤلف.

إلا أن هذه الاصطلاحية ذاتها والتماسك الحدى (المجرد) لهذه الأسلبة هما بذاتهما من نوعية خاصة. فنحن لا نقع وراءهما على أى نظام أيديولوجى واحد، جوهرى وثابت: نظام دينى أو سياسى اجتماعى أو فلسفى إلخ. إن الرواية السفسطائية (ككل بلاغية "السفسطة الثانية") لا ممرزة أيديولوجيا بشكل مطلق. إن وحدة الأسلوب هنا متروكة وشأنها، لا تتجذر فى شيء ولا توطنها وحدة العالم الأيديولوجى الثقافى؛ وحدة هذا الأسلوب خارجية (تقع بعيداً عن المركز)، لفظية. إن تجريدية هذه الأسلبة ذاتها وغربتها عما حولها دليل على وجود ذلك البحر من التنوع الكلامى الجوهري الذى خرجت منه الوحدة الكلمية

لهذه المؤلفات، وخرجت منه دون أن تتجاوزه عن طرق استفاده فى موضوعها (كما فى الشعر الحقيقى). لكننا لا نعرف مع الأسف إلى أى حد كان مقدرا لهذا الأسلوب أن يدرك على خلفية هذا التنوع الكلامى، ونحن لا نستبعد إطلاقا إمكانية التناسب الحوارى لبعض لحظاته مع لغات التنوع الكلامى الموجودة آنذاك. فنحن لا نعرف مثلا ما هى الوظائف التى تؤديها تلك الإشارات الغامضة العديدة جدا والمتنوعة جدا التى تحفل بها هذه الروايات: أهى وظيفة قصدية مباشرة كما فى الإشارة الشعرية أم وظيفة أخرى، نثرية، أى لعل هذه الإشارات هى تشكيلات ثنائية الصوت. هل المحاكمات والأقوال المأثورة هى قصدية مباشرة، ممثلة المعنى؟ أولا تكون تحمل فى أحيان كثيرة طابعا ساخرا أو طابعا محاكاتيا ساخرا مباشرا؟ إن موقعها من حيث التأليف يجعلنا نفترض ذلك فى العديد من الحالات. فحيثما تؤدي المحاكمات الطويلة والمجردة وظيفة إعاقية وتقطع مجرى القصة فى إحدى لحظاتها وأكثرها توترًا، أن ورودها غير المناسب هذا يلقي بحد ذاته ظلا شئيا عليها ويحملنا على الاشتباه لوجود أسلبة محاكاة ساخرة (خصوصا حيثما تتوالى هذه المحاكمات الرصينة المطولة تحذلقًا بمناسبة عارضة مقصودة)^(١).

من الصعب علينا جدا بشكل عام اكتشاف المحاكاة الساخرة، إن لم تكن فجأة (أى بالتحديد حين تكون نثرية فنية)، ما لم نعرف خلفيتها

(١) قارن الشكل الحدى لهذه الطريقة عند ستيرن والذبذبات المختلفة فى درجات المحاكاة الساخرة عن دجان بول.

الكمية الغريبة، ما لم نعرف سياقها الثانى. وفى الأدب العالمى، على ما نرجح، الكثير من تلك المؤلفات التى لا يساورنا الآن حتى مجرد الشك فى طابعها المحاكاتى الساخر. ففى الأدب العالمى على الأرجح القليل من الكلمات المقولة دون قيد أو شرط والوحيدة الصوت بشكل خالص. لكننا ننظر إلى الأدب العالمى من جزيرة ثقافية كلمية وحيدة النغمة ووحيدة الصوت صغيرة ومحدودة جدا فى المكان وفى الزمان. فهناك كما سنرى فيما بعد أنماط وأنواع من الكلمة الثنائية الصوت التى تفقد ثنائية صوتها بسهولة كبيرة لدى متلقيها، والتى لا تفقد تماما معناها الفنى لدى إعادة تبيرها تبيرا أحادى الصوت مباشرا (وهذه تندمج مع كتلة كلمات المؤلف المباشرة).

إن وجود أسلبة محاكاة ساخرة وغيرها من أنواع الكلمة الثنائية الصوت فى الرواية السفسطائية أمر لا شك فيه^(١)، إنما يصعب القول ما هو وزنهما النوعى فيها. إن تلك الخلفية الكلمية المعنوية للتنوع الكلامى التى كانت هذه الروايات تتردد عليها وترتبط بها حواريا قد اندثرت إلى درجة كبيرة بالنسبة إلينا. ولعل تلك الأسلبة المباشرة والمجردة التى تبدو لنا فى هذه الروايات على هذا القدر الكبير من

(١) وهكذا ينوه بولديرى فى المقالة المشار إليها باستخدام أخيل تاتىوس لموضوع حلم التنبؤات التقليدى استخدام محاكاة ساخرة. كما يعتبر أن رواية تبتعد عن النمط التقليدى باتجاه رواية الأخلاق والعادات الهزلية.

الرتابة والتسطح، كانت تبدو لهم على خلفية التنوع الكلامي في عصرهم أوفر حيوية وتنوعاً، لأنها كانت تباشر لعباً ثنائى الصوت مع لحظات هذا التنوع الكلامي وتتجاوب معها حوارياً.

بالرواية السفسطائية يبدأ الخط الأسلوبى الأول (كما نسميه اصطلاحاً) للرواية الأوروبية. وهذا الخط الأول وجد فى الرواية السفسطائية تعبيراً مكتملاً ومليناً إلى حد كافٍ حكم، كما قلنا، كل التاريخ اللاحق لهذا الخط، وذلك بخلاف الخط الثانى الذى كان فى طور التشكل فى أجناس متعددة جداً من أجناس الأدب القديم ولما يتمظهر فى نمط روائى متكمل (وليس بوسعنا أن نعد الرواية الأبوليبيوسية أو البترونيوسية النمط المكتمل لهذا الخط الثانى). إن خصيصة الخط الأول (السفسطائى) الأساسية هى أحادية اللغة وأحادية الأسلوب (المتماسكتان بدرجة متفاوتة من القوة)؛ التنوع الكلامي يبقى هنا خارج الرواية، لكنه يحكمها بوصفه الخلفية المشيعة للحوارية التى ترتبط بها لغة الرواية وعالمها (الرواية) محاجياً وتقرظياً.

وسنلاحظ فى التاريخ اللاحق للرواية الأوروبية نفس هذين الخطين فى تطورها الأسلوبى. فالخط الثانى الذى ينتمى إليه أعظم ممثلى الجنس الروائى (بمختلف فروعه وبيعض أعماله المتفرقة) يدرج التنوع الكلامي فى صلب الرواية موزعاً به معناه توزيعاً أوركستريالاً ومتخلياً فى أحيان كثيرة عن كلمة المؤلف المباشرة والخاصة. أما الخط الأول الذى تأثر أكثر من غيره بالرواية السفسطائية فيدع

(أساسًا) التنوع الكلامي خارج ذاته، أى خارج لغة الرواية. وهذه اللغة مؤسّلة بخصوصية، أى مؤسّلة أسلوبية روائية. إلا أنها معدة كما قلنا لإدراكها على خلفية التنوع الكلامي بالذات، الذى تترابط حواريا مع لحظات مختلفة منه. إن الأسلبة المؤمثلة المجردة لمثل هذه الروايات لا تتحدد بالتالى بموضوعها وبعبارة المؤلف المباشرة وحسب (كما فى الكلمة الشعرية الخالصة)، وإنما بالكلمة الغريبة، بالتنوع الكلامي أيضا. وهذه الأسلبة تتضمن التفاتة (استراق نظر) إلى اللغات الغريبة، إلى وجهات نظر وآفاق معنوية - موضوعية أخرى. وهذا هو أحد الفروق الجوهرية جدا التى تميز الأسلبة الروائية عن الشعرية.

ويتفرع الخط الأسلوبى الثانى للرواية بدوره مثله مثل الخط الأول إلى مجموعة من التنوعات الأسلوبية الأصلية المتفردة. وأخيرا يتصالب هذان الخطان ويتداخلان بأشكال متنوعة، أى أن أسلبة المادة تقترن بتوزيعها (المادة) توزيعا أوركسترياليا كلاميا متنوعا.

والآن بضع كلمات عن رواية الفروسية الكلاسيكية الشعرية^(١).

كان الوعى اللغوى الأدبى (وبشكل أوسع الوعى اللغوى الأيديولوجى) لمبدعى هذه الروايات والمستمعين إليها معقدا: فمن وجهة كان هذا الوعى ممرزا من الناحية الأيديولوجية الاجتماعية لتكوينه فى تربة طبقية فتوية صلبة وثابتة، يكاد يكون طائفا من حيث انغلاقه الاجتماعى واكتفائه بذاته. لكن هذا الوعى لم يكن يملك فى

(١) المكتوبة شعرا.

الوقت نفسه لغة واحدة ملتزمة عضويا بالعالم الأيديولوجي الثقافي الواحد للأسطورة والموروث والمعتقدات والتقاليد والنظم الأيديولوجية. فكان لا مركزيا بعمق من الناحية اللغوية الثقافية، بل أمميا إلى درجة كبيرة وكان العنصر المكون لهذا الوعي اللغوي الأدبي قبل أى شىء آخر هو القطيعة بين اللغة المادة (matériau) من ناحية وبين المادة والواقع المعاصر من ناحية أخرى. لقد عاش هذا الوعي فى عالم لغات غريبة وثقافات غريبة. ولقد تكوّن الوعي اللغوي الأدبي لمبدعى رواية الفروسية الشعرية والمستمعين إليها فى مجرى عملية معالجة هذه اللغات والثقافات ومماثلتها وإخضاعها لوحدة الأفق الطبقي الفئوي ومثله العليا، وفى مجرى عملية مواجهة ذاته بالتنوع الكلامي للأوساط الشعبية الدنيا المحيط به. كان يتعامل دائما مع كلمة غريبة وعالم غريب: فالأدب اليوناني واللاتيني القديم، والأساطير المسيحية الأولى، والقصص البريتوني السيلتي (لكن ليس القصص الملحمي الشعبي الوطني الذي بلغ ورواية الفروسية أوج ازدهارهما فى تلك الفترة، وكان ازدهاره (هذا القصص) متوازنا مع ازدهارها إنما مستقلا عنها ودون أى تأثير فيها) - هذا كله كان المادة المتباينة نوعا ولغة (اللغة اللاتينية واللغات القومية) التى تجسدت فيها وحدة الوعي الطبقي الفئوي لرواية الفروسية مزيلة عن هذه المادة غربتها. النقل (الترجمة) والمعالجة وإعادة التفسير والفهم وتغيير مواقع النبذة - أى التوجه المتبادل المتعدد المستويات مع الكلمة الغريبة والقصد الغريب - تلكم هى عملية تشكل الوعي الأدبي الذى أبدع رواية الفروسية. قد لا تكون كل مراحل عملية التوجيه المتبادل هذه مع الكلمة الغريبة من صنع وعي فردى لهذا أو ذاك من مبدعى رواية الفروسية، إلا أن هذه

العملية جرت في الوعي اللغوي الألبى للعصر وحكمت إبداع أفراد معينين. فالمادة واللغة لم تكونا معطيتين في وحدة مطلقة (كما بالنسبة إلى مبدعى القصص الملحمي) بل كانتا على قطيعة وتفرق، وكان عليهما أن تبحث إحداهما عن الأخرى.

وهذا هو الذى يحدد أصالة أسلوب رواية الفروسية. فلا وجود في هذه الرواية لذرة من السذاجة اللغوية والكلامية. وهى (إن وجدت فيها عموماً) يجب عزوها إلى الوحدة الفتوية الثابتة التى لم تتفكك بعد. وقد استطاعت هذه الوحدة التغلغل في كل عناصر المادة الغريبة، واستطاعت إعادة تشكيلها وتبويرها بحيث يبدو لنا عالم هذه الروايات عالماً واحداً من الناحية الملحمية. إن رواية الفروسية الشعرية الكلاسيكية تقع في حقيقة الأمر على تخوم الملحمة والرواية، لكنها تتخطى، مع هذا، هذه التخوم باتجاه الرواية بشكل واضح. فأعمق نماذج هذا الجنس وأكملها كـ "بارتسيفال" و"ولغرام" هى روايات حقيقة بالفعل. فرواية بارتسيفال هذه لا يمكن بأى حال من الأحوال نسبتها إلى الخط الأسلوبى الأول الخالص للرواية. إن هذه الرواية هى أول رواية ألمانية ذات ثنائية صوتية عميقة وجوهرية استطاعت أن تقرر مطلقة مقاصدها بمراعاة دقيقة وحكيمة للمسافات بالنسبة إلى اللغة، وبشيئية هذه اللغة المبعدة قليلاً عن شففى المؤلف بابتسامة سخرية طفيفة^(١) ونسبيتها الرقيقة.

(١) بارتسيفال أول رواية إشكالية ورواية صيرورة. هذا النوع، بخلاف الرواية التعليمية التربوية الخالصة (البلاغية) الوحيدة الصوت أساساً (كـ"تيليماك"، "إميل") يتطلب كلمة ثنائية الصوت. والتنوع المتميز على هذا النوع فى الجنس الروائى هو الرواية التربوية الفكاهية ذات الميل القوى إلى المحاكاة الساخرة.

وكان الوضع مماثلاً، من حيث اللغة، بالنسبة إلى الروايات
النثرية الأولى. إلا أن عامل الترجمة والتحويل هنا أبرز وأكثر فجاجة.
ويمكننا القول رأساً إن النثر الروائي الأوروبي ولد وتكون خلال عملية
ترجمة المؤلفات الغربية ترجمة حرة متصرفية (مغيرة للشكل). النثر
الروائي الفرنسي وحده لم يكن لعامل الترجمة بالمعنى الدقيق للكلمة
مثل هذه الخطورة في نشوئه، بل إن العامل الأخطر في نشوء هذا
النثر يعود إلى عملية "تحويل" الشعر الملحمي إلى نثر. أما ولادة النثر
الروائي في ألمانيا فذات دلالة واضحة بشكل خاص: ذلك أن
الأرستقراطية الفرنسية المتألمنة أنشأت هذا النثر عن طريق ترجمة
النثر أو الشعر الفرنسي "وتحوريهما". هكذا بدأ النثر الروائي
في ألمانيا.

كان الوعي اللغوي لمبدعي الرواية النثرية لا مركزاً ومنسباً
بشكل كامل. كان يطوف بحرية بين اللغات بحثاً عن مادته، وكان
ينتزع دون عناء أي مادة مهما كانت من أي لغة (في حدود اللغات
التي في متناوله) ويصلها بلغته وعالمه. "ولغته هذه" التي لم تكن قد
استقرت بل كانت في طور التكون لم تكن تبدى للمترجم - الناقل أي
مقاومة. وكانت النتيجة قطيعة تامة بين اللغة والمادة ولا مبالاة لهما
العميقة الواحدة بالأخرى. ومن هذه الغربة المتبادلة بين اللغة والمادة
ولد "الأسلوب" الخاص لهذا النثر.

وفى الحقيقة لا يجوز لنا حتى الكلام عن أسلوب، وإنما عن مجرد شكل العرض. ما جرى هنا بالضبط هو استبدال الأسلوب بالعرض. إن الأسلوب يتعين بعلاقة الكلمة علاقة جوهرية وخلّاقة بمادتها وبالمتكلم نفسه وبالكلمة الغريبة؛ إنه يسعى إلى دمج المادة باللغة واللغة بالمادة دمجاً عضوياً. إن الأسلوب لا يعرض (لا يقول، لا ينشئ) شيئاً تكون وتشكل كلمياً خارج هذا العرض ودون مشاركته، لا يعرض شيئاً معطى. الأسلوب إما أن ينفذ إلى الموضوع مباشرة وصراحة كما فى الشعر، وإما أن يعكس مقاصده موارد كما فى النثر الفنى (فحتى الروائى الناثر نفسه لا يعرض الكلام الغريب، بل يبنى صورة فنية لهذا الكلام). وهكذا فرواية الفروسية الشعرية، وإن كانت هى أيضاً محكومة بالقطعية بين المادة واللغة، إلا أنها قامت بتجاوز هذه القطعية شيئاً فشيئاً وبوصل المادة باللغة فخلقت نوعاً خاصاً من الأسلوب الروائى الحقيقى^(١). أما النثر الروائى الأول فقد ولد وتكون بوصفه نثر عرض بالضبط، وقد حدد هذا مصيره لفترة طويلة.

وبطبيعة الحال ليس هذا الواقع المجرد وحده - أى واقع ترجمة النصوص الغربية ترجمة حرة - وليست الأهمية الثقافية لمبدعى هذا النثر وحدها هما اللذان يحددان خصوصية نثر العرض هذا (ذلك أن مبدعى رواية الفروسية الشعرية والمستمعين إليهم كانوا على قدر كاف من الأهمية من الناحية الثقافية)، بل إن المحدد الأول هو أن هذا النثر لم يعد يملك آنذاك قاعدة اجتماعية واحدة وصلبة، واكتفاء فتوياً وانقاً وهادئاً.

(١) إن عملية ترجمة المادة الغربية وتمثلها لم تكن تتم هنا فى الوعى الفردى لمبدعى الرواية، فهذه العملية، الطويلة والمتعددة المراحل، كانت تتم فى الوعى اللغوى الأدبى للعصر؛ فالوعى الفردى لم يبدأ هذه العملية ولم ينجزها بل اتصل بها.

وقد لعبت الطباعة، كما هو معروف، دوراً ذا أهمية استثنائية في تاريخ رواية الفروسية النثرية بتوسيعها فئات المستمعين وبالممازجة بينها اجتماعياً^(١) كما ساعدت على أمر جوهرى آخر بالنسبة إلى الجنس الروائى هو تحويل الكلمة إلى مسجلة الإدراك الصامتة. وقد تعمق انعدام التوجه الاجتماعى للرواية النثرية هذا فأكثر فى مراحل تطورها التالية، وبدأ التشرّد الاجتماعى لرواية الفروسية التى نشأت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر تشرّدا انتهى إلى تحولها إلى "أدب شعبى" تقرأه الفئات الاجتماعية الدنيا، إلى أن قام الرومنطيقيون فأعادوه إلى عالم الوعى المؤهل أدبياً.

ولنتوقف قليلاً عند خصوصية هذه الكلمة النثرية الروائية الأولى المقطوعة عن المادة والتى لم تنفذ إليها وحدة الإيديولوجيا الاجتماعية، والمحاطة بالتنوع الكلامى والتنوع اللغوى، والمحرومة من أى سند ومركز فيهما. هذه الكلمة المتشردة التى لم تتجذّر فى شيء كان يجب أن تصبح اصطلاحية على نحو خاص، أى ليس بمعنى تلك الاصطلاحية المعافاة التى للكلمة الشعرية، بل بتلك الاصطلاحية التى هى نتيجة عدم القدرة على استخدام الكلمة استخداماً فنياً حتى النهاية وفى كل لحظاتها وإعطائها الشكل النهائى.

(١) صدرت فى آخر القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر طبعات لكل روايات الفروسية الصادرة آنذاك تقريباً.

فسرعان ما يتبين في الكلمة المقطوعة عن المادة وعن الوحدة الأيديولوجية العضوية والثابتة كثير مما هو زائد، غير ضروري، مما يتأبى على الإدراك الفنى الحقيقى. وهذا الزائد كله الذى فى الكلمة يجب تحييده أو تنظيمه بحيث لا يعيق، يجب إخراج الكلمة من حالة المادة الخام. والاصطلاحية الخاصة تخدم هذا الغرض: فكل ما لا يمكن كشف معناه يأخذ شكلاً كليشويًا اصطلاحيًا، يكوى ويسوى ويصقل ويجمل إلخ. كل ما هو محروم من إمكانية إدراكه إدراكًا فنيًا حقيقيًا يجب استبداله بمواضعة اصطلاحية وبتزويقية اصطلاحية.

فماذا تفعل الكلمة المقطوعة عن المادة، وعن الوحدة الأيديولوجية، بصورتها الصوتية وبالغنى الذى لا ينفد لأشكالها وفروقاتها وظلالها وبنيتها النحوية والنبروية المختلفة، وبتعددية معانيها الشبئية والاجتماعية التى لا تتفد أيضًا؟ هذا كله لا تحتاجه كلمة العرض، لأن هذا كله لا يمكن أن يلتحم عضويًا بالمادة ولا يمكن أن يخرق بالمقاصد. ولهذا السبب يخضع هذا كله إلى تنسيق خارجى اصطلاحى: الصورة الصوتية تسعى إلى الرخامة الفارغة، والبنية النحوية والنبروية إلى السهولة والذلاقة الفارغة أو إلى التعقيد والتتميق الفارغ هو الآخر، إلى التزيينية الخارجية، والتعددية الدلالية إلى أحادية دلالية فارغة. قد يكثر نثر العرض بطبيعة الحال من تجميل نفسه بمجازات شعرية، لكنها تكون هنا غير ذات قيمة شعرية حقيقية.

وهكذا يبدو نثر العرض هنا كأنه يقونن ويكرس القطيعة التامة بين اللغة والمادة ويجد لها شكل تجاوز أسلوبى وهو شكل اصطلاحى ووهمى. ويصبح الآن بإمكانه (أى هذا النثر) أن يتناول أى مادة من أى مصدر. فاللغة بالنسبة إليه عنصر محايد، لكنه لطيف ومزوق مع هذا، يمكنه من التركيز على جاذبية المادة ذاتها، على أهميتها الخارجية، على توترها، على قدرتها على إثارة العاطفة.

فى هذا الاتجاه استمر تطور نثر العرض فى رواية الفروسية حتى بلغ ذروته فى "أماديس"^(١) ثم الرواية الرعوية. إلا أن نثر العرض هذا اغتنى خلال تطوره بلحظات جوهرية جديدة مكنته من الاقتراب من الأسلوب الروائى الحقيقى ومن تحديد الخط الأسلوبى الأساسى الأول لتطور الرواية الأوروبية. ومع هذا فالتوحيد العضوى التام للغة والمادة واختراق إحداها للأخرى على أرضية الرواية لن يتم هنا، بل فى الخط الثانى، فى الأسلوب الذى يعكس مقاصده مواربة ويوزعها توزيعاً أوركستريالاً، أى فى الطريق الذى أصبح الطريق الأساسى والأكثر خصباً فى تاريخ الرواية الأوروبية.

كما نشأت خلال عملية تطور نثر العرض الروائى مقولة تقويمية خاصة هى "أدبية اللغة" أو إذا أردنا عبارة أقرب إلى روح معناها الأول هى "تبل اللغة". وهذه ليست مقولة أسلوبية بالمعنى الدقيق للكلمة، فهى لا تستوجب أى متطلبات جنسية جوهرية فنية معينة. لكنها

(١) أصبحت "أماديس"، وقد انفصلت عن تربتها الأسبانية، رواية عالمية تماماً.

ليست، في الوقت نفسه، مجرد مقولة لغوية لتمييز اللغة الأدبية بوصفها وحدة لهجوية اجتماعية محددة. إن مقولة أدبية أو نبل اللغة تقع على تخوم المتطلبات الأسلوبية والتقويم الأسلوبى من جهة والتقارير اللسانى والقياس اللسانى من جهة أخرى (أى تقرير انتماء شكل ما إلى لهجة معينة ومدى صحة هذا الشكل لغويًا).

ومن مقومات هذه المقولة الشعبية وسهولة التناول والإدراك أى التكيف مع الخلفية الزكانية، كما يستطيع ما يقال الاستقرار على هذه الخلفية دون أن يشيع الحوارية فيها ودون أن يثير فيها أصواتا حوارية حادة مختلفة؛ إنها ملاسة الأسلوب وتمليسه.

وكانت مقولة "اللغة الأدبية" العامة هذه، الخارجة عن أى جنس (التي لا تخص جنسًا معينًا) فيما بدا، تمتلئ فى اللغات القومية المختلفة والعصور المختلفة بمضمون مشخص مختلف، وتأخذ فى تاريخ الأدب كما فى تاريخ اللغة الأدبية قيمة مختلفة. إلا أن منطقة فعل هذه المقولة كانت دائمًا اللغة المحكية للفئة المثقفة أدبيًا (وفى حالتنا هذه كل المنتمين إلى "فئة النبلاء") واللغة المكتوبة لأجناسها الحياتية ونصف الأدبية (الرسائل، المذكرات إلخ)، ولغة الأجناس الأيديولوجية الاجتماعية (الخطب على اختلافها، المحاكمات الفكرية، الوصف، المقالات إلخ)، وأخيرًا الأجناس النثرية الفنية ولا سيما الرواية. وبعبارة أخرى طمحت هذه المقولة إلى ضبط ذلك المجال من مجالات اللغة الأدبية والحياتية (بمعنى اللهجوية) الذى عجزت الأجناس المضبوطة القائمة فعلا بمتطلباتها المحددة والمتباينة عن لفتها عن

ضبطه. ليس لمقولة "الأدبية العامة" ما تفعله في مجال الشعر الغنائي والملحمي أو مجال المأساة بطبيعة الحال. إنها تسعى فقط إلى ضبط التنوع الكلامي الكتابي المحكي الذي يلتف تياره حول كل الأجناس الشعرية المضبوطة والثابتة التي لا يمكن تطبيق مقتضياتها وأصولها على اللغة المحكية ولا على لغة الكتابة الحياتية^(١). إنها ترمى فقط إلى تنظيم هذا التنوع الكلامي وإلى تكريس نوع من الأسلوب اللغوي له.

ونكرر القول إن المضمون المشخص لمقولة الأدبية الخارجية عن الجنس يمكنه أن يكون للغة بما هي كذلك مختلفاً اختلافاً عميقاً، وأن يكون على درجات متفاوتة من التعيين والتشخيصية، كما يمكنه أن يستند إلى مقاصد إيديولوجية ثقافية مختلفة، وأن يعزل سبب وجوده بقيم واهتمامات مختلفة: الحفاظ على الانغلاق الاجتماعي لجماعة ذات امتيازات ("لغة مجتمع للنبل") الحفاظ على المصالح القومية المحلية، وعلى سبيل المثال ترسيخ سيادة اللهجة التوسكانية في اللغة الأدبية الإيطالية، حماية مصالح المركزية السياسية الثقافية كما في فرنسا في القرن السابع عشر مثلاً. ثم إنه من الممكن أن يكون لهذه المقولة محققون مشخصون مختلفون: فقد تباشر هذا الدور القواعدُ الصرفية والنحوية الأكاديمية، والمدرسة والصالونات والاتجاهات الأدبية، وبعض الأجناس الأدبية. وقد تسعى هذه المقولة بعد ذلك إلى حذّها

(١) إن منطقة فعل مقولة "اللغة الأدبية" قد تنقلص في بعض العصور وذلك عندما ينشئ جنس نصف أدبي أو آخر قاعدة (سنة) ثابتة ومتميزة (جنس المراسلات على سبيل المثال).

اللغوى الأقصى أى إلى الصحة (السلامة) اللغوية. وفى هذه النقطة نراها تبلغ أقصى حد من الشمولية، لكنها تكاد تفقد بالمقابل أى صبغة أو تحديد إيديولوجى (وفى هذه الحالة تحتج بأن "هذا هو روح اللغة" وبأن "هذا - بالفرنسية")، لكنها تستطيع، على العكس، السعى إلى حذّها الأسلوبى الأقصى: وفى هذه الحالة يتشخص مضمونها حتى من الناحية الأيديولوجية ويكتسب تحديدًا موضوعيًا معنويًا وتعبيريًا معينًا، وتأخذ متطلباتها تصف المتكلم أو الكاتب بشكل واضح محدد (وفى هذه الحالة تحتج "بأنه هكذا يجب أن يفكر ويتكلم ويكتب كل إنسان كريم أو كل إنسان رقيق وحساس ومرهف إلخ). وفى الحالة الأخيرة هذه لا يمكن لهذه "الأدبية" الضابطة للأجناس الحياتية والمعيشية (الحديث، الرسائل، المذكرات) إلا أن تؤثر تأثيرًا قد يكون عميقًا جدًا أحيانًا فى التفكير الحياتى وحتى فى أسلوب الحياة ذاته فتخلق ما يسمى "أناس الأدب" و"التصرفات الأدبية". وأخيرًا يمكن للفاعلية والجوهرية التاريخية لهذه المقولة أن تكون متفاوتة جدًا فى تاريخ الأدب وفى تاريخ اللغة الأدبية: يمكن أن تكون عظيمة جدًا كما فى فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما يمكنها أن تكون ضئيلة؛ وهكذا فى عصور معينة يجتاح التنوع الكلامى (وحتى اللهجوى) أرفع الأجناس الشعرية. وهذا كله، أى درجات الفاعلية التاريخية وطابعها، يتوقف بطبيعة الحال على مضمون هذه المقولة، على ثبات المرجع الثقافى والسياسى الذى تستند إليه.

إننا لا نتعرض هنا لمقولة "الأدبية العامة للغة" البالغة الأهمية هذه إلا بشكل عارض. فما يهمنا هنا ليس أهميتها في الأدب عامة ولا في تاريخ اللغة الأدبية، بل أهميتها في تاريخ الأسلوب الروائي فقط. وهذه الأهمية هائلة هنا. فهي مباشرة في روايات الخط الأسلوبى الأول وغير مباشرة في روايات الخط الثانى.

إن روايات الخط الأسلوبى الأول تطمح إلى تنظيم التنوع الكلامى للغة المحكية وللأجناس الحياتية ونصف الأدبية وضبطه أسلوبياً. وهذا ما يحدد إلى حد كبير علاقتها بالتنوع الكلامى. أما روايات الخط الأسلوبى الثانى فتحول هذه اللغة الأدبية والحياتية المنظمة والمنبلة إلى مادة جوهرية لتوزيعها توزيعاً أوركسترياً، وأناس هذه اللغة أى الأناس الأدبيين بتفكيرهم الأدبى وتصرفاتهم الأدبية إلى أبطالها الجوهريين.

ويستحيل فهم الماهية الأسلوبية للخط الأول للرواية دون الأخذ بالاعتبار هذا العامل البالغ الأهمية ألا وهو العلاقة الخاصة لهذه الروايات باللغة المحكية وبالأجناس الحياتية والمعيشية اليومية. إن الكلمة فى الرواية تبنى فى تفاعل مستمر مع كلمة الحياة. ورواية الفروسية النثرية تضع نفسها فى مواجهة التنوع الكلامى "الوضيع"، العامى فى كل مجالات الحياة وتطرح بالمقابل كلماتها المؤمثلة الخاصة، كلماتها "المنبلة". الكلمة العامية، غير الأدبية مشبعة بمقاصد وضعية وتعبيرية فجة، وموجهة توجيهها عملياً، محاطة بتداعيات معيشية مبتذلة وتفوح منها روائح سياقات خاصة. أما رواية الفروسية

فتقابلها بكلمتها المرتبطة بتداعيات رفيعة ونبيلة فقط، والمفعمة بترجيحات السياقات الرفيعة (التاريخية، الأدبية، العلمية). وبخلاف الكلمة الشعرية يمكن لمثل هذه الكلمة المنبلة أن تتوب في هذه الحالة مناب الكلمة العامية في الأحاديث والرسائل والأجناس المعيشية الأخرى كما ينوب التلميح مناب العبارة الفظة، لأنها ترمى إلى التوجه في نفس الدائرة التي تتوجه فيها الكلمة الحياتية.

وهكذا تصبح رواية الفروسية الحامل لمقولة "الأدبية الخارجة عن الجنس" للغة. فهي تنتطح لإعطاء اللغة الحياتية معاييرها وإلى تعليمنا حسن الأسلوب والتأدب: كيف ندير حديثاً في مجتمع، وكيف نكتب رسالة إلخ. وكان تأثير "أماديس" ذا قوة استثنائية في هذا المجال. فقد وضعت كتب مثل "كنوز أماديس" و"كتب المجاملات" جمعت فيها نماذج من الأحاديث والرسائل والخطب وما إلى ذلك، وكلها مستمدة من الرواية المذكورة. وقد أصابت هذه الكتب انتشاراً هائلاً وأثرت تأثيراً ضخماً على امتداد القرن السابع عشر كله. إن رواية الفروسية توفر الكلمة المناسبة لكل المواقف والمناسبات المحتملة في الحياة، وهي في هذا كله تطرح نفسها نقيضاً للكلمة العامية بمقارباتها الفجة.

ويقدم لنا سرفنتس تصويراً فنياً عبقرياً للقاء الكلمة التي تبعث فيها رواية الفروسية النبل بالكلمة العامية في كل المواقف الجوهرية بالنسبة إلى الرواية كما بالنسبة إلى الحياة. فالتوجه المحاجي الداخلي للكلمة المنبلة بالنسبة للتنوع الكلامي يتبدى في "دون كيكخوت" في حوارات روائية مع سانتشو وغيره من ممثلي واقع الحياة في تنوع أنماط كلامه وفجأته كما يتبدى في حركة موضوع الرواية. إن

الحوارية الداخلية المحتملة الكامنة في الكلمة المنبلة تُفَعَّلُ هنا وتتمظهر خارجيا في الحوارات وفي حركة موضوع الرواية، لكنها كأى حوارية حقيقية لا تستنفذ ذاتها فيها نهائيا ولا تكتمل نهائيا.

مثل هذه العلاقة بالتنوع الكلامي الخارج عن الأدب ليست واردة إطلاقاً بالنسبة إلى الكلمة الشعرية بالمعنى الضيق بطبيعة الحال. فالكلمة الشعرية بما هي كذلك غير معقولة وغير ممكنة في المواقف الحياتية وفي الأجناس المعيشية، فهي لا تستطيع أن تطرح نفسها مباشرة نقيضاً للتنوع الكلامي إذ ليس بينهما أرضية مقاربة مشتركة. قد تستطيع هذه الكلمة التأثير في الأجناس المعيشية وحتى في اللغة المحكية إنما تأثيرها هذا لن يكون إلا تأثيراً غير مباشر.

ولكى تحقق رواية الفروسية النثرية مهمتها في تنظيم اللغة الحياتية أسلوبيا كان عليها بطبيعة الحال أن تستوعب في بنائها كل تنوع الأجناس المعيشية والأيدولوجية الخارجية عن نطاق الأدب. فكانت هذه الرواية كالرواية السفسطائية موسوعة شبه كاملة لأجناس عصرها. فمن حيث البنية كانت كل الأجناس الدخيلة على درجة معينة من الاكتمال والاستقلال الذاتى، ولهذا كان بالإمكان نزعها بسهولة من سياق الرواية وإيرادها مستقلة كنماذج. وكان أسلوب الرواية يتغير بطبيعة الحال إلى حد ما تبعا لطابع الجنس الدخيل (مع بقائه ملبياً للحد الأدنى من متطلبات الجنس الروائي)، لكن كان يظل رتibia في كل ما هو جوهرى؛ فلا مجال هنا للكلام عن لغات الأجناس بالمعنى الدقيق للكلمة، إذ لم تكن تمتد عبر الأجناس الدخيلة على تنوعها إلا لغة واحدة منبلة رتبية.

إن وحدة هذه اللغة المنبّلة أو على الأدق رتابتها ليست مكتفية بذاتها: إنها محاجية ومجردة. فهي تقوم فى أساسها على وضعة (pose) نبيلة أمينة مع نفسها فى كل شىء بالنسبة إلى الواقع الوضعى. لكن وحدة هذه الوضعة النبيلة وأمانتها مع نفسها تنهضان على حساب التجريد المحاجى، ولهذا فهما ساكنتان، جامدتان وميتتان. ففى ظل انعدام التوجه الاجتماعى والأرضية الأيديولوجية لهذه الروايات لا يمكن لوحدتها (هذه الروايات) وتماسكها إلا أن يكونا كذلك. إن الأفق المادى والتعبيرى لهذه الكلمة الروائية ليس أفق الإنسان الحى المتحرك المتغير والمنطلق فى لا نهاية الواقع، بل كأنه أفق مقيد لإنسان يسعى إلى الاحتفاظ بالوضعة الجامدة نفسها، وإن تحرك فلا يتحرك كى يرى، بل على العكس كى يدير ظهره، كى يتشاغل، كى لا يلاحظ. إنه ليس أفقاً زائراً بأشياء حقيقة، بل بترجيحات كلامية من أشياء وصور أدبية موضوعة على نحو محاجى فى مواجهة التنوع الكلامى الفج للعالم الواقعى ومفرغة بعناية (ولكن على نحو مقصود محاجيا ولهذا فهو محسوس) من أى تداعيات معيشية فجة محتملة.

ويستخدم ممثلو الخط الأسلوبى الثانى فى الرواية (رابليه، فيشرت، سرفنتس وغيرهم) طريقة التجريد هذه استخدماً محاكاتياً ساخراً إذ يوردون فى مجال التشابيه ويطورون جملة تداعيات فجة مقصودة تهبط بالمشبه إلى خضم اليومى الوضعى اللاشاعرى، وبهذا

يدمرون المستوى الأدبي الرفيع الذى تم بلوغه عن طريق التجريد المحاجى. فالتنوع الكلامى هنا يثار بإزاحته إزاحة مجردة (كما فى كلام سانتشوبنس)^(١).

إن اللغة المنبّلة لرواية الفروسية بتجريدتها المحاجية تصبح بالنسبة للخط الأسلوبى الثانى مجرد واحد من المشاركين فى الحوار بين اللغات، تصبح صورة نثرية للغة، صورة كانت الأعمق والأكمل عند سرفنتس، صورة قادرة على إبداء مقاومة حوارية داخلية لمقاصد المؤلف الجديدة، صورة ذات ثنائية صوتية إنفعالية.

ومع بداية القرن السابع عشر أخذ الخط الأسلوبى الروائى الأول يتغير قليلا، إذ أخذت القوى التاريخية الفعلية تستخدم أمثلة الأسلوب الروائى المجردة ومحاجيته المجردة لتحقيق مهام محاجية وتقريبية أكثر تشخيصية. وأخذ التوجه الاجتماعى والسياسى الواضح لرواية الباروكو يحل محل انعدام التوجه الاجتماعى لرومنطيقية الفروسية المجردة.

(١) يتصف الأدب الألمانى بميل خاص إلى هذه الطريقة فى الهبوط بالكلمات الرفيعة عن طريق إيراد جملة من التشابيه والتداعيات الوضعية والتوسع فيها. وقد حكمت هذه الطريقة التى أدخلها وولغرام فون إيشينبخ إلى الأدب الألمانى فى القرن الخامس عشر أسلوب الوعاظ الشعبيين فى القرن الخامس عشر مثل هيلرفون كييزسبرغ، كما نراها عند فيشارت فى القرن السادس عشر، وفى عظات إيرهام أسانتا كلار فى القرن السابع عشر، وفى روايات هيبيل وجان بول فى القرنين الثانى عشر والتاسع عشر.

وكانت الرواية الرعوية قد أحست إحساساً مختلفاً جوهرياً بمادتها ووجهت أساليبها وجهة أخرى. والمسألة هنا ليست مجرد تعامل إبداعي أكثر حرية مع المادة^(١)، بل في تغير وظائفها ذاتها. ويمكننا القول على نحو تقريبي ما يلي: لم يعودوا يهربون من واقعهم المعاصر إلى المادة الغريبة، بل صاروا يلبسونها هذا الواقع ويصورون أنفسهم فيها. فقد أخذت العلاقة الرومنطيقية بالمادة تخلق مكانها لعلاقة أخرى تماماً هي العلاقة الباروكية. فقد وجدت صيغة جديدة للعلاقة بالمادة وطريقة جديدة لاستخدامها الفني سنحددها وبشكل تقريبي مرة أخرى على أنها إلباس الواقع المحيط مادة غريبة، على أنها نوع خاص من الحفلة التنكرية الباعثة للبطولة (héroisant)^(٢). إن الإحساس الذاتي بالعصر يصبح قوياً ورفيعاً ويأخذ في استخدام مادة غريبة متنوعة للتعبير عن ذاته ولتصوير ذاته. هذا الإحساس الجديد بالمادة وهذه الطريقة الجديدة في استخدامها كانا في بداياتهما في الرواية الرعوية:

(١) وترتبط بهذا الأمر الإنجازات التأليفية الجهرية التي للرواية الرعوية بالمقارنة مع رواية الفروسية: المزيد من تركيز الفعل، المزيد من اكتمال الكل، تطور المنظر الطبيعي المؤسلب. وتتبع الإشارة أيضاً إلى إدخال الأساطير (الكلاسيكية) وإلى إدخال الشعر في النثر.

(٢) مما له دلالاته انتشار "حوار الموتى" وهو شكل يمكن من التحدث في المواضيع التي تهم صاحبها (مواضيع العصر والساعة) مع الحكماء والعلماء والأبطال من مختلف البلدان ومن مختلف العصور.

فقد كان مجال فعلهما ضيقاً أكثر من اللازم ولم تكن قوى العصر التاريخية قد تركزت بعد. ولهذا غلبت لحظة التعبير الغنائى الحميم عن الذات فى هذه الروايات الصغيرة^(١).

ولم تتطور هذه الطريقة الجديدة فى استخدام المادة وتتوسع وتتحقق تمامًا إلا فى رواية الباروكو البطولية التاريخية. فقد أخذ العصر يندفع بنهم للبحث عن مادة بطولية متوترة فى كل الأزمان والبلدان والثقافات؛ وأخذ الإحساس العنيف بالذات يشعر بأنه قادر على أن يتجسد تجسداً عضوياً فى أى مادة متوترة توترًا بطولياً من أى عالم إيديولوجى ثقافى أتت. كانت أى غرابة أمراً مرغوباً فيه. وكانت المادة الشرقية لا تقل انتشاراً ونبوغاً عن مثيلتها اليونانية اللاتينية والوسيطية. أن تجد ذاتك وتحققها فى مادة غريبة وتضفى على ذاتك وصراعاك صفة البطولة بواسطة مادة غريبة - ذلكم كان باثوس رواية الباروكو. كان الإحساس الباروكوى بالعالم باستقطابيته المتناقضة وبالتوتر المفرط لوحده المتناقضة يلغى، إذ ينفذ إلى المادة التاريخية، أى سمة من سمات الاستقلال الذاتى الداخلى للعالم الثقافى الغريب الذى أوجد هذه المادة وأى مقاومة داخلية لهذا العالم ويحولها إلى غلاف خارجى مؤسلب لمضمونه هو^(٢).

(١) روايات الحجرة كما وردت فى الأصل عند بختين (المترجم).

(٢) إعادة إلباس (بالمعنى الحرفى) لمعاصرين مشخصين فى "استري".

إن القيمة التاريخية لرواية الباروكو ذات أهمية استثنائية، إذ إن كل أنواع الرواية الجديدة تقريبًا ترجع بنشوتها إلى لحظات مختلفة من رواية الباروكو. فقد استطاعت هذه، لكونها وريثة كل التطور السابق للرواية ولاستخدامها الواسع لكل هذا الإرث (الرواية السفسطائية، أماديس، الرواية الرعوية)، أن توحد في ذاتها كل اللحظات التي أضحت في مجرى التطور اللاحق تظهر متفرقة بوصفها أنواعًا مستقلة بذاتها: اللحظة الإشكالية، لحظة المغامرة، اللحظة التاريخية، اللحظة السيكلوجية، اللحظة الاجتماعية. وأضحت الرواية الباروكوية بالنسبة إلى العهود التالية موسوعة مواد (موضوعات روائية، موضوعات أحداث ومواقف). فمعظم موضوعات الرواية الجديدة التي نعثر لدى دراستها دراسة مقارنة على منشأ قديم أو شرفى لها إنما وفدت إليها بواسطة رواية الباروكو؛ وكل البحوث في علم الأنساب تقريبًا تؤدي بنا إلى هذه الرواية ومنها إلى مصادرها الوسيطة والقديمة (ومن ثم إلى الشرق).

أطلق على رواية الباروكو بحق اسم "رواية الاختبار"، وهى فى هذا تكمل الرواية السفسطائية التى كانت هى أيضًا رواية اختبار (اختبار إخلاص وعفة العاشقين المفترقين). إلا أن هذا الاختبار لبطولة البطل وإخلاصه ونصاعته المتكاملة الجوانب يوحد هنا، فى رواية الباروكو، مادة الرواية الهائلة والبالغة التنوع توحيدًا أكثر عضوية. فكل شىء هنا محك، وسيلة اختبار لكل جوانب وخصال البطل التى يقتضيها المثل الأعلى الباروكوى للبطولة. إن فكرة الاختبار هى التى تنظم المادة تنظيمًا عميقًا وراسخًا.

ولابد لنا من الوقوف وقفة خاصة عند الاختبار وغيرها من الأفكار المنظمة للجنس الروائي.

لعل فكرة اختبار البطل وكلمته هي الفكرة الأساسية الأولى المنظمة للرواية والمشكلة لاختلافها الجذري عن الملحمة: ذلك أن البطل الملحمي يقف منذ البداية خارج دائرة أى اختبار. إن مناخ الشك فى بطولة البطل فى العالم الملحمي أمر غير وارد.

إن فكرة الاختبار تمكن من تنظيم المادة الروائية المتنوعة تنظيمًا عميقًا وجوهريًا حول البطل. لكن مضمون فكرة الاختبار نفسه يمكن أن يتغير جوهريًا فى العهود المختلفة ولدى المجموعات الاجتماعية المختلفة. ففي الرواية السفسطائية كانت هذه الفكرة التى نشأت على أرض الذمامة (Casuistique) البلاغية للسفسطائية الثانية ذات طابع شكلى وخارجى فج (إذا كانت تخلص تمامًا من اللحظة السيكلوجية والأخلاقية) وكانت هذه الفكرة مختلفة فى الأساطير المسيحية المبكرة وفى سير القديسين والاعترافات ذات طابع السيرة الذاتية إذا كانت تقترن هنا عادة بفكرة الأزمة والاهتداء وهى الأشكال الجنينية لرواية الاختبار فى شكلها المغامراتى الاعترافى. إن فكرة الشهادة المسيحية (الاختبار بالعذاب والموت) من جهة وفكرة التجربة (الاختبار بالإغواء) من جهة أخرى تعطيان فكرة الاختبار المنظمة للمادة فى الأدب المسيحى المبكر الضخم ثم فى أدب سير القديسين فى

القرون الوسطى مضموناً نوعياً خاصاً^(١). وهناك نوع آخر من فكرة الاختبار هذه تنظم مادة رواية الفروسية الشعرية الكلاسيكية، وهو نوع يجمع في آن بين خصائص الاختبار في الرواية اليونانية (اختبار الإخلاص في الحب واختبار الشجاعة) وخصائص الأسطورة المسيحية (الاختبار بالألم وبالإغراء). وهذه الفكرة ذاتها تنظم. وقد فقدت من قوتها وسعتها، رواية الفروسية النثرية، لكنها تنظمها بوهن وخارجياً دون أن تنفذ إلى عمق المادة. وأخيراً تحكم هذه الفكرة بقوة تأليفية استثنائية توحيد المادة الضخمة والبالغة التنوع في رواية الباروكو.

وظلت فكرة الاختبار تحتفظ بأهميتها التنظيمية الرئيسية في التطور اللاحق للرواية وتمتلىء تبعاً للعصر بمضمون أيديولوجي مختلف، إلا أن روابطها بالتقليد ظلت قائمة وإن كانت بعض خطوط هذا التقليد (القديم، سير القديسين، الباروكوي) تغلب تارة وبعضها الآخر تارة أخرى. وهناك نوع خاص من فكرة الاختبار حظى بانتشار مفرط في رواية القرن التاسع عشر هو اختبار البطل لرسالته، لعبقريته، لنخبويته. وإلى هذا النوع يرجع في المقام الأول النوع الرومنطقي من النخبوية واختبارها بالحياة. ويمثل بالحياة. ويمثل محدثو النعمة (Parvenus) النابولونيون في الرواية الفرنسية (أبطال ستيندال، أبطال بلزاك) نوعاً خاصاً من النخبوية. وتتحول فكرة النخبوية عند زولا إلى فكرة الصلاحية الحياتية والعافية البيولوجية

(١) وهكذا تنظم الاختبار بتماسك ورصانة نادرتين "سيرة ألكسي" الشعرية الفرنسية القديمة المعروفة. قارن ذلك على سبيل المثال بسيرة فيودوسي بيتشيرسكي عندنا.

وقدرة الإنسان على التكيف. فالمادة منظمة فى رواياته بوصفها اختباراً لكفاءة البطل البيولوجية (ذات النتيجة السلبية). وهناك نوع آخر هو اختبار العبقرية (وهذا كثيراً ما يقترن باختبار مواز له هو مدى صلاحية الفنان حياتياً). وقد كانت الأشكال المختلفة الأخرى لفكرة الاختبار فى القرن التاسع عشر كفكرة اختبار الشخصية القوية التى تضع نفسها لأسباب أو أخرى خاصة بها فى مواجهة المجموع مع ادعائها الاكتفاء بذاتها والانكفاء على نفسها فى وحدة متكبرة، أو التطلع لدور القائد أو اختبار المصلح الأخلاقى أو الداعية اللا أخلاقى أو اختبار نصير النيتشوية أو اختبار المرأة المتحررة إلخ - هذه الأشكال كلها هى أفكار تنظيمية للرواية الأوروبية فى القرن التاسع عشر ومطلع العشرين حظيت بانتشار واسع جداً^(١). وتعتبر رواية اختبار المثقف الروسية، اختبار صلاحيته وقيمه الاجتماعية (موضوع "الإنسان الزائد") التى تنقسم بدورها إلى مجموعة أنواع (من بوشكين حتى اختبار المثقف فى الثورة) نوعاً خاصاً من رواية الاختبار.

ولفكرة الاختبار قيمة هائلة حتى فى رواية المغامرات الخالصة. ويتجلى خصب هذه الفكرة خارجياً فى أنها تمكن من القرن قرناً عضوياً فى الرواية بين عنصر المغامرة العنيف والمتنوع والإشكالية العميقة والسيكولوجيا المعقدة. فكل شئ هنا يتوقف على عمق مضمون فكرة الاختبار المنظمة للرواية الأيديولوجى وملاءمته

(١) إن قيمة مثل هذه الاختبارات التى يتعرض لها ممثلو كل الأفكار والاتجاهات الرائجة عظيمة جداً فى الإنتاج الروائى الغزير للروائيين الثانويين.

التاريخية الاجتماعية وتقديمته. وتبعًا لهذه الصفات يمكن للرواية أن تبلغ بإمكاناتها الجنسية كلها الحد الأقصى من الامتلاء والسعة والعمق. إن رواية المغامرات الخالصة كثيرًا ما تقلص إمكانات الجنس الروائي حتى حدودها الدنيا. لكن الحدث المجرد وحده والمغامرة المجردة وحدها لا يمكنهما أن يكونا بذاتهما القوة المنظمة للرواية أبدًا. بالعكس إننا سنكتشف دائمًا في أى موضوع حدث وفي أى مغامرة آثار فكرة نظمتها من قبل، وأوجدت جسدًا لهذا الموضوع وأحيته كما تفعل النفس، لكنها فقدت الآن قوتها الأيديولوجية ولم تعد تحقق فيه إلا قليلًا. أن موضوع المغامرة تنظمه فى أغلب الأحيان فكرة اختبار البطل وهى على وشك الهمود. لكن هذا ليس دائمًا.

إن لرواية المغامرات الجديدة مصدرين مختلفين جوهريًا. أحدهما يعود إلى رواية الاختبار الباروكية الرفيعة (وهو النوع السائد من أنواع رواية المغامرات)، وثانيهما يعود إلى "جيل بلاس" ومنه إلى "لاساريليو" إى أنه مرتبط "برواية النصب". هذان النوعان نجدهما حتى فى الأدب القديم ممثلين بالرواية السفسطائية من جهة وبيترونيوس من جهة أخرى. النوع الأول الأساسى من رواية المغامرات ينظمه، كما ينظم رواية الباروكو أيضًا، شكل أو آخر من فكرة الاختبار الهامدة أيديولوجيا والمحتفظة بالقشرة الخارجية فقط. ومع هذا فرواية هذا النوع أعقد وأغنى ولا تقطع صلتها نهائيًا بقدر أو آخر من الإشكالية والسيكولوجية: فنحن نشعر فيه دائمًا بدم رواية الباروكو وأماديس

ورواية الفروسية ومن ثم الملحمة والأسطورة المسيحية والرواية اليونانية^(١). تلكم هي رواية المغامرات الإنكليزية والأميركية (ديفو، لويش، رد كليف، أو ولبول، كوبر، لندن وغيرهم)، وتلكم هي الأنواع الرئيسية لرواية المغامرات والبولفار الفرنسية، وكثيراً ما نلاحظ مزجا لكلا النوعين، لكن النوع الأول (رواية الاختبار) يكون دائماً في هذه الحالات البداية المنظمة لكل بوصفه النوع الأقوى، المسيطر، ذلك أن الخميرة الباروكية لرواية المغامرات قوية جداً: وباستطاعتنا أن نقع حتى في بناء رواية البولفار في أبدأ أنواعها على لحظات تعود بنا من خلال رواية الباروكو وأماديس إلى أشكال السيرة والسيرة الذاتية المسيحيتين المبكرتين وإلى أشكال أسطورة العالم الروماني الهيليني: فرواية كرواية بونسون دي تيراييل السيئة السمعة "روكامبول" تزخر بترجيحات قديمة جداً، ونلمس في أساس بنائها أشكال رواية الاختبار الهيلينية الرومانية المقرونة بالأزمة والارتداد (أبوليس والأساطير المسيحية المبكرة على ارتداد (اهتداء، الخاطيء). ونقع فيها على لحظات ترجعنا من خلال رواية الباروكو إلى أماديس، ومن ثم إلى رواية الفروسية الشعرية. كما نجد في بنائها في الوقت نفسه لحظات من النوع الثانى (لاساريليو وجيل بلاس). لكن روح الباروكو هي المسيطرة فيها بطبيعة الحال.

(١) إلا أن هذه السعة نادراً ما تكون مزية له، إذ أن المادة الإشكالية والسيكولوجية تستبدل في معظم الأحيان؛ أما النوع الثانى فأوضح وأنقى.

والآن بضع كلمات فى دوستوفسكى. إن رواياته روايات اختبار واضحة غاية الوضوح. وسنتوقف قليلاً عند التقاليد التاريخية التى تركت أثرها فى هذه الروايات دون أن نتطرق إلى جوهر مضمون فكرة الاختبار الأصلية القائمة فى أساس بنائها. فقد كان دوستوفسكى مرتبطاً برواية الباروكو بخطوط أربعة: من خلال "رواية الإثارة"^(١) الإنكليزية (لويس، ردكليف، أولبول وغيرهم) ومن خلال رواية الأحياء القذرة ذات الصفة المغامراتية الاجتماعية (إ.سيو)، ومن خلال رواية الاختبار البلزاكية، وأخيراً من خلال الرومنطيقية الألمانية (وعلى الأخص من خلال هوفمان). لكن دوستوفسكى كان مرتبطاً إلى ذلك ارتباطاً مباشراً بأدب سير القديسين وبالأسطورة المسيحية فى أرضيتها الأرثوذكسية وبفكرتهما الخاصة عن الاختبار. وهذا كله حدد الربط العضوى بين المغامرة والاعتراف والإشكالية وسير القديسين والأزمات والارتداد فى رواياته، أى تلك العقدة من اللحظات التى ميزت رواية الاختبار الرومانية الهيلينية (بقدر ما نستطيع الحكم على ذلك من خلال أبوليوس من المعلومات التى وصلتنا عن بعض السير الذاتية، ومن الأساطير المسيحية المبكرة عن حياة القديسين).

ولدراسة رواية الباروكو التى استوعبت المادة الهائلة للتطور السابق لهذا الجنس أهمية استثنائية لفهم أنواع العصر الحديث الروائية. فكل هذه الخطوط تؤدى بالضرورة إليها، ومنها إلى القرون الوسطى والعالم الرومانى الهيلينى وإلى الشرق.

(١) العبارة إ.ف.ديبليوس.

وفى القرن الثامن عشر طرح فيلند وفيتسيل وبلانكينبورغ من بعدهم غوته والرومنطيقون فكرة جديدة هى "رواية الصيرورة" وعلى الأخص "رواية التربية" مقابل رواية الاختبار.

إن فكرة الاختبار تفتقر إلى مقاربة الصيرورة الإنسانية، إنها تعرف الأزمة، التحول فى بعض أشكالها، لكنها لا تعرف تطور الإنسان، صيرورته، تكونه التدريجى. إنها تتطلق من الإنسان الجاهز وتعرضه للاختبار من وجهة نظر مثل أعلى جاهز هو الآخر. ونموذجيتان فى هذا الصدد هما رواية الفروسية ولا سيما رواية الباروكو المصادرة صراحة على النبيل الفطرى والسكونى الجامد لأبطالها.

فى مقابل هذا تطرح الرواية الجديدة فكرة صيرورة الإنسان من جهة وفكرة ازدواجية معينة ونقص معين فى الإنسان الحى وامتزاج الخير فيه بالشر والقوة بالضعف من جهة أخرى. أن الحياة بأحداثها لا تعود هنا محكا ووسيلة لاختبار البطل الجاهز (أو فى أحسن الأحوال عاملاً محرضاً على تطوير ماهية البطل المكتملة التكوين والمحددة مسبقاً)، بل تتجلى هنا وقد أنارتها فكرة الصيرورة على أنها تجربة البطل، مدرسة، وسط تكون وتشكل للمرة الأولى طباع البطل ونظرته إلى العالم. إن الفكرة الصيرورة والتربية تمكن من تنظيم المادة بطريقة جديدة حول البطل ومن الكشف عن جوانب جديدة تماماً فى هذه المادة.

إن فكرة الصيرورة والتربية وفكرة الاختبار لا تتفى إحداهما الأخرى إطلاقاً في نطاق الرواية الجديدة، بل على العكس يمكنها أن تتحدا اتحاداً عميقاً وعضوياً. وكبرى نماذج الرواية الأوروبية تقرر في معظمها بين الفكرتين قرناً عضوياً (لاسيما في القرن التاسع عشر في حين أضحت النماذج الخالصة لرواية الاختبار ولرواية الصيرورة نادرة إلى حد ما). وهكذا تقرر رواية "بارسيفال" فكرة الاختبار (وهي المسيطرة) بفكرة الصيرورة. والأمر نفسه ينسحب على رواية التربية الكلاسيكية "ولهيلم ميستر"، إنما فكرة التربية (المسيطرة فيها) هنا تقرر بفكرة الاختبار.

ويتصف النمط الروائي الذي أنشأه فيلدينغ وإلى حد ما ستيرن بالجمع بين الفكرتين والقرن بينهما بنسب تكاد تكون متساوية. وبتأثير فيلدينغ وستيرن نشأ ذلك النمط القارى من رواية التربية الذى يمثلته فيلند وفيتسيل وهيل وجان بول. إن اختبار الإنسان المثالى والإنسان غريب الأطوار هنا لا يؤدى إلى مجرد تعريتهما، بل إلى صيرورتهما أناساً يفكرون تفكيراً أكثر واقعية. فالحياة هنا ليست محكاً فقط، بل هي مدرسة أيضاً.

ومن الأنواع الأصيلة من أنواع القرن بين هذين النمطين من الرواية نشير إلى رواية "هنرى الأخضر" لكليير التى تنظم كلا الفكرتين. والقول نفسه ينسحب على بناء رواية "جان كريستوف" لرومين رولان.

إن رواية الاختبار ورواية الصيرورة لا تستفدان بطبيعة الحال كل الأنماط التنظيمية للرواية. حسبنا الإشارة إلى الأفكار التنظيمية الجديدة جوهريًا التي أدخلها بناء الرواية السيري والسير الذاتي ذلك أن السيرة والسيرة الذاتية أنشأتا خلال تطورهما مجموعة أشكال تحدت بأفكار تنظيمية خاصة كفكرة "الشجاعة والفضيلة" بوصفها أساس تنظيم مادة السيرة، أو "القضية والأعمال" أو "النجاح والإخفاق" إلخ.

ولنعد الآن إلى رواية الاختبار الباروكية التي شغلنا عنها جولتنا القصيرة في تاريخ الرواية. فما هو وضع الكلمة في رواية الباروك وما هي علاقتها بالتنوع الكلامي؟

إن كلمة الرواية الباروكية كلمة انفعالية. فهنا بالتحديد نشأت (أو بعبارة أدق بلغت ملء تطورها) الانفعالية الروائية التي لا تشبه الانفعال الشعري في شيء. فقد بثت رواية الباروك انفعالياتها الخاصة في كل مكان نفذ إليه تأثيرها ورسخت فيه تقاليدها، أي في رواية الاختبار في المقام الأول (وفي عناصر "الاختبار" في النمط المختلط أيضًا).

إن الانفعالية الباروكية تتحدد بالتقريضية والمحاجية. إنها انفعال نثري يحس على الدوام بمقاومة الكلمة الغريبة ووجهة النظر الغريبة، بانفعال التبرير (والتبرير الذاتي) وباللاتهام. إن الأمثلة المشبعة للبطولة التي لرواية الباروك ليست ملحمة. إنها كما في رواية الفروسية أمثلة محاجية وتقريضية مجردة (بل إنها أمثلة تقريضية أساسًا)، لكنها،

بخلاف رواية الفروسية، ذات انفعالية عميقة وتقف وراءها قوى ثقافية اجتماعية واقعية واعية ذاتها. وعلينا التوقف قليلاً عند فرادة هذه الانفعالية الروائية.

الكلمة الانفعالية تبدو مكتفية بذاتها وبموضوعها تماماً. ذلك أن المتكلم يستغرق ذاته دون أى مسافة ودون أى تحفظ فى الكلمة الانفعالية فتبدو هذه كلمة قصدية صريحة.

إلا أن الانفعالية ليست دائماً كذلك. فالكلمة الانفعالية يمكن أن تكون اصطلاحية أو حتى ازدواجية بوصفها كلمة ثنائية الصوت. على هذا النحو بالضبط تكون الانفعالية فى الرواية بالضرورة تقريباً، ذلك أنه ليس لها هنا ولا يمكن أن يكون لها سند فعلى، وعليها أن تبحث عن هذا السند فى الأجناس الأخرى. الانفعالية الروائية لا تملك كلماتها الخاصة، بل عليها أن تستعير كلمات غريبة. الانفعالية الفعلية الانفعالية المادية الحقيقية هى الانفعالية الشعرية فقط.

الانفعالية الروائية تستعيد دائماً فى الرواية جنساً فقد فى شكله المباشر والخالص أرضيته الفعلية. الكلمة الانفعالية فى الرواية تكاد تكون دائماً بديلاً لجنس لم يعد وارداً بالنسبة للزمن الراهن ولقوة اجتماعية راهنة: إنها كلمة واعظ دون منبر، وقاض قاس دون سلطة قضائية وتأديبية، نبي دون رسالة، وسياسى دون قوة سياسية، ومؤمن دون كنيسة إلخ، والكلمة الانفعالية مرتبطة دائماً بمثل هذه التوجهات والمواقف التى لا يستطيع المؤلف أن يفهمها فى كل رصانتها وتماسكها، والتى عليه فى الوقت نفسه أن يستعيد لها اصطلاحاً بكلمته.

لقد التحمت كل الأشكال والوسائل الانفعالية للغة المفرداتية والنحوية والتأليفية بهذه التوجهات والمواقف المعينة، وهي كلها تتكافأ وقوة منظمة معينة، وتتضمن رسالة اجتماعية محددة ومتكاملة للمتكلم. فليس هناك لغة للانفعالية الفردية الخالصة للإنسان الذي يكتب الرواية: عليه أن يصعد المنبر رغماً عنه وأن يأخذ وضعه الواعظ ووضعه القاضي إلخ رغماً عنه. لا وجود للانفعالية دون تهديد ولعنات ووعود ومباركات إلخ^(١). في الكلام الانفعالي يستحيل القيام بخطوة واحدة ما لم تعز الكلمة لنفسها ادعاء قوة ما، منزلة ما، مرتبة ما إلخ. وفي هذا "لعنة" الكلمة الانفعالية المباشرة في الرواية. ولهذا السبب تخشى الانفعالية الحقيقة في الرواية (وفي الأدب عموماً) الكلمة الانفعالية المباشرة ولا تتفصل عن الموضوع - المادة.

لقد ولدت الكلمة الانفعالية وصوريتها وتكونتها في صورة الماضي السحيق وارتبطتا عضويًا بمقولة الماضي المقيمية الرتبوية. وليس هناك مكان لأشكال الانفعالية هذه في منطقة الاتصال الألفية بالعصر الراهن غير المكتمل، فهذه الانفعالية تؤدي بالضرورة إلى تخريب منطقة الاتصال (كما عند غوغول مثلاً). المطلوب هنا موقع مراتبي أعلى، وهذا الموقع غير ممكن في ظروف هذه المنطقة (ومن هنا الزيف والتكلف).

(١) إننا نتكلم هنا بطبيعة الحال عن الكلمة الانفعالية المرتبطة محاجياً وتقرظياً بالكلمة الغريبة وحسب، وليس عن انفعالية التصوير ذاته، عن الانفعالية الفعلية المادية الخالصة التي هي غنية ولا تحتاج إلى اصطلاحية خاصة.

إن الانفعالية التقريضية والمحاكية فى الرواية الباروكية تقترن عضوياً بالفكرة الباروكية الخاصة عن اختبار نصاعة البطل الفطرية والثابتة. ففى كل ما هو جوهري ليس هناك مسافة بين البطل والمؤلف، والكتلة اللفمية الأساسية للرواية تنتظم فى مستوى واحد. وهكذا فهى تترايط فى كل لحظاتها وبقدر واحد مع التنوع اللفمى دون أن تدخله فى قوامها بل تبقى خارج ذاتها.

إن رواية الباروكو توحد فى ذاتها تنوع الأجناس الدخيلة. كما تسعى إلى أن تكون موسوعة لكل أنواع لغة العصر الأدبية، وحتى إلى أن تكون موسوعة لكل العلوم والمعارف الممكنة (الفلسفية، التاريخية، السياسية، الجغرافية. إلخ). ويمكننا القول إن الرواية الباروكية تبلغ الحد الأقصى من الموسوعية التى يتصف بها الخط الأسلوبى الأول^(١).

أسفرت رواية الباروكو فى تطورها اللاحق عن فرعين (هما نفسهما فرعاً تطور الخط الأول كله): أحد هذين الفرعين يكمل اللحظة المغامراتية البطولية لرواية الباروكو (لويس، رد كليف، أوولبول وغيرهم)، والفرع الثانى هو رواية القرنين السابع عشر والثامن عشر الانفعالية السيكلوجية (الرسائلية أساساً لافاييت، روسو، ريتشاردسون وغيرهم). ولابد لنا من قول بضع كلمات فى هذه الرواية لأن أهميتها الأسلوبية فى التاريخ اللاحق للرواية كانت عظيمة.

(١) لاسيما فى الباروكو الألماني.

إن الرواية السيكولوجية العاطفية ترتبط منشئًا بالرسالة الدخيلة في رواية الباروكو، بالانفعالية الغرامية الرسائية. إلا أن هذه الانفعالية العاطفية لم تكن إلا لحظة واحدة من لحظات الانفعالية المحاجية التقريرية، ولحظة ثانوية إلى هذا.

وتتحول الكلمة الانفعالية في الرواية السيكولوجية العاطفية، فتصبح انفعالية حميمة وتتحد، إذ تفقد ما تتصف به رواية الباروكو من أبعاد سياسية وتاريخية واسعة، بالتعليمية الأخلاقية الحياتية المتكافئة مع دائرة الحياة العائلية والشخصية الضيقة. الانفعالية تصبح هنا حجرية^(١). واتصالًا بهذا تتغير العلاقات بين اللغة الروائية والتنوع الكلامي، إذ تصبح أضيق وأكثر عفوية، كما تصدر الأجناس الحياتية الخالصة - الرسالة، اليوميات الأحاديث اليومية العادية، وتصبح تعليمية هذه الانفعالية العاطفية مشخصة تغوص أكثر فأكثر في جزئيات الحياة اليومية وفي تفاصيل العلاقات الحميمة بين الناس وجزئيات الحياة الشخصية الداخلية.

وتنشأ منطقة انفعالية حجرية عاطفية متميزة من حيث المكان والزمان. إنها منطقة الرسالة، المذكرة اليومية. وتختلف منطقتا الاتصال والألفة ("القرب") الميدانية والحجرية؛ يختلف من وجهة النظر هذه القصر والبيت، الهيكل (الكاتدرائية) والكنيسة البروتستنتية البيتية. والأمر هنا ليس أمر مقاسات، بل أمر تنظيم خاص للمكان (ومن المناسب هنا عقد مقارنة بين فن العمارة وفن الرسم).

(١) ضيقة الأبعاد.

إن الرواية الانفعالية العاطفية ترتبط دائماً بتغير جوهري في اللغة الأدبية، أى بمعنى تقريبها من اللغة المحكية. لكن اللغة المحكية يتم ضبطها وتعيرها من وجهة نظر مقولة الأدبية، وتصبح اللغة الوحيدة للتعبير المباشر عن مقاصد المؤلف، وليس إحدى لغات التنوع الكلامي الموزعة هذه المقاصد توزيعاً أوركسترياً. إنها تضع نفسها في مواجهة التنوع الكلامي الحياتي الفج وغير المضبوط كما في مواجهة الأجناس الأدبية الرفيعة المتحجرة والاصطلاحية على إنها لغة الحياة والأدب الوحيدة والحقيقية المكافئة للنوايا الحقيقية وللتعبير الإنساني الحقيقي.

إن للحظة مواجهة اللغة الأدبية القديمة والأجناس الشعرية الرفيعة المناسبة لها والمحافظة عليها في الرواية العاطفية قيمة جوهريّة. فإلى جانب التنوع الكلامي الحياتي الفج والوضيع الواجب ضبطه وتبيله، ينهض في مواجهة العاطفية وكلمتها تنوع كلامي أدبي كاذب وشبه رفيع يجب تعريته ورفضه. لكن هذا التوجه نحو التنوع الكلامي محاجي، ذلك أن الأسلوب واللغة لا يدخلان في الرواية بل يبقيان خارجها بوصفهما خلفيتها التي تشيع الحوارية.

إن لحظات الأسلوب العاطفي الجوهريّة تتحد بالضبط بهذه المعارضة التي تواجه الانفعالية الرفيعة المشبعة للبطولة والمنمطة تتميضية مجردة. إن التفصيل في الوصف وتعتمد تقديم تفاصيل ثانوية، تافهة، حياتية يومية، واستهداف التصوير الحصول على انطباع مباشر من الموضوع، وانفعالية الضعف الأعزل وليس القوة البطولية،

والتضييق المقصود لأفق الإنسان وحقل اختباره حتى حدود العالم الصغيرة القريب (حتى حدود الحجرة)، هذا كله يتحدد بالمواجهة المحاجية مع الأسلوب الأدبي المرفوض.

إلا أن العاطفية تنشئ بدل هذه الاصطلاحية اصطلاحية أخرى هي أيضاً إنما خالصة من كل لحظات الواقع الأخرى. إلا أن الكلمة المنبلة بالانفعالية العاطفية والطامحة إلى الحلول محل الكلمة الحياتية الفجة تجد نفسها بالضرورة في نزاع حوارى مسدود مع تنوع الكلام الحياتى الفعلى، وفي سوء تفاهم حوارى غير قابل للحل كما سبق لكلمة "أماديس" المنبلة أن وجدت نفسها في مواقف وحوادث "دون كيخوت". إن الحوارية الأحادية الجانب الكامنة في الكلمة العاطفية تفعل في رواية الخط الأسلوبى الثانى حيث تكتسب الانفعالية العاطفية وقّع المحاكاة الساخرة بوصفها لغة بين لغات أخرى، بوصفها أحد الأطراف فى حوار اللغات القائم حول الإنسان والعالم^(١).

الكلمة الانفعالية المباشرة لم تمت طبعاً مع رواية الباروكو (الانفعالية البطولية وانفعالية الرعب) ومع العاطفية (انفعالية الشعور الحجرية)، بل ظلت تعيش بوصفها أحد الأنواع الجوهرية لكلمة

(١) نجد هذا بشكل أو بآخر عند فيلدينغ وسموليت وسيترن، وفي ألمانيا عند موزيوس، فيلند، مولر وغيرهم. أن كل هؤلاء الكتاب يقتفون في طرحهم قضية الانفعالية العاطفية (والتعليمية) فى علاقتها بالواقع أثر رواية "دون كيخوت" التى كان تأثيرها حاسماً. وعندنا يمكن مقارنة دور اللغة الريتشارسونية فى التوزيع الأوركسترالى للتنوع الكلامى فى "يفغينى أونيجين" (العجوز لارينا وتاتيانا ابنة الريف).

المؤلف المباشرة أى بوصفها كلمة تعبر عفويًا ومباشرة ودون مواردية عن مقاصد المؤلف. ظلت تعيش، لكنها لم تعد أساس الأسلوب فى أى نوع ذى شأن من أنواع الرواية. فحيثما ظهرت الكلمة الانفعالية المباشرة، كانت طبيعتها تظل ثابتة لا تتغير: المتكلم (المؤلف) يتخذ وضعة اصطلاحية: وضعة القاضى، الواعظ، المعلم إلخ أو تلجأ كلمته محاجيا إلى الانطباع المباشر المتولد عن الموضوع والحياة الذى لم تعكر صفاءه أى مقدمات أيديولوجية. هكذا تتحرك كلمة المؤلف المباشرة عند تولستوى بين هذين الحدين. إن خصائص هذه الكلمة محكومة دائمًا بالتنوع الكلامى (الأدبى والحياتى) الذى ترتبط به هذه الكلمة حواريا (محاجيا أو تعليميا)؛ وعلى سبيل المثال التصوير المباشر "العفوى" عنده هو تفريغ محاجى للقفاس والحرب والمأثرة الحربية وحتى الطبيعة من البطولة.

إن الذين ينفون فنية الرواية ويرجعون الكلمة الروائية إلى الكلمة البلاغية إنما المزينة خارجيا بصور شعرية كاذبة يقصدون فى المقام الأول الخط الأسلوبى الأول للرواية لأنها تبدو مبررة لتأكيداتهم خارجيا. ويجب الاعتراف بأن الكلمة الروائية فى هذا الخط لا تحقق كل مكاناتها الخاصة وكثيرا ما تتقلب (ولكن ليس دائما) إلى بلاغية فارغة أو شعرية كاذبة (إذ إن هذا الخط يسعى إلى بلوغ حده الأقصى). لكن الكلمة الروائية على الرغم من هذا كله ذات فريدة عميقة حتى هنا، فى الخط الأول، وتتميز جذريا عن الكلمة البلاغية والشعرية معًا. هذه الفريدة تحكمها العلاقة الحوارية الجوهرية بالتنوع

الكلامى. إن التفكك الاجتماعى للغة فى صيرورتها هى أساس الشكل الأسلوبى للكلمة بالنسبة للخط الأول أيضاً. ولغة الرواية تبنى فى تفاعل حوارى مستمر مع اللغات المحيطة بها.

والشعر أيضاً يجد اللغة مفككة خلال صيرورتها الأيديولوجية المستمرة، ويجدها منشطرة إلى لغات. إنه يجد لغته محاطة بلغات، بتنوع كلامى أدبى وخارج عن الأدب. لكن الشعر الذى يطمح إلى الحد الأقصى من الصفاء يعمل بلغته وكأنها اللغة الواحدة والوحيدة، وكأنما لا وجود لأى تنوع كلامى خارجها. كأنى بالشعر يقف فى وسط أرض لغته أن يقترب من حدودها حيث لا بد له من التماس حواريا مع التنوع الكلامى. إنه يحذر التطلع إلى ما وراء حدود لغته. وإذا كان الشعر يحور لغته فى عصور الأزمات اللغوية فإنه سرعان ما يقونن ويكرس لغته الجديدة بوصفها اللغة الواحدة والوحيدة وكأن لا وجود للغة أخرى سواها.

إن النثر الروائى للخط الأسلوبى الأول يقف على حدود لغته تماماً ويرتبط بالتنوع الكلامى المحيط ارتباطاً حواريا ويتجاوب مع لحظاته الجوهرية فهو يشارك بالتالى فى حوار اللغات. وهو (أى هذا النثر) موجه بحيث يدرك بالضبط على خلفية هذا التنوع الكلامى وبحيث لا يتكشف معناه الفنى إلا فى علاقته الحوارية بهذا التنوع الكلامى. وهذه الكلمة هى تعبير عن وعى لغوى أشاع فيه التنوعان الكلامى واللغوى نسبية عميقة.

إن اللغة الأدبية تملك في الرواية أداة لوعي تنوعيتها الكلامية. والتنوع الكلامي ذاته يصبح في الرواية وبفضل الرواية تنوعًا كلاميًا من أجل ذاته: اللغات فيه تترابط حوارياً وتأخذ في الوجود الواحدة لأجل الأخرى (تمامًا كأطراف الحوار). وبفضل الرواية تتبادل اللغات الإنارة وتصبح اللغة الأدبية حوار لغات تعرف إحداهما الأخرى وتفهمها.

إن روايات الخط الأسلوبى الأول تتجه إلى التنوع الكلامي من الأعلى إلى الأسفل، إنها تهبط إليه إن صح التعبير (وتشكل الرواية العاطفية هنا موضعًا خاصًا يقع بين التنوع الكلامي والأجناس الرفيعة). أما روايات الخط الثانى فتتجه على العكس - من الأسفل إلى الأعلى: إنها تصعد من أعماق التنوع الكلامي إلى الدوائر العليا للغة الأدبية وتستولى عليها. ونقطة الانطلاق هنا هي وجهة التنوع الكمى إلى أدبية اللغة.

من الصعب جدًا التحدث عن فرق منشئى حاد بين هذين الخطين لاسيما في المرحلة الأولى من تطورهما. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن أطر الخط الأول تقصر عن احتواء رواية الفروسية الشعرية الكلاسيكية احتواء كاملاً، وإلى أن "بارتسيفال" وولفرام مثلاً يعتبر دون أدنى ريب نموذجاً عظيماً لرواية الخط الثانى.

إلا أن الكلمة الثنائية الصوت أخذت تتشكل فى التاريخ اللاحق للنثر الأوروبى، كما تشكلت فى أرضية الأدب القديم، داخل الأجناس الملحمية الصغيرة (الفابليو، الشفانكى، أجناس المحاكاة الساخرة الصغيرة)، وبعيدًا عن الطريق الرئيسية لرواية الفروسية الرفيعة. هنا بالذات نشأت أنماط الكلمة الثنائية الصوت وأنواعها الأساسية التى أخذت فيما بعد تحكم أسلوب رواية الخط الثانى الكبيرة: الكلمة المحاكاتية الساخرة فى كل درجاتها وفروقاتها - الساخرة والفكاهية والسكازية إلخ...

هنا بالذات وفى نطاق ضيق - فى الأجناس الصغيرة الوضيعة، على مسارح المهرجين وفى ساحات المعارض وفى أغانى الشارع وفى نكاته أخذت طرق بناء صور اللغة، طرق قرن اللغة بصورة المتكلم، طرق عرض الكلمة عرضًا شئيًا مع الإنسان لا بوصفها كلمة لغة ذات دلالة عامة وفاقدة للشخصية، بل بوصفها كلمة مميزة أو نمطية من الناحية الاجتماعية تعود لإنسان معين، بوصفها كلمة قس أو فارس أو تاجر أو فلاح أو حقوقى إلخ. لكل كلمة صاحبها المفروض والمتحيز، ولا وجود لكلمات ذات دلالة عامة لا تعود "لأحد". هكذا تبدو فلسفة الكلمة فى القصة الطويلة (Nouvelle) الواقعية الهجائية الشعبية وغيرها من الأجناس الدنيا المحاكاتية الساخرة والتفريجية. زد على ذلك أن الإحساس باللغة القائم فى أساس هذه الأجناس مفعم بارتياح عميق جدًا، بعدم ثقة عميق جدًا فى الكلمة الإنسانية بما هى كذلك. المهم فى فهم الكلمة ليس معناها المادى والتعبيرى المباشر (فإن هذا إلا المظهر الكاذب للكلمة)، بل الاستخدام الفعلى، المغرض دائمًا

لهذا المعنى ولهذه التعبيرية من قبل المتكلم وهو استخدام محكوم بوضعه (مهنته، طبقته إلخ) وبموقفه الشخص. من يتكلم وفى أى ظروف يتكلم - هذا هو الذى يحدد المعنى الفعلى للكلمة. إن كل معنى مباشر وكل تعبيرية مباشرة (لاسيما الانفعاليان) كاذبان.

هنا يجرى التمهيد لتلك الريبة الجذرية فى تقويم الكلمة المباشرة وأى رصانة أخرى مباشرة التى تكاد تبلغ حد إنكار إمكانية وجود كلمة مباشرة غير كاذبة والتى ستجد تعبيرها الأعمق عند فيون ورايليه وسوربل وسكارون وغيرهم. وهنا أيضاً يجرى التمهيد لذلك النوع الحوارى الجديد من الرد الكلمى والفعال على الكذب الانفعالى الذى (النوع) قام بدور استثنائى فى تاريخ الرواية الأوروبية (وليس فى الرواية فقط) وهو مقولة الخداع المرح. إن ما يواجه به الكذب الانفعالى المتوافر فى لغة كل الأجناس الرفيعة والرسمية والمكرسة، فى لغة كل المهن والفئات والطبقات المعترف بها والمستقرة، ليس الحقيقة الانفعالية والمباشرة، إنما الخداع المرح والذى بوصفه كذبا مبرراً على الكاذبين. ففى مواجهة لغات الكهنة والرهبان والملوك والأسياذ والفرسان والأغنياء والعملاء ورجال القانون فى مواجهة لغات ذوى السلطان والنعمة على هذه الأرض، تنهض لغة المهرج المرح لتصور بمحاكاة ساخرة، وحيثما يقتضى الأمر، أى انفعالية، إنما بعد أن تحيدها وتدفعها عن شفتيه بابتسامة وخداع جاعلة الكذب محل سخرية ومحولة بذلك الكذب إلى خداع مرح. إن الكذب يُنار هنا بوعى ساخر ويحاكى ذاته محاكاة ساخرة على شفتى المهرج المرح.

وقد سبقت أشكال رواية الخط الثانى الكبيرة وبالتالي مهدت لها محاور أصلية من القصص الطويلة الهجائية والمحاكائية الساخرة. وليس بوسعنا التطرق هنا إلى موضوع هذه المحاور النثرية الروائية وإلى الاختلافات الجوهرية بينها وبين الشكل الملحمى ومختلف أنماط توحيد القصص الطويلة واللحظات الأخرى المشابهة التى تخرج عن حدود الأسلوبية.

وظهرت إلى جانب صورة المهرج ومندمجة فيها أحيانا كثيرة صورة الغنى التى هى إما صورة الإنسان الطيب فعلاً أو صورة قناع المهرج. وتقف إلى جانب الخداع المرح فى مواجهة الانفعالية الكاذبة سذاجة الإنسان الطيب التى لا تفهم هذه الانفعالية (أو تفهمها على نحو مشوه، مقلوب)، "وتغرّب" الواقع الرفيع لهذه الكلمة الانفعالية.

هذا التغريب النثرى لعالم الاصطلاحية الانفعالية من قبل الغباء غير الفاهم (من قبل البساطة، السذاجة) كان ذا شأن هائل فى تاريخ الرواية اللاحق. وإذا كانت صورة الغنى قد فقدت كصورة المهرج دورها الجوهرى المنظم فى التطور اللاحق لتاريخ الرواية، فإن لحظة عدم فهم الاصطلاحية الاجتماعية والأسماء والأشياء والأحداث الرفيعة الانفعالية ظلت على الدوام تقريباً عنصراً أساسياً فى الأسلوب النثرى. فالناثر إما أن يصور العالم بكلمات رواية غير فاهم لاصطلاحية هذا العالم، غير فاهم لأسمائه الشعرية والعلمية وغيرها من أسمائه الرفيعة والخطيرة، أو أن يدخل بطلاً لا يفهم هذا كله، أو أن يضمن أسلوب الكاتب المباشر عدم إدراك متعمداً (محاجياً) للتفسير العادى المألوف للعالم (كما عند تولستوى مثلاً). ومن الممكن بطبيعة الحال استخدام لحظة عدم الفهم والغباء النثرى فى الطرق الثلاث كلها فى آن واحد.

ويأخذ عدم الفهم طابعًا جوهريًا في بعض الأحيان ويصبح العامل الأساسى المشكل لأسلوب الرواية (كما هي حال "كنديد" لفولتير، أو كما عند ستيندال وتولستوى مثلاً)، لكن عدم فهم لغات معينة لمعانى الحياة يقتصر غالبًا على جوانب معينة من هذه الحياة. ذلكم هو بيلكن راوية على سبيل المثال: إن نثرية أسلوبه محكومة بعدم فهمه القيمة الشعرية لهذه أو تلك من لحظات الأحداث التى يتحدث عنها: إنه يغفل، إن صح القول، كل الإمكانيات والموثرات الشعرية ويعرض كل اللحظات الفنية شعريًا عرضًا جافًا مضغوطًا (عمدًا). ومثله الشاعر الرديء غرينيوف (وليس من قبيل المصادفة أنه يكتب أشعارًا رديئة). إن ما يتم إبرازه فى قصة مكسيم مكسيمتش (رواية "بطل من هذا الزمان") هو عدم فهم اللغة البيرونية والانفعالية البيرونية.

إن الجمع بين عدم الفهم والفهم، بين الغباء، البساطة، السذاجة والذكاء ظاهرة منتشرة ونموذجية جدًا فى النثر الروائى. ويمكن القول إن لحظة عدم الفهم والغباء (المقصود) يحكم على الدوام تقريبًا بدرجة أو بأخرى النثر الروائى للخط الأسلوبى الثانى.

إن الغباء (عدم الفهم) فى الرواية محاجى دائمًا ويرتبط دائمًا بالذكاء (الذكاء الرفيع الكاذب)، يساجله ويفضحه. إن الغباء كالخداع المرح وكالمقولات الروائية الأخرى كلها مقولة حوارية تنتج عن الحوارية الخاصة للكلمة الروائية. ولهذا السبب الغباء (عدم الفهم) فى الرواية مرتبط دائمًا باللغة، بالكلمة: ففى أساسه دائمًا يقوم عدم فهم محاجى لكلمة الغير ولكذبه الانفعالى الذى يلف العالم ويدعى تفسيره،

عدم فهم محاجى للغات المعترف بها والمكرسة الكذبية صراحة بأسمائها الرفيعة التى تطلقها على الأشياء والأحداث: عدم فهم اللغة الشعرية، اللغة العلمية الدعية، اللغة الدينية، السياسية، الحقوقية إلخ. ومن هنا تتوَعُ المواقف الحوارية الروائية أو التقابلات الروائية: الغبى والشاعر، الغبى ودعى العلم، الغبى والواعظ الأخلاقى، الغبى والقس أو المنافق، الغبى ورجل القانون (الغبى الذى لا يفهم عندما يكون فى محكمة، فى مسرح، فى اجتماع علمى إلخ)، الغبى والسياسى إلخ. وقد استخدم تنوع هذا المواقف استخداما واسعا فى "دون كىخوت" (خصوصًا ولاية سانتشو التى وفرت تربة خصبة لتطوير هذه المواقف الحوارية)، واستخدمه تولستوى على ما بين الأسلوبين من اختلاف: وضع الإنسان غير الفاهم فى مختلف المواقف والمؤسسات، ومثال ذلك بيير فى المعركة، ليفين فى انتخابات الأعيان، وفى اجتماع دوما (مجلس) المدينة، فى حديث كوزنتشيف مع أستاذ الفلسفة، وفى حديثه مع العالم الاقتصادى إلخ، نىخلودوف فى المحكمة، فى مجلس الشيوخ إلخ. إن تولستوى هنا يستعيد المواقف الروائية التقليدية.

إن الغبى الذى يصوره الكاتب والذى يغرب عالم الاصطلاحية الانفعالية يمكن أن يكون هو نفسه موضوع سخرية الكاتب بصفته غيبًا. فالمؤلف لا يتضامن معه تضامناً كاملاً بالضرورة. وقد تقفز لحظة السخرية من الأغبياء أنفسهم إلى مركز الصدارة أحياناً. لكن الغبى لازم للمؤلف: فهو بمجرد حضوره غير الفاهم ذاته يغرب عالم الاصطلاحية الاجتماعية: إن الرواية تتعلم الذكاء النثرى والحكمة

النثرية وهى تصور الغباء. إن عين الروائى، وهى تنظر إلى الغبى أو تنظر إلى العالم بعينى الغبى، تتعلم رؤية العالم الملفوف بالاصطلاحية الانفعالية وبالكذب رؤية نثرية. إن عدم فهم اللغات المتعارف عليها التى تبدو ذات دلالة شاملة يعلمنا الإحساس بشيئيتها ونسبيتها، ومظهرتها خارجيًا وتلمس سطوحها، أى يعلمنا كشف صور اللغات الاجتماعية وبناءها.

إننا نضرب صفحًا هنا عن الأنواع المتنوعة للغبى ولعدم الفهم التى نشأت خلال عملية التطور التاريخى للرواية، إذ إن كل رواية وكل اتجاه فنى كان يبرز شكلاً أو آخر من أشكال الغباء أو عدم الفهم ويبنى تبعًا لذلك صورته الخاصة عن الغبى (مثال ذلك سذاجة الطفولة عند الرومنطيقين، والغريبو الأطوار عند جان بول). ومتنوعة أيضًا اللغات المغرّبة المقابلة لأوجه الغباء وعدم الفهم، كما هى متنوعة وظائف الغباء وعدم الفهم فى الجسم الكلى للرواية. إن دراسة أوجه الغباء وعدم الفهم هذه وما يتصل بها من تنوعيات أسلوبية وتأليفية فى تطورها التاريخى مهمة جوهرية جدًا وخطيرة وعلى تاريخ الرواية النهوض بها.

خداع النصاب المرح الذى هو كذب مبرر على الكذابين، والغباء الذى هو عدم فهم مبرر للكذب نلكما هما الردان النثريان على الانفعالية الرفيعة وعلى أى رصانة واصطلاحية. وتتصب بين النصاب والغبى صورة المهرج بوصفها تأليفاً أصيلاً بينهما. المهرج هو نصاب يضع قناع الغبى كيما يعلل بعدم الفهم تشويهه وخطئه

الفاضحين (المعريين) للغات والأسماء الرفيعة. المهرج واحدة من أقدم صور الأدب وكلام المهرج يحدده وضعه الاجتماعي الخاص (امتيازات المهرج) واحد من أقدم أشكال الكلمة الإنسانية فى الفن. ووظائف المهرج الإسلوبية كوظائف النصاب والغبى، محكومة كليًا بالمواقف من التنوع الكلامى (فى طبقاته الرفيعة): المهرج هو ذلك الذى يملك حق التحدث بلغات غير متعرف بها وتشويه اللغات المعترف بها عن خبث.

وهكذا فخداع النصاب المرح المحاكى للغات الرفيعة محاكاة ساخرة، وتشويهها الخبيث وقلبها على قفاها من قبل المهرج وأخيرًا عدم فهمها الساذج من قبل الغبى - هذه المقولات الحوارية الثلاث المنظمة للتنوع الكلامى فى الرواية فى فجر تاريخها تظهر فى عصرنا الراهن بوضوح خارجى فريد وتتجسد فى صور النصاب والمهرج والغبى الرمزية. كانت هذه المقولات خلال تطورها اللاحق تتحدد بدقة أكبر وتتمايز وتتخلى عن هذه الصور الخارجية والجامدة رمزيًا، لكنها استمرت تحتفظ إلى هذا بمعناها المنظم للأسلوب الروائى. فهذه المقولات هى التى تحكم فرادة الحوارات اللغوية الضاربة بجذورها دائمًا فى عمق الحوارية الداخلية للغة ذاتها، أى فى عدم التفاهم بين المتكلمين بلغات مختلفة. أما بالنسبة إلى تنظيم الحوارات الدرامية فهذه المقولات، على العكس، لا يمكن أن تكون لها إلا قيمة ثانوية، إذ إنها تفتقد إلى لحظة الاكتمال الدرامى. النصاب والمهرج والغبى هم أبطال نسق لا يمكنه الاكتمال من المشاهد المغامراتية الروائية ومن

المواجهات الحوارية غير القابلة بدورها للاكتمال. ولهذا بالذات بالإمكان محورة هذه القصص محورة نثرية على شكل سلسلة حول هذه الصور، ولهذا بالذات أيضًا فهي غير لازمة للدراما. ذلك أن الدراما الخالصة تطمح إلى اللغة الواحدة التي لا تكتسب طابعًا فرديًا إلا بواسطة الشخصيات الدراميين. ذلك أن الحوار الدرامي يتحدد بصدام الأفراد في نطاق العالم الواحد واللغة الواحدة^(١) والملهاة استثناء إلى حد ما. ومع هذا فمما له دلالاته أن ملهاة النصب لم تبلغ من التطور ما بلغته رواية النصب. وصورة فيغارو هي في الواقع الصورة العظيمة الوحيدة لمثل هذه الملهاة^(٢).

إن المقولات الثلاث التي استعرضناها ذات أهمية من الدرجة الأولى لفهم الأسلوب الروائي. لقد صنع النصاب والمهرج والغبي مهد رواية العصر الحديث الأوروبية وتركوا بين قماطه طاقيتهم ذات الشخصية. ولمقولاتنا الثلاث هذه، إلى ذلك، أهمية لا تقل عما سبق خطورة لفهم الجذور ما قبل التاريخية للتفكير النثري ولفهم علاقاته بالفولكلور.

(١) إننا نتكلم هنا بطبيعة الحال عن الدراما الكلاسيكية الخالصة بوصفها تعبر عن الحد المثالي للجنس. أما الدراما الاجتماعية الواقعية الحديثة فيمكنها بالطبع أن تكون ذات تنوع كلامي ولغوي.

(٢) نحن لا نتطرق هنا إلى مسألة تأثير الملهاة في الرواية وإلى النشوء المحتمل لبعض أنماط النصاب والمهرج والغبي من الملهاة. ومهما يكن من شأن هذه الأنماط فإن وظائفها في الرواية تتغير، كما إنها تبدو في ظروف الرواية إمكانات جديدة تمامًا لهذه الصور.

لقد حددت صورة النصاب الشكل الكبير الأول لرواية الخط
الثانى أى رواية المغامرة النصيبية.

ولا يمكن فهم بطل هذه الرواية وكلمته فى فرادتهما إلا على
خلفية رواية الفروسية الاختبارية الرفيعة والأجناس البلاغية الخارجية
عن نطاق الأدب (أجناس السيرة والاعترافات والوعظ وغيرها)، ثم
على خلفية رواية الباروكو. وعلى هذه الخلفية فقط يمكن أن نتبين بكل
جلاء الجدة والعمق الجذريين لمفهوم البطل وكلمته فى رواية النصب.

البطل، حامل الخداع المرح، يوضع هنا بعيدًا عن أى انفعالية
بطولية أو عاطفية ويوضع بشكل مقصود ومبالغ فيه، وطبيعته المضادة
للانفعالية مكشوفة فى كل مكان، بدءًا من المطلع - من تقديمه نفسه
إلى الجمهور، هذا التقديم الذى يؤثر تأثيرًا حاسمًا فى مجرى القصة
وانتهاءً بالخاتمة. البطل يوضع خارج كل تلك المقولات البلاغية أساسًا
التي تؤسس عادة لصورة البطل فى رواية الاختبار: خارج أى حكم،
أى دفاع أو اتهام، أى تبرير للذات أو توبة. الكلمة عن الإنسان تعطى
هنا نغمة جديدة جذريًا خالية من أى رصانة انفعالية.

إلا أن هذه المقولات الانفعالية حددت صورة البطولة تحديدًا
كاملاً فى رواية الاختبار كما قلنا وصورة الإنسان فى معظم الأجناس
البلاغية: فى السير (التمجيد، التقريظ) وفى السير الذاتية (تمجيد الذات
وتبرير الذات) وفى الاعترافات (الندم، التوبة)، وفى الخطابة القضائية
والسياسية (الدفاع - الاتهام)، وفى الهجاء البلاغى (الفضح الانفعالى)

وغيرها. إن تنظيم صورة الإنسان واختبار صفاته والربط بينها وطرق ربط التصرفات والأحداث بصورة البطل تتحدد كاملاً إما بالدفاع عنه، بتقريبه، بتمجيده أو على العكس باتهامه، بفضحه إلخ. وتقوم فى أساس هذا كله فكرة معيارية وجامدة عن الإنسان تنفى عنه إمكانية أى تغير جوهري، ولهذا السبب فالبطل هنا يقوم إما تقويماً إيجابياً حتى النهاية أو سلبياً حتى النهاية. زد على ذلك أن ما يهيمن على أساس مفهوم الإنسان للذى يحكم بطل الرواية السفسطائية والسيرة والسيرة الذاتية اليونانيتين واللاتينيتين ثم رواية الفروسية فرواية الاختبار والأجناس البلاغية المتصلة بها هو المقولات القانونية البلاغية. إن وحدة الإنسان ووحدة تصرفاته (فعله) تحملان طابعاً حقوقياً بلاغياً، ولهذا السبب تبدو أن خارجيتين وشكليتين من وجهة نظر المفهوم السيكولوجى المتأخر للشخصية. وليس من قبيل المصادفة أن تكون الرواية السفسطائية قد ولدت من التخيل الحقوقي المنفصل عن حياة الخطيب الحقوقي والسياسية. وكان التحليل والتصوير البلاغيان "للجريمة"، "والفضل" و"المأثرة" وسلامة الرأى السياسى إلخ يحددان المخطط التقريبى لتحليل وتصوير السلوك الإنسانى فى الرواية. وهذه الصورة التقريبية كانت تحدد وحدة الفعل وتصنيفه القطعى. مثل هذه الصور التقريبية كانت تقوم فى أساس تصوير الشخصية.. ثم كانت المادة المغامراتية الشهوية والسيكولوجية (البدائية) تتوضع حول هذه النواة البلاغية الحقوقية.

صحيح أنه وجدت إلى جانب هذه المقاربة البلاغية الخارجية لوحدة الشخصية الإنسانية وسلوكها مقاربة أخرى للذات، اعترافية "تأدمة"، كان لها هي أيضًا مخططها المبسط في بناء صورة الإنسان وسلوكه (منذ أيام أوغسطين)، لكن تأثير فكرة الاعتراف لدى الإنسان الداخلي هذه (وبناء صورة هذا الإنسان بالتوافق مع هذه الفكرة) لم يكن ذا شأن في رواية الفروسية وفي رواية الباروكو، ولم يعظم شأنه إلا في وقت متأخر، في العصر الحديث.

على هذه الخلفية يبرز بوضوح في المقام الأول العمل السلبي لرواية النصاب: أي تهديم وحدة الشخصية والفعل والحدث. من هو النصاب؟ من هو لاساريليو أو جيل بلاس أو غيرهما؟ أهو نصاب أم إنسان شريف، أهو شرير أم طيب، جبان أم شجاع؟ هل يمكننا التحدث عن أفضال أو جرائم أو مآثر تكون وتحدد صورته؟ إنه خارج الدفاع والالتهام، خارج التمجيد أو الفضح، إنه لا يعرف الندم ولا تبرير الذات إنه لا يرتبط بأي معيار وبأي مطلب أو مثل أعلى، إنه ليس واحدًا وليس متماسكًا من وجهة نظر الوحدات البلاغية المتوفرة لقياس الشخصية. كأن الإنسان هنا يتحرر من كل قيود هذه الوحدات الاصطلاحية، فهو لا يتحدد ولا يكتمل فيها، بل يسخر منها.

هنا تسقط كل الصلات بين الإنسان وسلوكه، بين الحدث والمشاركين فيه. وتتكشف قطيعة حادة بين الإنسان ووضعه الخارجي - مقامه، كرامته، فئته الاجتماعية. حول النصاب كل الأوضاع الرموز الرفيعة، الروحية كما الدنيوية، التي كان الإنسان يرتديها بوقار وبكذب

مناقق تتحول إلى أقنعة، إلى ألبسة تتكرية، إلى أدوات تمثيل. فى جو الخداع المرح يتم تحويل وتخفيف كل هذه الرموز والأوضاع الرفيعة، تجرى إعادة تنبير جذرية لها.

وإلى إعادة تنبير جذرية كهذه تتعرض، كما قلنا، اللغات الرفيعة التى التحمت بأوضاع معينة للإنسان.

إن كلمة الراوية ككلمة بطل هذه الرواية لا تكبل ذاتها بأى من الوحدات النبوية المتوفرة، إنها تفضل، حتى حين تحاكي بسخرية أو تضحك، البقاء كأنما دون أى نبرة، كلمة إخبارية جافة.

إن بطل رواية النصب يقابل بطل رواية الاختبار والإغراء، إنه لا يخلص لشيء ويخون كل شيء، إلا أنه فى هذا كله صادق مع نفسه، صادق مع طبيعته الخالية من الانفعالية والمتشككة. وهنا يأخذ فى النضوج مفهوم جديد للشخصية الإنسانية، مفهوم ليس بلاغياً بل "اعترافى"، ما زال يتلمس كلمته ويعد لها تربتها. إن رواية النصاب لما توزع مقاصدها توزيعاً أوركسترياً بالمعنى الدقيق للكلمة، لكنها تعمل على الإعداد لهذا التوزيع إعداداً جوهرياً بتخليصها الكلمة من الانفعالية الثقيلة المرهقة لها ومن كل النبرات الميتة والكاذبة وبتخفيف الكلمة بل بتفريغها إلى حد ما. ومن هنا أهمية هذه الرواية إلى جانب قصة النصب الطويلة الهجائية والمحاكائية، وإلى جانب الملحمة المحاكائية وما يرتبط بها كلمة من محورة مناسبة للقصص حول صورة المهرج والغبى.

هذا كله مهّد السبيل أمام نماذج الخط الثانى الروائية العظيمة كدون كيخوت مثلاً. ففي هذه الأعمال المفصلية العظيمة يصبح الجنس الروائى ما هو بالفعل، ويكشف كل إمكاناته. هنا تتضح تماماً الصور الروائية الثنائية الصوت الحقيقية الفريدة فى اختلافها العميق عن الرموز الشعرية وتبلغ أوسع مداها. فإذا كان الوجه المشوه بالكذب الانفعالى فى نثر النصاب والمهرج المحاكاتى فى جو الخداع المرح والمريخ يتحول إلى نصف قناع فنى ومكشوف، فنصف القناع هذا يخلى مكانه هنا إلى صورة نثرية فنية حقيقية للوجه. اللغات هنا تكف عن أن تكون مجرد موضوع محاكاة ساخرة محاجية خالصة أو محاكاة ساخرة لذاتها، بل تأخذ فى أداء وظيفة التصوير الفنى، التصوير الحقيقى. وتتعلم الرواية استخدام كل اللغات والطرق والأجناس، وتجبر كل العوالم التى مضى زمنها وشاخت، وكل العوالم الغريبة والبعيدة اجتماعياً وأيديولوجياً على التكلم عن نفسها (العوالم) بلغتها هى وبأسلوبها هى. لكن المؤلف يعلى (يبنى) فوق هذه اللغات مقاصده ونبراته المقترنة حوارياً بهذه اللغات. إن المؤلف يضمن صورة اللغة الغريبة فكره دون لوى لرقبة هذه اللغة أو لفرديتها. إن كلمة البطل عن نفسه وعن عالمه تندمج عضوياً ومن الداخل بكلمة المؤلف عنه وعن عالمه. وفى مثل هذا الاندماج الداخلى لوجهتى النظر وللمقصدتين وللتعبيرين فى كلمة واحدة تكتسب محاكياتها الساخرة طابعاً خاصاً: إذ تبدى اللغة. المحاكاة مقاومة حوارية حية للمقاصد الغريبة المحاكية: ويأخذ يتردد فى الصورة ذاتها حديث غير مكتمل؛ وتصبح الصورة

تفاعلاً حياً مكشوفاً بين عوالم ووجهات نظر ونبرات. ومن هنا إمكان تغيير نبرة صورة كهذه، وإمكان وجود مواقف مختلفة من النقاش المتردد داخل الصورة، واتخاذ مواقع مختلفة في هذا النقاش، وبالتالي إمكان تفسيرات مختلفة للصورة نفسها. الصورة تصبح متعددة الدلالات كالرمز. هكذا تنشأ الصور الروائية الخالدة التي تعيش في العصور المختلفة حياة مختلفة. هكذا على سبيل المثال أعيد تنبير صورة دون كيخوت بأشكال مختلفة وفسرت تفسيرات مختلفة خلال تاريخها اللاحق، إلا أن هذه التبريرات والتفسيرات المختلفة كانت استمراراً ضرورياً وعضوياً لتطور هذه الصورة واستكمالاً للنقاش غير المكتمل الكامن فيها.

وترتبط هذه الحوارية الداخلية للصور بالحوارية العامة للتنوع الكلامي كله في النماذج الكلاسيكية لراوية الخط الثانى. هنا تتفتح وتتفعل طبيعة التنوع الكلامي الحوارية، وترتبط اللغات إحداها بالأخرى وتنيرها^(١). إن كل مقاصد المؤلف الجوهرية توزع أوركسترا ليا وتنعكس من زوايا مختلفة عبر لغات التنوع الكلامي للعصر. اللحظات الثانوية، الإخبارية الخالصة التي لها صبغة الملاحظة هي وحدها التي تعطى من خلال كلمة المؤلف المباشرة. إن لغة الروائية تصبح نظام لغات منظماً فنياً.

(١) قلنا سابقاً إن الحوارية المحتملة للغة. الخط الأول المنبلة، إن محاجيتها مع التنوع الكلامي الفج تفعل هنا.

واستكمالاً لما عرضناه من فروق بين روايتي الخطين الأول والثاني وبغية المزيد من الدقة سنتوقف أيضاً عند لحظتين تبيينان الاختلاف في موقف كل من الخطين الأسلوبيين من التنوع الكلامي.

كانت روايات الخط الأول كما رأينا تدخل تنوع الأجناس الحياتية المعيشية ونصف الأدبية لإخراج التنوع الكلامي الفج من هذه الأجناس وإحلال لغة "منبلة" رتيبة محله. فلم تكن الرواية بذلك موسوعة لغات بل أجناس. صحيح أن هذه الأجناس كانت تعطى كلها على خلفية تشيع فيها الحوارية هي خلفية لغات التنوع الكلامي المناسبة، المرفوضة أو المنقاة "المطهرة" محاجياً، إلا أن خلفية التنوع الكلامي هذه كانت تبقى خارج الرواية.

كما نلاحظ في الخط الثاني أيضاً نفس الطموح إلى الموسوعية الجنسية (وإن لم يكن بنفس الدرجة). حسبنا ذكر رواية "دون كيخوت" الغنية جداً بالأجناس الدخيلة. إلا أن وظيفة الأجناس الدخيلة في روايات الخط الثاني تتغير تغيراً حاداً. فهي هنا مسخرة للهدف الأساسي وهو إدخال التنوع الكلامي وتنوع لغات العصر في الرواية. فإدخال الأجناس الخارجة عن الأدب (كالمعيشية مثلاً) لا يتم بهدف إسباغ النبل أو الصفة الأدبية عليها، إنما، على الضبط، لصفقتها الخارجة عن الأدب، إمكان إدخال لغة غير أدبية (أو حتى لهجة) في الرواية. إن تعددية لغات العصر يجب أن تمثل في الرواية.

وعلى أرضية رواية الخط الثانى أخذ يصاغ ذلك المطلب الذى كثيراً ما أعلن فيما بعد أنه مطلب تكوينى للجنس الروائى (بخلاف الأجناس الملحمية الأخرى)، ثم عبّر عنه على النحو التالى: على الراوية أن تكون انعكاساً كاملاً ومتكاملاً للعصر.

هذا المطلب تجب صياغته على نحو آخر: يجب أن تمثل فى الراوية أصوات العصر الاجتماعية الأيديولوجية كلها، أى كل لغات العصر الجوهرية إلى حد ما، على الرواية أن تكون مجهر التنوع الكلامى.

فى هذه الصيغة يصبح هذا المطلب محايثاً بالفعل لفكرة الجنس الروائى التى حددت التطور الخلاق لأهم نوع من أنواع رواية العصر الحديث الكبيرة بدءاً من "دون كيخوت". فهذا المطلب يكتسب معنى جديداً فى رواية التربية، حيث فكرة الصيرورة المصطفية للإنسان وتطوره تقتضى بذاتها تصويراً واسعاً جداً لعوالم العصر الاجتماعية وأصواته ولغاته التى تتم فيها صيرورة البطل المصطفية والمجربّة. لكن ليست رواية التربية وحدها التى تطالب عن حق بهذه السعة (التي لا تدع زيادة لمستزيد) فى تصوير اللغات الاجتماعية بطبيعة الحال، بل أن هذا المطلب يمكن أن يقترن عضويّاً بتوجهات ومطالب أخرى متنوعة جداً. وعلى سبيل المثال روايات أى. سو تنزع إلى تصوير العوالم الاجتماعية تصويراً كاملاً وتاماً.

يقوم فى أساس مطالبة الرواية بالتصوير الشامل للغات العصر الاجتماعية فهم صحيح لماهية التنوع الكلامى الروائى. فكل لغة لا تتكشف فى فرادتها إلا إذا قرنت بكل اللغات الأخرى التى تدخل فى نفس الوحدة المتناقضة للصيرورة الاجتماعية. إن كل لغة فى الرواية هى وجهة نظر، هى أفق اجتماعى أيديولوجى لمجموعات اجتماعية فعالية وممثليها المجسدين. ومادامت اللغة لا تحس بذاتها أفقا اجتماعيا أيديولوجيا فريذا، فإنه لا يمكنها أن تكون مادة توزيع أوركسترالى، لا يمكنها أن تصبح صورة لغة. ومن ناحية أخرى، كل وجهة نظر جوهرية بالنسبة إلى الرواية يجب أن تكون وجهة نظر مشخصة، مجسدة اجتماعيا، لا أن تكون موقفا معنويا مجردا خالصا، وبالتالي يجب أن تكون لها لغتها الخاصة التى تتحد بها اتحادا عضويا. الرواية لا تبني على اختلافات معنوية مجردة ولا على صدمات خالصة فى الحدث، بل على تناقض اجتماعى مشخص. ولهذا السبب فذلك الحد الأقصى من الامتلاء فى تصوير وجهات النظر المجسدة الذى تسعى إليه الرواية ليس حدا أقصى منطقيا منتظما، ليس حدا أقصى معنويا خالصا فى تصوير وجهات النظر المحتملة، لا، بل إنه اشتمال مشخص وتاريخى على اللغات الاجتماعية. الأيديولوجية الفعلية الداخلة فى تفاعل فى عصر ما والمنتمية إلى وحدة متناقضة واحدة فى طور التكوّن والصيرورة. إن كل لغة تأخذ تتردد على الخلفية المشيعة للحوارية التى للغات العصر الأخرى وفى تفاعل حوارى مباشر معها (فى الحوارات المباشرة) على نحو غير الذى كانت تتردد عليه فيما لو

كانت "فى ذاتها" إن صح التعبير (أى دون علاقتها باللغات الأخرى). فاللغات المختلفة وأدوارها ومعناها التاريخى الفعلى لا تتكشف تمامًا وحتى النهاية إلا فى كلية التنوع الكلامى للعصر، تمامًا كما لا يتكشف المعنى النهائى، الأخير لرد ما فى حوار إلا حين ينتهى الحوار، إلا حين يقول كل الأطراف ما لديهم، أى فى سياق حديث كامل فقط. هكذا لغة "أداميس" على شفاه دون كيخوت لا تكشف ذاتها وملء معناها التاريخى حتى النهاية إلا فى كلية حوار اللغات فى عصر سرفنتس.

ولننتقل إلى اللحظة الثانية التى تبين الفرق بين الخطين الأول والثانى. إن رواية الخط الثانى تطرح فى مقابل مقولة الأدبية نقد الكلمة الأدبية بما هى كذلك، والكلمة الروائية قبل غيرها. والنقد الذاتى للكلمة هذا هو خصيصة الجنس الروائى الجوهرية. إن الكلمة تنقد من حيث علاقتها بالواقع: من حيث ادعائها عكس الواقع عكسا أميناً، وتوجيهه الواقع وإعادة بنائه (الدعاوى الطوباوية للكلمة)، والحلول محل الواقع بوصفها بديله (الحلم، التخيل القائم مقام الحياة). حتى إننا نجد فى "دون كيخوت" اختبار الكلمة الروائية الأدبية بالحياة، بالواقع. وبقيت رواية الخط الثانى فى تطورهما اللاحق رواية اختبار الكلمة الأدبية إلى حد ما، إلا أننا نلاحظ نمطين من هذا الاختبار.

النمط الأول يركز نقد الكلمة الأدبية واختبارها حول البطل – "الإنسان الأدبى" الذى ينظر إلى الحياة بعينى الأدب ويحاول أن يحيا "حسب الأدب" ودون كيخوت ومدام بوفارى أشهر نماذج هذا النمط. إلا أن "الإنسان الأدبى" واختبار الكلمة الأدبية المرتبط به موجودان فى كل

رواية كبيرة تقريبًا - هذه هي بقدر أو بآخر حال كل أبطال بلزاك ودوستويفسكى وتورغنيف وغيرهم. الشيء المختلف فقط هو وزن هذه اللحظة فى كلية الرواية.

أما النمط الثانى من الاختبار فيدخل المؤلف الذى يكتب الرواية ("كشف الطريقة" حسب مصطلحات الشكليين) إنما ليس بصفة بطل، بل بصفة المؤلف الفعلى لهذا العمل. فإلى جانب الرواية المباشرة تعطى مقاطع من "رواية عن الرواية" (والنموذج الكلاسيكى لهذا النمط هو "تريسترام شندى" بطبيعة الحال).

وبالإضافة إلى ذلك يمكن لكلا النمطين من اختبار الكلمة الأدبية أن يجتمعا ويتحدا. وكذا نجد حتى فى "دون كيخوت" عناصر رواية عن الرواية (المسجلة بين المؤلف ومؤلف الجزء الثانى المزور). ثم يمكن لأشكال اختبار الكلمة الأدبية أن تكون جد مختلفة (وأنواع النمط الثانى متباينة بنوع خاص). وأخيرًا لابد من التنويه تنويهًا خاصًا باختلاف درجة محاكاة الكلمة الفنية المختبرة. فالقاعدة أن اختبار الكلمة يقترب بمحاكاتها الساخرة، لكن درجة المحاكاة الساخرة وكذلك درجة قدرة الكلمة المحاكاة على المقاومة الحوارية يمكن أن تختلف اختلافًا كبيرًا: من المحاكاة الأدبية الخارجية والفتحة (التي هى غاية ذاتها) وحتى التضامن شبه الكامل مع الكلمة المحاكاة ("السخرية الرومنطيقية") وفى موقع وسط بين هذين الحدين الأقصيين، أى بين المحاكاة الأدبية الخارجية وبين "السخرية الرومنطيقية"، نجد رواية "دون كيخوت" بكلمتها المحاكية ذات الحوارية العميقة إنما الموازنة

بحكمة. ويمكن، استثناءً، اختبار الكلمة الأدبية فى الرواية دون أى أثر للمحاكاة والمثال الحديث المثير للاهتمام هو رواية و. برشفين "وطن الغرائيق". فالنقد الذاتى للكلمة الأدبية هنا (رواية عن الرواية) يتحول إلى رواية فلسفية عن الإبداع تخلص من أى محاكاة ساخرة.

وهكذا تخلص مقولة الأدبية فى الخط الأول بدعواها الدوغماتية عن دورها الحيوى المكان لاختبار الكلمة الأدبية ونقدها الذاتى فى روايات الخط الثانى.

ومع مطلع القرن التاسع عشر ينتهى التعارض الحاد بين خطى الرواية الأسلوبيين: بين أماديس من جهة وغرغنتوا وبنترويل ودون كيخوت من جهة أخرى؛ بين رواية الباروكو الرفيعة ورواية "البسيط جدًا" (Simplissimus) وروايات سوريل وسكارون من ناحية أخرى؛ بين رواية الفروسية من جهة وملحمة المحاكاة الساخرة والقصة الهجائية ورواية النصب من ناحية أخرى؛ بين روسو وريتشاردسون من ناحية وفيلدنغ وستيرن وجان بول وغيرهم من ناحية أخرى. يمكننا بالطبع أن نتبع حتى يومنا هذا تطورًا خالصًا إلى حد ما لكل من الخطين، لكن هذا التطور يجرى بعيدًا عن الطريق الأساسى للرواية الجديدة. فكل أنواع رواية القرنين التاسع عشر والعشرين التى تتطوى على قيمة ما تحمل طابعًا مختلطًا، وإن كان الخط الثانى هو المهيمن فيها طبعًا. ومما له دلالة أن الخط الثانى إياه يهيمن أسلوبيًا حتى فى رواية الاختبار الخالصة التى تعود إلى القرن إن سمات الخط الثانى تصبح مع مطلع القرن التاسع عشر السمات الأساسية المكونة للجنس

الروائي عامة. فالكلمة الروائية أظهرت إمكاناتها الخاصة بهـ' دون سواها في الخط الثاني تحديدًا. والخط الثاني هو الذي كشف مرة ولكل مرة الإمكانات الكامنة في الجنس الروائي. وفيه أصبحت الرواية ما هي عليه.

فما هي المقدمات السوسولوجية لكلمة الخط الأسلوبى الثانى الروائية؟ لقد نشأت الرواية حين وجدت أفضل الشروط لتفاعل اللغات والإنارة المتبادلة بينها، لتحول التنوع الكلامى من "الوجود فى ذاته" (حين لا تعرف اللغات إحداها الأخرى أو حين تستطيع إحداها تجاهل الأخرى) إلى "وجوده لذاته" (حين تتكشف لغات التنوع الكلامى إحداها للأخرى وتضحى إحداها الخلفية المشيعة للحوارية بالنسبة إلى الأخرى). إن لغات التنوع الكلامى كالمرايا الموجهة إحداها إلى الأخرى التى تعكس كلً بطريقتها قطعة، زاوية صغيرة من العالم، تجعلنا نخمن ونرى تخلف أشكالها المتبادلة الانعكاس عالمًا أوسع مستويات وآفاق أكثر مما تستطيع لغة واحدة، مرآة واحدة أن ترينا.

إن عصر الاكتشافات الفلكية والرياضيات والجغرافية الكبرى التى حطمت محدودية العالم القديم وانغلاقه، محدودية القيمة الرياضية، ووسعت حدود العالم الجغرافى القديم، إن عصر الانبعاث والبروتستنتية اللذين حطما مركزية القرون الوسطى الأيديولوجية الكلمية، إن عصرًا كهذا لم يكن ليناسبه إلا وعى لغوى غاليلئى، وعى جسد ذاته فى كلمة الخط الأسلوبى الثانى الروائية.

وختامًا لا بد لنا من إيراد بعض الملاحظات المنهجية.

إن عجز الأسلوبية التقليدية التي لا تعرف وعيًا لغويًا بطليموسيا أمام فرادة النثر الروائي الحقيقية، وعدم صلاحية المقولات الأسلوبية التقليدية التي تستند إلى وحدة اللغة وإلى القصدية المتساوية المباشرة لكل مقومات هذه اللغة للتطبيق على هذا النثر، وتجاهل القيمة المؤسسية الهائلة التي للكلمة الغريبة والتي لوضع الكلام غير المباشر، المتحفظ، هذا كله أدى عادة إلى استبدال التحليل الأسلوبى للنثر الروائي بوصف لسانى محايد للغة عمل ما أو إلى ما هو أسوأ من ذلك - أعنى وصف لغة كاتب ما.

لكن وصفًا كهذا للغة لا يمكنه بذاته أن يقدم شيئًا لفهم الأسلوب الروائي. زد على ذلك أنه باطل منهجيًا حتى بوصفه وصفًا لسانيا للغة، ذلك أنه لا توجد فى الرواية لغة واحدة بل لغات تقترن فيما بينها فى وحدة أسلوبية خالصة وليس فى وحدة لغوية إطلاقًا (كما يمكن للهجات أن تختلط وتشكل وحدات لهجوية جديدة).

إن لغة رواية الخط الثانى ليست لغة واحدة تشكلت منشئيًا من اختلاط لغات، لكنها، كما نوهنا أكثر من مرة، نظام فنى فريد للغات لا تقع فى مستوى واحد. وحتى لو صرفنا النظر عن الكلام الشخصى وعن الأجناس الدخيلة، فإن كلام المؤلف ذاته يبقى مع هذا نظام لغات أسلوبية: إذ أن كتلا مهمة من هذا الكلام تؤسلب (مباشرة أو بالمحاكاة الساخرة، أو بسخرية) اللغات الغريبة، وتتأثر فيها الكلمات الغريبة غير منصصة بل تعود شكلًا إلى كلام الكاتب لكنها مبعدة بوضوح عن

شفتيه بنبرة سخرية أو محاكاة ساخرة أو محاجة أو بأى نبرة تحفظ أخرى. إن إرجاع كل هذه الكلمات الموزعة توزيعًا أوركستراليا والمغربة إلى القاموس الواحد لمؤلف ما، وإرجاع الخصائص الدلالية النحوية للكلمات والأشكال الموزعة توزيعًا أوركستراليا إلى خصائص الدلالة والنحو لدى المؤلف، أى إدراك هذا كله، وصفه كأنه السمات اللسانية للغة ما واحدة للمؤلف أمر غير معقول وسخيف كلامعقولية وسخف "تجيير" الأخطاء اللغوية التى يقتربها أحد شخوص الرواية ويعرضها المؤلف عرضًا "ماديًا" لحساب لغة هذا الكاتب. إن نبرة المؤلف موجودة بالطبع على كل هذه العناصر اللغوية الموزعة توزيعًا أوركستراليا والمغربة، وهذه العناصر محكومة فى نهاية المطاف بإرادة المؤلف الفنية، وهى من مسؤوليته الكاملة، لكنها لا تعود إلى لغة المؤلف ولا تقع ولغته فى مستوى واحد. إن وصف لغة الرواية مهمة لا معنى لها من الناحية المنهجية لأن موضوع هذا الوصف نفسه - أى اللغة الواحدة للرواية - لا وجود له إطلاقًا.

إن ما يعطى فى الرواية هو نظام فنى للغات أو بـكلام أدق لصور اللغات، والمهمة الفعلية لتحليل الرواية تحليلًا أسلوبيًا هى الكشف عن اللغات الموزعة أوركستراليا المتوفرة فى قوام الرواية، وفهم درجة ابتعاد كل لغة عن المرجع المعنوى الأخير للعمل، ومختلف زوايا انعكاس المقاصد فيها، وفهم علاقاتها الحوارية المتبادلة، وأخيرًا تحديد الخلفية المتنوعة كلاميا المشيعة للحوارية خارج العمل بالنسبة لكلمة المؤلف المباشرة فيما لو وجدت هذه الكلمة المباشرة (وهذه المهمة الأخيرة هى الأساسية بالنسبة لرواية الخط الأول).

إن حل هذه المهام الأسلوبية يفترض أول ما يفترض نفاذاً فنياً إيديولوجياً عميقاً إلى صلب الرواية^(١). مثل هذا النفاذ (المدعم بالمعرفة بطبيعة الحال) يستطيع وحده استكناه الفكرة الفنية الجوهرية لكل الروائي والشعور، انطلاقاً من هذه الفكرة، بأدق الفروق في ابتعاد لحظات اللغة المختلفة عن المرجع المعنوي الأخير للعمل، وبأدق الفروق في تنبير المؤلف للغات ولحظاتها المختلفة إلخ. ولا تستطيع أى ملاحظات لسانية مهما دقت الكشف أبداً عن حركة مقاصد المؤلف هذه ولا عن لعبها بين اللغات المختلفة ولحظاتها. إن الإدراك الأيديولوجي الفني لكلية الرواية يجب أن يوجه طول الوقت تحليلها الأسلوبى. وعلينا ألا ننسى بالإضافة إلى ذلك أن اللغات المدخلة فى الرواية أخذت شكل صور فنية للغات (فهى ليست معطيات لسانية خاماً)، وأن هذا الشكل الذى اتخذته يمكن أن يكون فنياً وموفقاً بدرجة أو بأخرى، وأن يتجاوب بقدر أو بآخر وروح للغات المصورة وقوتها.

لكن النفاذ الفنى وحده لا يكفى بطبيعة الحال. فالتحليل الأسلوبى يصطدم بجملة صعوبات، خصوصاً حين يتعامل مع أعمال تعود إلى عصور بعيدة ولغات غريبة حيث لا يجد الإدراك الفنى سنداً له فى السليقة اللغوية الحية. فى هذه الحالة تبدو اللغة، نتيجة ابتعادنا عنها، كأنها فى مستوى واحد، فنحن لا نشعر فيها بالبعد الثالث ولا بالفروق بين المستويات والأبعاد. هنا تستطيع الدراسة اللغوية التاريخية اللسانية

(١) مثل هذا النفاذ يفترض أيضاً تقويم الرواية، وليس تقويمها الفنى بالمعنى الضيق وإنما أيضاً تقويمها الإيديولوجى، ذلك أنه لا فهم فنى دون تقويم.

لتنظيم اللغوية والأساليب (الاجتماعية، المهنية، الجنسية، الاتجاهية. إلخ) الموجودة في عصر ما مساعدتنا مساعدة جوهريّة في استعادة البعد الثالث في لغة الرواية واستعادة التباين والمسافات فيها. لكن اللسانيات المعاصرة تظل دعامة ضرورية للتحليل الأسلوبي حتى لدى دراستنا الأعمال المعاصرة.

إلا أن هذا أيضاً لا يكفي فبدون فهم عميق للتنوع الكلامي، ولحوار اللغات في عصر ما، لا يمكن للتحليل الأسلوبي للرواية أن يكون مثمراً. ولكن كيف نفهم هذا الحوار، كيف نسمع بوجه عام هنا حواراً لأول مرة، لا تكفي المعرفة اللسانية والأسلوبية بهيئة اللغات، بل يلزمنا فهم عميق للمعنى الاجتماعي الأيديولوجي لكل لغة، ومعرفة دقيقة بالتوزيع الاجتماعي لكل أصوات العصر الأيديولوجية.

إن تحليل الأسلوب الروائي يصطدم بصعوبات من نوع خاص تحددها سعة عمليتي تحول تخضع لهما أي ظاهرة لغوية: عملية القوينة (Canonisation) وعملية إعادة التثبير.

فبعض عناصر التنوع الكلامي المدخلة في لغة الرواية كالتعابير المحلية والمهنية التقنية إلخ. يمكنها أن تخدم توزيع المؤلف لمقاصده (وبالتالي تستخدم بتحفظ، مع احتفاظ بمسافة معينة). وبعض عناصر التنوع الكلامي الأخرى، الشبيهة بالأولى، تكون قد فقدت في اللحظة : إياها نكهتها "اللغوية الغريبة" التي تكون اللغة الأدبية قد قوننتها وكرستها وبالتالي لا يعود المؤلف يشعر بها في نظام لهجة محلية أو أرغة، بل في نظام اللغة الأدبية، وسيكون خطأ فادحاً عزو وظيفة

التوزيع الأوركسترا إلى إليها: فهي قد صارت ولغة المؤلف في مستوى واحد، أو صارت، فيما لو لم يكن المؤلف متضامناً حتى مع اللغة الأدبية المعاصرة، في مستوى لغة موزعة أوركسترا ليا أخرى (لغة أدبية وليست محلية). ولكن يصعب جداً في حالات أخرى تقرير ما هو الشيء الذي أصبح بالنسبة إلى المؤلف عنصراً مقونناً من عناصر اللغة، وما هو الشيء الذي ما زال يشعر فيه بالتنوع الكلامي. وتعظم هذه الصعوبة بقدر ما يبعد العمل المحلل عن الوعي المعاصر. ففي العصور التي يبلغ فيها التنوع الكلامي مداها، أي حين يكون تصادم اللغات وتفاعلها متوتراً وقويا بشكل خاص، حين يغمر التنوع الكلامي اللغة الأدبية من كل النواحي، أي بالضبط في العصور الأكثر مناسبة للرواية، تقوّن للحظات التنوع الكلامي وتنتقل من لغة معيشة إلى لغة أدبية، ومن لغة أدبية إلى لغة معيشية، من أرغة مهنية إلى لغة معيشية عامة، من جنس إلى جنس آخر إلخ. وفي هذا الصراع المتوتر تبرز لحدود وتمحي في آن، ويستحيل أحياناً تبين أين بالضبط محت الحدود وانتقل أحد أطراف الصراع إلى أرض الغير. وهذا كله يولد صعوبات هائلة أمام التحليل. وفي العصور الأكثر استقراراً تكون اللغات أكثر محافظة وتجرى عملية القوينة على نحو أبطأ وأصعب يمكن اقتفاء آثارها بسهولة. إلا أنه يجب القول إن سرعة القوينة لا تخلق صعوبات إلا في تفاصيل التحليل الأسلوبى ودقائقه (وفي المقام الأول لدى تحليل الكلمة الغريبة المنثورة شتاتاً في كلام المؤلف)، إلا أنها لا تستطيع إعاقة اللغات الأساسية الموزعة أوركسترا ليا والمسارات الأساسية لحركة المقاصد ولعبها.

والعملية الثانية - تغيير مواقع النبذة - أعقد كثيراً، ويمكنها تشويه الأسلوب الروائي تشويهاً أكثر جوهرية. فهذه العملية تمس إحساسنا بالمسافات ونبرات المؤلف المتحفظة إذ تمحي الفروق بينها بالنسبة إلينا وقد تلغيها تماماً في أحيان كثيرة. لقد تهياً لنا أن قلنا أن بعض أنماط الكلمة الثنائية الصوت وأنواعها تفقد بسهولة كبيرة بالنسبة إلى الإدراك صوتها الثاني وتتحد بالكلام المباشر الأحادي الصوت. وهكذا فالمحاكاة الساخرة، حيثما لا تكون غاية بذاتها بل تتصل بوظيفة تصويرية، يمكنها في ظروف معينة أن تضع بسرعة وسهولة كبيرتين بالنسبة إلى الإدراك أو أن يضعف زخمها على حد كبير. لقد سبق وقلنا إن الكلمة المحاكاة محاكاة ساخرة في الصورة النثرية الأصلية تبدى مقاومة حوارية داخلية للمقاصد المحاكية محاكاة ساخرة: فالكلمة ليست مادة "شيئية" مية في يد الفنان الذي يتعامل بها، بل كلمة حية ومتماسكة وأمينه مع نفسها في كل شيء، كلمة قد تصبح غير مناسبة لوقتها ومضحكة، لكن معناها إذا تحقق مرة لا يمكنه أن يخبو نهائياً أبداً. فمع تغير الظروف قد يعطى هذا المعنى ومضات جديدة وساطعة ويحرق القشرة "الشيئية" التي نمت عليه وبالتالي يحرم نبذة المحاكاة الساخرة أرضيتها الحقيقية ويعتمها ويطفئها. وبالإضافة إلى ذلك يجب أخذ الخصوصية التالية لأي صورة نثرية عميقة بعين الاعتبار وهي أن مقاصد المؤلف تتحرك فيها وفق خط منحن، وأن المسافات بين الكلمة والمقاصد تتغير باستمرار، أي أن زاوية الانعكاس تتغير، ففي أعلى الخط المنحني يمكن أن يوجد تضامن كامل بين المؤلف وصورته

(الصورة التي يرسمها)، وأن يتوحد صوتاهما، بينما يمكن أن تنشأ في النقاط الدنيا من الخط المنحني، على العكس من ذلك، شيئية كاملة للصورة وبالتالي محاكاة ساخرة لها فجأة ومفتقرة إلى الحوارية العميقة. ويمكن لاندماج مقاصد المؤلف والصورة وللشيئية التامة للصورة أن يتناوبا بشكل حاد في مقطع صغير من العمل (مثال ذلك ما نجده عند بوشكين بالنسبة إلى صورة أونيجين، وإلى صورة لينسكى جزئياً). وبطبيعة الحال يمكن للخط المنحني لحركة مقاصد المؤلف أن يكون على درجة قليلة أو كبيرة من الحدة، ويمكن للصورة الفنية بدورها أن تكون أكثر استقراراً وتوازناً. ويمكن في حال تغير ظروف إدراك الصورة أن يصبح الخط المنحني أقل حدة، وقد يتحول، ببساطة، إلى خط مستقيم: في هذه الحال تصبح الصورة كلها إما قصدية مباشرة أو على العكس شيئية خالصة ومحاكية ومحاكاة ساخرة فجأة.

علام يتوقف التغير في نبرة صور الرواية ولغاتها؟ إنه يتوقف على تغير الخلفية التي تشيع الحوارية فيها، على التغيرات في قوام التنوع الكلامي. ففي تغير الحوار بين لغات العصر تأخذ لغة الصورة تتردد بشكل مختلف، ذلك لأنها تثار بشكل مختلف، ذلك لأنها تدرك على خلفية مشيعة لحوارية فيها تختلف عن سابقاتها. وفي هذا الحوار الجديد يمكن أن تتعاضد في الصورة وكلمتها قصديتها الخاصة المباشرة وتتعمق، أو، على العكس، يمكن أن تصبح الصورة شيئية تماماً: الصورة الهزلية يمكن أن تصبح مأساوية، والصورة المفضوحة فاضحة إلخ.

وفى مثل هذا النوع من إعادة التعبير ليس هناك تخط فاضح لإرادة المؤلف. ويمكن القول إن هذه العملية تجرى فى الصورة ذاتها وليس فى ظروف الإدراك المتغيرة فقط، إذ إن جل ما تفعله هذه الظروف هو أنها تفعل القدرات الموجودة فى هذه الصورة أصلا (والحقيقة أنها أضعفت فى الوقت نفسه قدرات أخرى). ويمكننا التأكيد، ولنا بعض الحق فى ذلك، أن الصورة فى وجه ما من الوجوه تفهم وتسمع أفضل من ذى قبل. وعلى أى حال فإن قدرًا من دعم الفهم هنا يقترن بفهم جديد ومعقد.

إن عملية تغيير التعبير هى، فى حدود ما، عملية حتمية ومشروعة لا بل مثمرة. لكن هذه الحدود يمكن تخطيها بسهولة حين يكون العمل بعيدًا عنا وحين نأخذ فى إدراكه على خلفية غريبة عنه تمامًا. وفى حالة إدراك كهذا كان مصير الكثير الكثير من الروايات القديمة. لكن الذى يشكل خطورة خاصة على العمل هو إعادة التعبير مستبذلة مبسطة تهبط من كل الوجوه دون مستوى فهم المؤلف (وعصره)، وتحول الصورة الثنائية الصوت إلى صورة أحادية الصوت مسطحة: إلى صورة بطولية زائفة وانفعالية عاطفية، أو على العكس إلى هزلية بدائية. هكذا على سبيل المثال حمل الإدراك البدائى الضيق الأفق لصورة لينسكى، وحتى لصورة قصيدته "لينسكى" "أين أين انسحبت" المتسمة بميسم المحاكاة الساخرة، على "محمل الجد"، أو الإدراك البطولى الخالص لبتشورين بأسلوب أبطال مارلينسكى.

إن أهمية عملية تغيير مواقع النبرة عظيمة جدًا فى تاريخ الأدب، فكل عصر يغير على طريقته نبرة العمل الأقرب إليه زمنياً. والحياة التاريخية للمؤلفات الكلاسيكية هى فى الحقيقة عملية تغيير مستمرة لنبرتها الاجتماعية الأيديولوجية. وهذه الأعمال قادرة، بفضل الإمكانيات القديمة الكامنة فيها، على أن تكشف فى كل عصر وعلى الخلفية الجديدة المشبعة للحوارية فيها لحظات معنوية جديدة باستمرار؛ وبالتالي يستمر قوامها المعنوى فى النماء والتطور. كما أن تأثيرها فى الإبداع اللاحق يتضمن بالضرورة إعادة التعبير. إن الصور الجديدة فى الأدب غالباً ما تنشأ عن طريق إعادة تبير الصور القديمة، وعن طريق نقلها من مقام نبروى إلى آخر، من المستوى الهزلى إلى المأساوى على سبيل المثال، أو العكس.

ويورد ف. ديبيليوس فى كتبه أمثلة شيقة على مثل هذا الخلق للصور الجديدة عن طريق إعادة تبير القديمة. فالأنماط المهنية والفئوية للرواية الإنكليزية - الأطباء، ورجال القانون، والإقطاعيون - ظهرت أول ما ظهرت فى الأجناس الهزلية، ثم انتقلت إلى المستويات الهزلية الثانوية للرواية بصفاتها شخوصاً "شئئية" ثانوية، ومن ثم انتقلت بعد فترة إلى المستويات العليا للرواية واستطاعت أن تصبح أبطالها الرئيسيين. وإحدى الوسائل الجوهرية لتحويل البطل من المستوى الهزلى إلى مستوى أرفع هو تصويره فى محنته وآلامه. فالأم البطل تنتقل البطل الهزلى إلى مقام آخر، أرفع. هكذ ساعدت صورة البخيل الهزلية التقليدية على استيعاب صورة الرأسمالى الجديدة مرتقية بها حتى صورة دومبى المأساوية.

ولإعادة تنبير الصورة الشعرية وتحويلها إلى صورة نثرية أو العكس أهمية خاصة. هكذا نشأت في القرون الوسطى ملحمة المحاكاة الساخرة التي قامت بدور جوهري في التمهيد لرواية الخط الثاني (وإنجازها الكلاسيكي هو أريوستو). كما أن إعادة تنبير الصور لدى نقلها من ميدان الأدب إلى الفنون الأخرى (الدراما، الأوبرا، الرسم) ذات أهمية كبيرة. والمثال الكلاسيكي على هذا هو التغيير الكبير نسبياً في موقع النبر الذي أدخله تشايكوفسكى على "يفغينى أونيجين"، والذي أثر تأثيراً كبيراً في الإدراك الضيق لصور هذه الرواية بعد أن خفف من شحنة المحاكاة الساخرة فيها^(١).

تلكم هي عملية إعادة التنبير. وعلينا أن نعترف بقيمتها الإنتاجية العالية في تاريخ الأدب. ولزام علينا، في دراستنا الأسلوبية الموضوعية لروايات العصور القديمة، أن نأخذ هذه العملية بالاعتبار دائماً، وأن نربط بدقة الأسلوب الذي ندرسه بخلفية التنوع الكلامي لعصره التي تشيع فيه الحوارية. ثم أن الأخذ بعين الاعتبار لكل التغييرات اللاحقة في موقع النبر التي تطرأ على صور رواية من على صورة دون كيخوت مثلاً، يكتب أهمية كشفية هائلة، فهو يعمق ويوسع فهمها الأيديولوجي الفني، ذلك أن الصور الروائية العظيمة تستمر في النماء والتطور حتى بعد ولادتها، وقادرة على التحول تحولاً خلاقاً في العصور الأخرى البعيدة عن يوم وساعة ولادتها.

١٩٣٤ - ١٩٣٥

(١) إن مسألة الكلمة الثنائية الصوت المحاكاتية والساخرة (وبتعبير أدق مثيلاتها) في الأوبرا والموسيقا والرقص (رقصات المحاكاة الساخرة) مسألة بالغة الخطورة.

الدراسة السادسة

من تاريخ الكلمة الروائية

(١)

لم تبدأ دراسة الرواية دراسة أسلوبية إلا من وقت جد قصير. فكلاسيكية القرنين السابع والثامن عشر لم تكن تعترف بالرواية جنسًا شعريًا مستقلًا، بل كانت ترجعه إلى الأجناس البلاغية المختلطة. وأوائل منظري الرواية يوى ("Essai sur L'origine des romans" 1670)، فليند (فى مقدمته المعروفة لـ "أغاتون" ١٧٦٦ - ١٧٦٧)، بلنلينبورغ ("versuchuber den Roman"، ١٧٧٤ وقد صدرت الدراسة غفلا من اسم صاحبها) والرومنطيقون (فريدريك شليغل، نوفاليس) لم يتطرقوا على الإطلاق تقريبًا إلى المسائل الأسلوبية^(١). وأخذ يتنامى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر اهتمام حاد بنظرية الرواية بوصفها الجنس الأوروبى الأساسى^(٢)، لكن الدراسة

(١) كان الرومنطيقون يؤكدون أن الرواية جنس مختلط (مزج بين الشعر والنثر) يضم فى قوامه أجناسًا مختلفة (لاسيما الغنائية) لكن الرومنطيقين لم يستخلصوا من تأكيدهم هذا استنتاجات أسلوبية. انظر على سبيل المثال "رسالة فى الرواية" لصاحبها فريدريك شليغل.

(٢) فى ألمانيا بدءًا من أعمال شيلهاهن (التي أخذت تظهر من عام ١٨٦٤)، وعلى الأخص بدءًا من دراسة ر. ريمن 1902 "goethes Romantechik"، وفى فرنسا بدءًا من برونييتير ولنسون أساسًا.

كانت تتركز بشكل يكاد يكون مطلقاً على مسائل البناء والموضوع (الثيما)^(١)، لكن مسائل الأسلوبية لم تمس فيها إلا عرضاً، بل كانت تعالج بلا مبدئية كاملة.

وبدءاً من عشرينات هذا القرن تبدل الموقف تبديلاً حاداً إلى درجة ما: فقد صدر عدد ليس بالقليل من الأعمال التي تتناول أسلوبية بعض الروائيين وبعض الروايات. وكانت هذه الأعمال غنية في الكثير من الأحيان بالملاحظات القيمة^(٢) لكن خصائص الكلمة الروائية، لكن الخصوصية الأسلوبية للجنس الروائي لم يكتشف النقاب عنها. زد على ذلك أنه حتى قضية هذه الخصوصية ذاتها لم تطرح حتى الآن بالمبدئية المطلوبة. فنحن نلاحظ خمسة أنماط في المقاربة الأسلوبية للكلمة الروائية: (١) يجرى تحليل أدوار^(*) المؤلف في الرواية، أى كلمة المؤلف المباشرة فقط (والمفروزة، إلى هذا، بقدر أو بآخر من الصحة)، من وجهة نظر التصويرية والتعبيرية الشعرية المألوفة المباشرة (الاستعارات، التشابيه، التخل المفرداتى إلخ)؛ (٢) يتم استبدال التحليل الأسلوبى للرواية بوصفها كلاً فنياً بوصف ألسنى محايد للغة

(١) اقتررب باحثو تقنية "التأطير" فى النثر الفنى ("Ramenerzahlung" ودور الرواية فى الملحمة " Kate Friedeman. Die Rolle des Erz! Ahlers in der Epik. Leipzig 1910) من القضية المبدئية فى الرواية وهى تعددية أساليب ومستويات الجنس الروائى؛ لكن هذه القضية بقيت دون معالجة على المستوى الأسلوبى.

(٢) يمثل عمل H.Hatzfeld. Don- Quijote als Worthunst Work, Leipzig- Berlin, 1927 أهمية خاصة.

(*) الدور بمعناه الموسيقى "المترجم".

الروائي^(١)؛ ٣) تختار من لغة الروائي العناصر المميزة للاتجاه الفنى الأدبى الذى ينسب إليه الروائى (المميزة للاتجاه الرومنطيقى، الطبيعى، الانطباعى. إلخ)^(٢)؛ ٤) يجرى البحث فى الرواية عما يعبر عن فردية المؤلف، أى تحلل لغة الرواية على أنها الأسلوب الفردى للغة الروائي^(٣)؛ ٥) تدرس الرواية على أنها جنس بلاغى، وتحلل وسائلها وطرقها من وجهة نظر فعاليتها البلاغية^(٤).

إن أنماط التحليل الأسلوبى الخمسة هذه تغفل بقدر أو بآخر خصائص الجنس الروائى والظروف الخاصة لحياة الكلمة فى الرواية. فهى لا تأخذ لغة الروائى وأسلوبه على أنهما لغة الرواية وأسلوبها، بل تأخذهما إما بوصفهما تعبيراً عن فردية فنية معينة وإما بوصفهما أسلوب اتجاه معين، وإما بوصفهما ظاهرة اللغة الشعرية العامة. فردية المؤلف الفنية والاتجاه الأدبى، والخصائص العامة للغة الشعرية، وخصائص اللغة الأدبية لعصر ما تحجب عنا فى هذه الحالات كلها الجنس الروائى نفسه بمتطلباته الخاصة من اللغة وبالإمكانات الخاصة

(١) وعلى سبيل المثال كتاب: I. sainèan. La Langue de Rabelais Paris; T. 1- 1922. T II – 1923.

(٢) ذلك على سبيل المثال كتاب: G.Loexh. Die impressionistisch Syntax der Goncourts. Nurnberg, 1919.

(٣) تلكم هى حال دراسات الفوسليريين الأسلوبية، وينبغى التنويه هنا خاصة بأعمال ليوشبييتسر فى دراسة أسلوبية شارل لوى فيليب وشارل بيغى ومارسيل بروسست التى جمعت فى كتاب (Stilstudien (B.II. stilsprachen 1928).

(٤) يأخذ كتاب ف.ف. فينوغرادوف فى النثر الفنى "بوجهة النظر هذه ويبنى عليها.

التي يكشفها أمام اللغة. ونتيجة هذا كله أننا نقع في معظم الدراسات المتعلقة بالرواية على تنويعات أسلوبية طفيفة نسبيًا - فردية أو تخص وتميز اتجاهًا أدبيًا معينًا -. وهذه التنويعات الأسلوبية الطفيفة تحجب عن ناظرينا حجبًا تامًا الخطوط الأسلوبية الكبيرة المحكومة بتطور الرواية بوصفها جنسًا خاصًا. زد على ذلك أن الكلمة في ظروف الرواية تحيا حياة خاصة جدًا يستحيل فهمها من وجهة نظر المقولات الأسلوبية التي نشأت على أساس الأجناس الشعرية بالمعنى الضيق للكلمة.

إن الفروق بين الرواية وبعض الأشكال الأخرى القريبة منها وبين الأجناس الشعرية بالمعنى الضيق للكلمة جوهرية ومبدئية بحيث أن أى محاولة ترمى إلى تطبيق مفاهيم الصورية الشعرية ومعاييرها على الرواية مآلها الإخفاق. ذلك أن الصورية الشعرية بالمعنى الضيق، على الرغم من وجودها في الرواية (في كلمة المؤلف المباشرة في المقام الأول)، ليس لها إلا قيمة ثانوية بالنسبة إلى الرواية. زد على ذلك أن الصورية الشعرية المباشرة هذه تكتسب في الرواية في أحيان كثيرة جدًا وظائف خاصة تمامًا، وظائف غير مباشرة. إليكم على سبيل المثال كيف يصف بوشكين شعر لينسكى:

كان يغنى الحب، هو المؤتمر بأمر الحب،

وكانت أغنيته صافية

كأفكار عذراء ساذجة

كحلم طفل صغير، كالقمر...

(يلى ذلك تطوير التشبيه الأخير)

إن الصور الشعرية (وبالذات التشابيه الاستعارية) التى تصور "نشيد" لينسكى ليس لها معنى شعرى مباشر هنا. ويمكن فهمها على أنها صور بوشكينية شعرية مباشرة (مع أن صفات هذا "النشيد" معطاة هنا، من حيث الشكل، من قبل المؤلف بوشكين). إن "نشيد" لينسكى هنا يصف نفسه، بلغته هو، وبطريقته الشعرية هو. أما وصف بوشكين المباشر "نشيد" لينسكى - وهو موجود فى الرواية - فيتردد على نحو آخر تمامًا:

هكذا كان يكتب بلغة قديمة ومهلهلة.

ما يتردد فى الأبيات الأربعة التى أوردناها هو نشيد لينسكى نفسه، هو صوته وأسلوبه الشعرى، لكنهما هنا مخترقان بنبرات المؤلف المحاكية محاكاة ساخرة. ولهذا فهما غير مبرزين وغير مفصولين عن كلام المؤلف لا تأليفياً ولا قواعدياً.. ما أمامنا هو صورة نشيد لينسكى، لكن ليس صورته الشعرية بالمعنى الضيق للكلمة، وإنما صورة روائية نموذجية لنشيدته: إنها صورة لغة غريبة، هى على الضبط فى حالتنا هذه صورة أسلوب شعرى غريب (هو الرومنطيقى العاطفى). ثم إن الاستعارات الشعرية فى هذه الأبيات (كحلم طفل صغير، كالقمر وغيرها) ليست هنا وسائل تصوير أولى (كما كان بإمكانها أن تكون فى نشيد لينسكى نفسه المباشر الرصين)؛ إذ إنها تصبح هنا موضوع تصوير هو على وجه الضبط تصوير مؤسلب

أسلبة محاكاة ساخرة. هذه الصورة الروائية للأسلوب الغريب (مع ما يدخل فيها من استعارات مباشرة) فى نظام كلام المؤلف المباشر (الذى نصادر عليه) موضوعة هنا بين معترضتين نبرويتين وعلى وجه الضبط بين معترضى محاكاة ساخرة. فإذا ما حذفنا هاتين المعترضتين النبرويتين، وأخذنا ندرك الاستعارات المستخدمة هنا على أنها وسائل المؤلف نفسه فى التصوير المباشر، نحطم بذلك الصورة الروائية للأسلوب الغريب، أى على وجه الضبط الصورة التى بناها بوشكين هنا بصفته روائيًا. إن لغة لينسكى الشعرية المصورة بعيدة جدًا عن كلمة المؤلف نفسه المباشرة التى صادرنا عليها: فلغة لينسكى هنا هى مجرد موضوع (إنها شىء تقريبًا)، أما المؤلف ذاته فيكاد يكون بالكامل خارج لغة لينسكى (نبراته المحاكائية الساخرة فقط هى التى تخترق "هذه اللغة الغريبة").

وإليكم مثالاً آخر من "أونيغين":

من عاش وفكر لا بد

أن يحتقر الناس فى قرارة نفسه

ومن كان ذا إحساس لا بد

أن يقلقه شبح الأيام التى لن تعود،

لا بد أن يعزف عن المباهج،

لا بد أن تلسعه أفعى الذكريات

وأن يتأكله الندم...

كان بإمكاننا أن نظن أن أمامنا حكمة شعرية مباشرة يقولها المؤلف نفسه. لكن البيتين التاليين:

وهذا كله كثيرًا ما يضاف

على الحديث رونقًا كبيرًا

(الذين هما للمؤلف الاصطلاحى مع أونيجين) يلقيان ظلاً شديداً على هذه الحكمة. ومع أن هذه الحكمة تتدرج فى كلام المؤلف، إلا أنها مبنية فى مجال فعل صوت أنيجين، فى أسلوب أونيجين. ومرة أخرى نرى أمامنا صورة روائية لأسلوب غريب، لكنها مبنية على نحو مختلف قليلاً. إن صور هذا المقطع كلها هى موضوع تصوير: فهى تصور بوصفها أسلوب أونيجين ونظرة أونيجين إلى العالم، فهى تشبه صور نشيد لينسكى من هذه الناحية لكن صور الحكمة المذكورة رغم كونها موضوع تصوير، فإنها، بخلاف صور النشيد المذكور آنفاً، تقوم فى الوقت نفسه بالتصوير، وبعبارة أدق تعبر عن فكرة المؤلف، ذلك أن المؤلف متضامن معها إلى حد كبير على الرغم من أنه يرى محدودية النظرة الأونيجينية البيرونية إلى العالم والأسلوب الأونيجينى وقصورهما. وهكذا فالمؤلف (أى كلمة المؤلف المباشر المصادرة عليها من قبلنا) أقرب كثيراً إلى "لغة" أونيجين منه إلى "لغة" لينسكى: فهو ليس خارج لغة أونيجين وحسب وإنما فيها أيضاً، إنه لا يصور هذه "اللغة" وحسب إنما يتكلم إلى حد ما بهذه "اللغة". والبطل موجود

فى منطقة الحديث المحتمل معه، أى فى منطقة الاتصال (التماس) الحوارى. إن المؤلف يرى محدودية اللغة - النظرة الأونيغينية التى مازالت شائعة وقصورها، ويرى وجهها المضحك المبرز والمصطنع ("موسكو فى فى برده هارولد"، "معجمه المحشو بالمفردات العصرية الدارجة"، "أولا يكون صورة ممسوخة؟")، لكنه لا يستطيع التعبير فى الوقت نفسه عن العديد من الأفكار والملاحظات الجوهرية إلا بمساعدة هذه "اللغة" على الرغم من أنه محكوم عليها تاريخيا ككل. إن صورة اللغة - النظرة إلى العالم الغريبة هذه التى تصور وتصور فى آن نمطية ومميزة جدًا للرواية. وإلى هذا النمط من الصور بالذات تنتمى أعظم الصور الروائية (صورة دون كيخوت على سبيل المثال). إن الوسائل التصويرية والتعبيرية الشعرية (بالمعنى الضيق) المباشرة التى تدخل فى تركيب صورة كهذه تحتفظ بمعناها المباشر، إلا أنه يجرى فى الوقت نفسه "التحفظ عليها"، "مظهرتها خارجيا"، عرضها فى نسبتها التاريخية ومحدوديتها وقصورها - إنها نقدية ذاتية إن صح التعبير. إنها تنير العالم كما إنها منارة أيضا. وكما أن الإنسان لا يستوعب استيعابا كاملا فى وضعه الفعلى، كذلك العالم لا يستوعب كاملا فى الكلمة عنه؛ فكل أسلوب قائم هو أسلوب محدود، يترتب استخدامه بتحفظ.

إن المؤلف، وهو يصور الصورة "المتكلمة بتحفظ" "اللغة" أونيغين (لغة الاتجاه والنظرة إلى العالم)، أبعد من أن يكون محايدا بالنسبة إلى هذه الصورة: إنه يحتاج هذه الصورة إلى حد ما، يتحداها،

يوافقها في تحفظ على أشياء، يسألها، يستمع إليها، لكنه في الوقت نفسه يسخر منها، يضخم بمحاكاة ساخرة بعض جوانبها إلخ؛ المؤلف، بعبارة أخرى، في علاقة حوارية بلغة أونيجين؛ المؤلف يحدث أونيجين فعلاً، وهذا الحديث لحظة مكونة جوهرية بالنسبة إلى النثر الروائي كله كما بالنسبة إلى صورة لغة أونيجين. المؤلف يصور هذه اللغة، يتحدث إليها، الحديث يتغلغل إلى داخل صورة اللغة، يشيع الحوارية في هذه الصورة من الداخل. وهكذا هي حال كل الصور الروائية الجوهرية: إنها صور أشيعت فيه الحوارية من الداخل للغات وأساليب ونظرات غريبة (غير منفصلة عن التجسيد اللغوي، الأسلوبى الشخصى). إن نظريات الصورية الشعرية السائدة تجد نفسها عاجزة عجزاً تاماً لدى تحليل صور اللغات المعقدة التى أشيعت فيها الحوارية الداخلية هذه.

ويمكننا لدى تحليل "أونيجين" التقرير دون جهد يذكر أنه يوجد إلى جانب صور لغة أونيجين ولغة لينسكى صورة لغة تاتيانا، وهى صورة معقدة وعميقة جداً يقوم فى أساسها قرن أصيل أشيعت فيه الحوارية الداخلية بين لغة ريتشرسون العاطفية الحاملة ("لغة الفتاة القروية") وبين اللغة الشعبية لحكايا المربية والقصص المعيشية والأغاني الفلاحية والعرافة إلخ. المحدود والمضحك تقريباً والقديم فى هذه اللغة يقترن بالحقيقة الرصينة دون حدود والمباشرة للكلمة الشعبية. والمؤلف لا يصور هذه اللغة وحسب، بل يتكلم بها بشكل جوهري إلى حد كبير. وأجزاء مهمة من هذه الرواية معطاة فى منطقة صوت تاتيانا، وهذه المنطقة كمناطق الأبطال الآخرين غير مفردة (مفصولة) تأليفيّاً ولا نحويّاً فى كلام المؤلف، إنها منطقة أسلوبية خالصة.

ونجد في "أونيغين"، بالإضافة إلى مناطق الأبطال التي تمتد على قسم كبير من كلام المؤلف في الرواية، أساليب محاكاة ساخرة متفرقة لاتجاهات لغات العصر وأجناسها المختلفة (مثل ذلك المحاكاة الساخرة للمطلع الملحمي الكلاسيكي الجديد، المحاكاة الساخرة لشواهد القبور إلخ). وحتى استطرادات المؤلف الغنائية لا تخلو هي نفسها من لحظات مؤسلبية أسلوبية محاكاة ساخرة أو من لحظات محاجية ساخرة، وتندرج في قسم منها في مناطق الأبطال. وعلى هذا فالاستطرادات الغنائية في الرواية تختلف اختلافًا مبدئيًا، من وجهة النظر الأسلوبية، عن غنائية بوشكين المباشرة. إنها ليست غنائية بل صور روائية للغنائية (وللشاعر الغنائي). ونجد بالتالي لدى التحليل المتمعن أن الرواية تتفكك كلها تقريبًا إلى صور لغات تتصل فيما بينها، كما بينها وبين المؤلف بعلاقات حوارية أصيلة. وهذه اللغات هي أساسًا أنواع مختلفة من لغة العصر الأدبية التي هي لغة في حالة تكون وتجدد، تختص باتجاهات معينة وأجناس معينة أو تختص بالحياة اليومية. كل هذه اللغات تصبح هنا بكل وسائلها التصويرية المباشرة موضوع تصوير، فهي تعرض هنا بوصفها صور لغات، بوصفها صورًا نمطية مميزة، محدودة، تكاد تكون مضحكة أحيانًا. إلا أن هذه اللغات المصورة تقوم هي نفسها في الوقت نفسه بالتصوير إلى حد كبير. إن المؤلف يشارك في الرواية (وهو موجود في كل مكان فيه) بدون لغته المباشرة الخاصة تقريبًا. لغة الرواية هي نظام لغات تثير إحداها الأخرى حواريًا. ولا يجوز وصفها وتحليلها بوصفها لغة واحدة ووحيدة.

وسأتوقف عند مثال آخر. إليكم أربعة مقاطع من فصول مختلفة
فى "أونيغين":

١ - هكذا فكر الطائش الشاب (مولودوى).

٢ - . . . المغنى الشاب (ملادوى)

لقى حتفه قبل أوانه!..

٣ - أغنى الصديق الشاب (ملادوى)

والعديد من نزواته الغريبة..

٤ - وماذا لو صرع بمسدسك

صديق شاب (مولودوى)...

نرى هنا فى الحالتين من الحالات الأربع استخدامًا للشكل
الكنسى السلافى لكلمة شاب (وهو ملادوى - المترجم)، وفى حالتين
أخرين الشكل الروسى (مولودوى). فهل نستطيع القول إن الشكلىين
كليهما ينتميان إلى لغة المؤلف الواحدة وإلى أسلوبه الواحد، وإنه إنما
اختير هذا الشكل أو ذاك "لضرورة الوزن"؟ أن قولاً كهذا سيكون
سخافة ما بعدها سخافة بطبيعة الحال. ومع هذا فالكلام فى كل المقاطع
الأربعة هو كلام المؤلف. لكن التحليل يقنعنا بأن هذه الأشكال تعود إلى
نظم أسلوبية مختلفة فى الرواية.

إن كلمتي "المغنى الشاب" (المقطع الثانى) تقعان فى منطقة لينسكى، وتعطيان فى أسلوبه أى فى أسلوب الرومنطيقية العاطفية المتقادم قليلاً. وينبغى القول إن كلمتي "غنى" و"المغنى" بمعنى "كتب الشعر" و"الشاعر" يستخدمهما بوشكين فى منطقة لينسكى أو المناطق المحاكاتية الساخرة أو الشيئية الأخرى (أما بوشكين نفسه فيقول بلغته حين يتكلم عن لينسكى : "هكذا كان يكتب...") أما مشهد المبارزة و"ندب" لينسكى ("ترثون للشاعر يا أصدقائي... إلخ) فمبنيان إلى حد كبير فى منطقة لينسكى، بأسلوبه الشعرى، إنما يختلط بهما طوال الوقت صوت المؤلف الواقعى واليقظ؛ والنوثة الموسيقية لهذا الجزء من الرواية معقدة نسبياً وشائعة جداً.

كلمات "أغنى الصديق الشاب" (المقطع الثالث) تتدرج فى إطار محاكاة المطلع الملحمى الكلاسيكى الجديد محاكاة تنكرية ساخرة. كما أن مقتضيات التنكير المحاكاتى الساخر تفسر أيضاً القرن الأسلوبى بين الكلمة الرفيعة إنما القديمة الشاب (ملادوى) والكلمة الوضيعة "الصديق" (بريتيل).

وكلمات "الطائش الشاب" و"الصديق الشاب" تتدرج فى مستوى لغة المؤلف المباشر المصاغة بروح الأسلوب المحكى الأليف للغة العصر الأدبية.

وعلى هذا فالأشكال اللغوية والأسلوبية المختلفة تعود إلى نظم مختلفة في لغة الرواية. ولو أننا ألغينا كل المعترضات النبروية، وكل أنواع الأصوات والأساليب، وكل أنواع ابتعاد "اللغات" المصورة عن كلمة المؤلف المباشرة، لكانت لدينا كتلة من الأشكال اللغوية الأسلوبية غير المتجانسة لا يشدها معنى ولا أسلوب. لغة الرواية لا يجوز وضعها في مستوى واحد، وصفها في خط واحد. إنها نظام مستويات متقاطعة. في "أونيغين" تكاد لا توجد كلمة بوشكينية واحدة بالمعنى المطلق كما نجدها في شعره الغنائي أو قصائده مثلاً. ولهذا ليس في الرواية لغة واحدة ولا أسلوب واحد. لكنه يوجد في الوقت نفسه، مع هذا، مركز لغوي (كلمى أيديولوجي) للرواية. والمؤلف (بوصفه صانع الكل الروائي) يتعذر العثور عليه في أى من مستويات اللغة؛ إنه في المركز التنظيمي لتقاطع المستويات. والمستويات المختلفة تبعد بقدر أو بآخر عن المركز الذى للمؤلف هذا.

أطلق بيلنسكى اسم "موسوعة الحياة الروسية" على رواية بوشكين. وهذه الموسوعة ليست موسوعة أشياء الحياة اليومية الخرساء. ذلك أن الحياة الروسية تتكلم هنا بأصوات العصر ولغاته وأساليبه كلها. واللغة الأدبية لا تقدم في الرواية على أنها اللغة الواحدة الناجزة تماماً والمطلقة، بل تقدم في تنوعها الكلامي الحى بالضبط، في عملية تكونها وتجدها. إن لغة المؤلف تسعى إلى تجاوز "الأدبية" السطحية للأساليب القديمة التى فى طريقها إلى الزوال و"أدبية" لغات الاتجاهات الأدبية الشائعة آنذاك، وإلى التجدد على حساب العناصر الجوهرية فى اللغة الشعبية (ولكن ليس على حساب التنوع الكلامي اللفظ والعامي).

رواية بوشكين هي نقد ذاتي للغة العصر الأدبية يتم عن طريق الإنارة المتبادلة بين أنواع اللغة الأساسية - أنواع الاتجاهات والأجناس والحياة اليومية. لكن هذه الإنارة المتبادلة ليست ألسنية مجردة بطبيعة الحال. فصور اللغات لا تتفصل عن صور النظرات إلى العالم وحاملي هذه النظرات من الأحياء: الناس الذين يفكرون ويتكلمون ويفعلون في وضع اجتماعي ومشخص تاريخيًا. فمن وجهة النظر الأسلوبية أمامنا نظام معقد من صور لغات العصر تشده حركة حوارية واحدة، هذا إلى أن "لغات" معينة تبتعد بقدر أو بآخر وبطرق مختلفة عن مركز الرواية الفني الأيديولوجي الموحد.

إن البناء الأسلوبى لرواية "يفغينى أونيجين" نمطى بالنسبة إلى أى رواية حقيقية. فكل رواية هي بقدر أو بآخر نظام صور "لغات" وأساليب وأنماط وعى مشخصة وغير منفصلة عن اللغة أشيعت فيه الحوارية. اللغة فى الرواية لا تصور وحسب، بل هي نفسها موضوع تصوير، والكلمة الروائية مشحونة دائماً بنقد ذاتي.

بهذا تختلف الرواية اختلافاً مبدئياً عن الأجناس المباشرة كلها: عن القصيدة الملحمية والقصيدة الغنائية والدراما الخالصة. فهذه الأجناس كلها وكل الوسائل التصويرية والتعبيرية لهذه الأجناس تصبح، حين تدخل الرواية، موضوع تصوير. وفى ظروف الرواية تصبح أى كلمة - سواء ملحمية أو غنائية أو درامية خالصة - موضوعاً (شيئاً) ومحدودة، وفى أحوال كثيرة، صورة مضحكة فى محدوديتها هذه.

إن الصور الخاصة للغات والأساليب، وتنظيم هذه الصور وتصنيفها في أنماط (وهي متنوعة جدًا) والمزاوجة بين الصور في الكل الروائي وتحولات اللغات والأصوات وتداخلها، والإنارات المتبادلة فيما بينها – هذه هي القضايا الأساسية لأسلوبية الرواية.

وأسلوبية الأجناس المباشرة والكلمة الشعرية المباشرة تكاد لا تقدم لنا شيئاً لحل هذه القضايا.

إننا نتكلم عن الكلمة الروائية لأن هذه الكلمة لا تستطيع كشف كل إمكاناتها الخاصة وبلوغ العمق الحقيقي إلا في الرواية. لكن الرواية جنس متأخر جدًا نسبيًا، في حين أن الكلمة غير المباشرة أي الكلمة الغريبة المصورة واللغة الغريبة الموضوعية بين معترضتين نبرويتين ذات قدم سحيق، إذ نقع عليها في مراحل مبكرة جدًا من مراحل الثقافة اللمية. زد على ذلك أننا نجد قبل ظهور الرواية بزمن بعيد عالمًا غنيًا من الأشكال المتنوعة التي تنقل وتحاكي بسخرية، وتصور من زوايا نظر مختلفة الكلمة الغريبة والكلام الغريب واللغة الغريبة بما في ذلك لغات الأجناس المباشرة. هذه الأشكال المتنوعة مهدت للرواية قبل ظهورها بفترة طويلة. كان للكلمة الروائية تاريخ سابق طويل يضرب في عمق مئات السنين وآلافها. فقد تشكّلت هذه الكلمة ونضجت في أجناس الكلام الأليف للغة الشعبية المحكية (وهي أجناس لم تدرس إلا قليلًا حتى الآن). وكذلك في بعض الأجناس الفولكلورية والأدبية الوضيعة. وكانت الكلمة الروائية خلال نشوئها وتطورها المبكر تعكس الصراع القديم بين القبائل والشعوب والثقافات

واللغات، وكانت تزخر بأصداء هذا الصراع. فقد كانت تتطور دائماً،
فى الواقع، على تخوم الثقافات واللغات. إن تاريخ الكلمة الروائية شائق
جداً ولا يخلو من درامية.

ويمكننا أن نلاحظ فى تاريخ الكلمة الروائية تأثير عوامل عديدة
ومتباينة أشد التباين فى الكثير من الأحيان. لكن أهم عاملين فى رأينا
هما: الضحك والتعدد اللغوى. كان الضحك ينظم أقدم أشكال تصوير
اللغة التى (هذه الأشكال) لم تكن أول الأمر سوى هزء من اللغة
الغريبة والكلمة الغريبة المباشرة. أما التعدد اللغوى والإنارة المتبادلة
بين اللغات المرتبطة به فقد ارتفعا بهذه الأشكال إلى مستوى فنى
أيديولوجى جديد صار الجنس الروائى فيه ممكناً.

ومقالتنا هذه مكرسة لهذين العاملين فى تاريخ الكلمة الروائية.

(٢)

إن أحد أقدم أشكال تصوير الكلمة الغريبة المباشرة وأوسعها
انتشاراً هو المحاكاة الساخرة. ففيم خصوصية شكل المحاكاة الساخرة؟

إليك على سبيل المثال السونيتات (Sonnets) المحاكية محاكاة
ساخرة التى تفتتح بها رواية "نون كيوخوت". فعلى الرغم من أن هذه
السونيتات مبنية كسونيتات بشكل لا غبار عليه، إلا أننا لا نستطيع بأى
حال من الأحوال نسبتها إلى جنس السونيت. فهى هنا جزء من

الرواية، وحتى السونيت المحاكية محاكاة ساخرة، المعزولة بمفردها لا يمكن نسبتها إلى جنس السونيت أيضاً. فشكل السونيت فى سونيت المحاكاة الساخرة ليس جنساً على الإطلاق، أى ليس شكل كل، بل مادة تصوير، السونيت هنا بطل المحاكاة الساخرة؛ فى المحاكاة الساخرة للسونيت علينا أن نتعرف على السونيت، أن نتعرف على شكلها وعلى أسلوبها الخاص، وعلى طريقتهما فى رؤية العالم واستنطاقه وتقويمه أى نظرتها السونيتية إلى العالم إن صح القول. قد تستطيع المحاكاة الساخرة تصوير خصائص السونيت هذه، والسخرية منها بشكل يتفاوت فى جودته أو رداءته، فى عمقه أو سطحيته. إنما أمامنا على أى حال صورة السونيت وليس السونيت نفسها.

وللأسباب نفسها لا يجوز بحال من الأحوال عزو قصيدة المحاكاة الساخرة "حرب الفئران والضفادع" إلى جنس القصيدة، فهى صور أسلوب هوميروس. وهذا الأسلوب تحديداً هو البطل الحقيقى لهذا العمل. والقول نفسه ينطبق على "Virgil travesti" لسكارون. كما لا يمكننا نسبة المواعظ المعروفة بـ "Sermons Joyeux"^(١) التى ظهرت فى القرن الخامس عشر إلى جنس المواعظ، ونسبة "Pater noster"^(٢) ، أو "Ave Maria"^(٣) المحاكية محاكاة ساخرة إلى جنس الصلوات إلخ.

(١) المواعظ المرححة.

(٢) أبانا الذى.

(٣) السلام عليك يا مريم.

كل هذه الأنواع من أنواع المحاكاة الساخرة وأساليب الأجناس ("اللغات") تدخل في العالم الكبير والمتنوع للأشكال اللمية التي تسخر من اللمة الرصينة المباشرة في مختلف أجناسها. وهذا العالم غنى جدًا، أغنى مما ألفنا اعتباره عادة. وطابع السخرية نفسه ووسائل هذه السخرية متنوعة جدًا ولا تقصر على المحاكاة والتكبير (التكرار) بالمعنى الضيق لللمة. كل وسائل السخرية من اللمة المباشرة هذه لم تدرس إلا قليلًا جدًا حتى الآن. فتصوراتنا عن الإبداع اللمى المنكر والمحاكى محاكاة ساخرة تشكلت على أساس دراسة الأشكال المتأخرة لأدب المحاكاة الساخرة مثل "إنييدا" سكارون أو "الشوكة القاتلة" لبلاطين، أى الأشكال الفقيرة والسطحية والأقل جوهرية من الناحية التاريخية. وهذه التصورات الفقيرة والضيقة التي تشكلت فى العلم عن طابع اللمة المنكرة والمحاكية محاكاة ساخرة حملت فيما بعد على عالم الإبداع المنكر المحاكى محاكاة ساخرة فى العصور الماضية، هذا العالم الأكثر غنى وتنوعًا من عالم العهود المتأخرة.

إن قيمة الأشكال المنكرة المحاكية محاكاة ساخرة عظيمة جدًا فى الإبداع اللمى العالمى. وإليك بعض المعطيات التي تشهد على غناها وقيمتها المتميزة.

لنتوقف قبل كل شيء عند العصور القديمة. فالأدب القديم المتأخر المعروف "بأدب المعرفة الواسعة" - أفل غيلى، بلوتارك فى "Moralia"، مكروبيى، وعلى الأخص اتينى - يقدم لنا إشارات غنية نسبيًا تسمح لنا بالحكم على حجم الإبداع القديم المنكر المحاكى محاكاة

ساخرة وطابعه المتميز. وملاحظات هؤلاء العلماء واقداساتهم واستشهاداتهم وإشاراتهم تكمل بشكل جوهري ما وصل إلينا من مواد متفرقة من الإبداع الضاحك الحقيقي لتلك الحقبة.

وقد مهدت أعمال باحثين مثل ديتيريك وريخ وكورنفورد وغيرهم السبيل أمامنا لتقويم دور الأشكال المنكرة المحاكية محاكاة ساخرة في الثقافة الكلمية القديمة وأهميتها تقويماً سليماً.

ونحن على قناعة بأنه لم يوجد جنس مباشر خالص واحد ولا نمط واحد من أنماط الكلمة المباشرة (الفنية، البلاغية، الفلسفية، الدينية، المعيشية) إلا وكان له مثله المنكر المحاكى محاكاة ساخرة، إلا كان له مقابله (ضده) الهزلي الساخر. زد على ذلك أن هذه المحاكية محاكاة ساخرة وهذه الانعكاسات الضاحكة للكلمة المباشرة كانت، في العديد من الحالات، مكرسة بالتقاليد مشروعة كصورها الأصلية الأولى الرفيعة تماماً.

وسأعرج قليلاً على قضية ما يسمى "الدrama الرابعة" أي على دراما الهجائية. فقد عالجت هذه الدrama، التي أعقبت الثلاثية المأساوية، في معظم الحالات نفس الموضوعات والأحداث الأسطورية التي عالجتها الثلاثية السابقة، فكانت، بهذا، نوعاً من المقابل المنكر المحاكى محاكاة ساخرة للمعالجة المأساوية لنفس الأسطورة: أي كانت تعرض علينا وترينا نفس الأسطورة إنما في مظهر آخر.

وهذه المعالجات المنكرة المحاكية محاكاة ساخرة المقابلة (المضادة) للأساطير القومية كانت هي أيضًا مكرسة ومشروعة كمعالجتها المأساوية المباشرة. وكل كتاب المأساة - فرينخ وسوفوكليس وأوريبيديس - كانوا أصحاب درامات هجائية، وكان أكثرهم رصانة وخشوعًا صاحب ومغنى "أسرار إيليفسين"^(١) وهو أسخيليوس يعتبره اليونانيون أعظم شعراء الدراما الهجائية. ونحن نرى من المقاطع التي وصلتنا من دراما أسخيليوس الهجائية "جامع العظام" أن هذه الدراما تصور أحداث حرب طروادة وأبطالها تصويرًا محاكائيًا ساخرًا منكرًا، ولاسيما ذلك المشهد المتعلق بالمشاجرة بين أوديسيوس من جهة وأخيل وديوميد من جهة أخرى، حيث ألقيت مbole منتنة على رأس أوديسيوس.

وينبغي القول إن صورة "أوديسيوس الهزلي"، التي هي تنكير محاكاة ساخرة لصورته الملحمية المأساوية الرفيعة، كانت واحدة من أوسع صور الدراما الهجائية، من الفارس القديم السابق على دوريقس، ومن الملهاة ما قبل الأرسطوفانية، ومن العديد من الملاحم الهزلية الصغيرة، ومن الخطب والمناقشات والمساجلات المتصفة بالمحاكاة الساخرة التي كان الفن الهزلي القديم غنيًا جدًا بها (وخصوصًا في إيطاليا الجنوبية وسيقيليا) انتشارًا. ومما له دلالة الدور المتميز الذي نهض به موضوع الجنون في صورة "أوديسيوس الهزلي"؛ فمن

(١) أعياد سنوية كانت تقام في مدينة إيليفسين قرب أثينا تكريمًا لإلهي الزراعة والخصب ديميترا وبيرسيفونا (المترجم).

المعروف أن أوديسيوس وضع علي رأسه طاقية المهرج، الغبى (Pileus)، وشد إلى محراثه حصاناً وثوراً متظاهراً بالجنون كيما يتهرب من المشاركة فى الحرب، وموضوع الجنون هذا حول صورة أوديسيوس من المستوى الرفيع المباشر إلى المستوى الهزلى والمنكر المحاكى محاكاة ساخرة^(١).

لكن أشهر صورة من صور الدراما الهجائية وغيرها من أشكال الكلمة المنكرة المحاكية محاكاة ساخرة كانت صورة "هيرقل الهزلى" هيرقل الخادم الجبار والطيب القلب للملك ايفريسفسوس الضعيف والجبان والكذاب، هيرقل الذى انتصر على الموت فى حلبة الصراع وهبط إلى العالم السفلى، هيرقل النهم والمحب للمرح والتسلية، هيرقل المحب للسكر والمشاحنة، وخصوصاً هيرقل المجنون - تلکم هى الموضوعات التى حددت الملامح الهزلية لهذه الصورة. إن البطولة والقوة تبقيان محفوظتين فى هذه الصورة الهزلية لكنهما تقتربان بالضحك وبصورة الحياة المادية الجسدية.

ولم تكن صورة هيرقل الهزلى على هذه السعة من الانتشار فى اليونان وحدها، وإنما فى روما أيضاً ثم فى بيزنطية بعد ذلك (حيث أصبح من الأشخاص الرئيسيين فى لعبة الدمى (العرائس). وكانت هذه الصورة حية إلى عهد قريب فى "مسرح" الظل التركى (كراغوز). إن هيرقل الهزلى واحد من أعمق الصور الشعبية للبطولة المرحية والبسيطة التى (الصور) أثرت تأثيراً هائلاً فى الأدب العالمى كله.

(١) راجع J. Schmidt. Ulixes Comicus.

إن "الدراما الرابعة" التى تكمل بالضرورة الثلاثية الأساسية، وشخصيات "كأوديسيوس الهزلى" و"هيرقل الهزلى" تبين أن وعى اليونانيين الأدبى لم يكن يرى فى المعالجات المنكرة المحاكاة ساخرة للأسطورة القومية تدنيساً لها أو تجديفاً عليها. ومما له دلالة أن اليونانيين لم يكونوا يشعرون بأى حرج من نسبة مؤلف محاكاة ساخرة هو "حرب الفئران والضفادع" إلى هوميروس نفسه. وإلى هوميروس أيضاً كان يعزى عمل هزلى (قصيدة) عن الأحمق مرغيت. أن أى جنس مباشر وكل جنس مباشر، إن أى كلمة مباشرة وكل كلمة مباشرة - ملحمية، أساسية غنائية، فلسفية - يمكنه ويمكنها، وعليه وعليها أن يصبح (أو تصبح) موضوع تصوير، موضوع محاكاة ساخرة منكورة. فمثل هذه المحاكاة تبدو كأنها تسليخ الكلمة عن الموضوع، تفرق بينهما، تظهر أن كلمة الجنس المباشرة هذه - الملحمية أو الأساسية - وحيدة الجانب، محدودة، لا تستنفد الموضوع؛ المحاكاة الساخرة تجعلنا نحس ونلمس جوانب الموضوع التى لا يتسع لها هذا الجنس أو هذا الأسلوب. إن المبدع المنكر المحاكى محاكاة ساخرة يصوب دائماً ويصحح بالضحك والنقد الرصانة الأحادية الجانب التى للكلمة الرفيعة المباشرة، يصوبها بالواقع الذى هو دائماً أغنى وأكثر جوهرية، والذى هو دائماً، وهذا هو الأهم، أكثر تناقضاً وتبايناً من أن يستطيع الجنس الرفيع والمباشر أن يتسع له. الأجناس الرفيعة وحيدة الصوت، أما "الدراما الرابعة، والأجناس القريبة منها فتحافظ على الثنائية الصوتية القديمة التى للكلمة. إن المحاكاة الساخرة القديمة لا تعرف النفى العدمى. فالذين يحاكون محاكاة ساخرة ليسوا الأبطال إطلاقاً، وليست حرب طروادة والمشاركين فيها، بل الذى يحاكي هذه المحاكاة الساخرة هو إسباغ البطولة الملحمية عليها وعليهم، وليس هيرقل ومآثره بل

خلع البطولة المأساوية عليه وعليها. إن الجنس ذاته والأسلوب واللغة هي التي توضع بين معترضتين مرحلتين ساخرتين، وتوضع، إلى هذا، على خلفية الواقع المتناقض الذي لا يتسع لأطرها: إذاك تتكشف الكلمة الرصينة التي أصبحت الصورة الضاحكة للكلمة في كل محدوديتها وقصورها، لكنها لا تفقد قيمتها إطلاقاً. ولهذا كان ممكناً أن يظن الناس أو يتوهموا أن هوميروس نفسه هو الذي كتب محاكاة ساخرة لأسلوبه هو.

وتلقى معطيات الأدب اللاتيني مزيداً من الضوء على موضوع "الدراما الرابعة" التي أخذ يؤدي وظائفها في روما الأتيلانات الأدبية^(١). وحين صار للأتيلانات شكلها الأدبي ونصها المكتمل، وذلك منذ عهد سولا، صارت تمثل بعد المأساة في الـ Exodium. وهكذا كانت أتيلانات بوموبنيوس ونوفوريوس تمثل بعد مآسى أكسيوس. وكان بين الأتيلانات والمآسى تناسب دقيق جداً، إذ إن مطلب التناسب بين المادتين الرصينة والهزلية كان يحمل في الأرضية اللاتينية طابعاً أكثر صرامة وتماسكاً منه في اليونان ثم حل محلها في وقت لاحق الميمات^(٢)، وكانت هذه على ما يبدو تقلد المأساة تقليداً ساخراً.

وقد انعكس الميل إلى إرفاق أى معالجة مأساوية (أو رصينة بشكل عام) للمادة بمعالجة هزلية (منكرة محاكية محاكاة ساخرة)

(١) أتيلانا (Atellana) نوع من المسرح الشعبى الارتجالى فى روما القديمة يقوم بالأدوار فيه أشخاص يضعون الأقنعة وقد ورثه المسرح الإيطالى المعروف بـ "كوميديا الأقنعة" (Comelia del arte).

(٢) من mim أو "mimos" اليونانية، وهى جنس هزلى فى الأدب القديم يقوم على مشاهد مرتجلة صغيرة ذات مضمون هجائى. ومنها فى العصر القديم المسرح الإيمائى. كما يطلق على صاحب هذا الفن نفسه.

موازية لها فى الفنون التشكيلية أيضاً. ففيما يسمى "جلسات القناصل الشعرية" على سبيل المثال كانت ترسم إلى اليسار عادة مشاهدة هزلية بأقنعة مضحكة وإلى اليمين مشاهد مأساوية. ويصف ديترىخ الذى استخدم فن الرسم فى بومبى لحل مشكلة الأشكال الهزلية القديمة رسمين جداريين من هذه الرسوم على سبيل المثال: فى أحد الرسمين صورة أندروميذا وبيرسيوس ينقذها، ومن الجهة المقابلة صورة امرأة عارية تستحم فى بركة وتلتف أفعى حولها والفلاحون يهرعون إلى نجدتها وهم يحملون العصى والحجارة^(١). هذه اللوحة الثانية محاكاة ساخرة واضحة للمشهد الأسطوري الأول. إن موضوع الأسطورة هنا منقول إلى واقع نثرى خالص، وبيرسيوس نفسه مستبدل بفلاحين يحملون سلاحهم البدائى (قارن: عالم دون كيخوت الفروسي المنقول إلى لغة سانتشو).

ويطلعنا العديد من المصادر، ومنها على وجه الخصوص الكتاب الرابع عشر لاتينيوس، على وجود عالم هائل من أشكال المحاكاة الساخرة التكرية، يطلعنا مثلاً على بعض أعمال الفلوفوريين والديكيليين الذين كانوا "ينكرون" من ناحية الأساطير القومية والمحلية ويسخرون من ناحية أخرى "باللغات" والأساليب الكلامية النمطية للأطباء الغرباء والقوادين والمحظيات والفلاحين والعبيد إلخ. وكانت الأعمال المنكرة المحاكية محاكاة ساخرة التى ظهرت فى إيطاليا

(١) راجع: A. Dieterich. Pulcinella. Pompeyanische Wandbilder und römische Satyrspiele. Leipzig, 1897, s. 131.

الجنوبية غنية ومتنوعة بشكل خاص. فهنا ازدهرت الألعاب والأحاجي المازحة المحاكية محاكاة ساخرة، وخطب رجال العلم والقضاء المحاكاة محاكاة ساخرة، وازدهرت أشكال الحوارات - المساجلات المحاكية محاكاة ساخرة التي شكلت في أحد أنواعها جزءاً مهماً من الملهاة اليونانية. لكن الكلمة تحيا هنا حياة مختلفة تماماً عن حياتها في الأجناس اليونانية الرفيعة المباشرة.

ونذكر أن "الميم" الأكثر بدائية، أي أن أردأ أصناف الممثلين الجوالين، كان يجب أن يملك مهارتين كد أدنى مهني: محاكاة أصوات الطيور والحيوانات ومحاكاة كلام الفلاح والقواد والمتعالم والغريب وإيماءاتهم وحركاتهم. مازالت الحال حتى الآن على ما كانت عليه بالنسبة للممثل المقلد في المعارض وحفلات التهريج.

ولم يكن عالم ثقافة الضحك اللاتيني أقل غنى وتنوعاً من العالم اليوناني. وتتمتاز روما بحيويتها الدؤوبة في سخريتها الطقسية. فمن المعروف لدينا جميعاً سخریات الجنود الطقسية المشروعة من الظافر؛ ومن المعروف تماماً الضحك الروماني الطقسي في المآتم؛ ومن المعروف تماماً حرية الضحك الإيمائي التي كرست قانونياً؛ كما لا نرى حاجة إلى التوسع في موضوع الساتورناليات^(١). ما يهمنا هنا ليس الجذور الطقسية لهذا الضحك، بل نتاجه الأدبي الفني ودوره في

(١) ساتورنالي: أعياد سنوية كانت تقام في روما القديمة على شرف الإله ساتورن. وكانت تترافق عادة بكرنفال لم تكن تراعى فيه الفروق الطبقيّة.

مصائر الكلمة. لقد كان الضحك الرومانى، كالقانون الرومانى، إبداعاً
جد مثمر وخالداً. ولقد شق هذا الضحك طريقه خلال رصانة القرون
الوسطى المظلمة ليخصب أعظم إبداعات عصر النهضة الأوروبى،
وما زالت أصدائه تتردد حتى الآن فى ظواهر كثيرة فى ظواهر الإبداع
الكلمى الأوروبى.

إن وعى الرومان الأدبى الفنى لم يكن يتصور شكلاً رصيناً
دون معادله الضاحك. الشكل الرصين المباشر كان يبدو لهم جزءاً من
الكل فقط، مجرد نصفه؛ أما الكل فلم يكن يكتمل إلا بإضافة المقابل
(الضد) الضاحك لهذا الشكل. فكل ما هو رصين كان يجب أن يكون له
بديله الضاحك، وقد كان له هذا البديل. وكما كان المهرج فى
الساتورناليات يحل محل القيصر، والعبد محل السيد، كان لكل أشكال
الثقافة والأدب بدائلها الضاحكة. ولهذا السبب أنشأ الأدب الرومانى
القديم، ولاسيما أدب الفئات الدنيا، الشعبى منه، هذا العدد الهائل من
أشكال المحاكاة الساخرة المنكرة: وقد زخرت بهذه الأشكال الميمات
والقصائد الهجائية الكبيرة منها والصغيرة ومجالس الطعام والأجناس
البلاغية والرسائل وظواهر عديدة من ظواهر فن الإضحاك والهزل فى
الأوساط الشعبية الدنيا. ولقد نقل التقليد الشفوى (على وجه الخصوص)
الكثير من هذه الأشكال إلى القرون الوسطى، ونقل أسلوبها ذاته
والمتماسك الجرى للمحاكاة الساخرة الرومانية. لقد تعلمت الثقافات
الأوروبية الضحك والإضحاك (السخرية) من روما. لكن تراث روما
الضخم فى الضحك لم يصلنا منه فى التقليد الكتابى إلا النزر اليسير:

ذلك أن القائمين على نقل هذا التراث كانوا من الأهليستيين، فكانوا يأخذون الكلمة الرصينة ويستبعدون انعكاسها الضاحك بوصفه تدنيًا، ومثال ذلك المحاكيات الساخرة العديدة لفرجيليوس.

وهكذا أنشأ العصر القديم إلى جانب الأجناس المباشرة، والكلمة المباشرة غير المتحفظ عليها بنماذجها العظيمة، عالمًا كاملاً غنيًا من أشكال الكلمة غير المباشر، المتحفظ، المحاكية المنكرة وتنويعاتها وأنماطها البالغة التنوع. ومصطلحنا "الكلمة المحاكية محاكاة ساخرة المنكرة" لا يغطي بطبيعة الحال كل ما في كلمة الضاحكة من غنى في الأنماط والتنويعات والفروق. ففيم تقوم وحدة أشكال الضحك البالغة التنوع هذه، وما هي علاقتها بالرواية؟

بعض أشكال الإبداع المحاكى محاكاة ساخرة المنكر يستعيد بشكل مباشر وصريح أشكال الأجناس التي يحاكيها، مثال ذلك القصائد والمآسي المحاكاة محاكاة ساخرة ("تراغوبودغرا" للوقيانوس على سبيل المثال) وخطب المحاكم المحاكاة محاكاة ساخرة إلخ. إنها محاكيات ساخرة وتكريرات بالمعنى الضيق. ونقع في حالات أخرى على أشكال جنسية خاصة كالدراما الهجائية، والملهاة المرتجلة والقصيدة الهجائية، والحوار الذي لا موضوع له غيرها. إن أجناس المحاكاة الساخرة لا تنتمي إلى تلك الأجناس التي تحاكيها كما قلنا سابقًا، أي أن قصيدة المحاكاة الساخرة ليست قصيدة على الإطلاق. وهذه الأجناس الخاصة كالتى ذكرناها رجراجة، غير مكتملة شكلاً، ليس لها قوام جنسى محدد. إن كلمة المحاكاة الساخرة المنكرة كانت فى تربتها القديمة

شريدة من حيث الجنس، لا ملجأ لها. وكل هذه الأشكال المحاكية محاكاة ساخرة المنكرة المتنوعة كانت تشكل عالمًا خاصًا خارج الأجناس أو عالمًا يقع بين الأجناس. لكن هذا العالم كانت توحيده أو لا وحدة الهدف: وهو إيجاد مصوب ومصحح يقوم على الضحك والنقد لكل الأجناس واللغات والأساليب والأصوات المباشرة الموجودة، وجعلنا نلمس وراءها الواقع الذى لا ندركه أو الواقع المتناقض. وهذا الضحك هو الذى مهد السبيل أمام لا خشوعية الشكل الروائى. وكانت توحيده، ثانيًا، وحدة الموضوع: وهذا الموضوع كان دائمًا اللغة ذاتها فى وظائفها المباشرة التى (أى اللغة) كانت تتحول إلى صورة للغة، إلى صورة للكلمة المباشرة. وبالتالي فإن هذا العالم الخارج عن الأجناس أو الواقع بين الأجناس موحد داخليًا. بل إنه يبدو كلاً ذا خصوصية متميزة. فكل ظاهرة فيه - سواء كانت حوار، محاكاة ساخرة أو مشهدًا حياتيًا يوميًا أو قصيدة ريفية أو رعوية مؤمثلة أو غيرها - تبدو كأنها جزء من كل واحد. وهذا الكل واحد، فى تصورى، هو رواية ضخمة متعددة الأجناس، متعددة الأساليب، نقدية بلا رحمة، ساخرة بتبصر، تعكس كل التنوع الكلامى والتنوع الصوتى لثقافة ما، لشعب ما وعصر ما. وفى هذه الرواية الكبيرة - التى هى مرآة التنوع الكلامى الذى فى طريقه إلى الصيرورة - كل كلمة مباشرة، ولاسيما الكلمة المسيطرة، تتعكس بقدر أو بآخر على أنها محدودة، نمطية مميزة، شائخة، فى طريقها إلى الموت، على أنها كلمة نضجت لى تستبدل وتجدد. وبالفعل كان من الممكن أن تنشأ من هذا

الكل الضخم من الأصوات والكلمات المحاكية محاكاة ساخرة المنكرة في العالم القديم رواية، رواية بمعنى تشكيل متعدد الصور والأساليب، لكن الرواية لم تستطع أن تتمثل وتستخدم كل المادة الجاهزة لإنشاء صور اللغة. وأقصد هنا "الرواية اليونانية"، أبوليوس وبترونيوس. ويبدو لي أن العالم القديم لم يكن قادرًا على أن يفعل أكثر من هذا.

لقد مهدت الأشكال المحاكية محاكاة ساخرة المنكرة لمجىء الرواية من ناحية جد مهمة بل حاسمة، وهي أنها حررت الموضوع من سلطة اللغة التي كان الموضوع يتخبط فيها كما في شبكة، وحطمت سلطة الأسطورة المطلقة على اللغة، وحطمت انغلاقية الوعي الصماء في كلمته، في لغته، وبالتالي أوجدت تلك المسافة بين اللغة والواقع التي هي شرط ضروري لإنشاء أشكال واقعية فعلاً للكلمة.

كان الوعي اللغوي يصير، وهو يحاكي الكلمة المباشرة والأسلوب المباشر محاكاة ساخرة ويتلمس حدودهما وجوانبهما المضحكة ويظهر وجههما النمطي المميز، خارج هذه الكلمة المباشرة وكل وسائلها التصويرية والتعبيرية. كانت تنشأ طريقة جديدة من العمل الخلاق مع اللغة: كان المبدع يتعلم النظر إليها من الخارج، بعينين غريبتين، من وجهة نظر لغة أخرى محتملة وأسلوب آخر محتمل. ذلك أن هذا الأسلوب المباشر إنما يحاكي محاكاة ساخرة وينكر ويسخر منه على ضوء هذا الأسلوب - اللغة المحتملة بالضبط. إن الوعي المبدع يقف كأنما على تخوم اللغات والأساليب. وهذا موقف خاص جدًا من

اللغة يتخذها الوعى المبدع. أن الريبسود^(١) أو الأييد^(٢) كان يحس بنفسه في لغته، في أسلوبه على نحو مختلف تمامًا عما يحس بها مبدع "حرب القتران والضفادع" أو مبدعو "مرغيت".

إن الكلمة المباشرة المبدعة - الملحمية، المأسوية، الغنائية - تتعامل مع الموضوع الذى تمجده، تصوره، تعبر عنه، ومع لغتها بوصفها الأداة الوحيدة والمناسبة تمامًا لتحقيق قصدها المباشر بالنسبة لهذا الموضوع. وهذا القصد وقوامه الموضوعى - الثيماوى لا ينفصلان عن لغة المبدع المباشرة: فقد ولدا ونضجا في هذه اللغة، في الأسطورة القومية والقصص القومى الذى يخرقها. أما موقف الوعى المحاكى محاكاة ساخرة والمنكر وتوجهه فهما غير ذلك: فهذا الوعى يتوجه إلى الموضوع وإلى الكلمة الغريبة المحاكاة محاكاة ساخرة عن هذا الموضوع، الكلمة التى تصبح هى نفسها هنا صورة. تنشأ هنا تلك المسافة بين اللغة والواقع التى تحدثنا عنها. ويتم تحول اللغة من عقيدة مطلقة كما هى حالها فى نطاق الانغلاق والوحدانية اللغوية الصماء إلى فرضية عمل لإدراك الواقع والتعبير عنه.

لكن تحولاً كهذا لا يمكن أن يتم فى كل مبدئياته وامتلائه إلا بتوفر شرط محدد هو، على وجه الضبط، وجود تعدد لغوى جوهري. فالتعدد اللغوى وحده الذى يحرر الوعى تحريراً كاملاً من سلطة لغته

(١-٢) الريبسود: منشد للقائد الملحمية (وخصوصاً قصائد هوميروس) فى الاحتفالات والمباريات والولاتم. وكان، بخلاف الأييد، لا يرتجل بل "يركب" جامعاً بين نصوص مختلفة (المترجم).

والأسطورة اللغوية هو والأشكال المحاكية محاكاة ساخرة المنكرة
تزدهر في ظروف العدد اللغوي، ولا تستطيع أن ترقى إلى مستوى
إيديولوجي جديد تمامًا إلا في حال وجوده.

كان الوعي الأدبي الروماني ثنائي اللغة. أما الأجناس اللاتينية
القومية الخالصة التي ولدت في أحادية اللغة فقد ذوت ولم تأخذ شكلاً
أدبياً كاملاً. لقد أبدع وعي الرومان الأدبي الإبداعى من البداية حتى
النهاية على خلفية اللغة اليونانية والأشكال اليونانية. ومنذ الخطوات
الأولى التي خطتها الكلمة اللاتينية الأدبية كانت تنظر إلى نفسها على
ضوء الكلمة اليونانية وبعينى الكلمة اليونانية؛ كانت منذ البداية كلمة
ذات الثقافة من نمط مؤسلب؛ كانت كأنها تضع نفسها بين معترضتين
خشوعيتين مؤسلبتين خاصتين.

لقد نشأت اللغة اللاتينية الأدبية في كل أنواع أجناسها على
ضوء اللغة اليونانية الأدبية. وكان الوعي اللغوي الإبداعى ينظر إلى
فرادتها القومية وفكرها اللغوي الخاص نظرة ما كان لها أن تكون
كذلك في ظرف وجود لغوي واحد. فأنت لا تستطيع أن "تموضع"
(Objectiver) لغتك الخاصة وشكلها الداخلى وأصالة تأملها العالم،
وطريقتها الخاصة في الحياة (habitus) إلا في ضوء لغة أخرى،
غريبة تكاد تكون "لغتك" بقدر ما لغتك الأم هي لغتك.

يقول أ. فيلاموفتس ميليندورف في كتابه عن أفلاطون ما يلى:
"معرفة اللغة بتفكير آخر هي وحدها التي تؤدي إلى فهمك لغتك

الخاصة الفهم المناسب ...^(١) لن أكمل المقبوس. فالكلام فيه يتعلق قبل كل شيء بالفهم المعرفي الألسنى الخالص للغة الأم، فهو لا يتحقق إلا فى ضوء لغة أخرى، غريبة. لكن هذه الموضوعات تصح على الفهم الألسنى لها. زد على ذلك أن تبادل الإنارة مع اللغة الغريبة فى عملية الإبداع الأدبى ينير "ويموضع" الجانب "التأملى" بالذات للغتك (وللغة الغريبة)، وشكلها الداخلى ونظام قيمها ونبراتها الخاص. وبالنسبة إلى الوعى الأدبى المبدع فإن ما يتصدر ويبرز فى المجال المنار بلغة أخرى ليس النظام الصوتى للغتنا بطبيعة الحال وليس خصائصها الصرفية، ولا قاموسها المجرد، بل، على وجه الضبط، ما يجعل اللغة نظرة إلى العالم مشخصة وعصية على الترجمة ترجمة كاملة، أى بالضبط أسلوب اللغة بوصفها كلا.

إن اللغة - بمجملها - أى لغتك الأم ولغتك الغريبة - هى أسلوب مشخص وليست نظاماً ألسنيا مجردا وذلك بالنسبة إلى الوعى الأدبى المبدع الثنائى اللغة (وهكذا بالضبط كان وعى الرومانى الأدبى). أن إدراك اللغة كلها من الأسفل إلى الأعلى بوصفها أسلوبا، وهو إدراك بارد قليلاً "ومظهر خارجياً" - كان من الصفات اللصيقة جداً بالإنسان الرومانى الأدبى ومميزة له. فقد كان يكتب ويتكلم وهو يؤسلب، وهو لا يخلو من بعض الغربة الباردة عن لغته. ولهذا السبب فإن مباشرة الكلمة اللاتينية الأدبية الموضوعية والتعبيرية هى دائماً

(١) U. Wilamoo Witz-Moellendorff. Platon, T. Berlin, 1920, s. 290

اصطلاحية إلى حد ما (كما هي الحال أى أسلوبية). وعنصر الأسلوبية موجود فى كل أجناس الأدب الرومانى الكبيرة المباشرة، بما فى ذلك العمل الإبداعى العظيم للرومان الذى هو "الإنبيادة".

لكن الأمر ليس أمر هذه الثنائية اللغوية الثقافية التى لروما الأدبية. فبدايات الأدب الرومانى كانت تتصف بالثلاثية اللغوية. "ثلاث نفوس" كانت تعيش فى صدر إينيوس. إنما أيضاً ثلاث نفوس – ثلاث لغات – ثقافات كانت تعيش فى صدور كل رواد الكلمة الأدبية الرومانية تقريباً، كل هؤلاء المترجمين – الأسلوبيين الذين قدموا إلى روما من إيطاليا الجنوبية، حيث كانت تتقاطع حدود ثلاث لغات وثقافات: اليونانية والأوسكية والرومانية. كانت إيطاليا الجنوبية مهد ثقافة خاصة، مختلطة، هجينة وأشكال أدبية مختلطة. هجينة. وبهذا المهد الثقافى الثلاثى اللغة ارتبط بشكل جوهري نشوء الأدب الرومانى: فقد ولد هذا الأدب خلال عملية الإنارة المتبادلة بين هذه اللغات الثلاث: لغته الأم واللغتين الأخرين اللتين هما لغتاه – ولغتان غريبتان فى آن.

وروما، من وجهة نظر التعدد اللغوى، ليست سوى المرحلة الأخيرة للهيلينية، مرحلة انتهت بانتقال التعدد اللغوى الجوهري إلى عالم أوروبا البربرى ونشوء نمط جديد من التعدد اللغوى الوسيطى^(١).

(١) نسبة إلى القرون الوسطى.

لقد أوجدت الهيلينية لكل الشعوب البربرية الداخلة فى نطاقها مرجعاً لغوياً منيراً عظيماً وجباراً. وقام هذا المرجع بدور مصيرى بالنسبة إلى الأشكال القومية المباشرة للكلمة الفنية. فقد خنق كل بواكير الملحمة والغنائية القومية التى ولدت من الأعماق الأحادية اللغة الخرساء تقريباً، وجعلت الكلمة المباشرة للشعوب البربرية، الملحمية والغنائية، كلمة نصف اصطلاحية ونصف مؤسلبية. لكنه ساعد بالمقابل على نحو فريد فى تطور كل أشكال الكلمة المحاكية محاكاة ساخرة المنكرة. ففي التربة الهيلينية والرومانية الهيلينية أمكن توفر أقصى حد ممكن من المسافة بين المتكلم (المبدع) ولغته، وبين اللغة والعالم الأشياء والموضوعات. ولم يكن ذلك التطور الجبار للضحك الرومانى ممكناً إلا فى هذه الشروط.

تتميز الهيلينية بتعددتها اللغوى المعقد. كان الشرق، وهو نفسه متعدد اللغات متعدد الثقافات، تقطعه كله حدود متداخلة من ثقافات ولغات قديمة، أبعد من أن يكون عالماً أحادى اللغة ساذجاً وسلبياً بالنسبة إلى الثقافة اليونانية. فالشرق نفسه كان صاحب تعدد لغوى قديم ومعقد. وفى أرجاء العالم الهيلينى كله كانت تنتشر مراكز ومدن وبلدات كانت تتعايش فيها عفوية وفى تداخل أصيل عدة ثقافات ولغات. فهذه، على سبيل المثال، سميساط موطن لوقيانوس الذى لعب دوراً هاملاً فى تاريخ الرواية الأوروبية. سكان سميساط الأصليون سوريون يتكلمون الآرامية، بينما كانت الأوساط العليا المثقفة أدبياً من سكان المدينة تكتب كلها وتتكلم باليونانية، ولغة الإدارة والدواوين الرسمية

اللاتينية، وكان كل الموظفين رومانيين، كما كان فوج روماني يربط في المدينة. وكان يمر بسميساط طريق كبير (مهم جدًا من الناحية الاستراتيجية)، وفي هذا الطريق كانت تعبر أيضًا لغات ما بين النهرين وفارس وحتى الهند. في نقطة تقاطع الثقافات واللغات هذه ولد وعى لوقيانوس الثقافي واللغوي وتشكل. وشبهًا بهذا الوسط كان والوسط اللغوي الثقافي للأفريقي أبوليوس ولمبدعي الروايات اليونانية الذين كانوا في معظم الحالات من البرابرة المصطبغين بالصبغة الهيلينية.

ويحل فروين رودى في كتابه عن تاريخ الرواية اليونانية^(١) عملية تفكك الأسطورة القومية اليونانية في تربة الهيلينية، وما يتصل بهذه العملية من تفسخ وتفتت أشكال الملحمة والدراما التي لم تكن ممكنة إلا على أرضية الأسطورة القومية الواحدة والمتكاملة. إن رودى لا يلقى الضوء على دور التعدد اللغوي. فالرواية بالنسبة إليه هي نتيجة تفسخ وانحلال الأجناس المباشرة الكبيرة. وهذا صحيح جزئيًا: فكل جديد يولد من موت القديم. لكن رودى ليس دياكتيكيًا، فهو لا يرى الجديد بالضبط. إنه يحدد بشكل صحيح تقريبًا أهمية الأسطورة القومية الواحدة والمتكاملة في إنشاء الأشكال الكبيرة للملحمة والشعر الغنائي والدارما. لكن عملية انحلال الأسطورة القومية، التي كانت مصيرية وقاتلة بالنسبة إلى الأجناس الهيلينية المباشرة الأحادية اللغة، كانت منتجة، بالمقابل، بالنسبة إلى ولادة الكلمة الروائية النثرية الفنية

(١) راجع: Erwin Rohde. Der griechische Roman und Seine Vorläufer, 1876.

الجديدة وتطورها. ودور التعدد اللغوى فى عملية موت الأسطورة هذه وولادة التبصر الروائى ذو أهمية فائقة. ففى عملية تبادل الإنارة النشط بين اللغات والثقافات صارت اللغة شيئاً مختلفاً، إذ تغيرت كيفاً: فقد ظهر عالم اللغات العديدة المتبادلة الإنارة الغاليلئى المفتوح مكان عالم اللغة الواحدة الوحيدة البطلليموسى المغلق.

لكن المصيبة أن الرواية اليونانية لا تمثل إلا تمثيلاً جد باهت هذه الكلمة الجديدة التى للوعى المتعدد اللغات. فهذه الرواية لم تحل فى حقيقة الأمر إلا مشكلة الموضوع (Sujet)، وكان حلها إلى هذا حلاً جزئياً. فقد نشأ جنس متعدد الأجناس جديد وكبير انطوى على حوارات من أنماط مختلفة، وعلى مقطوعات غنائية ورسائل وخطب ووصف للبلدان والمدن وعلى قصص طويلة إلخ. كان هذا الجنس موسوعة أجناس. لكن هذه الرواية المتعددة الأجناس كانت نسبية تقريباً: فالكلمة هنا كلمة نصف اصطلاحية نصف مؤسلبية. والتوجه نحو الأسلبية بالنسبة إلى اللغة الذى يتصف به أى تعدد لغوى وجد هنا تعبيره الساطع. لكنه توجد هنا أيضاً إلى جانبه أشكال نصف محاكية محاكاة ساخرة، وأشكال منكرة وساخرة، وهى على ما يبدو، أكثر مما يعترف به الباحثون. فالحدود بين الكلمة نصف المؤسلبية والكلمة نصف المحاكية محاكاة ساخرة فائقة جداً: يكفى أن نشدد قليلاً جداً على الجانب الاصطلاحي فى الكلمة المؤسلبية، حتى تكتسب هذه طابع المحاكاة الساخرة الرقيقة والسخرية والخفيفة والتحفظ: لست أنا، فى حقيقة الأمر، الذى يقول هذا، فأنا ربما قلت شيئاً مختلفاً. لكننا نكاد لا

نقع فى الرواية اليونانية على لغات - صور، على انعكاس للعصر الذى يتكلم بطرق مختلفة. ومن هذه الناحية فإن بعض أنواع الأدب الهجائى الهيلينى والرومانى "روائى" أكثر بما لا يقارن من الرواية اليونانية.

وعلىنا أن نوسع مفهوم التعدد اللغوى بعض الشيء. فقد كنا نتكلم حتى الآن عن الإنارة المتبادلة بين اللغات القومية الكبرى المكتملة والموحدة (اليونانية، اللاتينية مثلاً) التى قطعت سلفاً مرحلة طويلة من الأحادية اللغوية الهادئة والمستقرة نسبياً. لكننا رأينا أن اليونانيين كانوا يملكون حتى فى الفترة الكلاسيكية من وجودهم عالماً غنياً جداً من أشكال المحاكاة الساخرة المنكرة ومن غير المحتمل أن يكون لغنى كهذا فى صور اللغات أن ينشأ فى ظروف الأحادية اللغوية الصماء والمغلقة.

وعلىنا ألا ننسى أن أى أحادية لغوية نسبية فى حقيقة الأمر. فلغة هذه الأحادية الوحيدة ليست واحدة: إذ فيها دائماً رواسب اللغة الغريبة وإمكاناتها - رواسب وإمكانات يحس بها الوعى اللغوى الأدبى المبدع بقدر أو بآخر من الحدة والقوة.

لقد وفر العلم المعاصر رصيذاً كبيراً من الوقائع التى تشهد على الصراع المتوتر بين اللغات وداخل اللغة فى الفترة التى سبقت حالة الاستقرار النسبى للغة اليونانية (وهى الحالة التى نعرف اللغة اليونانية فيها). أن عدداً كبيراً من جذور هذه اللغة يعود إلى لغة القوم الذين

قطنوا أرض اليونان قبل اليونانيين أنفسهم. ونحن نقف فى اللغة اليونانية الأدبية على امتدادات أصيلة وخاصة للهجات فى بعض أجناس هذه اللغة. وهذه الوقائع الفجة تخفى وراءها عملية صراع معقدة بين اللغات واللهجات، وعمليات تهجين وتطهير وتعاقب وتجديد، وطريقا طويلة ومتعرجة من الصراع فى سبيل وحدة اللغة الأدبية وأجناسها المختلفة. ثم أعقبت ذلك فترة طويلة من الاستقرار النسبى. لكن ذكرى عواصف الماضى اللغوية هذه ظلت حية ليس فى الآثار اللغوية المتجمدة وحسب، وإنما فى تشكيلات أدبية أسلوبية وفى مقدماتها أشكال الإبداع المحاكى محاكاة ساخرة المنكر.

فى الفترة التاريخية من حياة اليونانيين القدامى، وهى فترة مستقرة وأحادية اللغة من الناحية اللغوية، ولدت كل موضوعاتهم (Sujets) وكل مخزونهم من الأشياء والموضوعات (التيماٲات)، وكل رصيدهم الأساسى من الصور والتعابير والنبرات فى حضان لغتهم الأم. وكان كل ما يفد إليهم من الخارج (ولم يكن بالقليل) يتم تمثله فى وسطهم الأحادى اللغة المغلق الجبار والواثق، الذى كان ينظر بازدراء إلى التعدد اللغوى لعالم البرابرة. ومن أحشاء هذه الأحادية اللغوية والواثقة والمطلقة ولدت الأجناس المباشرة العظيمة عند اليونانيين. ملحماتهم وشعرهم الغنائى ومأساتهم. وكانت هذه الأجناس تعبر عن اتجاهات المركزة فى اللغة. لكنه كان يزدهر إلى جانبها، لاسيما فى الأوساط الشعبية الدنيا، إبداع محاكاة ساخرة منكر كان يحتفظ بذكرى الصراع اللغوى القديم كما كانت تغنيه عمليات التفكك والتباين اللغوى القائمة باستمرار.

وترتبط بمشكلة التعدد اللغوى ارتباطاً وثيقاً مشكلة التنوع الكلامى داخل اللغة، أى مشكلة التباين والتفكك الداخلى لأى لغة قومية. ولهذه المشكلة أهمية من الدرجة الأولى لفهم أسلوب الرواية الأوروبية ومصائرهما التاريخية فى العصر الحديث، أى بدءاً من القرن السابع عشر. فهذه الرواية تعكس فى بنيتها الأسلوبية صراع الاتجاهات الممركزة (الموحدة) واللاممركزة (المفككة) فى لغات الشعوب الأوروبية. إن الرواية تشعر بنفسها تقف على حدود اللغة الأدبية الجاهزة والسائدة ولغات التنوع الكلامى الخارجة عن الأدب؛ فهى إما أن تخدم الاتجاهات الممركزة للغة الأدبية الجديدة المتشكلة (بمعاييرها القواعدية والأسلوبية والأيدولوجية) وإما أن تناضل، على العكس، من أجل تجديد اللغة الأدبية الشائخة على حساب طبقات اللغة القومية التى (أى الطبقات) ظلت بقدر أو بآخر خارج التأثير الممركز والموحد لمعيار اللغة الأدبية القومية الفنى الأيدولوجى. والوعى اللغوى الأدبى لرواية العصر الحديث يشعر - بالإضافة إلى أنه يقف على حدود التنوع الكلامى الأدبى والخارج عن نطاق الأدب - أنه يقف أيضاً على حدود الزمن: فهو يحس إحساساً فريداً فى حدته بالزمن فى اللغة، بتغيره، وبتقادم اللغة وتجديدها، بالماضى والمستقبل فى اللغة.

وكل هذه العمليات التى تعكسها الرواية من تعبير اللغة القومية وتجديدها لا تحمل فى الرواية طابعاً ألسنياً مجرداً بطبيعة الحال: فهى لا تتفصل عن الصراع الاجتماعى والأيدولوجى، عن صيرورة المجتمع والشعب وتجديدهما.

وعلى هذا فالتنوعية الكلامية الداخلية للغة ذات أهمية بالغة بالنسبة إلى الرواية. لكن هذه التنوعية الكلامية لا تبلغ ملء وعيها الإبداعى إلا فى ظروف التعدد اللغوى الفعال، حيث تسقط أسطورة اللغة الوحيدة وأسطورة اللغة الواحدة معاً وفى آن واحد. ولهذا السبب أمكن للتعدد اللغوى فى القرون الوسطى الذى مرت به كل الشعوب الأوروبية، وللإنارة المتبادلة القوية بين اللغات التى حدثت فى عصر الانبعاث من خلال استبدال اللغة الأيديولوجية (اللاتينية) وانتقال الشعوب الأوروبية إلى أحادية العصر الحديث اللغوية النقدية، أن يمهدا السبيل أمام رواية العصر الحديث الأوروبية التى تعكس التنوع الكلامى داخل اللغة وتقدم - تجدد اللغة الأدبية وأجناسها المختلفة.

(٣)

كان أدب الضحك، أدب المحاكاة الساخرة المنكرة فى القرون الوسطى على جانب عظيم من الغنى. والقرون الوسطى من حيث غنى أشكال المحاكاة الساخرة وتنوعها قريبة من روما. وينبغى القول إن القرون الوسطى فى العديد من جوانب إبداعها الضاحك تبدو الوريث المباشر لروما. ونذكر على وجه الخصوص أن تقليد الساتورنالى استمر حياً على امتداد العصور الوسطى كلها إنما فى شكل مختلف قليلاً. فروما الساتورنالى الضاحكة المعتمدة طاقية المهرج

– Pileata Roma^(١) (مارسيال) استطاعت الاحتفاظ بقوتها وسحرها في أشد عهود القرون الوسطى ظلامًا. لكن الإنتاج الضاحك الأصلي للشعوب الأوروبية الذي نشأ على أرضية الفولكلور المحلى كان أيضًا كبيرًا جدًا.

إن مسألة الاقتباس واحدة من أهم المسائل الأسلوبية في الهيلينية. فقد كانت أشكال الاقتباس الصريح ونصف الخفى والخفى وأشكال تأطير السياق للمقبوس، وأشكال المعترضات النبوية، والدرجات المختلفة في تغريب الكلمة الغريبة (كلمة الغير) أو تبنيها لا تقع تحت حصر. وهنا، كثيرًا ما يبرز سؤال: هل يقتبس المؤلف ما يقتبسه بخشوع أم، على العكس، بسخرية، باستهزاء. هذه المورابة (احتمال المعنيين) فى الموقف من الكلمة الغريبة كثيرًا ما كانت مقصودة.

ولم يكن الموقف من الكلمة الغريبة فى القرون الوسطى أقل تعقيدًا ومورابة. لقد كان دور الكلمة الغريبة، دور الاقتباس الصريح والمشدد عليه بخشوع، ونصف الخفى، والخفى، نصف الواعى واللاواعى، الدقيق والمشوه عمدًا، والمشوه عن غير قصد، والمأول عمدًا إلخ فى أدب القرون الوسطى عظيمًا جدًا. كانت الحدود بين كلام المؤلف وكلام الآخر مائعة، غامضة، وكثيرًا ما كانت متعرجة ومشوشة عن عمد. وبعض أنواع المؤلفات كانت كالفسيفساء تبنى من

(١) روما فى طاقة العيد.

نصوص غريبة. مثال ذلك ما يسمى السنتو (Cento) وهو جنس خاص كان يشكل من أبيات ومصاريع شعرية غريبة فقط. ويؤكد أحد أفضل العارفين بالمحاكاة الساخرة في القرون الوسطى، وهو باول ليمان، صراحة أن تاريخ الأدب في القرون الوسطى، ولاسيما الأدب اللاتيني، هو "تاريخ أخذ ما للغير ومعالجته ومحاكاته"^(١)، ونحن نقول بلغتنا إنه "تاريخ اللغة الغريبة والأسلوب الغريب والكلمة الغريبة".

هذه الكلمة الغريبة التي بلغة غريبة كانت قبل كل شيء كلمة التوراة والإنجيل والرسل وآباء الكنيسة ومعلميها المقدسة والمسموعة جدًا. هذه الكلمة تُدرج باستمرار في سياق أدب القرون الوسطى وفي كلام المتعلمين (الإكليرس). لكن كيف تُدرج هذه الكلمة وما موقف السياق المتلقى لها منها، وفي أي معترضات نبروية توضع؟ هنا نكتشف سلمًا كاملاً من المواقف من هذه الكلمة يبدأ من الاقتباس الخاشع والخامل، المبرر والمؤطر كأيقونة وينتهي بأشد أنواع استخدامها استخدام محاكاة ساخرة منكرة مواربة وفحشًا. والتحويلات بين هذه الفروق وانتقال أحدها إلى الآخر من الميوعة والغموض بحيث يصعب علينا في أحيان كثيرة الجزم فيما إذا كان هذا الاستخدام للكلمة المقدسة تقويًا أو أنه أكثر ألفة أو أنه لعب محاكاة ساخرة معها، أو الجزم أخيرًا بدرجة الجرأة في هذا اللعب.

(١) راجع Paul Lehmann. Die parodie im mitle Lalter. Munchen, 1922,s.

ففى فجر القرون الوسطى ظهرت مجموعة من أعمال
المحاكاة الساخرة الرائعة. أحد هذه الأعمال هو "عشاء سبيريانى"
(Cena Cypriani) المعروف وهو حفلة شرب قوطية شائعة جدًا.
فكيف صُنِعَ هذا العمل؟ يبدو كأن التوراة كلها والإنجيل كله قُطِعا
قصاصات ثم لصقت هذه القصاصات إحداها بالأخرى بحيث تشكّلت
منها لوحة عظيمة لمأدبة شرب فيها كل شخوص التاريخ المقدس من
آدم وحواء حتى المسيح ورسله ويأكلون ويمرحون. وإن اللوحة راعت
بدقة وصرامة مطابقة كل التفاصيل مع ما جاء فى الكتاب المقدس،
ومع هذا تحولت الكتابة المقدسة هنا إلى كرنفال أو على الأدق إلى
ساتورنالى. إنها "Pileata Biblia"^(١).

ولكن ما هو قصد صاحب هذا العمل؟ ما هو موقفه من الكتاب
المقدس؟ الباحثون يعطون إجابات مختلفة على هذه الأسئلة. الجميع
متفقون هنا، طبعًا على أن هناك لعبًا بالكلمة المقدسة، لكن درجة
الجرأة فى هذا اللعب ومغزاه هما محل الاختلاف. بعضهم يؤكد أن
الغرض من هذا اللعب برئ جدًا - إنه لمساعدة الذاكرة فقط، إنه للتعليم
عن طريق اللعب. فمن الأفضل، لمساعدة المؤمنين الذين كانوا إلى
عهد قريب وثنيين، أن يتذكروا صور الكتاب المقدس وأحداثه، وعلى
هذا صنع صاحب "العشاء" من هذه الصور والأحداث لوحة زخرفية

(١) الكتاب المقدس فى طاقة العيد.

لحفلة شرب. ويرى غيرهم في "العشاء" محاكاة ساخرة تجديفية صريحة.

لم نورد آراء الباحثين هذه إلا على سبيل المثال وللدلالة على تعقيد تعامل العصور الوسطى مع الكلمة المقدسة الغربية وازدواجية معناها. إن "عشاء سبيريان" ليس وسيلة تعليمية بطبيعة الحال. إنه محاكاة ساخرة، وبعبارة أدق محاكاة ساخرة تتركية. إنما علينا ألا نسحب تصوراتنا الحديثة عن كلمة المحاكاة الساخرة على المحاكاة الساخرة في القرون الوسطى (كما على المحاكاة الساخرة في اليونان أو روما). إن وظائف المحاكاة الساخرة في الأدب الجديد تافهة. نحن نعيش ونكتب ونتكلم في عالم لغة حرة وديمقراطية (أصبحت ديمقراطية): ذلك أن التربية المعقدة والمتدرجة التي كانت سابقاً للكلمات والأشكال والأساليب والتي اخترقت كل نظام اللغة الرسمية والوعى اللغوى قد نسفتها الانقلابات اللغوية لعصر الانبعاث وقد نشأت اللغات الأدبية الأوروبية - الفرنسية والألمانية والإنكليزية - خلال عملية تحطيم هذه الرتبية، كما أن الأجناس الضاحكة والمنكرة في العهود المتأخرة من العصر الوسيط وفي عصر الانبعاث - القصص الطويلة (nouvelles) وألعاب أسبوع المرفع (الأسبوع الذى يسبق الصوم الكبير) والسوتى (Sotie)^(١) والفارس وأخيراً الروايات - شكلت هذه اللغات. لقد أنشأ كالفين ورابليه اللغة الفرنسية النثرية الأدبية لكن لغة كالفين نفسها، وهى لغة الفئات الوسطى من السكان

(١) السوتى نوع من الفارس ازدهر في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

(أصحاب الدكاكين والحرفيين) كانت خطأ مقصودًا وواعيًا من مستوى لغة التوراة المقدسة. إن الطبقات الوسطى من اللغات الشعبية كانت تدرك، بعد أن أضحت لغات الدوائر الأيديولوجية الرفيعة ولغات الكتاب المقدس، على أنها تتكرر يحط من مستوى هذه الدوائر الرفيعة. ولهذا السبب لم يبق للمحاكاة الساخرة إلا مكان متواضع على أرضية اللغات الجديدة: فهذه اللغات لم تعرف، وهى لا تعرف تقريبًا كلمات مقدسة، فهى نفسها ولدت إلى حد ما من المحاكاة الساخرة للكلمة المقدسة.

لكن دور المحاكاة الساخرة كان جوهريًا جدًا فى القرون الوسطى: فقد مهد الطريق أمام وعى لغوى أبى جديد، ومهد الطريق أيضًا أمام الرواية العظيمة فى عصر الانبعاث الأوروبى.

إن "عشاء سبيريان" نموذج عظيم للـ "Parodia Sacra" فى القرون الوسطى أى "للمحاكاة الساخرة المقدسة" وبتعبير أدق لمحاكاة النصوص والطقوس المقدسة محاكاة ساخرة، وهو أقدم هذه النماذج. إن الجذور العميقة لهذه المحاكاة تمتد إلى المحاكاة الطقسية الساخرة القديمة، إلى الهزء الطقسى من القوة العليا والخط منها لكن هذه الجذور بعيدة، فالعنصر الطقسى القديم قد تغير مدلوله وأخذت المحاكاة الساخرة تؤدى الآن وظائف جديدة وجوهرية تكلمنا عليها قبل قليل.

يجب علينا أولاً التتويه بالحرية المعترف بها والمشروعة التى كانت للمحاكاة الساخرة. فالقرون الوسطى كانت تحترم، مع تحفظات قليلة أو كثيرة، حرية طاقة المهرج وكانت تمنح الضحك وكلمة

الإضحاك حقوقاً واسعة. وكانت هذه الحرية مقصورة على أيام الأعياد والعطل الرسمية في الدرجة الأولى. إن ضحك القرون الوسطى هو ضحك أعياد. و"عيد الحمقى" و"عيد الحمار" المحاكيان محاكاة ساخرة والتكريان اللذان كانت الأوساط الدنيا من رجال الأكليروس تحييها في الكنائس نفسها معروفان. ومما له دلالة أيضاً "Risus Paschalis" أى "ضحك الفصح". فقد كانت التقاليد تسمح بالضحك في الكنيسة أيام عيد الفصح. كان الواعظ يسمح لنفسه أن يروى من فوق منبر الكنيسة مزحاً غير رصينة ونكات مرحة كي يثير ضحك أبناء رعيته، وكان هذا الضحك يعتبر إنعاشاً مرحاً لنفوسهم بعد أيام الانقباض والصوم. ويتصل بهذا "الضحك الفصحى" اتصالاً مباشراً أو غير مباشر كثير جداً من أعمال المحاكاة الساخرة المنكرة في القرون الوسطى. ولا يقل "ضحك عيد الميلاد" (Risus natalis) خصباً عن ضحك عيد الفصح. إلا أن الأول (أى ضحك عيد الميلاد) ظهر، بخلاف الثانى، على شكل أناشيد وليس على شكل قصص صغيرة. كانت الأناشيد الدينية الرصينة ترتل بألحان أغاني الشوارع، وبذلك كانت تجرى إعادة تنبيرها. ووجد إلى جانب هذا نتاج هائل الحجم من الأغاني الخاصة بعيد الميلاد التى كانت موضوعات الميلاد الخشوعية تتداخل فيها مع الموضوعات الشعبية التى تتحدث عن الموت المرح للقديم وعن ولادة الجديد. كان الهزء بالقديم عن طريق المحاكاة الساخرة المنكرة يسود هذه الأغاني معظم الأحيان، خصوصاً في فرنسا حيث أضحت "Noël" أى أغنية عيد الميلاد واحداً من أكثر

أنواع أغنية الشارع الثورية شعبية (أذكر هنا بقصيدة بوشكين "Noël" التي استخدم فيها موضوع الميلاد استخدام محاكاة ساخرة منكّرة). كان كل شيء تقريبًا مسموحًا به لضحك العيد.

وواسعة كانت الحقوق والحريات الممنوحة للطلاب في عطلةهم التي لعبت دورًا كبيرًا في حياة القرون الوسطى الثقافية والأدبية. وكانت إبداعات "هذه العطلة" ذات طابع محاكاة ساخرة منكّرة في المقام الأول. فتلميذ الدير، ثم الطالب فيما بعد، في القرون الوسطى كان يسخر في أوقات العطلة بضمير مرتاح من كل ما كان موضوعًا لدروسه التقوية خلال العام - من الكتاب المقدس وحتى القواعد اللغوية المدرسية. وقد أنشأت القرون الوسطى عددًا كبيرًا من التتويجات المحاكية محاكاة ساخرة منكّرة على قواعد اللغة اللاتينية؛ فالحالات وصيغ الأفعال، وبشكل عام كل المقولات القواعدية، كان يعاد تأويلها إما على مستوى شهواني غير لائق وإما على مستوى الطعام والشراب، وإما، أخيرًا، على مستوى الهزء من الرتبة والطاعة والكنسية والرهبانية. ويقف على رأس هذه التقاليد "القواعدية" الفريدة العمل الصادر في القرن الثاني عشر باسم "Virgilius Maro grammaticus". إنه عمل يتصف بالمعلومات الواسعة جدًا ويزخر بكمية غير معقولة من الاستشهادات والاقتباسات من كل الثقافة الممكنين في العالم القديم وأحيانًا ممن لا وجود لهم؛ وهذه

الاستشهادات والاقتباسات ذات طابع محاكاة ساخرة فى العديد من الحالات. فنحن نقع فى هذا الكتاب على تحليلات رصينة ودقيقة إلى حد كبير للقواعد، لكن هذه التحليلات تختلط بمغالة فى الدقة تجعل هذه الدقة ذاتها موضع محاكاة ساخرة. نرى فى المؤلف مثلاً تصويراً لمناقشة عملية تستمر أسبوعين حول قضية Vocativus من ego أى صيغة المنادى من ضمير "أنا". ونقول بشكل عام إن "Virgililius grammaticus" محاكاة ساخرة عظيمة وذكية للتفكير القواعدى الشكلى فى العصر القديم المتأخر. إنها ساتورنالى قواعدى، إنها grammatica pileata^(١).

ومما له دلالة أن كثيراً من علماء القرون الوسطى كانوا، فيما يبدو، يحملون هذه "الأرجوزة" على محل الجد، بينما نرى العلماء المعاصرين مختلفين فى تقويم طابع المحاكاة الساخرة فيها ودرجتها. وهذا برهان آخر على مدى ميوعة الحدود بين الكلمة المباشرة وكلمة المحاكاة الساخرة المواربة فى أدب القرون الوسطى.

كان ضحك الأعياد والعطل ضحكاً مشروعاً تماماً. كأنما كان يسمح للناس فى هذه الأيام بالانبعاث من قبر الرصانة السلطوية والتقوية، وبتحويل الكلمة المباشرة المقدسة إلى قناع محاكاة ساخرة منكراً. وفى هذه الظروف يصبح مفهوماً لماذا استطاع "عشاء سبيريان"

(١) القواعد اللغوية فى طاقة العيد.

أن يحظى بهذه الشعبية وهذا الانتشار الواسع حتى فى الأوساط الكنسية المتشددة. فى القرن الحادى عشر قام رئيس دير فولد المتشدد Rabanus Maaurus بصياغة هذا العمل شعراً. فصار يقرأ على مآدب الملوك وصار طلاب الأديرة يمثلونه فى عطل الفصح.

لقد نشأ أدب القرون الوسطى المحاكى محاكاة ساخرة المنكر العظيم فى مناخ الأعياد والعطل. فليس هناك جنس أو نص أو صلاة أو آية إلا وله (أو لها) معادل محاك ساخر. وقد وصلتنا ليتورجيات محاكاة ساخرة كليتورجيا السكيرين وليتورجيا المقامرين وليتورجيا المال. كما وصلتنا قراءات إنجيلية عديدة محاكاة محاكاة ساخرة تبدأ بالعبارة التقليدية "فى ذلك الزمان..." وتتضمن فى أحيان غير قليلة قصصاً غير لائقة إطلاقاً. كما وصلنا عدد هائل من الصلوات والأنشيد المحاكاة محاكاة ساخرة. وقد نشر العالم الفنلندى إييرو لفونين فى أطروحته Parodies de Thèmes pieux dans la Poésie Française du moyen âge (Helsing fors, 1914).

ستة نصوص محاكاة ساخرة "لأبانا الذى فى السموات..." وواحداً لـ "السلام عليك يا مريم"، واثنين لقانون الإيمان "تؤمن بالله واحد..."، لكنه لا يعطى إلا النصوص اللاتينية الفرنسية المختلطة. إن كمية الصلوات والأنشيد المحاكاة محاكاة ساخرة اللاتينية والمختلطة المحفوظة فى مخطوطات القرون الوسطى هائلة. وف. نوفاتى لا

يستعرض في كتابه "المحاكاة الساخرة المقدسة"^(١) إلا جزءًا يسيرًا من هذا الأدب. حسبنا الإشارة هنا إلى أن الوسائل الأسلوبية لهذه المحاكاة الساخرة وللتكثير وإعادة التأويل ولتغيير مواقع النبر بالغة التنوع، إلا أن هذه الوسائل لم تدرس إلا دراسة ضئيلة حتى الآن وبدون العمق الأسلوبى اللازم.

ونجد إلى جانب "المحاكاة الساخرة المقدسة" ألوانًا كثيرة من محاكاة وتنكير الكلمة المقدسة في أجناس وأعمال هزلية أخرى من أجناس القرون الوسطى وأعمالها كما في ملحمة الحيوان الهزلية.

إن بطل كل أدب المحاكاة الساخرة العظيم اللاتينى أساسًا (والمختلط في جزء منه) هذا هو الكلمة المقدسة، المهيبة، المباشرة بلغة غريبة. هذه الكلمة وأسلوبها ومعناها كانت تصبح موضوع تصوير، وتتحول إلى صورة محدودة ومضحكة. إن "المحاكاة الساخرة المقدسة" اللاتينية مبنية على خلفية اللغة القومية العامية، والنظام النبروى لهذه اللغة يتغلغل داخل النص اللاتينى. ولهذا السبب فالمحاكاة الساخرة اللاتينية هي في حقيقة الأمر ظاهرة ثنائية اللغة: فمع أن اللغة واحدة، إلا أنها تبني وتترك في ضوء لغة أخرى. كما لا يندر أن نلمس في المحاكاة الساخرة اللاتينية بوضوح ليس فقط نبرات اللغة

F. Novati. Parodia sacra nelle letterature moderne (Nonatais Studi (١) critici e letterari". Turin, 1889).

العامة بل صيغها النحوية أيضًا. إن المحاكاة الساخرة اللاتينية تركيب هجين ثنائى اللغة. وهنا نصل إلى مشكلة التركيب الهجين المقصود.

إن أى محاكاة ساخرة، إن أى تنكير، إن أى كلمة تستخدم بتحفظ، بسخرية وتوضع بين معترضتين نبرويتين، وعلى العموم أى كلمة غير مباشرة هى تركيب هجين مقصود، لكنه تركيب هجين أحادى اللغة، تركيب هجين من مستوى أسلوبى. وبالفعل يلتقى فى كلمة المحاكاة الساخرة ويتداخل أسلوبان، "لغتان" (من داخل اللغة الواحدة): اللغة المحاكاة محاكاة ساخرة (لغة القصيدة البطولية على سبيل المثال) واللغة المحاكية محاكاة ساخرة (اللغة النثرية الوضعية، اللغة المحكية الأليفية، لغة الأجناس الواقعية، اللغة الأدبية "الطبيعية"، "المعافاة" كما يراها صاحب المحاكاة الساخرة). هذه اللغة الثانية المحاكية (التي تبنى المحاكاة الساخرة وتترك على خلفيتها) لا تدخل شخصيًا فى قوام المحاكاة الساخرة (هذا إذا كانت المحاكاة الساخرة خالصة)، إنما تكون ذات حضور غير مرئى فى هذه المحاكاة.

ذلك أن أى محاكاة ساخرة تغير مواقع النبر فى الأسلوب المحاكى، تكثف بعض لحظاته وتبقى أخرى فى الظل: فالمحاكاة الساخرة متميزة، وهذا أمر تمليه خصائص اللغة المحاكية، نظامها النبروى وبنيتها، فنحن نحس بيدها فى المحاكاة الساخرة ونستطيع أن نتعرف إلى هذه اليد، كما نستطيع أن نتعرف فى بعض الأحيان بوضوح إلى النظام النبروى للغة عامة معينة وإلى تراكيبها النحوية وإلى إيقاعها فى المحاكاة اللاتينية الخالصة (أى أننا نستطيع أن نعرف

صاحب هذه المحاكاة الساخرة فرنسيا أو ألمانيا). يمكننا نظريا أن نلمس في أى محاكاة ساخرة ونتبين تلك اللغة "الطبيعية" وذلك "الأسلوب الطبيعى" اللذين نشأت هذه المحاكاة فى ضوءهما، إلا أن هذا ليس الأمر السهل عملياً، بل يكاد يكون مستحيلاً فى أحيان كثيرة.

وعلى هذا تتداخل فى المحاكاة الساخرة لغتان، أسلوبان، وجهتا نظر لغويتان، فكران لغويان، وفى الحقيقة ذاتان كلاميتان. إلا أن إحدى هاتين اللغتين (وهى اللغة المحاكاة محاكاة ساخرة) ذات حضور شخصى، أما الثانية فذات حضور غير مرئى بوصفها خلفية إبداع وإدراك فعالة. المحاكاة الساخرة تركيب هجين مقصود، لكنه عادة تركيب هجين من داخل اللغة يتغذى من تفكك اللغة الأدبية إلى لغات أجناس واتجاهات.

إن أى تركيب هجين أسلوبى مقصود هو تركيب أشيعت فيه الحوارية إلى حد ما. وهذا يعنى أن موقف اللغات، التى تتقاطع فيه وتتداخل، إحداها من الأخرى كموقف أطراف الحوار (الردود، السؤال، الجواب إلخ فى الحوار)؛ إنه نقاش بين لغات، نقاش بين أساليب لغوية. إنه ليس حواراً يتصل بالموضوع (Sujet) وليس حوار معان مجردة، بل حوار وجهات نظر لغوية مشخصة لا يمكن ترجمة إحداها إلى لغة الأخرى.

وهكذا فأى محاكاة ساخرة هي تركيب هجين مقصود أشيعت فيه الحوارية. وفي هذه المحاكاة تتبادل اللغات والأساليب الإنارة على نحو فعال.

وكل كلمة مستخدمة بـتحفظ، موضوعاً بين معترضتين نبرويتين، هي أيضاً تركيب هجين مقصود إنما بشرط أن ينفصل المتكلم عن هذه الكلمة بوصفها "لغة"، بوصفها أسلوباً: أن يكون لهذه الكلمة بالنسبة إلى المتكلم وقع عامي أكثر مما ينبغي أو، على العكس، وقع متأنق أكثر مما ينبغي، ووقع مزوق أو أن تشي باتجاه معين أو بطريقة لغوية معينة إلخ.

لكن فلنعد إلى المحاكاة الساخرة المقدسة اللاتينية. هذه المحاكاة هي تركيب هجين مقصود أشيعت فيه الحوارية، لكنه تركيب هجين لغوي، إنها حوار لغات. لكن إحدى هذه اللغات (وهي اللغة العامية) معطاة هنا بوصفها الخلفية الفعالة المثيرة للحوارية فقط. أمامنا حوار فولكلوري لا ينتهي: فنقاشات الكلمة المقدسة المتجهمة مع الكلمة الشعبية المرحية تشبه إلى حد ما حوارات سولومون المشهورة مع المهرج المرح مركولف في القرون الوسطى، لكن مركولف كان يناقش سولومون باللغة اللاتينية، باللغة نفسها. أما هنا فالنقاش يدور بلغتين مختلفتين. الكلمة المقدسة الأجنبية الغريبة تخترق بنبرات اللغات الشعبية العامية، ويعاد تبيرها وتأويلها على خلفية هذه اللغات، ويتم تكثيفها حتى تبلغ مستوى الصورة المضحكة، حتى مستوى القناع الكرنفالي الهزلي لدعى علم محدود ومتجهم أو لمنافق عتيق معسول

مراءةً أو لعجوز نحيل هزيل. هذه المحاكاة الساخرة المقدسة" العظيمة الحجم، هذه المخطوطة التي مضى عليها ألف عام، وثيقة رائعة لكنها لم تقرأ إلا قراءة رديئة حتى الآن، وثيقة عن الصراع العنيف الذي دار على امتداد أوروبا الغربية كلها بين اللغات، وعن الإنارة المتبادلة بين هذه اللغات، إنها دراما لغوية مثلت على أنها فارس مريح. إنها ستورناليات لغوية *Lingua Sacra Pileata*^(١).

اللغة اللاتينية المقدسة جسم غريب دخل جسم اللغات الأوروبية. وظل جسم هذه اللغات القومية يرفض هذا الجسم الغريب على امتداد العصور الوسطى كلها. وما كان يرفض ليس الكلمة كشيء بل الكلمة المحملة بمعنى معين التي كانت تشغل الطبقات العليا من التفكير الإيديولوجي القومي. وكان رفض الكلمة المقدسة الغربية يحمل طابعاً حوارياً ويتم تحت ستار الضحك (الضحك في أيام الأعياد والعطل). هكذا كانوا يطردون في أشكال المرح الشعبي في الأعياد القيصري القديم والسنة القديمة والشتاء والصيام. تلكم هي المحاكاة الساخرة المقدسة.

لكن أدب القرون الوسطى اللاتيني الباقي كله لم يكن في حقيقة الأمر إلا تركيباً هجيناً كبيراً ومعتقداً أشيعت فيه الحوارية. وليس عبثاً ما يقوله باول ليتمان في تعريفه لهذا الأدب من أنه أخذ لما للغير (أى للكلمة الغريبة) ومعالجته ومحاكاته. إن التوجه المتبادل مع الكلمة الغريبة يمر بكل السلم النغمي ابتداء من التلقى الخاشع وحتى السخرية عن طريق المحاكاة، هذا إلى أنه كثيراً جداً ما يصعب تحديد أين

(١) لغة مقدسة في طاقة العيد (باللاتينية في الأصل).

بالضبط ينتهى الخشوع وتبدأ السخرية، تمامًا كما هى الحال فى رواية العصر الحديث حيث لا تدرى فى الكثير من الأحيان أين تنتهى كلمة المؤلف المباشرة وتبدأ المحاكاة الساخرة أو الأسلوبية للغات الأبطال. إلا أن عملية تبنى الكلمة الغربية ورفضها هنا، فى أدب القرون الوسطى اللاتينى (وهى عملية معقدة ومتناقضة)، عملية الاستماع الخاشع (التقوى) إليها أو الهزء بها، تمت بقياسات ضخمة هى مقياس العالم الأوروبى الغربى كله، وتركت أثرها الذى لا يمحي فى الوعي اللغوى الأدبى لشعوب هذا العالم.

وإلى جانب المحاكاة الساخرة اللاتينية، كانت توجد، كما قلنا، المحاكاة الساخرة المختلطة. وهذه تركيب هجين مقصود ثنائى اللغة (وأحيانًا ثلاثيها) موسع أشيعت فيه الحوارية. ونجد أيضًا فى أدب القرون الوسطى الثنائى اللغة كل الأنماط الممكنة للعلاقة بالكلمة الغربية - من الخشوع والتقوية وحتى السخرية التى لا ترحم. ففى فرنسا على سبيل المثال انتشر ما يسمى "èpîtres farcies". فى هذه الرسائل كل آية من الكتابة المقدسة (وهى هنا الرسائل التى تقرأ فى القداس) مصحوبة بأبيات شعرية فرنسية تترجم النص اللاتينى وتتصرف به فى خشوع وإجلال. مثل هذا الطابع التفسيرى الخاشع نجده فى اللغة الفرنسية للعديد من الصلوات المختلطة. إليك على سبيل المثال مقطعًا من الصلاة الربانية المختلطة (أبانا الذى فى السموات"، وهى من القرن الثانى عشر: Sed Libera nos, mais deliver nous, Sire, amalo, de tout mal et de cruel Martire^(١).

(١) لكن نجنا، لكن نجنا يا رب من الشرير ومن كل شر: ومن العذاب الأليم (النص مكتوب باللاتينية وبالفرنسية القديمة).

فى هذا التركيب الهجين الاستجابة الفرنسية تترجم وتكمل
بخشوع وبموافقة الاستجابة اللاتينية.

وإليكم مطلع صلاة ربانية من القرن الرابع عشر تصور ويلات
الحرب

Pater noster, tu n'ies pas foulz Quart u t'ies mis en
grand repos Qui es montès haut in celis^(١).

هنا الاستجابة الفرنسية تسخر بمرارة من الكلمة اللاتينية
المقدسة. فهي تقاطع الكلمات الأولى للصلاة وتصور الإقامة فى السماء
على أنها موقف هادئ جدًا من الويلات التى تحدث على الأرض. إن
أسلوب الاستجابة الفرنسية هنا لا يتناغم ويتوافق وأسلوب الصلاة
الرفيع كما فى المثال السابق، بل إنها استجابة أشبعت بالعامية عمدا.
إنها رد أرضى فج على المعسولية غير الأرضية للصلاة.

وهناك الكثير الكثير من النصوص المختلطة المتفاوتة فى درجة
خشوعيتها ودرجة محاكاتها الساخرة. والأبيات الشعرية المختلطة
"Carmina burana" معروفة للجميع. لكنى أريد أن أذكر أيضا باللغة
المختلطة للدرامات الطقسية (الليتورجية)، إذ إن اللغات الشعبية هنا هى
بمثابة رد هزلى على الأجزاء اللاتينية الرفيعة من الدراما يحطُّ من
شأنها.

(١) أبانا، أنت لست غيبًا إذ تربعت بهدوء، بعد ارتقيت عاليا، فى السموات وقد أوردها
بيخولوفين فى كتابه المذكور آنفاً.

إن أدب القرون الوسطى المختلط هو أيضًا شهادة جد مهمة وشائعة على صراع اللغات والإنارة المتبادلة فيما بينها.

ولا حاجة إلى التوسع في أدب القرون الوسطى المحاكى محاكاة ساخرة المنكر الضخم المكتوب باللغات القومية الشعبية. فقد أنشأ هذا الأدب بنية فوقية ضاحكة كاملة فوق كل الأجناس الرصينة المباشرة. وهنا، كما في روما، كانوا يرمون إلى دفع "الدبلجة" الضاحكة إلى مداها. أذكر بدور مهرجى القرون الوسطى، هؤلاء المبدعين المحترفين للمستوى الثانى الذين أعادوا إلى الكلمة تكاملها الرصين - الضاحك بمحاكاتهم الضاحكة. أذكر بمختلف أنواع الفصول الإضافية والفواصل الضاحكة التى كانت تقوم بدور الدراما الرابعة اليونانية أو الأكسوديوم (exodium) الرومانى المرح. والمثال الواضح على هذه المحاكاة (الدبلجة) الضاحكة هو المستوى الثانى الذى يقوم المهرج ببطولته فى مسرحيات شكسبير المأساوية والهزلية. ولا تزال أصدااء هذا الاتجاه الضاحك حية حتى يومنا هذا فى محاكاة مهرج السيرك لفقرات البرنامج الرصينة والخطرة على سبيل المثال (وهى محاكاة عادية إلى حد ما) أو فى الدور نصف التهريجى لمقدم الفقرات عندنا.

إن كل أشكال المحاكاة الساخرة المنكرة فى القرون الوسطى كما فى العالم القديم كانت مشدودة إلى مرح الأعياد الشعبية الذى كان يحمل طوال القرون الوسطى طابعًا كرنفاليًا مع احتفاظه بآثار الساتورنالى التى لا تمحى.

ومع نهايات القرون الوسطى، وفي عصر الانبعاث الأوروبى، حطمت الكلمة المحاكية محاكاة ساخرة المنكرة كل السدود، فاقتحمت كل الأجناس المباشرة الخالصة والمنغلقة. ترددت عالياً فى الشعر الملحمى للشبيلمان^(١) والكنتستوربين^(٢)، كما تغلغت فى رواية الفروسية الرفيعة. وكاد موضوع "الشيطان" يغطى كل مسرح "الأسرار"^(٣) الذى كان موضوع الشيطان جزءاً منه فى الأساس. وظهرت أجناس كبيرة وجوهرية إلى حد بعيد كالسوتى (Sottie). وظهرت أخيراً رواية عصر الانبعاث العظيمة - روايتا رابليه وسرفانتس. فى هذين العاملين بالذات كشفت الكلمة الروائية، التى مهدت لها السبيل كل الأشكال التى استعرضنا آنفاً وكذلك كل التراث القديم، عن إمكاناتها، ولعبت دوراً عملاقاً فى تشكيل الوعي اللغوى الأدبى الحديث.

لقد بلغت الإنارة المتبادلة بين اللغات أثناء عملية تصفية الثنائية اللغوية أوجها فى عصر الانبعاث، إلا أنها ازدادت، إلى هذا، تعقيداً. وفرديند برونديطرح فى الجزء الثانى من بحثه الكلاسيكى الكبير السؤال التالى: كيف كان يمكن أن تحل مسألة الانتقال إلى اللغة الشعبية فى عصر الانبعاث بتوجيهاته وميوله الكلاسيكية بالذات؟ ويجيب المؤلف عن هذا السؤال إجابة صحيحة تماماً إذ يعتبر أن سعى عصر الانبعاث إلى استعادة اللغة اللاتينية فى نقائها الكلاسيكى كان هو نفسه

(١-٢) فئة من الممثلين الموسيقيين الجوالين فى القرون الوسطى.

(٣) نوع من الأدب المسرحى الدينى فى القرون الوسطى كان يقدم فى ساحات مدن أوروبا الغربية وتتخلله فواصل ذات موضوع حياتى هزلى.

يحولها بالضرورة إلى لغة ميتة. فلم يكن ممكناً الإبقاء على النقاء
الشيشرونى الكلاسيكى للغة اللاتينية مع استخدامهما، فى الوقت نفسه،
وفى الحياة اليومية وفى عالم القرن السادس عشر للتعبير بها عن
مفاهيم العصر وأشياءه. إن استعادة اللغة اللاتينية الكلاسيكية الخالصة
كان يعنى فى حقيقة الأمر قصر استخدامهما على مجال الأسلبة. فحدث
ما يمكن القول إنه عملية "تلبيق" اللغة على العالم الجديد، فتبين أن اللغة
ضيقة. وفى الوقت نفسه أنارت اللاتينية الكلاسيكية وجه لاتينية القرون
الوسطى فتبين أن هذا الوجه قبيح؛ وهذا الوجه لم تكن رؤيته ممكنة إلا
على ضوء اللاتينية الكلاسيكية. ومن هنا كانت تلك الصورة الرائعة
للغة التى نراها فى "رسائل الجهلة".

وهذه الهجائية تركيب لغوى هجين معقد ومقصود. إن لغة
الجهلة هنا تحاكي محاكاة ساخرة، أى أنها بشكل ما تكشف، تضخم،
تتمط على خلفية لاتينية "الإنسانيين" الصحيحة والمضبوطة. وفى
الوقت نفسه تتلامح خلف لاتينية "الجهلة" بقوة لغتهم الألمانية الأم: فهم
يستخدمون التراكيب النحوية للغة الألمانية ويملاونها بمفردات لاتينية،
هذا إلى أنهم ينقلون التعابير الألمانية الخاصة جداً نقلاً حرفياً إلى
اللاتينية؛ وعلى هذا فنبرتهم نبرة فجأة، ألمانية. هذا التركيب الهجين من
وجهة نظر الجهلة تركيب هجين غير مقصود فهم يكتبون كما يعرفون
ويستطيعون، إلا أنه تركيب لاتينى ألمانى هجين أنارته وبالغت فيه
عمداً إرادة المحاكاة الساخرة لأصحاب هذه الهجائية. وينبغى القول مع
هذا أن هذه الهجائية اللغوية تحمل طابعاً ضيقاً إلى حد ما وقواعدياً
مجرداً فى بعض الأحيان.

إن شعر الماكارونية^(١) هو أيضًا هجائية لغوية معقدة، لكنه ليس محاكاة ساخرة للاتينية المطبخ (latinitas culinaria)^(٢)، بل إنه تنكير يحط من شأن لغة المتشددین الشیشرونیین بمعاييرهم المفرداتیة الرفیعة والدقیقة. إن أصحاب شعر الماکارونیة یستخدمون (بخلاف الجهلة) تراکيب لاتینیة صحیحة، لكنهم یكثرّون من إدخال کلمات لغتهم العامیة الأصلیة (الإیطالیة) فی هذه التراکيب مع إضفاء مظهر لاتینی خارجيًا علیها. إن خلفیة الإدراک الفعالة هنا هی اللغة الإیطالیة وأسلوب الأجناس الوضیعة (أسلوب القصص الصغیرة الدعابیة والقصص الطویلة nouvelles إلخ) بموضوعاتها المادیة والجسدیة الهابطة مغالاة. إن لغة الشیشرونیین كانت تتضمن الأسلوب الرفیع، فهی فی الحقیقة لیست لغة بل أسلوب. وهذا الأسلوب هو الذی یحاکیه الماکارونیون محاكاة ساخرة.

وعلیه فهناك ثلاث لغات تنیر إحداها الأخری فی هجائیات عصر الانبعاث اللغویة (فی "رسائل الجهلة" وشعر الماکارونیة) هی: لاتینیة القرون الوسطی، لاتینیة الحركة الإنسانیة المظهرة الخالصة واللغة القومیة العامیة. وفی الوقت نفسه هناك عالمان یتبادلان الإنارة

(١) الماکارونیة (Macaronisme) هی فی الأصل کلمة أو عبارة شعبیة فرنسیة أو إیطالیة دخلت اللغة اللاتینیة فی القرون الوسطی. وشعر الماکارونیة شعر یحدث مفعوله الهزلی بالمزج بین کلمات من لغات مختلفة (وقد نشأ هذا الشعر فی إیطالیة القرون الوسطی).

(٢) هی اللاتینیة المحشوة بالأخطاء فی القرون الوسطی (انطلقت هذه اللاتینیة من الأدیرة أساسًا).

هما عالم القرون الوسطى والعالم الجديد الإنسانى الشعبى. ونسمع هنا نفس النقاش الفولكلورى بين القديم والجديد، ونسمع نفس التشهير والسخرية من القديم – من السلطة القديمة والحقيقة القديمة والكلمة القديمة.

إن "رسائل الجهلة" وشعر الماكارونيين والعديد غيرهما من الظواهر المماثلة تبين مدى الوعى الذى تمت به عملية تبادل الإنارة بين اللغات وعملية ملاءمتها للعصر والواقع. ثم إنها تبين مدى التصاق أشكال اللغة وأشكال تأمل العالم أحدها بالآخر. وتبين أخيراً إلى أى مدى كان العالمان القديم والجديد يتصفان ويتميزان بلغاتهما أو بصور لغاتهما تحديداً. كانت اللغات تتناقش، لكن هذا النقاش كآى نقاش بين أى قوى ثقافية تاريخية كبيرة وجوهرية لا يمكن أداؤه لا بمساعدة الحوار المعنوى المجرد ولا بواسطة الحوار الدرامى الخالص، بل بمساعدة التراكيب الهجينة المعقدة التى أشيعت فيها الحوارية فقط. وقد كانت روايات عصر الانبعاث الأوروبى العظيمة هذه التراكيب الهجينة لكنها الوحيدة اللغة والأسلوبية.

وفى عملية تعاقب اللغات انطلقت اللهجات فى حركة جديدة داخل اللغات القومية. انتهى تعايشها الأصم والمغمور، وأخذت فرادتها تُلمس على نحو جديد فى ضوء المعيار العام المتكوّن والمركز للغة القومية. إن السخرية من الخصائص اللهجية لسكان مختلف مناطق البلد ومدنه ومحاكاة طرقهم اللغوية والكلامية ترجعان بأصولهما إلى ما لكل شعب من رصيد قديم من صور اللغة. لكن هذه المحاكاة المتبادلة

التي كانت في عصر الانبعاث بين مختلف فئات الشعب في ضوء
الإشارة المتبادلة بين اللغات ومن خلال عملية إنشاء المعيار القومي
المشترك للغة الشعبية اكتسبت معنى جوهريًا جديدًا. فقد أخذت صور
المحاكاة الساخرة للهجات تكتسب صيغة فنية أعمق وصارت تنفذ إلى
داخل الأدب الكبير.

وهكذا تلازمت اللهجات الإيطالية في ملهاة ديل أرتي مع أنماط
- أقنعة معينة من هذه الملهاة. وفي هذا يمكننا إطلاق اسم ملهاة
اللهجات على ملهاة ديلي أرتي. إنها تركيب لهجوي هجين مقصود.

هكذا تمت الإشارة المتبادلة بين اللغات في عصر إنشاء الرواية
الأوروبية. إن الضحك والتعدد اللغوي هما اللذان مهدا السبيل وأعدا
كلمة العصر الحديث الروائية.

* * *

لم نتطرق في مقالتنا إلى عاملين كان لهما فعلهما في تاريخ
الكلمة ما قبل الروائية. إلا أنه من المهمات الأساسية جدًا، إلى هذا،
دراسة تلك الأجناس الكلامية، وفي المقام الأول الطبقات الأليفية من
طبقات اللغة، التي لعبت دورًا ضخماً في تشكيل الكلمة الروائية والتي
دخلت قوام الجنس الروائي بعد أن أخذت شكلاً متغيراً بعض الشيء.
لكن هذه مسألة تخرج عن نطاق بحثنا الآن. نريد هنا، ختاماً، أن نشدد
فقط على أن الكلمة الروائية لم تولد وتتطور في عملية الصراع الأدبية
الضيقة بين الاتجاهات والأساليب والنظرات المجردة إلى العالم، بل

خلال عملية صراع معقدة وطويلة جدًا بين الثقافات واللغات. فهي مرتبطة بالنقلات الكبرى والأزمات الكبرى في مصير اللغات الأوروبية، وفي حياة الشعب الكلامية. إن الأطر الضيقة لتاريخ الأساليب الأدبية لعاجزة عن أن تستوعب تاريخ الكلمة ما قبل الروائية.

الدراسة السابعة
مسألة المضمون والمادة والشكل
في الإبداع الفني اللفظي

دراستنا الراهنة هذه محاولة تحليل منهجى للمسائل والمفاهيم الأساسية فى الشعرية على أساس علم جمالٍ منهجى عام.

ونقطة الانطلاق فى بحثنا هى بعض الدراسات الروسية فى الشعرية التى نضع طروحاتها الأساسية على محك النقد فى الفصول الأولى من دراستنا. إلا أننا لا نتعرض هنا لاتجاهات وأعمال متفرقة فى مجملها وفى سياقها التاريخى المحدد ولا نقيّمها: فما يهمنا منها فى المقام الأول هو القيمة المنهجية الخاصة لمفاهيمها وطروحاتها الأساسية. كما لا يدخل فى نطاق مهمتنا إجراء أى مراجعة لأعمال فى الشعرية ذات طابع تاريخى أو اطلاعى. ففي دراسات تضع نصب عينيها غايات منهجية خالصة ولا يمكن لغير الطروحات والبراهين النظرية أن تكون ذات قيمة لها، هذه المراجعات ليست دائماً مناسبة. كما أننا استبعدنا من دراستنا المقبوسات والإحالات النافلة التى ليس لها عامة أهمية منهجية مباشرة فى الأبحاث غير التاريخية، والتى تبدو لنا فى دراسة مقتضبة ذات طابع منهجى نافلة تماماً. فهى ليست ضرورية للقارئ المؤهل، وغير ذات نفع لغير المؤهل.

علم الفن وعلم الجمال العام

يجرى الآن فى روسيا عمل جاد ومثمر إلى حد كبير فى مجال علم الفن. فقد اغتنت الأدبيات العلمية الروسية فى السنوات الأخيرة بأعمال قيمة فى نظرية الفن ولا سيما فى مجال الشعرية. بل يمكننا القول صراحة ببعض الازدهار لعلم الفن فى روسيا خصوصاً إذا ما قورنت هذه السنوات بالفترة السابقة حين كان مجال الفن الملاذ الأساسى لكل ثرثرة لا مسؤولية علمياً لكنها تدعى عمق الفكر: فكل الأفكار والتصورات التى كانت تبدو عميقة ومثمرة حياتياً إنما كان يتعذر إدراجها فى مجال علم بعينه، أى كانت لا تستطيع أن تجد لها بشكل عام مكاناً فى الوحدة الموضوعية للمعرفة، أى ما يسمى "الاكتشافات التائية"، هذه الأفكار والتصورات كان يتم التعبير عنها وإيرادها فى نظام خارجى عارض بمناسبة الفن عامة، أو بمناسبة عمل أو آخر من أعمال الفن. هذا التفكير نصف العلمى المصبوغ بالصبغة الجمالية الذى يطلق على نفسه - لسوء فهم - اسم التفكير الفلسفى أحياناً كان يهفو دائماً إلى الفن لشعوره بقرابته الوثيقة، وإن كانت غير شرعية تماماً إليه.

الآن أخذ الوضع يتغير: فالاعتراف بحقوق التفكير العلمى دون سواها، حتى فى مجال دراسة الفن يصبح أمراً مسلماً به حتى بين أوسع الفئات. بل إنه يمكننا التحدث الآن عن تطرف آخر. عن تقليعة العلمية، عن شبه العلمية السطحي، عن النبيرة الواثقة والمتسعة للعلمية، حيث لم يحن بعد أوان العلم الحقيقى. ذلك أن النزوع إلى بناء العلم مهما كلف الأمر، وبأسرع ما يمكن، كثيراً ما يؤدي إلى الخط على نحو بالغ بمستوى الإشكالية المطروحة، وإلى إفقار موضوع الدراسة، بل حتى إلى استبدال هذا الموضوع، وهو فى حالتنا الراهنة الإبداع الفنى، بشيء آخر مختلف تماماً. وهذا ما لم تستطع الشعرية الروسية الفنية تجنبه دائماً كما سنرى لاحقاً. إن بناء علم فى مجال أو آخر من مجالات الإبداع الثقافى مع الاحتفاظ بتعقيد الموضوع وتكامله وأصالته أمر فى غاية الصعوبة.

وبغض النظر عما تتصف به الأعمال الروسية التى ظهرت فى السنوات الأخيرة فى مجال الشعرية من خصوبة وأهمية لا جدال فيهما، إلا أن الموقف العلمى العام الذى اعتمدته غالبية هذه الأعمال لا يمكن الاعتراف به صحيحاً ومرضياً بشكل تام، وهذا يتعلق خاصة بأعمال ممثلى الطريقة الشكلية أو الصرفية (morphologique)، لكنه يشمل أيضاً بعض الدراسات التى لم تأخذ بهذه الطريقة أخذاً كاملاً لكنها شاركتها بعض تقدماتها: تلكم، على سبيل المثال، هى حال الأعمال الرائعة التى كتبها البروفيسور ف.م. جيرمونسكى.

إن ضعف الموقف العلمى لهذه الأعمال فى الشعرية يرتبط فى نهاية المطاف بالموقف الخاطئ أو، فى أحسن الأحوال، غير المحدد منهجياً الذى تفقه الشعرية التى يبنونها من علم الجمال المنهجى العام. هذا هو الخطأ المشترك لعلم الفن فى كل مجالاته الذى يقترب فى مهد هذا العلم، إنه الموقف السلبى من علم الجمال العام والرفض المبدئى للاسترشاد به. فعلم الفن كثيراً ما يعرف ويحدّد من خلال معارضته بعلم جمال فلسفى غير علمى أصلاً. إن بناء نظام أحكام علمية عن فن بمفرده، وفى حالتنا هذه عن الفن الكلمى (فن الكلمة) بغض النظر عن المسائل المرتبطة بماهية الفن عامة هو الاتجاه العام فى الأعمال الحديثة فى الشعرية أيضاً.

إذا كان المفهوم من مسألة ماهية الفن هو ميتافيزيكا الفن، فيجب فعلاً التسليم بأن العلمية ممكنة فقط حيث يدار البحث بمعزل عن مسائل كهذه، لكنه لم يعد هناك بشكل عام - ولحسن الحظ - مجال لإدارة نقاشات جادة مع الميتافيزيكا. وعلى هذا تتخذ الاستقلالية التى تدّعيها الشعرية معنى آخر تماماً أكثر سوءاً لما يمكن تحديده بأنه دعوى بناء علم عن فن بمفرده بغض النظر عن معرفة أصالة الجمالى ضمن وحدة الثقافة الإنسانية وتحديدها (الأصالة) منهجياً.

إن مثل هذه الدعوى غير قابلة للتحقق فى حقيقة الأمر: فدون فهم منهجى للجمالى فى اختلافه عن المعرفى والأخلاقى، كما فى اتصاله بهما داخل وحدة الثقافة، يتعذر حتى فرز العمل موضوع دراسة الشعرية (وهو العمل الفنى فى الكلمة) من ركام أعمال كلمية كثيرة ومن طبيعة أخرى. هذا الفهم المنهجى يطرحه الباحث كل مرة بطبيعة الحال، لكنه لا يطرحه طرحاً نقدياً على الإطلاق.

ويؤكدون حيناً آخر أنه يمكن العثور على هذا الفهم (المفهوم) في موضوع الدراسة مباشرة، وأنه لا حاجة إطلاقاً لدارسى نظرية الأدب إلى اللجوء إلى الفلسفة المنهجية بحثاً عن مفهوم الجمالي، لأن الدارس واجده حتماً في الأدب نفسه.

فعلاً الجمالي معطى بشكل ما في العمل الفني ذاته والفيلسوف لا يختلقه، لكن الفهم العلمى لأصالته ولعلاقته بالأخلاقى والمعرفى ولموقعه فى كلية الثقافة الإنسانية ولحدود تطبيقه أمورٌ لا تستطيعها إلا الفلسفة المنهجية بطرائقها. إن مفهوم الجمال لا يمكن استخلاصه من العمل الفني بالحدس أو التجربة، إذ سيكون ساذجاً وذاتياً ومقلداً. فلتحديد ذاتيته تحديداً وثقاً ودقيقاً يجب تحديده من خلال المجالات الأخرى ضمن وحدة الثقافة الإنسانية.

إن أى قيمة ثقافية وأى وجهة نظر إبداعية لا يمكن، ولا ينبغي، أن تبقى فى درجة الموجدية البسيطة، أو الوقائية المجردة، سواء ذات الطابع النفسى أو التاريخى. التحديد المنهجى فى إطار الثقافة بوحدة معناها يمكنه وحده أن يتجاوز وقائية القيمة الثقافية. إن ما يؤسس لاستقلالية الفن ويضمن هذه الاستقلالية هو اتصاله بوحدة الثقافة واحتلاله فيها، ليس فقط موقعاً أصيلاً، بل موقعاً حتمياً لايقوض، وإلا كانت هذه الاستقلالية مجرد اعتباط، وكان بالإمكان الإلصاق بها أى غايات وأهداف غريبة عن طبيعته الوقائية المجردة، ولما كان بإمكانه الاعتراض على شىء، ذلك أن الطبيعة المجردة يمكن استغلالها فقط. إن الواقعة والأصالة الوقائية الخالصة ليس لهما الحق

فى صوت، ولكى يحصل على هذا الحق يجب أن يصبح معنى. لكنهما لا يمكن أن يصبحا معنى ما لم يتصلا بوحدة، ما لم يقبلا قانون الوحدة. فالمعنى المنعزل هو Contradictio in adjecto^(١).

إن تجاوز الفوضى المنهجية فى مجال دراسة الفن أمر ممكن ليس عن طريق إيجاد طريقة جديدة أخرى تشارك فى الصراع العام الدائر بين الطرائق إنما تستغل على طريقتها وقائعية الفن، بل عن طريق التأسيس الفلسفى المنهجى للواقعة ولأصالة الفن داخل وحدة الثقافة الإنسانية.

إن الشعرية التى تفتقد قاعدة علم الجمال الفلسفى المنهجى تصبح فى أسسها ذاتها مقلقة وعارضة. إن الشعرية المحددة منهجياً يجب أن تصبح علم جمال الإبداع الفنى الكلى، وهذا التحديد يؤكد تبعيتها لعلم الجمال العام.

إن غياب التوجه الفلسفى المنهجى الجمالى العام وغياب النظرة المستمرة والمتبصرة منهجياً إلى الفنون الأخرى، وإلى وحدة الفن بوصفه مجالاً من مجالات الثقافة الإنسانية الواحدة يؤدى بالـشعرية الروسية المعاصرة^(٢) إلى تبسيط مفرط بالمهمة العلمية، إلى السطحية

(١) تناقض فى التعريف مع المعرف (باللاتينية فى الأصل). (المترجم)

(٢) يوجد بين الأعمال الروسية فى الشعرية ومنهجية تاريخ الأدب التى ظهرت فى الفترة الأخيرة دراسات اعتمدت موقفاً منهجياً أصبح من وجهة نظرنا. وتستحق اهتماماً خاصاً فى هذا المجال مقالة أ.أ. سميرنوف الرائعة "طرق ومهام علم الأدب" (مجلة الفكر الأدبى، ١٩٢٣، ٢) التى نوافق على كثير من الطروحات والاستنتاجات التى انتهت إليها.

والقصور فى الإحاطة بالموضوع المدروس، إذ إن البحث فى هذه الحالة لا يشعر بالثقة إلا حين يتحرك على أطراف الإبداع الفنى الكلمى، فهو يتجنب كل المسائل التى تضع الفن على الطريق الرئيسى للثقافة الإنسانية الواحدة، والتى يتعذر حلها بمنأى عن التوجه الفلسفى الواسع؛ هنا تلتصق الشعرية التصاقاً وثيقاً بالألسنية وتخشى الابتعاد عنها ولو خطوة (عند معظم الشكاليين بمن فيهم جيرمونسكى) وتسعى أحياناً إلى أن تصبح مجرد فرع من الألسنية. (عند فينو غراد مثلاً).

إن الألسنية بوصفها علماً مساعداً ضرورية بطبيعة الحال للشعرية، كما لآى علم جمال خاص ينبغى أن تؤخذ فيه بعين الاعتبار بالإضافة إلى المبادئ الجمالية العامة - طبيعة المادة وهى هنا الكلمة؛ لكن الألسنية تشرع فى أن تشغل هنا مكاناً قيادياً غير ملائم، يكاد يساوى المكان الذى يفترض أن يشغله علم الجمال العام.

إن هذه الظاهرة التى أشرنا إليها تميز بشكل كبير العلوم الخاصة بالفنون، التى (أى العلوم) تضع نفسها فى مواجهة علم الجمال. ففى معظم الحالات نرى هذه العلوم لا تقيم التقييم الصحيح أهمية المادة فى الإبداع الفنى. كما نرى أن هذا التقييم المبالغ فيه لملاحظة المادة فى العمل تحكمه بعض التصورات المبدئية وتستدعيه.

لقد رفع فى وقت ما شعار كلاسيكى ليس هناك فن، بل فنون متفرقة. هذا الطرح كان ينادى فعلياً بأولوية المادة فى الإبداع الفنى، ذلك أن المادة بالذات هى التى تفرق الفنون، وإذا كانت المادة بالذات

هى التى تُدفع منهجياً إلى المقدمة فى وعى عالم الجمال فلأنها تعزل
الفنون الواحد عن الآخر. لكن ما الذى يستدعى ويبرر أولوية المادة،
وهل هذه الأولوية مقبولة ومشروعة منهجياً؟

إن علم الفن، فى سعيه لبناء حكم علمى عن الفن بمعزل عن
علم الجمال الفلسفى العام، يجد المادة كأثبت قاعدة للمناقشة العلمية،
ذلك أن التوجه إلى المادة يخلق قرابة مغرية بالعلم التجريبي الوصفى.
وبالفعل فإن المكان والكتلة واللون والصوت يتلقاها عالم الفن (والفنان)
كلها من الفروع المقابلة فى المعرفة الطبيعية الرياضية كما يتلقى
الكلمة من الألسنية. وهكذا تولد على أرضية علم الفن نزعة فهم الشكل
الفنى بوصفه شكل هذه المادة لا أكثر ، بوصفه تركيباً فى نطاق المادة
بمحدوديتها وسننيتها الطبيعية العلمية والألسنية. ويبدو هذا كأنه يمكن
أحكام علم الفن من أن تكون علمية وضعية، بل حتى أن تكون قابلة
للبرهنة عليها رياضياً.

وعلى هذا النحو ينتهى علم الفن إلى إيجاد مقدمة ذات طابع
جمالى عام، مفهومة تماماً من الناحيتين النفسية والتاريخية على أساس
ما قلناه، لكنه مشكوك فيها من حيث صحتها وأهليتها للبرهنة عليها
منهجياً، مقدمة نصوغها بعد أن نطور ما قلناه سابقاً على النحو التالى :
النشاط الجمالى موجه إلى المادة ولا يشكل إلاها؛ الشكل القيم جمالياً
هو شكل المادة المفهومة منها علمياً طبيعياً أو ألسنياً؛ وتأكيدات الفنانين
إن إبداعهم قيم، موجه إلى العالم، إلى الواقع وأنه يتعامل مع الناس،
مع العلائق الاجتماعية، مع القيم الجمالية والدينية، وغيرها من القيم،

ليست سوى مجازات، ذلك أنه لا يوجد أمام الفنان في واقع الأمر إلا المادة - المكان الفيزيائي الرياضي، الكتلة، صوت السمعيات وكلمة الألسنية، ولا يمكنه أن يتخذ موقفاً فنياً إلا بالنسبة إلى مادة معطاة، محددة.

هذه المقدمة ذات الطابع الجمالي العام القائمة بصمت أو المعبر عنها بصراحة في أساس دراسات كثيرة جداً واتجاهات كاملة في ميدان العلوم المتصلة بفنون منفردة تخولنا حق القول بوجود نظرية جمالية عامة عندهم يعرضونها على نحو غير نقدي سنطلق عليها اسم علم الجمال المادى أو علم جمال المادة.

إن علم جمال المادة يبدو كأنه فرضية عمل لاتجاه علم الفن التى تدعى الاستقلال عن علم الجمال العام؛ على هذه الفرضية يستند الشكليون وجيرمونسكى، وهى تلك المقدمة التى توحدهم^(١).

وليس من نافلة القول التنبؤ بهنا بأن ما يسمى الطريقة الشكلية ليس مرتبطاً تاريخياً ولا منهجياً بعلم الجمال الشكلى (كنط، هيربرت وغيرهما، خلافاً لعلم جمال المضمون - شيلينغ، هيغل وغيرهما) ولا يقع فى طريقها؛ أما على المستوى الجمالى العام فيجب تعريفها (أى الطريقة الشكلية) بأنها أحد تنوعات علم جمال المادة الذى أشرنا إليه،

(١) هذه المقدمة التى صنفناها بكل وضوح وحدة تتخذ أحياناً كثيرة أشكالاً مخففة نظرية جيرمونسكى التى تطرح فكرة اللحظة التثاوية أكثرها تميزاً؛ إلا أن جيرمونسكى يدرج حتى التثا بوصفها لحظة من لحظات المادة (معنى الكلمة)، وفى بعض الفنون التى تفتقر مادتها إلى هذه اللحظة فإن التثا تغيب.

والذى يمكن القول إن تاريخه هو تاريخ Kunstwissenschaften^(١) فى صراعها من أجل الاستقلال عن الفلسفة المنهجية، وهو تتوع يجب القول فيه إنه بسيط إلى حد ما وبدائى.

ومن الضرورى لدى تقييمنا الدراسات التى خلفها علم الفن الفصل بشكل صارم بين هذه النظرية العامة التى يأخذ بها علم جمال المادة، وهى نظرية غير مقبولة إطلاقاً كما نأمل أن نبين ذلك فى سياق بحثنا، وتلك التأكيدات المتفرقة الشخصية الخالصة التى يمكن أن يكون لها مع هذا قيمة علمية بغض النظر عن النظرية العامة الخاطئة وذلك حصراً فى المجال الذى يكون فيه الإبداع الفنى مشروطاً بطبيعة مادة معينة^(٢).

يمكن القول إن علم جمال المادة بوصفه فرضية عمل غير ضار، وفى حال الوعى الواضح منهجياً لحدود استخدامه يمكنه أن يصبح مثمراً لدى دراسة تقنية الإبداع الفنى. لكنه يصبح ضاراً بشكل مطلق وغير مقبول حين يحاولون فهم الإبداع الفنى ككل ودراسته فى أصالته ومعناه الجماليين على أساسه.

(١) علم الفنون (بالألمانية بالأصل).

(٢) يمكن أن نقع فى أعمال الشكليين إلى جانب تأكيداتهم غير المشروعة إطلاقاً، وهى تأكيدات ذات طابع عام أساساً، على كثير من الملاحظات القيمة علمياً. فلأعمال مثل "القافية، نظريتها وتاريخها" لجيرمونسكى، و"العروض الروسى" لـ ب.ف. توماشيفسكى قيمة علمية رفيعة. فدراسة تقنية أعمال الفن الكلى أول ما بدأت على أرضية علم الجمال فى الأدبيات الجمالية الأوروبية الغربية كما فى الروسية.

إن علم جمال المادة الذى لا يقف فى ادعاءاته عند الجانب التقنى من الإبداع الفنى وحسب يؤدى إلى جملة من الأخطاء المبدئية، وإلى صعوبات يتعذر عليه تخطيها. ولسوف نستعرض أهمها منوهين مسبقاً أننا سندرس علم جمال المادة بمعزل عن العلوم المتعلقة بالفنون المختلفة، أى سندرسه بوصفه نظرية جمالية عامة قائمة بذاتها أى كما هو بالفعل. وبوصفه كذلك يجب أن يكون موضع نقاش ونقد: أى هل بإمكانه أن يلبي المتطلبات اللازمة حتماً لأى نظرية جمالية عامة.

إلى أن علم جمال المادة عاجز عن التأسيس للشكل الجمالى.

إن القضية الأساسية التى يطرحها علم جمال المادة بخصوص الشكل تثير عددًا من الشكوك وتبدو لنا غير مقنعة فى مجملها.

(١) إن الشكل، مفهومًا على أنه شكل المادة فى محدوديتها العلمية الطبيعية الرياضية أو الألسنية، يصبح على نحو ما تنظيمًا خارجيًا خالصًا مفقودًا لحظة تقييم هذه المادة. ويبقى غير مفهوم بتاتًا التوتر الانفعالى الإرادى للشكل وما يتصف به هذا الشكل من طابع تعبيرى عن علاقة تقييم للمؤلف والمتأمل بشيء ما خارج الشكل. ذلك أن العلاقة الانفعالية الإرادية المعبر عنها بالشكل (بالإيقاع، الانسجام، التناسق وغيرها من اللحظات الشكلية) تحمل طابع جدّ متوتر وجدّ نشط بحيث يصعب تفسيرها على أنها علاقة بالمادة.

إن أى شعور يفتقر إلى موضوع يفسره ويعطيه معناه ينحط إلى مستوى حالة نفسية وقائية مجردة، معزولة وخارجة عن نطاق الثقافة، ولهذا فالشعور المعبر عنه بالشكل وغير العائد إلى شىء يصبح مجرد حالة من حالات العضوية النفسية الفيزيائية تفتقر إلى أى قصد يفك دائرة الوجودية النفسية المجردة، يصبح مجردًا - هنا يمكن أن يفسر فى نهاية المطاف ويفهم على نحو متعنى (Hedonique) خالص. مثال ذلك أن تنظم المادة فى الفن من قبل الشكل بحيث تصبح عامل إثارة لأحاسيس وحالات لطيفة فى العضوية. إن علم جمال المادة لا يصل إلى هذه النتيجة دائمًا، لكن يجب أن ينتهى إليها فى حال تماسكه.

إن العمل الفنى مفهومًا على أنه مادة منظمة، على أنه شىء لا يمكن أن تكون له قيمة إلا بوصفه باعثًا فيزيائيًا لحالات نفسية وفيزيولوجية أو أنه يجب أن يتخذ له هدفًا نفعيًا، علميًا.

إن الطريقة الشكلية الروسية بما تتصف به أى بدائية من تماسك وبعض العدمية تستخدم عبارات مثل "الإحساس بالشكل" و"صنع" العمل الفنى وغيرهما.

عندما يعمل النحات فى المرمر فإنه يعالج دون شك المرمر فى عيانيته الفيزيائية المحددة، لكن نشاط المبدع الفنى القيم ليس موجهاً إليه كما أن الشكل الذى يحققه الفنان لا يتعلق بالمرمر على الرغم من أن المعالجة لا تستغنى عنه لحظة كما لا تستغنى، بالمناسبة، عن الإزميل الذى لا يندرج على أى نحو فى الموضوع الفنى بوصفه لحظة مز

لحظاته. إن الشكل الفنى المتكون هو شكل الإنسان وجسده الفنى القيم
جمالياً، إن قصد الإبداع والتأمل يسير فى هذا المنحى. أما علاقة الفنان
والتأمل بالمرمر بوصفه جسمًا فيزيائيًا محددًا فتحمل طابعًا ثانويًا
إضافيًا محكومًا بعلاقة أولية بقيم الأشياء وفى حالتنا هذه بقيمة الإنسان
الجسد.

نشك بالطبع فى أن يقوم أحدهم بتطبيق مبادئ علم جمال المادة
بهذا القدر من التماسك على المرمر كما فى مثالنا (نعم، المرمر مادة
ينطوى بالفعل على قيمة أخص وأضيق مما ينسب إلى مصطلح "المادة"
فى علم جمال المادة)؛ لكن الأمر لا يختلف من حيث المبدأ حين يقصد
بالمادة صوت السمعيات أو كلمة الألسنية بدلاً من المرمر. كل ما فى
الأمر أن الوضع هنا يصبح أعقد إلى حد ما، وليس على هذا السخف
البين من النظرة الأولى، خصوصًا حين تكون الكلمة، وهى موضوع
علم إنسانى هو الألسنية، هذه المادة.

إن التعابير المجازية المألوفة كقولنا إن الشكل الفنى يتغنى
بشخص ما أو شىء ما، أو يزين شيئًا ما أو شخصًا ما، أو يحوله
أو يبرر أو يؤكد... إلخ. تنطوى مع هذا على قدر من المصادقية العلمية
وبالضبط فى أن الشكل القيم فىنا يعود بالفعل إلى شىء ما، أنه موجه
قيميًا إلى شىء ما يتجاوز المادة التى يرتبط بها ويتصل بها مع هذا
اتصالًا وثيقًا. يبدو أنه لا بد من التسليم بوجود لحظة مضمون تسمح
بإدراك الشكل وفهمه بصورة أكثر جوهرية من إدراكه وفهمه على
نحو متعى فج.

لكنّ هناك جمالاً حراً طليقاً، وهناك فن لا موضوع له، يبدو علم جمال المادة مشروعاً وارداً تماماً بالنسبة إليه.

قبل التطرق بإسهاب إلى هذه المسألة دعونا ننوه بالتالي فقط؛ وهو أن الفنون الحرة متحررة فقط من التحديد المعرفي الخالص دون تباين مضمونها من حيث موضوعه كالموسيقى مثلاً. لكن حتى في هذه الفنون يكون الشكل متحرراً وبالدرجة نفسها من الارتباط الأولي المباشر بالمادة - بصوت السمعيات مثلاً.

وبصورة عامة يجب التفريق بدقة (وهذا ما لا نفعله كثيراً) بين المضمون وهو لحظة ضرورية فيه، كما سنرى، في الموضوع (objet) الفني، والتباين المعرفي الخاص به كموضوع شيء وهو لحظة غير ضرورية فيه. إن التحرر من محدودية المفهوم ودقته لا تساوى التحرر من المضمون، واللاشيئية ليست لا مضمونية؛ وتوجد في مجالات أخرى من الثقافة قيم لا تمكن مبدئياً من وجود تباين شيئين ومن تحديدها بواسطة مفهوم معين ثابت؛ وهكذا فالتصرف الأخلاقي في ذروته يحقق قيمة يمكن فقط إنجازها لكنها غير قابلة لأن تعرف ويعبر عنها في مفهوم مناسب. إن الموسيقى محرومة من العيانية الشبئية والتباين المعرفي لكنها ذات مضمون عميق: فشكلها يأخذنا بيدنا خارج حدود التردد (الزمني) السمعي، يأخذ إلى أبعاد لا يمكن القول عنها أبداً إنها فراغ قيمى. المضمون هنا في أساسه أخلاقي (يمكن الكلام هنا عن شيئية حرة غير محددة مسبقاً للتوتر الأخلاقي المغمور بالشكل الموسيقى). إن الموسيقى الخالية من المضمون، بوصفها مادة منظمة، لن تكون سوى باعث فيزيائى على حالة إمتاع فيزيولوجية نفسية.

وهكذا حتى في الفنون التي تفتقر إلى الموضوع - الشيء يصعب البرهنة على أن الشكل هو شكل المادة.

(٢) إن علم جمال المادة لا يمكن أن يؤسس للفرق الجوهرى بين الموضوع الجمالى والعمل الخارجى، بين التفكك والارتباط داخل هذا الموضوع والتفككات والارتباطات المادية داخل العمل ويبدى على الدوام ميلاً إلى الخلط بين هذه اللحظات.

العمل الفنى بالنسبة إلى علم الجمال كعلم هو بطبيعة الحال موضوع معرفة، لكن هذه العلاقة المعرفية بالعمل ذات طابع ثانوى، أما العلاقة الأولى فيجب أن تكون فنية خالصة. إن التحليل الجمالى يجب أن يتوجه مباشرة لا إلى العمل فى وجوده الحسى المعطى والمنظم بالمعرفة، بل إلى ما يمثله بالنسبة إلى النشاط الجمالى الموجه إليه من قبل الفنان والمتأمل.

وعلى هذا فمضمون النشاط الجمالى (التأمل) الموجه إلى العمل هو موضوع التحليل الجمالى.

هذا المضمون سنطلق عليه من الآن فصاعداً اسم الموضوع الجمالى تمييزاً له عن العمل الخارجى نفسه الذى يحتتمل مقاربات أخرى، وفى طبيعتها المقاربة المعرفية الأولية؛ أى الإدراك الحسى المضبوط بمفهوم.

إن فهم الموضوع الجمالى فى أصالته الفنية الخالصة وفهم بنيته، التى سنطلق عليها منذ الآن معمار الموضوع الجمالى، هما المهمة الأولى للتحليل الجمالى.

بعد ذلك يجب أن يلتفت التحليل الجمالى إلى العمل فى وجوده الأولى المعرفى الخالص، وأن يفهم بنيته باستقلال كامل عن الموضوع الجمالى. فعالم الجمال يجب أن يصبح رياضياً وفيزيائياً وعالم تشريح وفيزيولوجيا وأسنياً. وهكذا يجب أن يكون إلى حد ما الفنان أيضاً. وعلى هذا يجب أن يفهم العمل الفنى بالكلمة فى كل لحظاته بوصفه ظاهرة من ظواهر اللغة، أى من وجهة نظر ألسنية خالصة دون التفات إلى الموضوع الجمالى الذى يحققه، أى فقط فى نطاق تلك السنية العملية التى تحكم مادته.

وأخيراً؛ فإن المهمة الثالثة للتحليل الجمالى هى فهم العمل المادى الخارجى بوصفه المحقق للموضوع الجمالى، بوصفه الجهاز التقنى للإنجاز الجمالى. وواضح أن هذه المهمة الأخيرة تفترض أن الموضوع الجمالى فى أصالته مثله مثل العمل المادى فى وجوده المعطى خارج الجمالية معروف ومدروس.

ولدى حل هذه المهمة الثالثة يتوجب العمل بطريقة غائية.

سنطلق على بنية العمل المفهومة غائياً بوصفها المحققة لموضوع الجمالى اسم تأليف العمل. إن التأليف الغائى للعمل المادى لا

يتطابق أبدًا بالطبع مع الوجود الفني المطمئن والمكتفى بذاته للموضوع الجمالى.

ويمكن تعريف التأليف أيضًا بأنه جملة عوامل التأثير الفني.

إن علم جمال المادة لا يعنى بوضوح منهجى كاف طابعه الثانوى، ولا يحقق حتى النهاية إسباغ جمالية أولية على موضوعه. لهذا السبب فإنه لا يتعامل أبدًا مع الموضوع الجمالى فى نقائه الكامل وغير قادر مبدئيًا على فهم أصالته.

فعلم جمال المادة لا يستطيع وفق مقدماته الأساسية ذاتها تخطى العمل بوصفه مادة منظمة.

وإذا تكلمنا بدقة فإن ما يستطيعه علم جمال المادة بشكل كامل هو المهمة الثانية من مهمات التحليل الجمالى التى أشرنا إليها، وهى بالضبط دراسة طبيعة العمل بوصفه موضوعًا علميًا أو ألسنيًا دراسة غير جمالية. إن تحليل العمل بوصفه كلاً تأليفيًا غائيًا لا يمكن أن يحققه علم جمال المادة بشكل مرضٍ نتيجة غياب فهم أصالة الموضوع الجمالى. هذا الموضوع يقحم طبعًا من قبل التأمل الجمالى الحى للباحث، لكنه لا يكون موعى من قبله لا نقديًا ولا منهجيًا.

إن عدم التفريق بين اللحظات الثلاث: (أ) الموضوع الجمالى (ب) الوجود المادى الخارج عن الجمالى (ج) التنظيم التأليفى المفهوم غائيًا للمادة يقحم فى عمل علم جمال المادة (وهذا يمس علم الفن كله تقريبًا) الكثير من الالتباس والإبهام ويؤدى إلى

quaternio terminorum فى الأحكام والاستنتاجات. فتارة يكون المقصود هو الموضوع الجمالى وتارة العمل الخارجى أى التأليف. والبحث يتأرجح فى المقام الأول بين اللحظتين الأولى والثانية فتراه يقفز من الأولى إلى الثانية أو العكس دون أى تماسك منهجى، لكن الأسوأ هو أن التأليف الغائى غير المفهوم نقدياً للعمل يطرح مباشرة على أنه القيمة الفنية بالذات، على أنه الموضوع الجمالى بالذات.

ويستبدل بالنشاط الفنى (والتأمل) هنا بحكم معرفى وتقييم تقنى سيئ لأنه غير موعى منهجياً.

٣) يحدث فى أبحاث علم جمال المادة خلط مستمر لا مندوحة عنه بالنسبة إلى هذا العلم بين الأشكال المعمارية والتأليفية، هذا إلى أن الأشكال الأولى (المعمارية) لا تبلغ أبداً مبلغ الوضوح المبدئى ونقاء التعريف ولا تثمن حق التثمين.

إن هذا العيب فى علم جمال المادة مشروط بجوهر مفاهيمه ذاتها، ويتعذر تجاوزه على أرضية هذا العلم. إنه مرتبط، بطبيعة الحال، ارتباطاً وثيقاً بالخصائص التى نوهنا عنها فى النقطتين الأولى والثانية.

وهاكم بعض الأمثلة على التمييز المنهجى بين الأشكال المعمارية والتأليفية.

الفردية الجمالية هى شكل معمارى خالص من أشكال الموضوع الجمالى ذاته: الحدث يغرد، الشخص يغرد، الشئ المبعوث فيه الحياة

جماليًا يغرد... إلخ. كما أن فردية المؤلف المبدع الداخلة في الموضوع الجمالي تحمل طابعًا خاصًا. لكن شكل الفردية لا يمكن أن يعزى بالمعنى نفسه، أى بالمعنى الجمالي الخالص، إلى العمل نفسه أيضًا بوصفه مادة منظمة. إلى اللوحة، إلى الكل الكلى وغيرهما. إن عزو الفردية إليها جميعًا لا يمكن أبدًا أن يكون على سبيل المجاز، أى حين نجعل منها موضوعًا لعمل كلى فنى أولى جديد - أى نجعلها استعارات ونسبغ عليها الشاعرية.

إن شكل الاكتفاء الذاتى هو خصيصة من خصائص كل ما هو مكتمل جماليًا، شكل معمارى خالص قابل أقل من غيره لأن ينقل إلى العمل الذى هو، بوصفه مادة منمنمة، كل تأليف غائى، حيث كل لحظة فيه، وهو ككل، منصب على هدف، ويحقق شيئًا ما، يخدم شيئًا ما. إن القول مثلًا إن الكل الكلى للعمل مكثف بذاته غير ممكن إلا فى حال استخدام استعارة رومنطيقية خالصة وجريئة إلى أبعد حدود الجرأة.

الرواية شكل تأليفى خالص لتنظيم الكتل اللمنية، به يتحقق فى الموضوع الجمالى الشكل المعمارى للتحقق الفنى للحدث التاريخى أو الاجتماعى الذى هو (أى الشكل المعمارى) نوع من شكل الاكتمال الملحمى.

الدراما شكل تأليفى (الحوار، التقسيم إلى فصول... إلخ)، لكن الأساسى والملهوى شكلًا تحقق معماريان.

يمكن بطبيعة الحال التحدث أيضًا عن الشكّلين التّأليفيين للملهاة والمأساة بوصفهما نوعين من الشكّل الدرامى عانين بذلك وسائل الترتيب التّألىفى للمادة الكلامية وليس القيم المعرفية الأخلاقية: فالمصطلحات ليست ثابتة وليست كاملة. ويجب الأخذ بعين الاعتبار هنا أن كل شكل معمارى يتحقق بوسائل تأليفية معينة. ومن ناحية أخرى فإن أهم الأشكال التّأليفية (أشكال الجنس مثلاً) تقابلها فى الموضوع المتحقق أشكال معمارية جوهريّة.

إن شكل الغنائى معمارى، إنما توجد أيضًا أشكال تأليفية للقصائد الغنائية.

الفكاهة، إضفاء البطولة، الأنموذج الخلق هى أشكال معمارية خالصة، لكنها تتحقق بطبيعة الحال بوسائل تأليفية معينة؛ القصيدة، القصة، القصة الطويلة هى أشكال جنسية، تأليفية خالصة؛ الفصل، المقطع الشعرى، البيت الشعرى هى تقسيمات تأليفية (مع أنه يمكن فهمها فهمًا ألسنيًا خالصًا، أى بغض النظر عن جسمها الجمالى).

الإيقاع يمكن أن يفهم فى الاتجاهين؛ أى بوصفه شكلاً معماريًا وشكلاً تأليفيًا: فالإيقاع كشكل ترتيب المادة الصوتية المتلقاة والمسموعة والمفهومة تجريبيًا هو تأليفى؛ أما الإيقاع الموجه انفعاليًا والعائد إلى قيمة الاندفاع والتوتر الداخلى التى ينجزها فمعمارى.

وتوجد بطبيعة الحال هذه الأشكال المعمارية التي أشرنا إليها
دونما ترتيب ونظام تدرجات جوهرية لا نستطيع التطرق الآن إليها. ما
يهمنا منها فقط هنا هو أنها كلها، بعكس الأشكال التأليفية، تدخل فى
الموضوع الجمالى.

الأشكال المعمارية هى أشكال القيمة النفسية والجسدية للإنسان
الجمالى، هى أشكال الطبيعة بوصفها محيط هذا الإنسان، هى أشكال
الحدث فى وجهه الشخصى الحياتى، الاجتماعى والتاريخى... إلخ؛ إنها
كلها إنجازات، تحققات، إنها لا تخدم شيئاً بل تكتفى بذاتها باطمئنان -
إنها أشكال الوجود الجمالى فى أصالته.

أما الأشكال التأليفية المنظمة للمادة فتحمل طابعاً خدمياً غائياً
كأنما غير مستقر وتخضع لتقييم تقنى خالص: أى إلى أى حد يحقق
بالشكل المناسب المهمة المعمارية. إن الشكل المعمارى هو الذى يحكم
اختيار الشكل التأليفى. وهكذا فشكل المأساة (شكل الحدث، وإلى حد
ما الشخصية، ذو طابع مأساوى) يختار الشكل التأليفى المناسب -
الشكل الدرامى. وعلينا ألا نستنتج من هنا بطبيعة الحال أن الشكل
المعمارى يوجد جاهزاً فى مكان ما ويمكن أن يتحقق بمعزل عن
الشكل التأليفى.

على أرضية علم جمال المادة يتعذر على نحو كامل الفصل
المبدئى الصارم بين الأشكال التأليفية والمعمارية، وكثيراً ما تتولد هنا
نزعة إلى إذابة الأشكال المعمارية فى التأليفية، والتعبير الأقصى عن

هذه النزعة هو الطريقة الشكلية الروسية حيث تسعى الأشكال التأليفية والجنسية إلى التهام الموضوع الجمالى كله، وحيث يغيب، بالإضافة إلى هذا، الفصل الصارم بين الأشكال الألسنية والتأليفية.

ولا يتغير الوضع فى جوهره إلا قليلاً حين تُربط الأشكال المعمارية بالثيماوية و التأليفية بالأسلوبية بمعنى تتساق التآليف (وهو معنى أضيق من ذلك الذى نعطيه لذلك المصطلح)، وتوضع جنباً إلى جنب فى العمل (وهنا يغيب الفرق بين الموضوع الجمالى والعمل الخارجى) ولا تتمايز إلا بوصفها أشكال ترتيب الجوانب المختلفة للمادة (كما هو حاصل فى أعمال جيرمونسكى مثلاً). إن التمييز المنهجى المبدئى بين الأشكال التأليفية والمعمارية وفهم اختلاف مستوياتها يغيبان هنا أيضاً. يضاف إلى هذا إنكار اللحظة الثيماوية فى بعض الفنون (الموسيقى مثلاً) مما يؤدى إلى خلق هوة بين الفنون الثيماوية واللاثيماوية، وينبغى التتويه أن الثيماوية فى مفهوم جيرمونسكى أبعد من أن تتطابق مع معمار الموضوع الجمالى؛ لقد دخل فى هذا المعمار فى الحقيقة معظم الأشكال المعمارية لكن ليس كلها، كما دخله بالإضافة إليها أشياء غريبة عن الموضوع الجمالى.

إن الأشكال المعمارية الأساسية عامة، واحدة لكل الفنون ولكل مجال الجمالى، وهى التى تقيم وحدة هذا المجال. كما توجد بين الأشكال التأليفية للفنون المختلفة تشابهات مشروطة بوحدة المهام المعماري؛ إنما هنا تأخذ خصائص المواد دورها وحقوقها.

إن الطرح الصحيح لمسألة الأسلوب، وهى من أهم مسائل علم الجمال، يستحيل دون التفريق الصارم بين الأشكال المعمارية والتأليفية.

٤) علم جمال المادة غير قادر على تفسير الرؤية الجمالية خارج الفن: التأمل الجمالى للطبيعة، اللحظات الجمالية فى الأسطورة، فى النظر إلى العالم، وأخيرًا كل ما يسمى جمالية (esthetisme) أى النقل غير المشروع للأشكال الجمالية إلى مجال التصرف الأخلاقى (الحياتى الشخصى، السياسى، الاجتماعى) وإلى مجال المعرفة (التفكير نصف العلمى المصبوغ بالصبغة الجمالية لفلاسفة كنيته وغيره).

إن الخصيصة المميزة لكل من ظواهر الرؤية الجمالية خارج الفن هى غياب المادة المحددة والمنظمة، وبالتالى غياب التقنية؛ الشكل هنا فى معظم الحالات لا يكون موضوعًا ومستقرًا وثابتًا. ولهذا فإن ظواهر هذه الرؤية الجمالية خارج الفن لا تبلغ مبلغ النقاء المنهجى ولا اكتمال الاستقلال والأصالة: إنها مبهمة، غير مستقرة، هجينة. إن الجمالى لا يحقق ذاته بالكامل إلا فى الفن. ولهذا يجب أن يوجه علم الجمال إلى الفن؛ سيكون من السخف منهجيًا الشروع فى البناء الجمالى انطلاقًا من علم جمال الطبيعة أو الأسطورة. لكن على علم الجمال من ناحية ثانية أن يفسر هذه الأشكال غير الخالصة، الهجينة من أشكال الجمالى. وهذه المهمة بالغة الخطورة فلسفيًا وحياتيًا. هذه المهمة يمكن أن تكون محكًا لخصوبة أى نظرية جمالية.

إن علم جمال المادة بفهمه الشكل على هذا النحو محروم حتى من إمكانية مقارنة ظواهر كهذه.

(٥) إن علم جمال المادة لا يمكنه أن يؤسس لتاريخ الفن. ليس هناك أى شك بطبيعة الحال فى أن المعالجة المثمرة لتاريخ أى فن تفترض معالجة جمالية هذا الفن. لكن يجب التنويه خاصة بالأهمية الأساسية المبدئية لعلم الجمال المنهجى العام، بالإضافة إلى أهميته فى بناء أى علم جمال خاص، ذلك أن هذا العلم وحده يرى الفن ويؤسس له من حيث التعريف به تعريفاً جوهرياً وتبيان تفاعله مع كل مجالات الإبداع الثقافى الأخرى، وموقعه داخل وحدة الثقافة ووحدة عملية الصيرورة الثقافية.

التاريخ لا يعرف أنساقاً منعزلة: النسق المنعزل بما هو كذلك ساكن، وتعاقب اللحظات فى نسق كهذا لا يمكن أن يكون إلا تقسيماً منتظماً أو مجرد توضع آلى (ميكانيكى) للأنساق، لكنه ليس عملية تاريخية بأى شكل من الأشكال؛ وحده تعيين التفاعل والمشروطية المتبادلة لنسق ما مع غيره يخلق المقاربة التاريخية. يجب أن يكف الشئ عن أن يكون ذاته وحسب حتى يدخل التاريخ.

إن علم جمال المادة الذى يعزل فى الثقافة ليس فقط الفن بل الفنون المختلفة، والذى لا يأخذ العمل فى حياته الفنية، بل يأخذه كشئ، كمادة منظمة قادر فى أفضل الحالات أن يضع جدولاً زمنياً لتغير أساليب تقنية فن ما، ذلك أن التقنية المنعزلة لا يمكنها أن تملك تاريخاً.

تلكم هي العيوب الأساسية التي لا مفر منها لعلم الجمال الشكلى والصعوبات التي لا يمكنه تخطيها، وهي عيوب ونواقص تظهرها على نحو ساطع إلى حد ما الطريقة الشكلية الروسية بسبب ما يتصف به مفهومها الجمالى العام من بدائية وبعض الغلو.

إن كل العيوب التي نوهنا عنها فى نقاطنا الخمس مشروطة فى نهاية المطاف بالأطروحة الكاذبة منهجيا والتي أشرنا إليها فى مطلع كلامنا، والقائلة بإمكانية ووجوب بناء علم فن بمعزل عن علم جمال فلسفى منهجى. ومن نتيجة ذلك غياب قاعدة راسخة للعلمية. وللخلاص من بحر الذاتية الذى تغرق فيه أحكام علم الجمال المحرومة من العلمية يسعى علم الفن إلى البحث عن ملجأ فى العلوم التى تختص بمادة فن ما وتتولى أمرها، وفى سبيل ذلك أيضا كان نزوع علم الأدب، فى السابق كما الآن أحيانا، إلى علم النفس وحتى الفيزيولوجيا. لكن هذا الخلاص وهمى: الحكم لا يكون علميا حقا إلا حيث لا يخرج عن نطاق علم منقذ ما، لكنه ما إن يتعدى هذا النطاق ويصبح حكم علم جمال بالذات حتى يجد نفسه مطوقا بالقوة السابقة ذاتها بأمواج الذاتية والعارض اللذين كان يأمل فى النجاة منهما. فى مثل هذا الوضع تجد نفسها فى المقام الأول التأكيدات الأساسية لعلم الفن المؤكدة والمقرة لأهمية المادة فى الإبداع الفنى: فهذه الأحكام أحكام جمالية عامة وعليها أن تصمد شاءت أم أبت لنقد علم الجمال الفلسفى العام، فهو وحده يمكن أن يثبت صحة هذه الأحكام، وهو الذى يستطيع أن يدحضها.

إن النقاط التي استعرضناها تجعل مقدمة علم جمال المادة موضع رغبة كبيرة، وتبين لنا جزئيًا معالم الطريق إلى فهم صحيح لجوهر الجمالي ولحظاته. إن تطوير هذا الاتجاه إلى مستوى علم الجمال العام مع تطبيقه في المقام الأول على الإبداع الفني اللفمي هو مهمة الفصول التالية.

وسيكون بوسعنا بعد أن نحدد لحظة المضمون، ونحدد على نحو صحيح مكان المادة في الإبداع الفني أن نمثلك مقارنة صحيحة للشكل، وأن ندرك أن الشكل هو من ناحية مادي، فعل يتحقق بالمادة بالكامل ولصيق بها، كما أنه يحيلنا، من ناحية أخرى، قيمًا إلى خارج نطاق العمل بوصفه مادة منظمة، بوصفه شيئًا. وهذا يفسر ويؤكد كل ما أشرنا إليه سابقًا على شكل افتراضات وإشارات.

مسألة المضمون

إن مسألة هذا المجال الثقافي أو ذاك في مجمله - مجال المعرفة أو الأخلاق أو الفن - يمكن أن تفهم على أنها مسألة حدود هذا المجال أو ذاك.

إن أى وجهة نظر خلاقية ممكنة أو قائمة فعلاً لا تصبح ضرورية ولازمة بشكل مقنع إلا فى اتصالها بوجهات النظر الخلاقية الأخرى، إلا حيث تولد على تخومها (وجهات النظر) حاجة جوهرية إليها وإلى أصالتها الخلاقية وتجد لها مبرراً وأساساً راسخين. أما إذا أخذت من داخلها بمعزل عن مشاركتها فى وحدة الثقافة فتصبح وقائعية مجردة فقط، أما أصالتها فيمكن أن تبدو مجرد اعتبار ونزوة.

إلا أنه لا ينبغي أن نتصور مجال الثقافة بوصفه كلاً مكانياً له حدوده إنما له أيضاً فضاءه الداخلى. فى المجال الثقافى لا وجود للفضاء الداخلى: فهذا الفضاء يقع على الحدود، الحدود تخترقه فى كل مكان، تخترق كل لحظة من لحظاته، الوحدة المنتظمة للثقافة تتغلغل فى ذرات الحياة الثقافية، وتتعكس كالشمس فى كل قطرة من قطراتها. كل فعل ثقافى يعيش بشكل جوهرى على الحدود، وفى هذا رصانته وقيمته. وفى انفصاله عن الحدود يفقد أرضيته، يصبح فارغاً، مزهواً، يذوى ويموت.

وبهذا المعنى يمكننا التحدث عن الانتظام المشخص لكل ظاهرة من الظواهر الثقافية، ولكل فعل ثقافى بمفرده وعن مشاركته المستقلة أو استقلاليته المشاركة.

وفى انتظامها المشخص هذا وحده، أى فى الاتصال والتوجه المباشر داخل وحدة الثقافة، تكف الظاهرة عن مجرد كونها واقعة عارية قائمة فعلاً، وتكتسب أهمية ومعنى وتصبح نوعاً من "المونادا" تعكس فى ذاتها كل شىء وتعكس فى كل شىء.

وبالفعل، ليس هناك فعل إبداعى ثقافى واحد يتعامل مع مادة لا مبالية تماماً بالقيمة، عارضة تماماً وغير منشقة (والمادة والشواش "chaos" مفهومان نسبيان بوجه عام)، لكنه يتعامل دائماً مع شىء سبق، بشكل أو بآخر، تقييمه وتتسيقه، وعليه أن يتخذ منه الآن بمسؤولية موقفاً تقييمياً. هكذا على سبيل المثال يجد الفعل المعرفى الواقع وقد عولج فى مفاهيم التفكير قبل العلمى، لأن الأهم أنه يجده قد قُيم ونسق بالتصرف الأخلاقى: المعيشى العلمى، الاجتماعى السياسى؛ يجده مؤكداً ومرشحاً دينياً، وأخيراً ينطلق الفعل المعرفى من الصورة المنسقة جمالياً للموضع، من رؤية الموضوع.

ما تجده المعرفة أمامها بوجوده المسبق ليس، إذن، resnullius^(١)، لكنه واقع تصرف أخلاقى بكل أشكاله وواقع رؤية جمالية. وعلى الفعل المعرفى أن يتخذ دائماً من هذا الواقع موقفاً

(١) شىء لا يعود إلى أحد ولا يخصه (باللاتينية) شىء واقع فى حدود الصفر.

جوهرياً يجب ألا يكون، بطبيعة الحال، صداماً عارضاً، لكن يمكن، ويجب أن يكون، موقفاً مؤسساً نظامياً من جوهر المعرفة والمجالات الأخرى.

ويجب قول الشيء نفسه في الفعل الفني: فهذا الفعل لا يعيش ويتحرك في الفراغ، بل في المناخ التقييمي المتوتر للتحديد المتبادل المسؤول. إن العمل الفني بوصفه شيئاً يقف بهدوء وبلادة معزولاً في المكان والزمان عن الأشياء الأخرى كلها. التمثال أو اللوحة تزيج فيزيائياً من الفضاء الذي تشغله كل ما عداها: قراءة كتاب تبدأ في ساعة معينة وتشغل عدة ساعات من الوقت وتملأها ثم تنتهي في ساعة معينة، هذا إلى أن الكتاب نفسه محاط بإحكام من كافة جوانبه بالغلاف. لكن العمل حي وقيم فنياً في التحديد المتبادل النشط والمتوتر بينه وبين الواقع الذي يتعرفه التصرف وقيمه. العمل بوصفه عملاً فنياً حي وقيم طبعاً، لكن ليس في نفسيتنا أيضاً، فهو يوجد فيها فقط وجوداً تجريبيّاً؛ أى بوصفه عملية نفسية مموضعة في الزمان ومشروعة من الناحية النفسية. العمل حي وقيم في العالم الحي، والقيم هو أيضاً سواء من الناحية المعرفية أو الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية.

إن المعارضة المألوفة بين الواقع والفن أو الحياة والفن والسعى إلى إيجاد علاقة جوهرية بينهما أمر مشروع تماماً لكنه يحتاج إلى صياغة علمية أكثر دقة. إن الواقع المعارض بالفن يمكن أن يكون واقع المعرفة والتصرف الأخلاقي بكل أنواعه فقط، أى واقع الممارسة الحياتية: الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية والأخلاقية بالمعنى الضيق للكلمة.

ويجب أن ننوه بأن الواقع المعارض بالفن (وفى مثل هذه الحالات يجوز استخدام كلمة "الحياة") يكون، على مستوى التفكير المادى، متسمًا بسمّة جمالية جوهرية: يكون قد صار صورة الواقع الفنية لكنها صورة هجينة وغير ثابتة. وكثيرًا جدًا ما يقوم بعضهم، فى معرض التعريض بالفن الجديد إلى انقطاعه عن الواقع عامة، بمعارضة فى واقع الحال بواقع الفن القديم، "الفن الكلاسيكي"، متوهمًا أن هذا واقع محايد. لكن ما يجب أن يعارض بالجمالى بما هو كذلك ويعارض بكل صراحة ووضوح هو واقع المعرفة والتصرف غير المصطبغ بالصبغة الجمالية، وبالتالي غير الموحد. يجب أن نذكر أن الواقع أو الحياة لا يصبح واقعًا مفردًا مشخصًا، أو حياة مفردة مشخصة إلا فى الحدس الجمالى، ولا يصبح أو تصبح وحدة نظامية معطاة إلا فى المعرفة الفلسفية.

كما يجب أن نحذر أيضا القصر غير المشروع وغير المبرر منهجيا الذى يبرز على هداه لحظة أو أخرى دون سواها من العالم الخارج عن الجمالى: وهكذا يعارضون ضرورة طبيعة المعرفة الطبيعية بحرية وخيال (فانتازيا) الفنان، أو يبرزون ويدفعون إلى المقدمة (وهذا ما يحدث بشكل خاص) اللحظة الاجتماعية أو السياسية الملحة فقط، أو حتى فى بعض الأحيان واقع الممارسة الحياتية الساذج غير المستقر.

ينبغي أيضاً أن نذكر مرة، ولكل مرة، أنه لا يجوز معارضة أى واقع فى ذاته، أى واقع محايد بالفن: فنحن بما نقوله عنه (أى الواقع) وبما نعارضه به نكون بشكل أو بآخر نحدده ونقيمه. يلزمنا فقط أن نتبنى الأمر وندرك الاتجاه الفعلى لتقييمنا.

يمكن التعبير عن هذا كله باختصار على النحو التالى: لا يمكن معارضة الواقع بالفن إلا كما يعارض شيء خير أو يقينى بالجمال.

إن أى ظاهرة من ظواهر الثقافة نامية مشخصة؛ أى أنها تتخذ لها موقعاً جوهرياً من واقع التوجهات الثقافية الأخرى المائل مسبقاً، وبهذا تتصل بوحدة الثقافة، لكن علائق المعرفة والتصرف والإبداع الفنى بالواقع المائل مسبقاً تختلف اختلافاً عميقاً فيما بينها.

المعرفة لا تقبل بالتقييم الأخلاقى للوجود ولصياغته الفنية، بل تنأى عنهما. فالمعرفة بهذا المعنى كأنما لا تجد أمامها شيئاً مائلاً مسبقاً، بل تبدأ من جديد، أو على وجه أدق، إن لحظة الوجود المسبق لشيء ما خارج نطاق المعرفة يبقى مهماً ويندرج فى مجال الوقائعية التاريخية أو النفسية أو السيرية الشخصية أو غيرها من وقائعية عارضة من وجهة نظر المعرفة ذاتها.

التقييم المسبق والصياغة الجمالية لا يدخلان ضمن نطاق المعرفة. الواقع حين يدخل العلم يخلع عنه ثيابه التقييمية كلها ليصبح عارياً، وواقع معرفة خالصاً، حيث السيادة لوحدة اليقين (الصحة) فقط. إن التحديد المتبادل الإيجابى فى وحدة الثقافة له مكانه بالنسبة إلى المعرفة فى كليتها فى الفلسفة المنهجية فقط.

هناك عالم علمٍ واحدٌ. واقع معرفة واحدٌ لا يمكن لأى شىء خارجهُ أن يصبح قيمًا من الناحية المعرفية. وواقع المعرفة هذا ليس مكتملاً بل مفتوح دائماً. كل ما فيه بغرض المعرفة تحدده المعرفة نفسها، وتحدده من كل جوانبه وهذه هى مهمتها: فكل ما يعاند المعرفة فى الموضوع، أو قل ما يقاومها، كل ما لم يعرف بعد فيه إنما يعاند من أجل المعرفة بوصفه مشكلة معرفية خالصة، وليس بوصفه شيئاً قيمًا خارج نطاق المعرفة (شيئاً خيراً، مقدساً، نافعاً.. إلخ). إن المعرفة لا تعرف مثل هذه المقاومة القيمة.

إن عالم التصرف الأخلاقى وعالم الجمال يصبحان هما نفسيهما موضوع معرفة بطبيعة الحال، لكنهما لا يدخلان تقييماتهما ومشروعيتهما الذاتية فى المعرفة. فلكى يصبحا قيمين معرفياً يجب أن يخضعا خضوعاً كاملاً لوحدة المعرفة وستنيتها.

وهكذا يقف الفعل المعرفى موقفاً سلبياً خالصاً من واقع التصرف والرؤية الجمالية المائل مسبقاً وهو بهذا يحقق خلوص أصالته.

ترتبط بطابع المعرفة الأساسى هذا الخصائص التالية: الفعل المعرفى لا يقيم اعتباراً إلا لعمل المعرفة المائل أمامه والسابق له، ولا يقف أى موقف خاص مستقل من واقع التصرف والإبداع الفنى فى عيانيتها التاريخية؛ بل أكثر من ذلك: إن فرادية الفعل المعرفى والتعبير عنه فى عمل علمى فردى واحد مستقل ليس لها قيمة من

وجهة نظر المعرفة ذاتها: ففي عالم المعرفة ليس هناك مبدئيًا أفعال متفرقة مستقلة ولا أعمال متفرقة مستقلة. بل من الضروري إدراج وجهات نظر أخرى للعثور على المقاربة اللازمة، ولجعل الفرادة التاريخية وتميز العمل العلمي واكتماله وفرديته شيئًا ذا قيمة جوهرية، في حين أن عالم الفن، كما سنرى، يجب أن يتفكك إلى وحدات فردية مستقلة مكثفة بذاتها، إلى أعمال فنية يشغل كل منها موقعًا مستقلًا بالنسبة إلى واقع المعرفة والتصرف؛ وهذا هو الذى يوجد ويخلق التاريخية المحايثة للعمل الفنى.

وتختلف إلى حد ما علاقة التصرف الأخلاقى بواقع المعرفة والرؤية الجمالية المائل مسبقًا. هذه العلاقة يعبر عنها عادة كعلاقة وجوب بواقع. إنما ليس فى نيتنا هنا استعراض هذه المسألة بل نكتفى بالإشارة فقط إلى أن العلاقة هنا ذات طابع سلبى على الرغم من أنه مختلف عما فى مجال المعرفة^(١).

وننتقل إلى الإبداع الفنى.

(١) علاقة الوجوب بالوجود ذات طابع خلاقى. فمن داخل عالم المعرفة نفسه لا يمكن أن يكون أى خلاف، إذ لا يمكن أن تقع فيه على ما هو غريب قيميًا. الذى يمكن أن يدخل فى خلاف ليس العلم بل العالم. وهو يدخله ليس *ex cathedra* (محدد رسميًا) بل كذات أخلاقية المعرفة بالنسبة إليها هى تصرف التعرف. والانفصال أو القطيعة بين الوجوب والوجود لا يمكن أن يكون لها معنى إلا من داخل الوجوب أى بالنسبة إلى الوعى المتصرف الأخلاقى ولا توجد إلا له.

إن الخصيصة الأساسية للجمالي، التي تميزه تميزاً حاداً عن المعرفة والتصرف، هي طابعه المتلقى (القابل للانفعال): فالواقع الذي يجده الفعل الجمالي ماثلاً بشكل مسبق ويعيه التصرف ويقيمه يدخل في العمل (في الموضوع الجمالي على وجه أدق) ويصبح هنا لحظة مكونة ضرورية. وبهذا المعنى نستطيع القول: حقاً، الحياة لا توجد فقط خارج الفن بل فيه، في داخله بكل امتلاء وزنها القيمي، الاجتماعي، السياسي، المعرفي وغيره. الفن غني، إنه ليس جافاً ولا خاصاً: الفنان اختصاصي بوصفه معلماً (صانعاً) فقط، أي بالنسبة إلى المادة فقط.

إن الشكل الجميل يحيل بطبيعة الحال هذا الواقع الذي عُرف إلى مستوى قيمي آخر، ويخضعه إلى وحدة جديدة ويرتبه وينسقه بطريقة جديدة: يفرده، يشخصه، يعزله ويتممه، لكنه لا يلغى دلالاته المعرفية والتقييمية: فالإلى هذه الدلالة بالذات يتوجه الشكل الجمالي النهائي.

النشاط الجمالي لا يخلق واقعاً جديداً كله^(١). إن الفن، بخلاف المعرفة والتصرف اللذين ينشئان الطبيعة والإنسان الاجتماعي، يتغنى بواقع المعرفة والتصرف الماثل أمامه مسبقاً - أي الطبيعة والإنسان الاجتماعي. ويزينه ويستعيد ذكره ويثريه ويعوضه ويكمّله، وقبل كل شيء ينشئ وحدة حدسية مشخصة لهذين العالمين - يدمج الإنسان في الطبيعة مفهومة على أنها محيطه الجمالي، يؤنس الطبيعة ويطبّع الإنسان.

(١) هذا الطابع كأنما الثانوي للجمالي لا يحط إطلاقاً بطبيعة الحال من استقلاليته وأصالته بالمقارنة مع الأخلاقي والمعرفي. إن النشاط الجمالي يخلق واقعه الذي يكون فيه واقع المعرفة والتصرف مقبولاً ومحولاً بشكل إيجابي وفي هذا أصالة الجمالي.

فى قبول الجمالى للأخلاقى والمعرفى داخل موضوعه تكمن طيبة الجمالى ولطفه: فهو كأنما لا يختار شيئاً، ولا يفرق شيئاً ولا يلغى شيئاً ولا يرفض شيئاً ولا يغفل شيئاً. ففى الفن لا وجود لهذه الصفات السلبية الخالصة، إلا فيما يتعلق بالمادة. فالفنان هنا صارم لا يرحم: فالشاعر يطرح الكلمات والأشكال والتعابير دون شفقة ولا ينتقى منها إلا القليل، وشظايا المرمر تتطاير من تحت إزميل النحات، لكن الإنسان الداخلى فى الحالة الأولى، والإنسان الجسدى فى الحالة الثانية لا يزدادان بهذا إلا ثراء: الإنسان الأخلاقى اغتنى بالطبيعة المؤكدة إيجاباً، والإنسان الطبيعى بالمعنى الأخلاقى.

كل مقولات التفكير الإنسانى فى الطبيعة المتقلبة والمثريّة، المتفائلة، عن العالم والإنسان تقريباً (والمقصود هنا طبعاً ليس المقولات الدينية بل الدنيوية) ذات طابع جمالى: كما أن نزعة هذا التفكير الأبدية إلى تصور ما هو واجب ومفترض على أنه مُعطى ومتحقق فى مكان ما، وهى نزعة أوجدت التفكير الأسطورى، وإلى حد كبير التفكير الميتافيزيقى، جمالية هى أيضاً.

الفن ينشئ شكلاً جديداً بوصفه (الشكل) علاقة قيمية جديدة بما أصبح واقعاً بالنسبة إلى المعرفة والتصرف: فى الفن نعرف كل شيء ونتذكر كل شيء (فى المعرفة لا نتعرف إلى شيء ولا نتذكر شيئاً على الرغم من مقولة أفلاطون)؛ لكن لهذا بالضبط تأخذ لحظة الجودة، الأصالة، المفاجأة، الحرية مثل هذه الأهمية فى الفن، إذ يوجد هنا ما يمكن أن تُدرك على خلفيته الجودة، الأصالة، الحرية ألا وهو عالم

المعرفة والتصرف موضوع التعرف والمعاناة المشتركة، فهو الذى يتخذ مظهرًا ووقعًا جديدين فى الفن، وهو الذى يدرك نشاط الفنان بالنسبة إليه على أنه نشاط حر. المعرفة والتصرف أوليان؛ أى أنهما ينشئان موضوعهما لأول مرة: المُدرك لا يعرف ولا يذكر فى ضوء جديد، بل يتعين ويتحدد لأول مرة؛ والتصرف لا يحيا إلا على ما ليس موجودًا: هنا كل شيء جديد بدايةً ولهذا ليس هنا جدة، هنا كل شيء *ex origine* ولهذا ليس هنا أصالة (*originalité*).

إن خصيصة الجمالى التى أشرنا إليها، وهى القبول الإيجابى والتوحيد الشخص للطبيعة والإنسان الاجتماعى، تفسر لنا أيضًا علاقة الجمالى الأصيلة بالفلسفة. فنحن نلاحظ فى تاريخ الفلسفة نزعة العودة باستمرار إلى استبدال وحدة المعرفة والتصرف المنهجية المفترضة بوحدة الرؤية الجمالية الحدسية المشخصة التى تبدو كأنها معطاة وقائمة فعلاً.

ذلك أن وحدة المعرفة والتصرف الأخلاقى، الوجود والوجوب، هى وحدة مشخصة وحيّة، معطاة لنا فى رؤيتنا المباشرة: أفلا تكون هذه الوحدة الحدسية هى وحدة الفلسفة المنشودة؟ إن فى هذا، بالفعل، لإغراءً عظيمًا للتفكير الذى أنشأ إلى جانب الطريق الواحد الكبير لعلم الفلسفة جزراً، وليس طرقاً، موازية إنما معزولة من الحدوسات

الفلسفة الفنية الفردية (وإن كانت أحياناً عبقرية في جنسها)^(١). في هذه المدركات الحدسية المصبوغة بالصبغة الجمالية تتصل الوحدة شبه الفلسفية التي وجدتها هذه المدركات بالعالم والثقافة اتصال وحدة الشكل الجمالي بالمضمون في العمل الفني^(٢).

إن إحدى أهم مهمات علم الجمال هي العثور على مقاربة للأقوال الفلسفية المصبوغة بالصبغة الجمالية، وإنشاء نظرية للفلسفة الحدسية على أساس نظرية الفن. إن علم جمال المادة أعجز ما يكون عن تحقيق مهمة كهذه: فهو بتجاهله المضمون يفقد المقاربة المناسبة للحدس الفني في الفلسفة.

واقع المعرفة والتصرف الأخلاقي الذي يدخل بصفته المعرفية والقيمية في الموضوع الجمالي ويخضع هنا لتوحيد حدسي مشخص، لتفريد وتشخيص وعزل واستكمال؛ أي إلى صياغة فنية مكتملة

(١) تبدو الأسطورة نوعاً آخر أصيلاً من وحدة المعرفة والتصرف الجمالية الحدسية. ونتيجة تغلب اللحظة الأخلاقية فيها على المعرفية التي تكاد تكون قوة محرّكة إلى هذا تقريباً من التمايز، نتيجة حرية الصياغة الجمالية المتوفرة (الحرية) أكثر مما في الفلسفة الحدسية (لحظة العزل أو الانفصال والحدث الأسطوري أقوى مع أنها أضعف بما لا يقاس، بطبيعة الحال، مما في الفن، كما أن لحظة إضفاء الصبغة الذاتية والشخصانية الجمالية وبعض اللحظات الأخرى العائدة للشكل أقوى)، نتيجة هذا كله فإن الأسطورة أقرب بكثير إلى الفن منها إلى الفلسفة الحدسية.

(٢) تستطيع الفلسفة أن تستخدم الصورة الحدسية للوحدة كوسيلة مساعدة من قبل المخطط الأولى في الهندسة وكفرضية كشفية. ونحن في الحياة نتعامل في كل خطوة مع مثل هذه الصورة الحدسية.

بواسطة مادة معينة، هذا الواقع نطلق عليه وباتفاق تام مع الاستعمال التقليدي اسم مضمون العمل الفني (وعلى وجه أدق مضمون الموضوع الجمالي).

المضمون هو لحظة مكونة ضرورية في الموضوع الجمالي، ومتلازمته هي الشكل الفني الذي لا يملك خارج هذا التلازم أى معنى.

إن الشكل لا يمكن أن يكون ذا قيمة من الناحية الجمالية، ولا يمكنه أن يحقق وظائفه الأساسية خارج ارتباطه بالمضمون، أى بالعالم ولحظاته، العالم بوصفه موضوع المعرفة والتصرف الأخلاقي.

إن موقف الفنان المؤلف ومهمته الفنية للعالم، يمكن ويجب أن يفهما، فى اتصالهما بكل قيم المعرفة والتصرف الأخلاقي: فما يوحد ويفرز ويعزل ويستكمل ليس المادة (فهذه لا تحتاج إلى توحيد إذ ليس فيها انقطاع وانفصال وتفكك، ولا إلى استكمال فهي لا مبالية به، إذ كى تحتاج إليه يجب أن ترتبط بالحركة القيمية المعنوية للتصرف) بل القوامُ القيمي المعانى من كل جوانبه للواقع - أى حدث الواقع.

الشكل القيم جماليًا هو تعبير عن علاقة جوهرية بعالم المعرفة والتصرف، إلا أن هذه العلاقة ليست معرفية ولا أخلاقية: فالفنان لا يتدخل فى الحدث كمشارك مباشر فيه (وإلا كان يقوم بعمل معرفي وتصرف أخلاقي) بل يأخذ موقعًا جوهريًا خارج الحدث، بوصفه متأملًا غير معنى لكنه مدرك المعنى القيمي لما يحدث؛ إنه ليس المعانى المباشر، بل المشارك فى المعاناة، إذ دون مشاركة إلى حد ما فى التقويم لا يمكن تأمل الحدث بوصفه حدثًا بالذات.

هذا الوجود خارجا (لكن ليس اللامبالاة) يمكن النشاط الفنى أن يوحد ويصوغ ويستكمل الحدث من الخارج. أما من داخل المعرفة نفسها والتصرف نفسه فهذا التوحيد وهذا الاستكمال مستحيلان مبدئيا: فلا واقع المعرفة يمكنه مع بقائه أمينا لذاته أن يتحد بالوجوب، ولا الوجوب يمكنه التوحد بالواقع مع احتفاظه (الوجوب) بأصالته، بل يلزم موقع قيمى جوهرى خارج وعى المعرفة والوجوب والتصرف يمكن فيه إنجاز هذا التوحيد وهذا الاستكمال (الاستكمال أيضا من داخل المعرفة ذاتها والتصرف ذاته غير ممكن).

إن الشكل المستكمل والموحد حدسياً يسقط من الخارج على المضمون فى تفككه الممكن وفى عدم اكتفائه الدائم (والتفكك وعدم الاكتفاء هذا فعليان خارج الفن، فى الحياة المعاشة) ويحوله إلى مستوى قيمى جديد من وجودٍ منعزل ومكتمل ومطمئن فى ذاته قيمياً ألا وهو الجمال.

إن الشكل باثتماله المضمون من الخارج يظهريه خارجياً، أى يجسده، وهكذا فالمصطلح الكلاسيكى التقليدى يبقى صحيحاً فى أساسه.

لقد اتخذ رفض المضمون بوصفه لحظة مكونة للمضمون الجمالى منحيين فى الشعرية المعاصرة، منحيين غير متمايزين دائماً بصورة دقيقة، ولم يصاغ صياغة واضحة تماماً حتى الآن:

(١) المضمون ليس سوى لحظة من لحظات الشكل، أى أن القيمة المعرفية الأخلاقية فى العمل الفنى ذات قيمة شكلية خالصة.

(٢) المضمون ليس سوى لحظة من لحظات المادة. وسوف نتعرض للاتجاه الثانى هذا بإيجاز فى الفصل التالى المكرس للمادة. أما الآن نتوقف عند الاتجاه الأول.

يجب بدءًا التتويه بأن المضمون يعطى فى الموضوع الفنى متشكلاً بالكامل، مجسداً بالكامل، وإلا كان نثرية سيئة، لحظة غير منحلة فى الكل الفنى. لا يمكن فرز وإيراز أى لحظة واقعية فعلية فى العمل الفنى يمكن أن يقال إنها مضمون خالص، كما ليس هناك بالمناسبة فعلاً شكل خالص: المضمون والشكل يتداخلان، يتغلغل أحدهما فى الآخر، إنهما غير منفصلين، مع أنهما غير ممتزجين بالنسبة إلى التحليل الجمالى، أى إنهما قيمتان من نسقين مختلفين: فلكى يكون الشكل ذا قيمة جمالية خالصة، فإن المضمون الذى يشمل هذا الشكل يجب أن يكون ذا قيمة معرفية وجمالية ممكنة، فالشكل بحاجة إلى قيمة المضمون الخارجة عن الجمالى، وإلا لن يكون بوسع الشكل أن يحقق ذاته بوصفه شكلاً. لكن هل يمكن القول على هذا الأساس إن المضمون لحظة شكلية خالصة؟

حتى ولو ضربنا صفحاً عن اللامعقولية المنطقية الخارجية (الاصطلاحية) فى الإبقاء على مصطلح "الشكل" مع النفى الكامل للمضمون، إذ إن الشكل مفهوم متلازم مع المضمون الذى هو، بالضبط، ليس الشكل، فإن فى تأكيد كهذا خطراً منهجياً جوهرياً أكبر: إذ إن المضمون يفهم على أنه شىء يمكن الحلول محله من وجهة نظر الشكل - الشكل لا شأن له بالدلالة المعرفية الأخلاقية للمضمون، وهذه

الدلالة عارضة تمامًا في الموضوع الفني؛ الشكل يجعل المضمون نسبيًا تمامًا - هذا هو معنى التأكيد الذي يجعل من المضمون لحظة من لحظات الشكل.

القضية هنا أن مثل هذا الوضع يمكن أن يحدث في الفن فعلاً: الشكل يمكن أن يفقد العلاقة الأولية بالمضمون في دلالاته المعرفية الأخلاقية، والمضمون يمكن أن يهبط إلى مستوى "لحظة شكلية خالصة"؛ إن مثل هذا الإضعاف للمضمون يحط قبل أي شيء آخر من القيمة الفنية للشكل: فالشكل يفقد إحدى أهم وظائفه ذات الخطورة الكبيرة في الفن الكلمي على وجه الخصوص وهي التوحيد الحدسي للمعرفي مع الأخلاقي؛ تضعف وظيفة العزل كما تضعف وظيفة الاستكمال. إننا حتى في حالات كهذه إنما نتعامل أيضًا مع المضمون بوصفه لحظة مكونة من لحظات العمل الفني طبعًا (وإلا لما كان لدينا، في الحالة العكسية، عمل فني) لكنه مضمون مأخوذ من مصادر غير أصلية، ثانوية، مضمون مخفف وبالتالي ذو شكل مخفف: إننا هنا ببساطة أمام ما يسمى "أدب". ويجدر بنا التوقف عند هذه الظاهرة لأن بعض الشكليين يميلون إلى اعتبار "الأدب" نوع الإبداع الفني الوحيد عامة.

هنالك أعمال لا علاقة لها فعلاً بالعالم، بل بكلمة "عالم" في السياق الأدبي فقط، أعمال تولد وتعيش وتموت على أوراق المجلات، لا تفتح صفحات الدوريات المعاصرة ولا تُخرجنا خارج حدودها في أي شيء. فهي لا، تأخذ لحظة المضمون المعرفية الأخلاقية الضرورية

لها بوصفها اللحظة المكونة للعمل الفني من عالم المعرفة والواقع الأخلاقي للتصرف مباشرة، بل تأخذها من أعمال فنية أخرى أو تبنيها على قياسها. والموضوع هنا ليس مجرد موضوع وجود تقاليد وتأثيرات فنية بالطبع (فهذه موجودة قطعاً حتى في أرفع فن)، لكن في المعرفة الداخلية بالمضمون المستوعب: ففي تلك الأعمال الأدبية التي نتكلم عنها لا يدرك المضمون ولا يعاني بذاته، بل يستوعب حسب تصورات خارجية "أدبية" خالصة. الشكل الفني لا يلتقي وجهًا لوجه مع المضمون في قيمته المعرفية الأخلاقية، بل يلتقي هنا عمل أدبي مع آخر يحاكيه أو "يزيحه" وعلى خلفيته يحسّ به كأنه جديد. هنا يصبح الشكل لا مبالياً بالمضمون في دلالاته المباشرة الخارجة عن الجمالي.

ويجد فنان الكلمة، بالإضافة إلى واقع المعرفة والتصرف المائل أمامه مسبقاً، الأدب أيضاً مائلاً أمامه. ويترتب عليه بالتالي أن يكافح ضد أو في سبيل الأشكال الأدبية القديمة، أن يستخدمها ويمزج بينها، أن يتخطى مقاومتها أو أن يجد فيها سنداً: لكن يوجد في أساس كل هذه الحركة وهذا الصراع في نطاق السياق الأدبي الخالص صراع أولى حاسم، جوهرى أكثر من سواه، مع واقع المعرفة والتصرف: فكل فنان في إبداعه (هذا إذا كان إبداعه قيماً ورصيناً) كأنما هو الفنان الأول، يترتب عليه مباشرة أن يتخذ موقفاً جمالياً من واقع المعرفة والتصرف الخارج عن الجمالي، ولو في حدود تجربته السيرية الأخلاقية الشخصية الخالصة. فلا العمل الفني بمجمله، ولا أى لحظة من لحظاته يمكن أن يفهمها من وجهة نظر السُّننية الأدبية المجردة وحدها، بل من

الضرورى الأخذ فى الحسبان النسق المعنوى أيضاً؛ أى السننية الممكنة للمعرفة والتصرف، إذ إن الشكل القيم جمالياً لا يشمل فراغاً، بل النزعة المعنوية المشروعة بذاتها والمعاندة التى للحياة. كأنما فى العمل الفنى سلطتان ونظامان قانونيان تحددهما هاتان السلطتان: فأى لحظة يمكن أن تتحدد وتتعين فى النظامين القيميين - نظام المضمون ونظام الشكل، إذ إن هذين النظامين يجدان نفسيهما فى كل لحظة قيمة فى تفاعل جوهرى ومتوتر قيمياً. لكن الشكل الفنى يشتمل من كل الجوانب بطبيعة الحال السننية الداخلية الممكنة للتصرف والمعرفة ويخضعها لوحده: ولدى تحقق هذا الشرط فقط نستطيع أن نتكلم عن العمل بوصفه عملاً فنياً.

كيف يتحقق المضمون فى الإبداع الفنى وفى التأمل، وما مهام التحليل الجمالى لهذا المضمون وطرائقه؟ يجب علينا أن نستعرض بإيجاز هنا مسائل علم الجمال هذه. والملاحظات التالية التى سنوردها لن تكون ذات طابع يستنفد الموضوع، بل تكتفى برسم ملامحه. ثم إننا لن نتطرق هنا إطلاقاً إلى مسألة التحقيق التأليفى للموضوع بمساعدة مادة معينة.

(١) يجب أن نميز بكل دقة بين اللحظة المعرفية الأخلاقية التى هى المضمون فعلاً، أى اللحظة المكونة لموضوع جمالى ما، وتلك الأحكام والتقييمات الأخلاقية التى يمكن أن نبنيها ونبديها بمناسبة المضمون، لكنها لا تدخل فى الموضوع الجمالى.

(٢) المضمون لا يمكن أن يكون معرفيًا خالصًا محرومًا تمامًا من اللحظة الأخلاقية؛ بل يمكننا القول، فوق هذا، إن للأخلاقى أولوية جوهرية فى المضمون. فبالنسبة إلى المفهوم الخالص والحكم الخالص لا يمكن للشكل الفنى أن يحقق ذاته؛ فاللحظة المعرفية الخالصة ستبقى بالضرورة معزولة فى العمل الفنى بوصفها نثرية غير منحلة. فما هو معروف يجب أن لا يتصل بعالم إنجاز التصرف الإنسانى، يجب أن يرتبط ارتباطًا جوهريًا بالوعى المتصرف، وعن هذه الطريق فقط يمكن أن يدخل فى العمل الفنى.

إن أخطأ ما يمكن فعله هو أن نتصور المضمون بوصفه كلاً معرفيًا نظريًا، بوصفه فكرة.

(٣) إن الإبداع الفنى والتأمل يتماثلان اللحظة الأخلاقية للمضمون مباشرة عن طريق المعاناة المشتركة أو الاستغراق الوجدانى والتقييم المتبادل، لكن ليس أبدًا عن طريق الفهم النظرى والتفسير اللذين يمكنهما أن يكونا مجرد وسيلة للاستغراق الوجدانى. ما يمكن أن يكون أخلاقيًا على نحو مباشر هو حدث التصرف نفسه فقط (التصرف - الفكرة، التصرف - الفعل، التصرف - الشعور، التصرف - الرغبة... إلخ.) فى إنجازهِ الحى من داخل الوعى المتصرف؛ هذا الحدث على وجه الضبط هو الذى يكتمل من الخارج بالشكل الفنى، وليس نقله النظرى على شكل أحكام أخلاقية، ومعايير أخلاقية، وحكم ومواعظ وتقييمات قضائية... إلخ.

إن النقل النظرى كتابةً للتصرف الأخلاقى وصياغة النظرية يعنيان تحويله إلى مستوى معرفى؛ أى إلى لحظة ثانوية، فى حين أن الشكل الفنى - الشكل المتحقق بالتحدث عن التصرف مثلاً، أو شكل إضفاء البطولة الملحمية عليه فى القصيدة، أو شكل تجسيده الغنائى.. إلخ - يتعامل مع التصرف ذاته فى طبيعته الأخلاقية الأولية ويتملكه عن طريق التواصل مع الوعى المريد والشاعر والفاعل، أما حين تكون اللحظة المعرفية ثانوية لا يمكن أن تكون لها أبداً قيمة وسيلة مساعدة.

من الضرورة بمكان التأكيد أن الفنان والمتأمل لا تشاركان الوعى النفسى المعاناة (فهذا لا يمكن مشاركته بالمعنى الدقيق للكلمة) بل الوعى المتصرف الموجه أخلاقياً^(١).

فما مهام التحليل الجمالى للموضوع وإمكاناته، إذن؟ يجب على التحليل الجمالى أول ما يجب أن يكشف قوام المضمون المحايث للموضوع الجمالى دون أن يخرج فى شىء خارج نطاق هذا الموضوع، كيف يتحقق بالإبداع والتأمل.

(١) الاستغراق الشعورى والتقييم المتعاطف لا يحملان بذاتهما طابعاً جمالياً. إن مضمون فعل الاستغراق الشعورى أخلاقى: إنه توجه حياتى عملى أو قيمى أخلاقى (انفعالى إرادى) لوعى آخر. ومضمون فعل الاستغراق يمكن أن يؤول ويعالج فى اتجاهات مختلفة: يمكن أن يكون منه مادة معروفة (نفسية أو فلسفية أخلاقية) ويمكن أن يشترط تصرفاً أخلاقياً (الشكل الأكثر شيوعاً لتأويل مضمون الاستغراق الشعورى هو الود، التعاطف، المساعدة) وأخيراً يمكن أن نجعل منه موضوع استكمال جمالى. ولا بد لنا من التطرق لاحقاً بتفصيل أوفى إلى ما يسمى "علم جمال الاستغراق الشعورى".

ولنتحول إلى لحظة المضمون المعرفية.

إن لحظة الإدراك المعرفي ترافق نشاط الإبداع الفني والتأمل في كل مكان، لكنها في معظم الأحوال لا تتفصل عن اللحظة الأخلاقية، ولا يمكن التعبير عنها بحكم مكافئ ومطابق. إن الوحدة المحتملة لعالم المعرفة وضرورته كأنما تتسربان عبر كل لحظة من لحظات الموضوع الجمالي وتتحدان، دون أن تبلغاً ملء التفعيل في العمل نفسه، بعالم النزعة الأخلاقية، محقتين تلك الوحدة الأصيلة المعطاة حدسيًا للعالمين، التي هي اللحظة الجوهرية للجمالي بما هو كذلك كما سبق وأشرنا^(١). وهكذا ف وراء كل كلمة وكل جملة من العمل الشعري نشعر بمعنى نثرى محتمل، بانحراف نثرى أى بإمكانية دائمة للانتساب إلى وحدة المعرفة.

كأنما اللحظة المعرفية تنير من الداخل الموضوع الجمالي كما تُصب جرعة "صافية" من الماء على خمرة التوتر الأخلاقي والاستكمال الفني وتُخلط، لكن هذه اللحظة المعرفية لا تتكشف دائماً حتى درجة حكم معين: ففي الحكم المتكافئ والمطابق كل شيء يعرف، لكن ليس كل شيء يوعى.

(١) سنلقى الضوء لاحقاً على دور شخصية المؤلف الإبداعية بوصفها لحظة مكونة للشكل الفني، حيث تتوحد اللحظتان المعرفية والأخلاقية في لحظة نشاطه. (المؤلف)

لو لم تكن هذه المعرفة النافذة إلى كل شيء لأقلت الموضوع الجمالى؛ أى الشيء المبدع والمُدرَك فنيًا من كل روابط التجربة، التجربة النظرية والعملية معًا، كما يفلت مضمون حالة الخدر الكامل التى لا يمكنك أن تذكر منها شيئًا ولا تقول فيها شيئًا، كما لا يمكنك أن تقيمها (يمكن تقييم الحالة لكن ليس مضمونها)، وهكذا أيضًا الإبداع الفنى والتأمل اللذان يفتقران إلى أى رابطة بالوحدة الممكنة للمعرفة، ولا تتغلغل فيهما هذه الوحدة ولا يعرفان من الداخل، يمكن أن يصبحا مجرد حالة معزولة من الغيبوبة التى لا يمكن أن نعرف أنها حصلت إلا فيما بعد، بعد مضى الوقت.

هذه الإنارة الداخلية للموضوع الجمالى فى مجال الفن الكلمى يمكن أن ترقى من درجة التعرف إلى درجة المعرفة المحددة والأفكار العميقة التى يمكن للتحليل الجمالى أن يبرزها ويبينها.

لكن يجب على الباحث، وهو يبرز تصورًا معرفيًا أو آخر فى داخل مضمون الموضوع الجمالى، وليكن أفكار إيفان كارامازوف الفلسفية عن معنى عذاب الأطفال، أو عن رفضه ملكوت الله وغيرها، أو محاكمات أندريه بولكونسكى التاريخية الفلسفية والاجتماعية عن الحرب، وعن دور الفرد فى التاريخ وما إلى ذلك، أن يذكر أن هذه الأفكار مهما كانت عميقة بذاتها ليست معطاة فى الموضوع الجمالى فى تميز معرفى خاص بها، وأن الشكل الفنى لا يرتبط بها وليس هو الذى يستكملها مباشرة. فهذه الأفكار مرتبطة بالضرورة بلحظة

المضمون الأخلاقية، بعالم التصرف، بعالم الحدث، وهكذا؛ فأفكار إيفان كارامازوف، المشار إليها، تؤدي وظائف توصيفية، وهي لحظة ضرورية في موقف إيفان الحياتي الأخلاقي، وتتصل بموقف أليوشا الأخلاقي والديني، وبهذا تتدرج في الحدث الذي يتوجه إليه الشكل الفني المستكمل للرواية. كما أن محاكمات أندريه بولكونسكي تعبر عن شخصيته الأخلاقية وعن موقفه الحياتي وتتضفر في الحدث المصور - ليس فقط حدث حياته الشخصية - وإنما الحياة الاجتماعية والتاريخية. وهكذا يصبح الصحيح معرفيًا لحظة إنجاز أخلاقي.

ولو لم تكن المحاكمات مرتبطة بالضرورة على نحو أو آخر بالعالم الشخص للتصرف الإنساني لبقيت "نثریات" معزولة، الأمر الذي يحدث أحياناً في إبداع دوستويفسكي، وعند تولستوى، كما في روايته "الحرب والسلام" مثلاً، حيث تقطع المحاكمات التاريخية الفلسفية في أواخر الرواية علاقتها باللحظة الأخلاقية وتتنظم على شكل مبحث نظري.

وعلى نحو مغاير قليلاً ترتبط اللحظة المعرفية التي نجدها في أنواع الوصف وفي الشروح العلمية الطبيعية أو النفسية لما حدث وغيرها بالحدث الأخلاقي، وليس من مهمتنا الآن الإشارة إلى كل الوسائل والطرق الممكنة لعلاقة الأخلاقي والمعرفي في وحدة مضمون الموضوع الجمالي.

ينبغي علينا ونحن نؤكد علاقة اللحظة المعرفية بالأخلاقية
التتويه إلى هذا، بأن الحدث الأخلاقي لا يسبغ على الأحكام الداخلة فيه
النسبية، وليس لامباليًا بعمقها المعرفي الخالص وبسعتها وبقينيتها.
وهكذا فالأحداث الأخلاقية لحياة "إنسان من الأقبية" التي صاغها
دوستويفسكي، وأنجزها فنيًا، تحتاج إلى العمق المعرفي الخالص
لنظرته إلى العالم وإلى تماسكها، وهي لحظة جوهرية في موقفه
وتوجهه الحياتيين.

وعلى التحليل الجمالي بالذات، بعد أن يبرز في حدود الممكن
واللازم لحظة المضمون النظرية في قيمتها المعرفية الخالصة، أن يفهم
بعد هذا علاقتها باللحظة الأخلاقية ودلالاتها وقيمتها في وحدة
المضمون؛ لكن يمكن بطبيعة الحال جعل هذه اللحظة المعرفية المبرزة
مادة تقييم ودراسة نظرية لا علاقة لها بالعمل الفني، لكن في هذه
الحالة تكون قد تمت إحالة هذه اللحظة لا إلى وحدة المضمون
والموضوع الجمالي بمجمله. بل إلى وحدة معرفية خالصة عائدة إلى
نظرة فلسفية ما إلى العالم (هي عادة نظرة المؤلف). إن لأعمال كهذه
أهمية فلسفية علمية وثقافية تاريخية كبيرة؛ لكن هذه الأعمال لا دخل
لها بالتحليل الجمالي بالذات، ويجب تقريقها عنه بشكل صارم. ولن
نتوقف هنا عند المنهجية الخاصة الواجبة في أعمال كهذه.

لننتقل الآن إلى مهام تحليل لحظة المضمون الأخلاقية.

إن منهجية التحليل الأخلاقي أعقد بكثير: فالتحليل الجمالي بوصفه تحليلاً علمياً، يجب أن ينقل على نحو ما اللحظة الأخلاقية التي يستوعبها التأمل عن طريق المعاناة المشتركة (الاستغراق الوجداني) والتقييم المتبادل. كما عليه وهو يقوم بهذا النقل التخلي عن الشكل الفني وفي المقام الأول عن التفريد الجمالي: من الضروري فصل الشخصية الأخلاقية الخالصة عن تجسيدها الفني في نفس وجسد فرديين قيمين جمالياً، كما هناك ضرورة لإغفال كل لحظات الاستكمال. إن مهمة نقل كهذه شاقة وصعبة وفي بعض الأحوال، كما في الموسيقى، مستحيلة تماماً.

يمكن نقل لحظة مضمون العمل الأخلاقية شفويًا، وإلى حد ما كتابيًا، عن طريق إعادة الرواية: يمكن إعادة رواية المعاناة، التصرف، الحدث التي وجدت استكمالها الفني في العمل بكلمات أخرى. إن إعادة رواية مثل هذه، مع وعي منهجي كامل بالمهمة المطلوبة، يمكن أن تكتسب أهمية كبيرة للتحليل الجمالي. وبالفعل فإن إعادة الرواية، على الرغم من احتفاظها بالشكل الجمالي؛ أي شكل القصة، إلا أنها تبسط هذا الشكل وتتحط به إلى مجرد وسيلة للمعاناة المشتركة وذلك لتخليها قدر الإمكان عن وظائف الشكل العازلة والمستكملة والمهدئة كلها (لا يمكن للقصة بطبيعة الحال التخلي تخلياً كاملاً عنها): ونتيجة ذلك أنه على الرغم من أن المشاركة الوجدانية تضعف وتبهت، فإن الطابع الأخلاقي، غير المُستكمل، المتصل بوحدة الوجود، لموضوع المعاناة المشتركة يبرز بشكل أوضح، كما تبرز بوضوح أكبر علاقاته بالوحدة

التي عزلها (العلاقات) الشكل. وهذا يمكن أن يسهل على اللحظة الأخلاقية الانتقال إلى الشكل المعرفي للأحكام: الأحكام الأخلاقية بالمعنى الضيق والاجتماعية وغيرها، أي يسهل نقلها النظري الخالص (شفويًا أو كتابة) في الحدود الممكنة بالنسبة إليها.

وهناك نقاد ومؤرخو أدب كثيرون كانوا يتمتعون ببراعة عالية في كشف اللحظة الأخلاقية عن طريق إعادة رواية نصف جمالية مدروسة منهجيًا.

إن النقل النظري الخالص هذا لا يمكنه أبدًا أن يستوعب استيعابًا كاملاً لحظة المضمون الأخلاقية التي لا يمكن إلا للاستغراق الشعوري وحده أن يمتلكها، لكنه يمكن لهذا النقل ويتوجب عليه السعي إلى هذا بوصفه حده الأقصى العصي على البلوغ. فلحظة الإنجاز الجمالي إما أن تكون قيد الإنجاز وإما أن يجرى التأمل فيها فنيًا. لكن لا يمكن أبدًا أن تصاغ صياغة نظرية مكافئة ومطابقة.

ويجب على التحليل الجمالي بالذات، بعد نقل لحظة المضمون الأخلاقية التي يستكملها الشكل في حدود الممكن، أن يدرك معنى المضمون كله في كلية الموضوع الجمالي، أي بوصفه مضمون شكل فني معطى بالذات، والشكل على أنه شكل مضمون معطى بالذات، دون الخروج خارج نطاق العمل. لكن اللحظة الأخلاقية كالمعرفية يمكن فصلها وتمييزها وجعلها موضوع بحث مستقل؛ فلسفي، أخلاقي، أو اجتماعي، يمكن جعلها موضوع تقييمات حيوية أخلاقية، أو سياسية

(تقييمات ثانوية وليست تقييمات أولية متبادلة ضرورية للتأمل الجمالى)؛ وعلى هذا فالطريقة الاجتماعية لا تنقل الحدث الأخلاقى فى مظهره الاجتماعى وحسب، أى الحدث المعانى والمقيم بشكل متبادل فى التأمل الجمالى، بل تخرج خارج نطاق الموضوع وتدرج الحدث فى علائق اجتماعية وتاريخية أوسع. مثل هذه الأعمال يمكن أن تكون لها أهمية علمية كبيرة، بل إنها ضرورية تمامًا لمؤرخ الأدب، لكنها تكون خارجة عن نطاق التحليل الجمالى بما هو كذلك.

وليس للنقل النفسى للحظة الأخلاقية علاقة مباشرة بالتحليل الجمالى. فالإبداع الفنى والتأمل يتعاملان مع الذوات الأخلاقية وذوات التصرف والعلائق الاجتماعية الأخلاقية فيما بينها. وإليها يتوجه قيمًا الشكل الفنى المستكمل لها، ولكن ليس مع الذوات النفسية، ولا مع العلائق النفسية فيما بينها.

ويجب التنويه، دون أن نطور حاليًا هذا الطرح ونعمقه، بأنه من الوارد تمامًا، من جهة نظر منهجية، فى بعض الحالات، كما لدى إدراك العمل الموسيقى، التعميق المكثف للحظة الأخلاقية، فى حين أن توسيعها يمكن أن يخرب الشكل الجمالى؛ اللحظة الأخلاقية ليس لها فى العمق حدود يمكن أن تُخرق بشكل غير مشروع: فالعمل لا يحدد مسبقًا ولا يمكنه أن يحدد درجة عمق اللحظة الأخلاقية.

إلى أى درجة يمكن لتحليل المضمون أن يكون ذا طابع علمى عام صارم؟

مبدئيًا من الممكن بلوغ درجة عالية من العلمية، خصوصًا حين تبلغ العلوم المقابلة نفسها - علم الأخلاق الفلسفي والعلوم الاجتماعية - الدرجة الممكنة من العلمية بالنسبة إليها. لكن تحليل المضمون في الواقع، أمر في غاية الصعوبة، ولا يمكن بوجه عام تفادي درجة معينة من الذاتية لكون الأمر مرتبطًا بجوهر الموضوع الجمالي ذاته. لكن الحس العلمي المرهف للباحث يستطيع دائمًا أن يقيه في الحدود الواجبة، وأن يتحفظ مما قد يكون ذاتيًا في تحليله.

تلكم هي منهجية التحليل الجمالي للمضمون في خطوطها الرئيسية.

مسألة المادة

لدى حل مسألة أهمية المادة للموضوع الجمالى يجب أخذ المادة فى محدوديتها العلمية الدقيقة تمامًا دون إثرائها بأى لحظات غريبة عن هذه المحدودية. ويقع الالتباس والغموض بالنسبة إلى المادة أكثر ما يكون فى علم جمال الكلمة: فبالكلمة يفهمون كل ما يحلو لهم، حتى "الكلمة التى كانت فى البدء"، إلا أن ميتافيزيكا الكلمة - فى أشكالها الأكثر رهافة فى الواقع - نجدها فى أبحاث الشعراء أنفسهم فى الشعرية (كما عند الشعراء ف. إيفانوف، أ. بيلي، ل. بلمونت): فالشاعر يأخذ الكلمة وقد اكتسبت الصبغة الجمالية، لكنه يتمثل اللحظة الجمالية وقد أصبحت من جوهر الكلمة ذاتها، وبهذا يحولها إلى قيمة أسطورية أو ميتافيزيكية.

لكنهم إذ يضيفون على الكلمات كل ما يخص الثقافة ويميزها، أى كل القيم الثقافية - المعرفية والأخلاقية والجمالية - يسهل عليهم إلى حد كبير جدًا بعد هذا الانتهاء إلى أنه لا يوجد فى الثقافة بوجه عام شىء سوى الكلمة، وإلى أن الثقافة كلها ليست سوى ظاهرة لغوية، وإلى أن العالم والشاعر يتعاملان على حد سواء وبدرجة واحدة مع الكلمة فقط. لكننا حين نذيب المنطق وعلم الجمال، أو الشعرية على الأقل، فى الألسنية فإننا نحطم بهذا أصالة المنطق والجمالى، كما نحطم بالقدر نفسه أصالة الألسنى.

ولا يمكننا فهم أهمية الكلمة للمعرفة وللإبداع الفنى، وللشعر منه على وجه الخصوص، وهو الذى يهمنى هنا فى المقام الأول، إلا إذا فهمنا الطبيعة الألسنية الخالصة للكلمة بمعزل تام عن مهام معرفة الإبداع الفنى والطقس الدينى.. إلخ. اللذين تخدمهما الكلمة. إن الألسنية لا تبقى، بطبيعة الحال، لا مبالية بخصائص لغة ما هو علمى، فنى، طقسى، لكن هذه كلها بالنسبة إليها خصائص ألسنية خالصة للغة ذاتها، ولا تستطيع الألسنية لفهم أهمية هذه الخصائص بالنسبة إلى الفن أو العلم أو الدين الاستغناء عن إرشادات وتوجيهات علم الجمال، ونظرية المعرفة، وغيرهما من العلوم الفلسفية، تماما كما يجب على سيكولوجية المعرفة الاستناد إلى المنطق ونظرية المعرفة، وعلى سيكولوجيا الإبداع الفنى الاستناد إلى علم الجمال.

الألسنية تكون علما ما دامت تمتلك موضوعها الذى هو اللغة. إن لغة الألسنية يحددها التفكير الألسنى الخالص. فالقول الشخص الواحد الفردى معطى دائما فى سياق ثقافى معنوى قيمى - علمى، فنى، سياسى أو غيره - أو فى سياق موقف حياتى شخصى فردى واحد، ولا يكون قول ما حيا ومعقولا (مستوعبا) إلا فى هذين السياقين: يكون صحيحا أو كاذبا، جميلا أو قبيحا، صادقا أو مراوغا، صريحا، وقحا، موثوقا به.. إلخ.

فليس هناك من وجود لأقوال محايدة، ولا يمكن أن يكون لها وجود. لكن الألسنية لا ترى فيها أبدًا ظاهرة لغة، لا تحيلها إلا إلى وحدة اللغة، لكنها لا تحيلها أبدًا إلى وحدة المفهوم، الممارسة الحياتية، التاريخ، خلق الشخص.. إلخ.

مهما يكن من أهمية هذا القول التاريخي أو ذاك بالنسبة إلى العلم أو السياسة أو في دائرة الحياة الشخصية لفردٍ ما، فإنه لن يكون بالنسبة إلى الألسنية نقلةً في مجال الفكر، لن يكون وجهة نظر جديدة إلى العالم، لن يكون شكلًا فنيًا جديدًا، لن يكون جريمة أو مائة أخلاقية، إنه لن يكون بالنسبة إليها سوى ظاهرة لغةٍ وربما تركيبًا لغويًا جديدًا. ولن يكون معنى الكلمة وأهميتها الجوهرية بالنسبة إليها سوى لحظة كلمةٍ محددةٍ ألسنيًا منزوعة بشكل مشروع من السياق الثقافي المعنوي والقيمي الذي ترددت فيه الكلمة في الواقع.

هكذا فقط؛ أي بعزل اللحظة اللغوية الخالصة للكلمة وبتحريرها وبخلق وحدة لغوية جديدة وأقسامها المشخصة تمتلك الألسنية منهجيًا موضوعها الذي هو اللغة اللامبالية بالقيم الخارجة عن الألسني (أو، إذا شئت، تخلق قيمة ألسنية جديدة خالصة تحيل إليها أي قول).

إن الألسنية بتحررها المتماسك من النزعة الميتافيزيقية (اعتبار الكلمة الجوهر أو تشيئها الفعلي) ومن الاتكاء غير المبرر على علم المنطق وعلم النفس وعلم الجمال تقترب من موضوعها وتعرضه منهجيًا، وبهذا وحده تصبح لأول مرة علمًا.

لم تتمكن الألسنية من امتلاك موضوعها منهجياً في كل الأبواب بقدر واحد: فهي تبدأ للتو وبصعوبة في امتلاكه في النحو، ولم تفعل إلا القليل في مجال علم المعاني، كما لم تفعل شيئاً في باب يفترض فيه أن يدرس الكليات اللمية الكبيرة: الأقوال الحياتية الطويلة، الحوار، البحث، الرواية..إلخ. إذ إن هذه الأقوال أيضاً يمكن ويجب أن تحدد وتدرس دراسة ألسنية خالصة بوصفها ظواهر لغوية. إن دراسة هذه الظواهر في الشعرية (القديمة) والبلاغات، وكذلك في شكلها المعاصر، الذي هو الشعرية، لا يمكن الاعتراف بها على أنها علمية نتيجة الخلط الذي أشرنا إليه بين وجهة النظر الألسنية ووجهات النظر الأخرى الغربية عنها تماماً (المنطقية، النفسية، الجمالية). إن نحو الوحدات (الكليات) اللمية الكبيرة (أو التركيب كباب من أبواب الألسنية، بخلاف التأليف الذي يأخذ في حسابه مهمة فنية أو علمية) لا يزال ينتظر من يقيم له أسسه: فحتى الآن لم تحظ الألسنية من الناحية العلمية أبعد من الجملة المركبة. وهذه أطول ظاهرة لغوية مبحث فيها علمياً من الناحية الألسنية: ويتهياً للمتابع كأنما اللغة الألسنية الخالصة منهجياً تنتهي هنا فجأة ويبدأ على الفور العلم والشعر..إلخ. مع أنه يمكن متابعة التحليل الألسني الخالص هنا مهما يكن من صعوبة الأمر ومهما يكن من الزج بوجهات النظر الغربية عن الألسنية من إغراء.

ولن تتمكن الألسنية من أن تعمل بشكل مثمر لصالح علم جمال الإبداع اللمى وتستفيد بدورها دونما خوف من خدماته إلا حين تمتلك موضوعها امتلاكاً كاملاً وبكل صفاته ونقائه المنهجي. وإلى أن تفعل

ذلك سوف تظل مصطلحات مثل "اللغة الشعرية" "الصورة" و"المفهوم" والحكم، وغيرها، تمثل بالنسبة إليها إغراءً وخطرًا جسيمًا. وهى فى خوفها من هذه المصطلحات ستكون على حق: فقد عكرت هذه المصطلحات طويلاً، وطويلاً جداً، وما زالت تعكر، النقاء المنهجي لهذا العلم وصفاءه.

فما أهمية اللغة المفهومة فهما ألسنيا صارماً للموضوع الجمالى للشعر إذن؟ إن الأمر هنا لا يتعلق بالخصائص الألسنية للغة الشعرية، كما يميل بعضهم إلى تفسير المسألة، بل بأهمية اللغة الألسنية بكيئتها بوصفها مادة الشعر، وهذه المسألة ذات طابع جمالى خالص.

إن اللغة للشعر كما للمعرفة وللتصرف الأخلاقى وصياغته صياغة مشخصة فى القانون وفى الدولة وما إلى ذلك ليست إلا لحظة تقنية. وفى هذا يقوم التماثل التام بين أهمية اللغة للشعر وأهمية طبيعة معرفة الأشياء بوصفها مادة (وليس مضمونا) للفنون التشكيلية: المكان الفيزيائى الرياضى، الكتلة، الصوت، السمعيات وغيرها.

لكن الشعر يستخدم تقنياً اللغة الألسنية على نحو خاص كل الخصوصية: فالشعر بحاجة إلى اللغة كلها، بكل جوانبها وبكل لحظاتها، وهو لا يبقى لا مبالياً بأى فرق من فروق الكلمة الألسنية.

ليس هناك مجال من مجالات الثقافة إلا الشعر، بحاجة إلى اللغة كلها: فالمعرفة لا تحتاج إطلاقاً إلى الأصالة المعقدة للجانب الصوتى فى الكلمة من حيث كفاءته أو كمائه، وليست بحاجة إلى تنوع النبرات

المحتملة فيها ولا إلى الإحساس بحركة أعضاء النطق.. إلخ. وقل
الشيء نفسه في مجالات الإبداع الثقافي الأخرى، فهي جميعًا لا
تستغنى عن اللغة لكنها لا تأخذ منها إلا القليل القليل.

في الشعر فقط تكشف اللغة عن إمكاناتها كلها، ذلك أن المطلوب
من اللغة هنا هو دائمًا في حده الأقصى: فكل جوانب اللغة متوترة غاية
التوتر، حتى حدودها القصوى: كأني بالشعر يمتص من اللغة أنساغها
كلها فتتجاوز اللغة هنا ذاتها.

والشعر، مع كونه متطلبًا جدًا من اللغة، إلا أنه يتجاوزها مع
هذا بوصفها لغة، بوصفها معطى ألسنيًا محددًا. والشعر في هذا لا
يشكل استثناء من الوضع العام للفنون كلها: فالإبداع الفني، معرفًا من
وجهة نظر المادة هو تجاوز لهذه المادة.

إن اللغة في معطائها الألسني المحدد لا تدخل في الموضوع
الجمالي لفن الكلمة.

وهذا الأمر يحدث في الفنون كلها: فالطبيعة الخارجة عن
الجمالي للمادة، بخلاف المضمون، لا تدخل في الموضوع الجمالي: لا
يدخل فيه المكان الفيزيائي الرياضي ولا صوت السمعيات ولا خطوط
الهندسة وأشكالها ولا حركة الديناميكا.. إلخ. فهذه يتعامل معها الفنان
المعلم وعلم عالم الجمال، لكن لا يتعامل معها التأمل الجمالي الأولي.
ويجب التمييز بشكل صارم بين هاتين اللحظتين: الفنان يضطر خلال
عمله إلى التعامل مع الشيء الفيزيائي والرياضي والألسني، وعالم

الجمال يضطر بدوره للتعامل مع الفيزياء والرياضيات والألسنية، لكن هذا العمل التقنى الضخم كله الذى يقوم به الفنان ويدرسه علم الجمال، والذى ما كان هناك أعمال فنية لولاه، لا يدخل فى الموضوع الجمالى الذى ينشئه التأمل الفنى، أى الوجود الجمالى بما هو كذلك، أى فى الغاية النهائية للإبداع: فهذا كله يزاح فى لحظة الإدراك الفنى كما تزاح الأخشاب وترفع عندما ينتهى البناء^(١).

ودفعاً للالتباس ولسوء الفهم سنعطى هنا للتقنية فى الفن تعريفاً دقيقاً تماماً: نطلق اسم اللحظة التقنية فى الفن على كل ما هو ضرورى تماماً لإنشاء العمل الفنى فى معطاه العلمى الطبيعى أو الألسنى المحدد (ويتصل بهذا كل قوام العمل الفنى الجاهز بوصفه شيئاً) إنما لا يدخل فى الموضوع الجمالى مباشرة، لا يكون عنصراً مكوناً للكل الفنى. اللحظات التقنية هى عوامل الانطباع الفنى، لكنها ليست الحدود (العناصر) القيمة لمضمون هذا الانطباع، أى الموضوع الجمالى.

هل يتوجب علينا أن نحس بالكلمة فى الموضوع الفنى بوصفها كلمة فى معطاه الألسنى بالذات، وهل يتوجب علينا أن نحس بالشكل الصرفى للكلمة بوصفه صرفياً بالذات، وبالشكل النحوى والنسق النحوى بوصفهما نحويين، وبنسق الدلالة بوصفه نسق دلالة؟ هل يتوجب علينا أن ندرك الكل الشعرى فى التأمل الفنى بوصفه كلاً كلمياً وليس كلاً منجزاً لحدث ما، لنزوع ما، لتوترٍ داخلى.. إلخ؟

(١) لا يترتب على هذا بالطبع أن الموضوع الجمالى موجود فى مكان ما مجهول. وقبل إنشاء العمل وبمعزل عنه، فى شكل جاهز. فهذا افتراض سخيف تماماً بطبيعة الحال.

التحليل الألسنى سيجد بطبيعة الحال كلمات وجمالاً وغيرها:
والتحليل الفيزيائى بوسعه أن يجد الصبغة المطبعية لمركب كيميائى
ما، أو الأمواج الصوتية فى معطائها الفيزيائى؛ والفيزيولوجى قد يجد
ويكتشف العمليات المقابلة فى عضويات الإدراك، وفى المراكز
العصبية، كما سيجد عالم النفس الانفعالات المقابلة لأحاسيس السمعية
والتصورات البصرية وغيرها. وأحكام الاختصاصيين العلمية هذه،
لاسيما أحكام الألسنى (وبدرجة أقل بكثير عالم النفس) يحتاج إليها عالم
الجمال فى دراسته بنية العمل فى معطاه المحدد الخارج عن الجمالى؛
إلا أنه من الواضح بالنسبة إلى عالم الجمال، كما إلى أى متأمل فى أن
هذه اللحظات كلها لا تدخل فى الموضوع الجمالى، أى فى ذلك
الموضوع الذى يتصل به تقييمنا الجمالى المباشر (رائع، عميق.. إلخ).
فهذه اللحظات كلها يسجلها ويحددها عالم الجمال فى أحكامه الثانوية
المفسرة علمياً.

لو حاولنا تحديد قوام الموضوع الجمالى لقصيدة بوشكين
"ذكرى":

حين يصمت النهار الصاخب للإنسان

وعلى ساحات المدينة وشوارعها

يستلقى ظل الليل نصف الشفاف ...

لأمكننا القول إن ما يدخل فى قوامه هو المدينة والليل والذكريات والندم وغيرها. وفعاليتنا الفنية تتعامل مع هذه القيم مباشرة، وإليها يتجه القصد الجمالى لروحنا: فحدثُ الذكرى والندم الأخلاقى وجد استكمالَه وشكله الجمالى فى هذا العمل (تتصل بالتشكيل الفنى لحظة العزل والاختلاق، أى الواقع غير التام) ولكن ليس الكلمات وليس الوحدات الصوتية والأجزاء اللمنية ولا الجمل ولا الأنساق الدلالية: فهذه تقع خارج مضمون الإدراك الجمالى؛ أى خارج الموضوع الجمالى، ويمكن أن تصلح ويحتاج إليها للحكم العلمى الثانوى لعلم الجمال فقط حين تطرح مسألة أى لحظات فى البنية الخارجة عن الجمالى للعمل الخارجى استدعت مضموناً، أو آخر، لهذا الإدراك.

يتوجب على علم الجمال أن يحدد القوام المحايث لمضمون التأمل الفنى فى نقائه الجمالى، أى الموضوع الجمالى، لحل مسألة أهمية المادة لهذا الموضوع ولتنظيمه فى عمل خارجى: وحين ينحو هذا النحو يتوجب عليه بالضرورة، بالنسبة إلى الشعر، أن يقرر أن اللغة فى معطائها الألسنى المحدد لا تدخل ضمن الموضوع الجمالى بل تبقى خارجه، أما الموضوع الجمالى ذاته فيتكون من مضمون متشكل فنياً (أو من شكل فنى ذى مضمون).

إن الشغل الضخم الذى يقوم به الفنان على الكلمة يهدف فى غايته النهائية إلى تجاوزها، ذلك أن الموضوع الجمالى ينشأ على

حدود الكلمات، حدود اللغة بما هي كذلك. لكن هذا التجاوز للمادة يحمل طابعاً محايداً خالصاً: الفنان يتحرر من اللغة في معطائها الألسني، ليس من خلال رفضها، إنما عن طريق دفعها إلى تكامل محايت: كأنما الفنان ينتصر على اللغة بسلحها اللغوى الخاص، ويجعل اللغة، وهو يدفع بها إلى التكامل ألسنيًا، تتجاوز ذاتها.

هذا التجاوز المحايت للغة في الشعر يختلف اختلافًا حادًا عن تجاوزها السلبي الخالص في مجال المعرفة: ترميزها جبريًا، استخدام إشارات اصطلاحية أو اختزالات بدل الكلمات.

إن التجاوز المحايت هو تحديد شكلي للعلاقة بالمادة، ليس في الشعر وحسب، بل في الفنون كلها.

وعلى علم جمال الإبداع الكلمي أيضًا لا أن يقفز فوق اللغة الألسنية، بل أن يفيد من عمل الألسنية كله لفهم تقنية إبداع الشاعر على أساس من الفهم الصحيح لمكان المادة في الإبداع الفني من ناحية، ولأصالة الموضوع الجمالي وخصوصيته من ناحية أخرى.

الموضوع الجمالي بوصفه مضمون الرؤية الفنية ومعمارها، كما أشرنا إلى ذلك، هو تكوين وجودي جديد كل الجودة، ليس من نسق علمي طبيعي (ولا من نسق سيكولوجي طبعاً) و ليس من نسق ألسني: إنه وجود جمالي أصيل ينمو على حدود العمل عن طريق تجاوز معطاء المادى الشئى الخارج عن الجمالى.

الكلمات فى العمل الشعرى تنتظم من جهة فى كلية الجمل، الجملة الطويلة، المقطع، الفصل..إلخ، ومن جهة أخرى تنشئ كلية مظهر البطل، خلقه، وصفه، تصرفه..إلخ. وأخيراً تنشئ كلية حدث الحياة الأخلاقى المشكل والمنجز جماليًا، وهى فى هذا تكف عن كونها كلمات، جملاً، بيتاً (شعريًا)، فصلاً..إلخ. إن عملية تحقيق الموضوع الجمالى، أى تحقيق المهمة الفنية فى جوهرها، هى عملية تحويل متماسك لكل الكلى المفهوم ألسنيًا وتأليفيًا إلى كل معمارى للحدث الناجز جماليًا، هذا إلى أن كل الروابط اللمية والعلاقات المتبادلة ذات النسق الألسنى والتأليفى تتحول، طبعًا، إلى روابط حديثة معمارية خارجة عن الكلمة.

ليس من غرض هذا البحث القيام بدراسة أوسع للموضوع الجمالى ومعمارهِ، إلا أننا سنتطرق بإيجاز إلى بعض نقاط الالتباس وسوء الفهم التى نشأت على أرضية الشعرية الروسية المعاصرة المتصلة بنظرية الصورة، والتى لها علاقة جوهرية جدًا بنظرية الموضوع الجمالى.

تبدو لنا "الصورة" كما طرحها عالم الجمال بوتيبينا غير مقبولة نتيجة ما ارتبط بها، وارتبط بها بشكل راسخ، من أشياء نافلة وغير صحيحة، ولا يضير علم الجمال أن يتخلى عنها، على الرغم من التقاليد القديم الجليل الذى استقر طويلاً حول مفهوم "الصورة". لكن نقد الصورة بوصفها اللحظة الأساسية للإبداع الشعرى، الذى طرحه بعض الشكليين، وطوره بوضوح خاص ف.م. جيرمونسكى، يبدو لنا غير صحيح إطلاقاً من الناحية المنهجية، لكنه بالمقابل، مميز جدًا للشعرية الروسية المعاصرة.

إن رفض معنى الصورة هنا يقوم على أساس أنه لا تنشأ لدينا عند الإدراك الفنى للعمل الشعري تصورات بصرية واضحة لتلك الأشياء التي يجرى الحديث عنها في العمل، بل مجرد أجزاء عارضة وذاتية من تصورات بصرية يتعذر معها بطبيعة الحال تعذرًا تامًا بناء الموضوع الجمالي. وبالتالي لا تنشأ صور واضحة بل حتى لا يمكن، مبدئيًا، أن تنشأ صور كهذه: فكيف يجب علينا أن نفهم ونتصور "المدينة" في قصيدة بوشكين المشار إليها؟ أهى مدينة أجنبية أم روسية، كبيرة أم صغيرة، هل هى موسكو أم بطرسبرغ؟ هذا متروك للاعتباط الذاتى لكل منا، فالعمل لا يعطينا أى إشارات ضرورية لا غنى عنها لبناء تصور بصرى مشخص واحد للمدينة، لكن إذا كان الأمر كذلك فإن الفنان عامة لا يتعامل مع الشيء، بل مع الكلمة فقط وهى فى حالتنا الراهنة كلمة "مدينة" وليس أكثر من ذلك.

الفنان يتعامل مع الكلمات فقط، إذ إن الكلمات وحدها هى الشيء المحدد والموجود وجودًا لا ريب فيه فى العمل.

إن مثل هذا التفكير يميز بشكل بالغ علم جمال المادة الذى لم يتحرر بعد تمامًا من النزعة السيكلوجية، وعلينا أن ننوه بادئ ذى بدء بأن مثل هذه الطريقة فى التفكير يمكن استخدامها فى مجال نظرية المعرفة أيضًا (الأمر الذى حدث أكثر من مرة): فالعالم أيضًا يتعامل مع الكلمة فقط وليس مع الشيء، وليس مع المفهوم، فبمثل أساليب كهذه يمكن البرهنة على أنه لا توجد فى سيكولوجيا العالم أى مفاهيم، بل تكوينات عارضة ذاتية رجراجة ونثار تصورات فقط؛ ما ينبعث أمامنا

من جديد هنا ليس أكثر من الاسمية النفسية فى تطبيقها على الإبداع الفنى. لكن يمكن البرهنة أيضاً وبقدر واحد أنه لا توجد فى نفسية الفنان والعالم كلمات فى معطائها الألسنى المحدد. بل أكثر من ذلك، يمكن البرهنة أنه لا توجد فى النفسية إلا تكوينات نفسية، ذاتية بالتالى بما هى نفسية، وأنها على قدر واحد من العرضية وعدم التطابق من وجهة نظر أى مجال معنوى - دلالى، أخلاقى، جمالى. وهنا يتوجب فهم النفسية بوصفها نفسية فقط، أى بوصفها موضوعاً لعلم هو علم النفس التجريبي، وإن هذا العلم يطرح موضوعه الذى يملك سانية النفسية الخالصة طرحاً منهجياً خالصاً.

لكن على الرغم من أن كل شىء فى النفسية هو نفسى وحسب، وأن معاناة الطبيعة والعنصر الكيمائى والمثلث معاناة نفسية مكافئة ومطابقة أمر غير ممكن إطلاقاً، توجد علوم موضوعية نتعامل فيها مع الطبيعة والعنصر والمثلث، والتفكير العلمى يتعامل فيها مع هذه الأشياء وبالذات، يتوجه إليها ويقيم روابط وعلاقات فيما بينها. والشاعر أيضاً فى مثالنا يتعامل مع المدينة والذكرى والندم، مع الماضى والمستقبل بوصفها قيماً أخلاقية جمالية. ويتعامل بمسؤولية جمالية مع أنه لا توجد فى نفسه أى قيم، بل مجرد معاناة نفسية. ومكونات الموضوع الجمالى فى العمل المشار إليه هى ساحات المدينة وشوارعها، ظل الليل. جملة ذكريات، وغيرها، وليست التصورات البصرية وليست المعاناة والمشاعر النفسية بشكل عام وليست الكلمات.

زد على ذلك أن الفنان (والمأمل) يتعامل هنا مع كلمة "غراد" بالذات، والفرق الذى يعبر عنه الشكل السلافى الكنسى للكلمة يعود إلى القيمة الأخلاقية الجمالية للمدينة، ويعطيها أهمية كبيرة، ويصبح صفة مميزة لقيمة مشخصة، ويدخل بما هو كذلك فى الموضوع الجمالى، أى الذى يدخل ليس الشكل الألسنى، بل دلالاته القيمة (اللحظة الانفعالية الإرادية المقابلة لهذا الشكل كما كان علم الجمال السيكولوجى ليقول).

هذه المكونات تنتظم فى وحدة حدث الحياة ذى الدلالة القيمة والمتشكل والمنجز جماليًا (خارج الشكل الجمالى كان سيكون حدثًا أخلاقيًا غير قابل للإنجاز من داخله مبدئيًا). وهذا الحدث الأخلاقى الجمالى محدد تمامًا ووحيد الدلالة فنيًا؛ وهنا نستطيع تسمية مكوناته صورًا، عانين بذلك ليس التصورات البصرية، بل لحظات المضمون المكتملة الشكل.

ويجب التنويه بأن رؤية الصورة، حتى فى الفنون التشكيلية، أمر غير ممكن: رؤية الإنسان المرسوم بالعينين فقط بوصفه إنسانًا، بوصفه قيمة أخلاقية جمالية، صورة ورؤية جسده كقيمة، تعبير المظهر الخارجى.. إلخ؛ أمر مستحيل تمامًا بطبيعة الحال. وعلى وجه العموم لا تكفى الحواس الخارجية لرؤية وسماع شيء ما، أى شيء ما محدد كمادة أو شيء ذى دلالة قيمة أو وزن، لا تكفى "العين التى لا ترى والأذن التى لا تسمع" إذا ما استعرنا عبارة بارمنيدس.

وهكذا فالمكون الجمالى :- وليس له مؤقَّتًا الصورة - ليس

المفهوم وليس الكلمة وليس التصوير البصرى بل هو تكوين جمالى
أصيل يتحقق فى الشعر بمساعدة الكلمة، وفى الفنون بمساعدة المادة
القابلة للإدراك بصرى، لكنه لا يتطابق أبدًا مع المادة، ولا مع أى
تركيبة للمادة.

إن كل الالتباسات وسوء الفهم، كنتك التى أشرنا إليها سابقا،
التي تنشأ حول الموضوع الجمالى اللاكمى، واللامادى عامة، يمكن
تفسيرها فى نهاية المطاف بنزعة غير مشروعة إطلاقا. إلى إيجاد
معادل موضوع تجريبى، بل حتى مكانيا وزمانيا (كشياء) للموضوع
الجمالى، أو حتى بالرغبة فى إسباغ طبيعة تجربته كاملة من الناحية
المعرفية على الموضوع الجمالى. هناك فى الإبداع الجمالى لحظتان
قائمتان فعلا من الناحية التجريبية هما العمل المادى الخارجى وعملية
الإبداع والإدراك النفسى - الإحساسات، التصورات، الانفعالات.. إلخ؛
فى الحالة الأولى نحن أمام سننية علمية طبيعية، رياضية أو أسننية،
وفى الحالة الثانية أمام سننية سيكولوجية (علاقات التداعى.. إلخ).
وبهاتين السننيتين يتشبث الباحث خوف الخروج خارج حدودهما فى
أى شىء، وذلك لافتراضه عادة أن ما يتعداهما ليس سوى ماهيات
ميتافيزيكية أو صوفية. لكن محاولات إسباغ التجربة الكاملة على
الموضوع الجمالى أخفقت دائما، وهى، كما بينا، غير مقبولة إطلاقا
من الناحية المنهجية: المهم هنا بالضبط هو إدراك أصالة الموضوع
الجمالى، بما هو كذلك، وأصالة الصلة الجمالية الخالصة بين لحظاته
أى معماره. وهذا أمر ليس بقادر على تحقيقه علم جمال المادة ولا علم
الجمال السيكولوجى.

ليس هناك ما نخشاه إطلاقاً من كوننا لا نستطيع أن نعثر على الموضوع الجمالى لا فى النفسية ولا فى العمل المادى؛ فالموضوع لا يصبح نتيجة ذلك ماهية صوفية أو ميتافيزيكية. إن عالم التصرف المبتوع إن وجد الإخلاقى هو أيضاً فى وضع مماثل تماماً لوضع الموضوع الجمالى: فأين توجد الدولة؟ هل هى فى النفسية؟ أم فى المكان الفيزيائى الرياضى؟ أم على أوراق الوثائق الدستورية؟ وأين يوجد الحق والقانون؟ ونحن مع هذا نتعامل بمسؤولية مع الدولة ومع القانون، بل إن هذه القيم تعطى معنى للمادة التجريبية كما لنفسيتنا وتضبطهما وتمكننا من تخطى الذاتية البحتة فيهما.

وهذا الميل إلى إسباغ طبيعة تجريبية وتفنسية خارجة عن الجمالى على الموضوع الفنى يفسر أيضاً المحاولة التى أشرنا إليها سابقاً القائمة على فهم الموضوع على أنه لحظة المادة (أى الكلمة)؛ فالمضمون حين يرتبط بالكلمة، بوصفه أحد جوانبها، إلى جانب أجزائها الأخرى يبدو ملموساً أكثر من الناحية العلمية "وشيئاً" أكثر. لن نعود إلى مسألة المضمون بوصفه لحظة مكونة ضرورية، بل نقول فقط إن هناك على وجه العموم ميلاً إلى فهم اللحظة الثيماوية الغائبة فى بعض الفنون والحاضرة فى بعضها الآخر على أنها فقط لحظة التباين الشئى والتحديد المعرفى، وهى لحظة لا تتصف بها الفنون كلها فعلاً، لكنها لا تستنفد الموضوع بأى حال. إلا أنه فى بعض الحالات (كما عند ف.م. جيرمونسكى، مع أن الفهم الأول الأضيق للثيماوية غير غريب عنه) تكاد الشعرية الحديثة تفهم بالثيمة الموضوع الجمالى كله

تقريبًا في أصلاته اللامادية، وبكل بنيته الحديثة المعمارية. لكن هذا الموضوع المّقم على نحو غير انتقادي يحشر في الوقت نفسه في الكلمة المحددة ألسنيًا ويتوضع فيها إلى جوار أجزاء الكلمة الأخرى.

وهذا ما يشوه تشويهاً جذرياً نقاءه بطبيعة الحال. لكن ما السبيل إلى التوفيق والمواءمة في كل واحد بين العالم الثيماوى الحدثى (المضمون المتخذ شكلاً) والكلمة المحددة ألسنيًا؟ الشعرية لا تعطى جوابًا عن هذا السؤال، بل إنها لا تطرحه بشكل مبدئى. هذا في حين أن العالم الثيماوى في مفهومه الواسع والكلمة الألسنية تقفان في مستويين وبعدين مختلفين تمامًا. وينبغى القول أيضًا إن الثيماوية تنظر على نحو مفرط الموضوع الجمالى والمضمون: فاللحظة الأخلاقية والشعور المقابل لها لا يقدران كما يجب، كما لا يتم التمييز بشكل عام والتفريق بين اللحظة الأخلاقية الخالصة وتقلها المعرفى.

إن قيمة المادة في الإبداع الفنى تتحدد على النحو التالى: المادة لا تدخل في الموضوع الجمالى في عيانيته المادية الخارجية عز الجمالى بوصفها مكوناً قيمًا من الناحية الجمالية، إلا أنها ضرورية لإنشائه بوصفها لحظة تقنية.

لا يترتب على هذا إطلاقاً أن دراسة البنية المادية للعمل بوصفها بنية تقنية خالصة يجب أن تحتل مكاناً متواضعاً في علم الجمال. إن أهمية الأبحاث المادية في علم الجمال الخاص عظيمة جدًا، عظيم عظم أهمية العمل المادى و إنشائه بالنسبة إلى الفنان و إلى التأمل

الجمالى. ويمكننا الانضمام بشكل كامل إلى القائلين بأن "التقنية فى الفن هى كل شىء" إنما بهذا المعنى وهو أن الموضوع الجمالى لا يتحقق إلا عن طريق إنشاء عمل مادى (فالرؤية الجمالية خارج الفن إنما هى هجينة لأنه لا يتم هنا أى قدر من تنظيم كامل المادة، فى تأمل الطبيعة على سبيل المثال)؛ الموضوع الجمالى لا يتحقق قبل هذا الإنشاء ولا بمعزل عنه، إنه يتحقق، أول ما يتحقق. مع العمل.

وينبغى ألا نعطى كلمة "تقنية" فى تطبيقها على الإبداع الفنى أى معنى ردىء أو كرىه: فالتقنية هنا لا يمكن أن تتفصل عن الموضوع الجمالى وينبغى ألا تتفصل عنه: فيه تحيا وبه تتحرك فى كل لحظاتها، ولهذا فالتقنية فى الإبداع الفنى ليست آلية إطلاقاً، إنها لا يمكن أن تبدو آلية إلا فى بحث جمالى ردىء يضيع الموضوع الجمالى، ويجعل التقنية مكتفية بذاتها، ويفصلها ويعزلها عن الغاية والمعنى. وخلافاً لما تفعله أبحاث كهذه يجب تأكيد الطابع المساعد للتنظيم المادى للعمل، على طابعه التقنى الخالص لا للحط منه بل، على العكس، لفهمه وبعث الحياة فيه.

إن الحل الصحيح لمسألة أهمية المادة لن يجعل أعمال علم جمال المادة نافلةً، ولن يغض من شأنها بأى حال، بل سيوفر لها المبادئ والاتجاه المنهجى الصحيح. لكن بالمقابل يتعين على هذه الأعمال بطبيعة الحال التخلّى عن دعواها بأنها تستنفد الإبداع الفنى.

وينبغي التتويه إلى أنه بالنسبة إلى بعض الفنون يجب على التحليل الجمالى الاكتفاء بدراسة التقنية وحدها تقريبًا، التقنية المدركة منهجيًا بطبيعة الحال بوصفها تقنية وحسب. وهذه هى حال علم جمال الموسيقى، فليس للتحليل الجمالى لمؤلفات موسيقية ما يقوله عن الموضوع الجمالى للموسيقى، الذى ينشأ على حدود التردد الصوتى (السمعى) اللهم إلا تحديدًا واسعًا جدًا وعامًا جدًا لأصالة هذا الموضوع. أما الأحكام التى تخرج عن نطاق تحليل التأليف المادى للعمل الموسيقى فتصبح ذاتية فى أغلب الأحيان: تصبح إما خلع شاعرية منفلة على العمل، أو بناء ميتافيزيكيًا اعتباريًا أو محاكمة سيكولوجية خالصة.

ومن الممكن هنا نشوء نوع خاص من التفسير الفلسفى الذاتى الواعى منهجيًا لهذا العمل. وقد يكون لهذا التفسير معناه وقيمه الثقافية الكبيرة، لكنه لن يكون تفسيرًا علميًا بالمعنى الدقيق للكلمة بطبيعة الحال.

إننا لا نستطيع إطلاقًا هنا رسم منهجية التحليل التأليفى المادى، حتى ولو كان ذلك فى خطوطها العريضة كما فعلنا بالنسبة إلى منهجية تحليل المضمون. إذ لن يكون هذا ممكنًا إلا بعد تعرف الموضوع الجمالى بالتفصيل والتعرف على معماره اللذين يتحدد بهما التأليف. أما هما فينبغى الاكتفاء بما قلناه.

مسألة الشكل

الشكل الفنى هو شكل المضمون، لكنه شكل يتحقق بالكامل من المادة فكأنما هو متعلق بها تعلقاً تاماً. لهذا يجب أن يفهم الشكل ويدرس فى اتجاهين: (١) من داخل الموضوع الجمالى الخالص بوصفه شكلاً معمارياً موجهاً قيمياً إلى المضمون (الحدث المحتمل) ومرتبطاً به (٢) من داخل الكل المادى التأليفى للعمل وهذا يعنى دراسة تقنية الشكل.

فى الاتجاه الأول من الدراسة يجب ألا يفسر الشكل بأى حال من الأحوال على أنه شكل المادة فهذا يشوه فهمه تشويهاً جذرياً، بل فقط على أنه شكل يتحقق من المادة وبمساعدها، وهو بهذا، وبغض النظر عن غايته الجمالية، مشروط بطبيعة المادة التى يتحقق بها.

وبحثنا هذا يعتبر مدخلاً قصيراً إلى طرائق التحليل الجمالى للشكل بوصفه شكلاً معمارياً. إن الشكل كثيراً جداً ما يفهم على أنه "تقنية" وحسب وهذا أمر تتصف به الشكلية والاتجاه النفسى فى علم الفن. أما نحن فننتاول الشكل فى المستوى الجمالى بالذات بوصفه شكلاً قيمياً فنياً. والمسألة الأساسية هنا هى: كيف يصبح الشكل، وهو الذى يتحقق بالمادة، شكل مضمون متصلاً به قيمياً، أو بتعبير آخر كيف يحقق الشكل التأليفى، أى تنظيم المادة الشكل المعمارى أى توحيد القيم المعرفية والأخلاقية وتنظيمها؟

الشكل لا يفقد شئنيته ويخرج عن نطاق العمل بوصفه مادة منظمة إلا حين يصبح تعبيراً عن النشاط الإبداعي المحدد قيمياً لذات فاعلة جمالياً. هذه اللحظة من نشاط الشكل التي أشرنا إليها سابقاً (فى الفصل الأول) تقتضى منا الآن تحليلاً أوسع^(١).

فى الشكل أجد ذاتى، أجد نشاطى المنتج المشكل قيمياً، أشعر شعوراً حياً بحركتى المنشئة، المبدعة للشئ، وشعورى هذا لا يكون فقط لدى إبداعي الأولى ولا لدى قيامى أنا بالذات بالتنفيذ أو الأداء بل لدى تأملى الفنى أيضاً: يجب أن أشعر بذاتى أنى إلى حد ما مبدع الشكل حتى أحقق بشكل عام شكلاً قيماً فنياً بما هو كذلك.

وفى هذا الفرق الجوهرى بين الشكل الفنى والشكل المعرفى، فهذا ليس له مؤلف - مبدع: فأنا أجد الشكل المعرفى فى الشئ، ولا أشعر فيه بذاتى ولا بنشاطى الخلاق. وهذا هو ما يفرض الضرورة الإجبارية الأصلية التى يتصف بها التفكير المعرفى: فهذا التفكير نشط إلا أنه لا يشعر بنشاطه، إذ إن الشعور لا يمكن أن يكون إلا فردياً، مرتبطاً بالشخص، أو بشكل أدق الشعور بنشاطى لا يدخل فى المضمون الشئى للتفكير ذاته، بل يبقى خارجه كشئ إضافى، زائد لا أكثر: فالعلم بوصفه وحدة شئنية موضوعية ليس له مؤلف - مبدع^(٢).

(١) إن فهم الشكل على أنه تعبير عن نشاط ليس غريباً عن علم الفن، لكنه لا يستطيع أن يجد تأسيساً راسخاً وثابتاً له إلا فى علم الجمال المنهجي.

(٢) المؤلف - العالم ينظم بنشاط الشكل الخارجى للعرض فقط. أما استقلالية العمل العلمى واكتماله وفرديته التى تعبر عن النشاط الجمالى الذاتى للمبدع فلا تدخل ضمن معرفة العالم.

إن المؤلف - المبدع هو لحظة مكونة للشكل الفنى.

يجب على أن أشعر بالشكل على أنه علاقتى القيمة النشطة بالمضمون حتى أتمكن من الشعور به ومعاناته جماليًا: ففى الشكل وبالشكل أغنى وأروى وأصور، وبالشكل أعبر عن حبى وقبولى ورأى.

المضمون يقابل الشكل بوصفه (أى المضمون) شيئًا سلبيًا ومحتاجًا إليه، بوصفه شيئًا قابلاً للانفعال، متقبلًا، محضونًا، محبوبًا.. إلخ.

وما أن أكف عن أن أكون نشطًا فى الشكل حتى يتمرد المضمون المطمئن والمكتمل بالشكل ويمثل فى دلالاته المعرفية الأخلاقية الخالصة، أى أن التأمل الفنى ينتهى وتحل محله معاناة أخلاقية خالصة أو تفكير معرفى أو رفض أو قبول نظرى أو تشجيع أو استهجان عملى.. إلخ. وعلى هذا يمكن لدى الإدراك غير الفنى للرواية مثلاً خفت الشكل وتنشيط المضمون فى اتجاهه المعرفى الإشكالى أو العملى الأخلاقى: يمكن، على سبيل المثال، معايشة الأبطال فى مغامراتهم ونجاحاتهم أو إخفاقهم فى الحياة؛ ويمكن النزول بالموسيقى إلى حد اعتبارها مجرد مرافق لحلم المستمع الخاص ولتوتره الأخلاقى الأولى الحر بعد أن ننقل مركز الثقل إلى هذا التوتر.

إننا لا ندرك الشكل الفنى بمجرد أن نرى أو نسمع شيئاً، بل يتوجب علينا أن نجعل المرئى والمسموع والمنطوق تعبيراً عن علاقتنا القيمية النشطة، يجب أن ندخل مبدعين فى المرئى والمسموع والمنطوق وبهذا نتخطى الطابع المادى المحدد الخارج عن الإبداعى للشكل، أى نتخطى شئنيته فتكف بذلك عن أن تكون خارجنا بوصفها مادة مدركة ومضبوطة معرفياً، وتصبح تعبيراً عن نشاط قيمي ينفذ إلى المضمون ويحققه. وهكذا فأنا لدى قراءة عمل شعري أو الاستماع إليه لا أترك هذا العمل خارجي بوصفه خطاب شخص آخر على أن أستمع إليه مجرد استماع وأن أفهم معناه العملى أو المعرفى مجرد فهم. بل إنى أجعل منه إلى حد ما قولى الخاص عن الشخص الآخر، استوعب إيقاعه، نبرته، توتره اللفظى، حركاته الداخلية (الإنشائية الخلاقة) المتعلقة بالقص، نشاطه المصور، مجازاته واستعارته وغيرها بوصفها التعبير المطابق والمكافئ عن علاقتى القيمية الخاصة بالمضمون. أى أن أتوجه لدى إدراكى لا إلى الكلمات ولا إلى أجزاء الكلمات ولا الإيقاع، بل أتوجه مع الكلمات ومع أجزاء الكلمات ومع الإيقاع اتجاهًا نشطاً إلى المضمون، أحضنه، أشكله وأكمّله (فالشكل بذاته مأخوذاً بشكل مجرد لا يكتفى بذاته بل يجعل المضمون المستكمل شكله مكتفياً بذاته). إنى أصبح نشطاً فى الشكل، وبالشكل آخذ موقعاً قيمياً خارج المضمون بوصفه توجهاً معرفياً أخلاقياً، وهذا هو ما يجعل ممكناً ولأول مرة إنجاز: وبشكل عام تحقيق كل وظائف الشكل الجمالية بالنسبة إلى المضمون.

وهكذا فالشكل هو التعبير عن علاقة المؤلف المبدع والشخص المدرك (المشارك في إبداع الشكل) القيمة النشطة بالمضمون. فكل لحظات العمل التي نستطيع أن نشعر فيها بذواتنا ونشاطنا القيمي المتصل بالمضمون والتي يتجاوزها هذا النشاط في ماديتها يجب أن ترد إلى الشكل وتربط به.

لكن على أي نحو يمكن للشكل بوصفه التعبير بالكلمة عن علاقة ذاتية نشطة بالمضمون أن يصبح شكلاً مبدعاً منجزاً للمضمون؟ ما الذي يجعل النشاط اللفظي (وعلى وجه العموم النشاط) الذي لا يخرج فعلاً خارج نطاق العمل المادي بل يوجد وينظمه فقط نشاط تشكيلي للمضمون المعرفي الأخلاقي وتشكيله تشكيلاً ناجزاً تماماً؟

نجد أنفسنا مضطرين هنا إلى التطرق بإيجاز إلى وظيفة الشكل الأولية بالنسبة إلى المضمون ألا وهي العزل.

العزل لا يتعلق بالمادة ولا بالعمل بوصفه شيئاً بل بمعناه، بمضمونه الذي يتحرر من بعض صلاته الضرورية بوحدة الطبيعة ووحدة الحدث الأخلاقي للوجود. هذا العزل لا يلغى قابلية المضمون المعزول للمعرفة والتقييم الأخلاقي: فالمعزول يدرك بذاكرة العقل وذاكرة الإرادة، لكنه يمكن أن يكون مفرداً ويصبح قابلاً مبدئياً للإنجاز، ذلك أن التفريد يستحيل مع الارتباط الصارم بوحدة الطبيعة والانخراط فيها. والإنجاز يستحيل في الحدث الفرد اللاعكوس للوجود: يجب عزل المضمون عن الحدث المقبل حتى يصبح الإنجاز (الحاضر المكثف بذاته) ممكناً.

مضمون العمل أشبه بقطعة من الحدث الواحد الفرد المفتوح للوجود، يعزلها الشكل ويعفيها من المسؤولية أمام الحدث المقبل، ولهذا فهي في كليهما هادئة مكتفية بذاتها، تستوعب في هدوئها وفي اكتفائها بذاتها الطبيعة المعزولة.

العزلة عن وحدة الطبيعة يلغى كل لحظات المضمون الشيئية. إلى شكل الشيئية صار ممكناً أول ما صار على أساس مفهوم الطبيعة الواحدة للمعرفة الطبيعية: وخارج هذا المفهوم لا يمكن إدراك الموضوع (الشيء) إلا إحيائياً أو أسطورياً بوصفه قوة وشريكاً في حدث الحياة. العزل هنا يتخلى مجدداً عن شيئيته: الشيء المعزول هو *contradicto in adjecto*.

إن ما يسمى الوهم (أو الاختلاف أو التخيّل) في الفن ليس سوى تعبير إيجابي عن العزل: الموضوع (الشيء) المعزول هو، بصفته هذه، مختلق أى ليس حقيقياً في وحدة الطبيعة ولم يوجد في حدث الوجود. وفي اللحظة السلبية يتطابق الاختلاق والعزل؛ في اللحظة الإيجابية للاختلاق يجرى التشديد على النشاط الذي يتصف به الشكل، على عائدته لمؤلف: في الاختلاق أشعر شعوراً أقوى بذاتى بوصفى المختلف بنشاط للموضوع (الشيء)، أشعر بحريتي، المشروطة بوجودى خارجاً، في تشكيل الحدث ولإنجازه دون عائق.

لا يمكن اختلاق إلا ما هو قيم ذاتيًا وذو دلالة في الحدث، ما هو ذو أهمية إنسانية، لكن ليس ما هو شيء: الشيء المختلق
.contradicto in adjecto

وفي الموسيقى أيضًا لا يمكن أن يرجع العزل والاختلاق قيمًا إلى المادة: فليس صوت السمعيات هو الذي يعزل وليس العدد الرياضي للنسق التأليفى هو الذى يختلق. المعزول والمختلق اللاعكوس هو حدث النزوع، هو التوتر القيمى الذى يستنفد، بفضل هذا، ذاته، دونما عائق ويصبح قابلاً للإنجاز المستقر الهادئ.

إن ما يسمى "الإزاحة" عند الشكليين ليس فى أساسه سوى وظيفة العزل المعبر عنها تعبيرًا غير واضح تمامًا من الناحية المنهجية والمعزوة على نحو غير صحيح فى معظم الحالات إلى المادة: تزاح الكلمة عن طريق تخريب نسغها المعنوى العادى؛ وأحيانًا تعزى الإزاحة إلى الموضوع أيضًا، لكن هذه الإزاحة تفهم بشكل فظ، من ناحية سيكولوجية أى إخراجًا للموضوع من إدراكه العادى، والإدراك (العادى) هو عارض و ذاتى بقدر الإدراك غير العادى أما بالفعل فالعزل هو إخراج الموضوع، القيمة والحدث من النسق المعرفى والأخلاقى الحتمى.

العزل يجعل ممكنًا للمرة الأولى التحقيق الإيجابى للشكل الفنى، ذلك أن ما يصبح ممكنًا ليس العلاقة المعرفية والأخلاقية بالحدث، بل تصبح ممكنًا صياغة المضمون شكلاً، ويتحرر نشاط الشعور بالموضوع. الشعور بالمضمون وكل الطاقات الإبداعية لهذا الشعور.

وعلى هذا فالعزل هو الشرط السلبي للطابع الشخصى، الذاتى (الذاتى ليس من وجهة نظر سيكولوجية) للشكل، وهو الذى يمكن المؤلف المبدع أن يصبح لحظة مكونة للشكل^(١).

ومن ناحية أخرى يبرز العزل ويحدد معنى المادة وتنظيمها التأليفى: تصبح المادة شرطية: فالفنان حين يعالج المادة إنما يعالج فى الوقت نفسه قيم واقع معزول وبهذا يتجاوزها (المادة) على نحو محايد دون أن يخرج عن نطاقها. فالكلمة أو القول تكف عن انتظار أو تمنى أى شىء واقعى مهما كان خارج نطاقها: انتظار أو تمنى فعل أو تطابق مع واقع أى تحقيق فعلى أو اختبار لتأكيداتها (تجاوز الذاتية): الكلمة تنقل بقواها الذاتية الشكل المنجز إلى المضمون: وهكذا فالتوسل فى الشعر الغنائى (التوسل المنظم جمالياً) يبدأ بالاكتماء بذاته ولا يحتاج إلى إرضاء أو استجابة (كأنما هو راضٍ بشكل تعبيره ذاته)، والصلاة تكف عن الشعور بحاجتها إلى إله قد يسمعها أولاً، والشكوى تكف عن الاحتياج إلى مساعدة، والندم إلى مغفرة.. إلخ. فالشكل إذ يستخدم المادة وحدها يكمل أى حدث وأى توتر أخلاقى حتى امتلائها كاملاً. والمؤلف بوساطة المادة وحدها أخذ موقعاً إبداعياً مثمرًا من المضمون أى من القيم المعرفية والأخلاقية؛ كأنما المؤلف يدخل فى الحدث المعزول ويصبح فيه مبدعًا دون أن يصبح مشاركًا. وهكذا يجعل العزل الكلمة أو القول أو المادة بوجه عام (صوت السمعية.. إلخ) إبداعية من الناحية الشكلية.

(١) العزل هو بطبيعة الحال النتاج الأول لهذا النشاط؛ العزل كأنما هو فعل دخول فى حياة المؤلف.

كيف تدخل شخصية الفنان والمتأمل الإبداعية في المادة -
الكلمة، وأى جوانبها تمتلك بالدرجة الأولى؟

نميز في الكلمة "مادة" اللحظات التالية^(١): (١) الجانب الصوتي
للكلمة وبالأذات اللحظة الموسيقية فيها؛ (٢) المعنى الشئى للكلمة (بكل
فروقه وتنوعاته)؛ (٣) لحظة الصلة الكلمية (كل العلاقات والعلاقات
المتبادلة الكلمية الخالصة)؛ (٤) لحظة النبر في الكلمة (اللحظة الإرادية
الانفعالية على المستوى السيكولوجي)، التوجه القيمي للكلمة المعبر عن
تنوع علاقات المتكلم؛ (٥) شعور النشاط الكلى، شعور النشوء النشط
للسوت الدال (وينضوى تحت هذا البند كل اللحظات المحركة من
نطق وحركات وإيماءات وجه..إلخ. وكل النزوع الداخلى لشخصيتى
التي تأخذ بنشاط بواسطة الكلمة أو القول موقفاً قيمياً أو معنوياً ما).
إننا نؤكد هنا أن الأمر يتعلق هنا بشعور ولادة الكلمة الدالة: إنه ليس
شعور الحركة العضوية المجردة المولدة واقع الكلمة الفيزيائى، إنما
شعور ولادة المعنى والتقييم؛ أى شعور حركة الإنسان المتكامل وشغله
موقعاً، وهذه الحركة ينخرط فيها الجسم والنشاط المعنوى، إذ فيها تنشأ
روح الكلمة وجسدها فى وحدتهما المشخصة. وفى هذه اللحظة
الأخيرة، الخامسة تنعكس اللحظات الأربع السابقة كلها، فهى جانب تلك
اللحظات الموجه إلى شخصية المتكلم (الشعور بولادة السوت، ولادة
المعنى، ولادة العلاقة وولادة التقييم).

(١) إننا نقارب الكلمة الألسنية هنا من وجهة نظر تحقيقها التأليفى للشكل الفنى.

إن النشاط التشكيلي الذي يقوم به الفرد يستوعب كل جوانب الكلمة، وبواسطتها كلها يستطيع أن يحقق الشكل المنجز الموجه إلى المضمون؛ ومن ناحية أخرى فهي جميعًا تُستخدم للتعبير عن المضمون؛ ففي كل لحظة يشعر المبدع والمتأمل بنشاطهما - المصطفى، الخالق، المحدد، المنجز - ويشعران في الوقت نفسه بشيء ما يتوجه إليه هذا النشاط ويمثل أمامه. لكن اللحظة المتحركة الموجهة، لكن بؤرة الطاقات المشكلة، هي اللحظة الخامسة بالطبع، تليها في الأهمية الرابعة؛ أي التقييم، فالثالثة؛ أي الصلة، فالثانية أي المعنى، وأخيرًا الأولى أي؛ الصوت الذي كأنما يمتص كل اللحظات الأخرى ويصبح الحامل لوحد الكلمة في الشعر.

إن اللحظة الموجهة بالنسبة إلى القول (الخطاب) المعرفي هي المعنى المادي، الشيئي للكلمة في سعيه إلى أن يجد مكانه الواجب، الضروري في الوحدة الشئئية الموضوعية للمعرفة. هذه الوحدة الشئئية تحكم وتحدد كل شيء في القول المعرفي نابذة دونما شفقة كل ما ليس له علاقة بهذه الوحدة، ويبقى خارج هذه الوحدة بشكل خاص الشعورُ بشغل موقف نشط بواسطة هذا القول: فهذا الشعور لا يعود إلى الوحدة الشئئية ولا ينفذ إليها بوصفه إرادة ذاتية خلاقة وشعورًا، وهو أقل من أي شيء آخر قدرة على إنشاء وحدة القول المعرفي.

إن الشعور بالنشاط الكلمي في تصرف الكلمة (الحكم، الموافقة، القبول، التوسل، الغفران) ليس اللحظة الموجهة، فتصرف الكلمة يرتبط بوحدة الحدث الأخلاقي ويتعين فيها بوصفه لحظة واجبة ولازمة.

فى الشعر وحده يصبح الشعور بنشاط توليد الدال مركزاً
مشكلاً، حاملاً لوحدة الشكل.

ومن بؤرة نشاط التوليد المشعور به هذه يبرز أول ما يبرز
الإيقاع (بمعناه الأوسع - الشعري والنثري) وبشكل عام أى نسق قول
ليس ذا طابع مادي شئى، نسق يعيد القائل إلى ذاته، إلى وحدته الفاعلة
المنشئة (المولدة).

إن وحدة النسق القائم على عودة المتشابه، حتى ولو عادت
لحظات معنوية متشابهة، هى وحدة النشاط العائد إلى ذاته، المكتشف
ذاته من جديد. إن مركز الثقل ليس فى المعنى العائد، بل فى عودة
نشاط الحركة، الداخلية والخارجية، حركة النفس والجسد المولدة لهذا
المعنى.

إن وحدة كل اللحظات التأليفية المحققة للشكل، وفى الدرجة
الأولى وحدة الكل الكلى للعمل، بوصفها وحدة شكلية، لا تقوم فيما
يقال أو فيما يقال عنه، بل فى كيفية هذا القول، فى الشعور بنشاط
القول المعقول، هذا النشاط الذى يجب أن يشعر بذاته طوال الوقت
بوصفه نشاطاً واحداً بغض النظر عن الوحدة الشئئية والمعنوية
لمضمونه؛ ما يتكرر، يعود، يقيم صلاتٍ ليس اللحظات المعنوية
مباشرة - فى موضوعيتها أى فى قطعيتها الكاملة عن الشخصية
المتكلمة للذات، بل لحظات النشاط المتصلة بها، لحظات الإحساس
الذاتى الحى بالفعالية؛ هذا النشاط لا يفقد ذاته فى الموضوع، بل يشعر

المرّة تلو المرّة بوحدته الذاتية الخاصة في ذاته، في موقعه النفسي والجسدي المتوتر: وحدة ليست هي وحدة الموضوع (الشيء) والحدث، بل وحدة احتضان، امتلاك الموضوع والحدث. وهكذا، فبداية العمل ونهايته من وجهة نظر الشكل، هما بداية النشاط ونهايته: فأنا الذي أبدأ وأنا الذي أنهى.

الوحدة الموضوعية للمعرفة، بوصفها (أى المعرفة) شيئاً ذا دلالة إيجابية، لا تعرف نهاية: فالذى يبدأ وينهى هو العالم وليس العلم. نهاية البحث العلمي وبدايته وعدد وفير من لحظات التأليفية تعكس نشاط صاحبها أى أنها لحظات جمالية لا تتغلغل إلى داخل عالم المعرفة المفتوح الذى لا بداية له ولا نهاية.

إن كل تقسيمات الكل الكلى التأليفية - الفصول، المقاطع النثرية أو الشعرية، الأبيات، الكلمات - تعبر عن الشكل كتقسيمات. أما مراحل النشاط الكلى المنشئ (أو المولد) فهي مراحل توتر واحد، وهى لحظات تبلغ درجة معينة من الاكتمال، لكن ليس اكتمال المضمون بالذات حيث تتحدد هذه اللحظات من داخله، بل لحظات نشاط امتلاك المضمون من الخارج المحددة بنشاط المؤلف الموجه إلى المضمون، مع أنها تتغلغل بشكل جوهري في المضمون وتعطيه شكلاً جمالياً مناسباً ولا تقصره.

وحدة الشكل الجمالى هي، إذن، وحدة موقف النفس الفاعلة والجسم، وحدة الإنسان المتكامل الفاعل المعتمد على ذاته. وما إن

تنتقل الوحدة إلى مضمون النشاط - إلى الوحدة الشئئية للمعرفة وإلى الوحدة المعنوية للحدث - حتى يفنى الشكل بوصفه شكلاً جمالياً، هكذا يفقد الإيقاع والنبرة المنجزة واللحظات الشكلية الأخرى قوتها المشكلة.

إلا أن نشاط توليد الصوت - الكلمة ذى الدلالة لاشاعر بذاته والممتلك فى هذا الشعور وحدته لا يكتفى بذاته، لا يقنع بذاته، بل ينطلق خارج العضوية والنفسية الفاعلة، يتوجه خارج ذاته، إذ إن هذا النشاط محب، مبجل، مذل، متفان، راث.. إلخ. أى أنه علاقة محددة قيمياً (أى له، على المستوى السيكلوجى، بُعد انفعالى إرادى محدد). ذلك أن ما ينشأ ويتولد ليس مجرد صوت. بل صوت ذو دلالة. إن نشاط نشوء الكلمة ينفذ ويعى ذاته قيمياً فى الجانب النبرى من الكلمة، ويجوز على التقييم فى شعور النبرة الفاعلة^(١). إننا نعنى بالجانب النبرى من الكلمة قدرة هذه الكلمة على التعبير عن كل تنوع علاقات الشخص المتكلم القيمة بمضمون القول (وعلى المستوى السيكلوجى هو تنوع كل ردود فعل المتكلم الانفعالية والإرادية)، وهذا الجانب يبقى فى كل الأحوال ذا قيمة جمالية سواءً عُبر عنه فى التعبير الفعلى لدى الأداء أو ظل يشعر به كاحتمال. إن نشاط المؤلف يصبح نشاط التقييم المعبر عنه الذى يلون كل جوانب الكلمة: الكلمة تلوم وتشتم، تلاطف، وتذل، وتجمل، وتكون لامبالية.. إلخ^(٢).

(١) إن نظام امتلاك المؤلف والمتأمل للحظات الكلمة الذى نشير إليه لاحقاً ليس أبداً نظام الإدراك والإبداع الفعلى.

(٢) نقصد نبرة المؤلف القيمة الجمالية الخالصة تمييزاً لها عن النبرة الأخلاقية المسماة "واقعية" مُغرضة أخلاقياً، وليس معاناة جمالية.

ثم إن النشاط المؤدّ يمتلك روابط كلمية ذات دلالة (التشبيه، الاستعارة، المجاز؛ الاستخدام التأليفي للروابط النحوية والتكرارات، والتوازيات وصيغة الاستفهام.. إلخ): إن شعور الربط فيها أيضاً منظم، لكنه شعور قد تحدد قيمياً. وهكذا فالتشبيه أو الاستعارة يستندان إلى وحدة نشاط التقييم، أى أن الصلة تتضمن الجوانب النبرية للكلمات، وهى جوانب ليست لا مبالية بالمعنى الشئى المادى للكلمة بطبيعة الحال (على المستوى السيكلوجى تقوم الاستعارة والتشبيه وغيرهما من الروابط الكلمية المكتسبة الصبغة الشعرية على أساس الترابط الإرادى الانفعالى والقرباة بين الكلمات)؛ الوحدة لا تنشأ عن الفكرة المنطقية بل عن شعور النشاط المقيم؛ إنها ليست روابط شئية لازمة تترك الذات الشاعرة والمريدة خارج ذاتها ولا تحتاج إليها، بل روابط تحتاج إلى الوحدة الذاتية للإنسان الشاعر والمريد. إلا أن الاستعارة والتشبيه يفترضان أيضاً وحدة شئية محتملة وصلةً ووحدة الحدث الأخلاقى التى يشعران على خلفيتها بنشاطهما الخلاق: الاستعارة والتشبيه يغمران التوجه المعرفى الأخلاقى المعاند، والتقييم المعبر عنه فيهما يصبح مشكلاً للموضوع فعلاً وخالغاً عنه شئيته. إن الاستعارة إذا ما تحولت وابتعدت عن شعور النشاط الرابط والمشكل للمؤلف تموت، أى تكف عن أن تكون استعارة، شعرية أو تصبح أسطورة (بوصفها استعارة لغوية يمكنها أن تخدم بشكل رائع أغراض القول المعرفى).

كل الروابط اللفظية النحوية يجب، كما تصبح تأليفية وتحقق الشكل في الموضوع الفني، أن تكون مشبعة بوحدة شعور النشاط الرابط الموجه إلى وحدة الروابط الشبكية والمعنوية ذات الطابع المعرفي أو الأخلاقي (هذه الوحدة التي تحققها هذه الروابط إياها)، يجب أن تكون مشبعة بوحدة شعور التوتر والإحاطة والغمر من الخارج للمضمون المعرفي الأخلاقي.

والمعنى المادي، الشبكي لللفظية يكتنف شعور نشاط اصطفاء المعنى، بالشعور الأصلي لمبادرة المبدع المعنوية (هذه المبادرة لا وجود لها في المعرفة حيث لا يمكن للمؤلف أن يكون مبادراً، حيث شعور نشاط الاصطفاء يدفع به خارج نطاق عالم المعرفة). لكن شعور الاصطفاء هذا يرتبط بالشئ المصطفى ويغمر شرعيته المعرفية والأخلاقية الخاصة.

وأخيراً يستحوذ شعور النشاط الجانب الصوتي من اللفظية. إن الجانب السمعي المجرد من اللفظية أهمية غير كبيرة نسبياً في الشعر. فالحركة المولدة للصوت السمعي، وهي إن كانت أنشط ما تكون في أعضاء النطق إلا أنها تشتمل مع هذا الأعضاء كلها. أو الحركة المتحققة لدى القراءة الصامتة أو المعاناة المشتركة لدى الاستماع أو المعاناة فقط كإمكانية، أهم كثيراً من المسموع ذاته الذي ينحط تقريباً إلى مستوى مساعد يكمن في إثارة حركات مولدة مناسبة أو إلى دور مساعد، خارجي أكثر هو أن يكون إشارة إلى معنى أو دلالة، أو أن يستخدم كقاعدة للنبر الذي يحتاج إلى مد صوتي لللفظية، لكنه يظل لا

مباليًا بقوامها الصوتي، وكقاعدة للإيقاع الذي يحمل بالطبع طابعًا محركًا. وفي الرواية كما في الوحدات اللفظية النثرية الكبيرة عامة تتخلى الوحدة الصوتية عن وظائفها المساعدة في الإشارة إلى المعنى إثارة الحركة وفي كونها قاعدة للنبرة إلى الوحدة الخطية. وفي هذا الفرق الجوهرى بين الشعر والموسيقى. فى الموسيقى تتطوى الحركة المحدثة للصوت على أهمية ثانوية بالمقارنة مع الجانب السمعى للدوى (تردد الصوت)، اللهم إلا فى الموسيقى الصوتية (الغنائية) التى لا تزال قريبة من الشعر فى هذا المجال، على الرغم من كون اللحظة السمعية فيها ذات أهمية أكبر كثيرًا مما فى الشعر، لكن الحركة المولدة هنا ما زالت عضوية، ونستطيع القول إن الجسم الداخلى المبدع بنشاط للمبدع - المؤدى - السامع يزوج به بوصفه لحظات من لحظات الشكل الفنى.

وفى الموسيقى الصامتة (الآلية) تكاد الحركة المولدة للصوت تكف تمامًا عن كونها عضوية: حركة القوس، أو ضربة اليد على الملامس، التوتر اللازم لآلات النفخ وغير ذلك. هذا كله يبقى خارج الشكل إلى حد كبير. فقط التوتر المقابل لهذه الحركة، وكأنما هو قوة الطاقة المبذولة، والمتجرد من الشعور العضوى الداخلى لليد التى توقع أو تتحرك يندغم فى الصوت نفسه، وفى هذا الصوت يلتقطه السمع المدرك متطهرًا ليصبح تعبيرًا عن نشاط الإنسان الداخلى وتوتره، وكأنما خارج العضوية والآلة - الشئ المولد للصوت ذى الدلالة القيمة وبمعزل عنهما فى الموسيقى كل اللحظات التأليفية المهمة يمتصها الجانب السمعى من الصوت ويتشربها. وإذا كان المؤلف

المحقق للشكل فى الشعر هو الإنسان المتكلم فهو فى الموسيقى الإنسان المصدر للتردد الصوتى مباشرة وليس العازف (على البيانو، على الكمان، وغيرهما) بمعنى المصدر للصوت بواسطة آلة الحركة؛ إن النشاط الخلاق للشكل الموسيقى هو نشاط التردد الصوتى الدال نفسه، هو نشاط حركة الصوت القيمة نفسها.

يجب الاعتراف بأن عبارة "توزيع الآلة على اللحن" (instrumentation) للدلالة على تنسيق الجانب الكيفى من المادة الصوتية فى الشعر غير ناجحة على الإطلاق؛ فالذى ينسق ويرتب بالضبط ليس الجانب السمعى من الكلمات لكن الجانب النطقى، المحرك، مع الاعتراف أن هذا الترتيب أو النظام النطقى ينعكس فى القوام الصوتى كما فى الكتابى.

إن أهمية العضوية الداخلية المبدعة ليست واحدة فى كل أنواع الشعر: إنها، فى حدها الأعلى، فى الشعر الغنائى حيث الجسم المولد للصوت من الداخل والشاعر بوحدة توتره المنتج يندغم فى الشكل، أما فى الرواية فمشاركة العضوية الداخلية فى الشكل تكون فى حدودها الدنيا.

وبطبيعة الحال فإن النشاط المولد للكلمة يبقى فى الرواية أيضاً البداية الحاكمة للشكل (هذا إذا كانت الرواية فنية فعلاً)، لكن هذا النشاط يكاد يفتقد تماماً اللحظات الجسمية العضوية: إنه نشاط توليد روحى خالص واصطفاء (تخير) للمعانى، والروابط والعلاقات القيمة؛

إنه التوتر الداخلى للتأمل الروحى المنجز للوحدات الكلمية الكبيرة والفصول والأجزاء، وأخيرًا للرواية كلها وللإحاطة بها. ويبرز على وجه الخصوص شعور النشاط المتذكر قيمًا، نشاط الذاكرة الانفعالية. هنا تدخل فى الشكل لحظته المكونة، الإنسان المبدع النشاط داخليًا: الذى يرى ويسمع ويقيم ويربط ويصطفى - مع أنه لا يحدث هنا أى توتر فيزيولوجى فعلى لحواس الجسم الخارجية وأعضائه - والوحيد (أى هذا الإنسان) فى شعوره بالنشاط على امتداد الرواية التى يبدوها هو وينهيها بوصفها كلية توتر داخلى منتج ومعقول (مدرَك)^(١).

إن وحدة الشكل هى وحدة الموقع القيمى النشاط للمؤلف المبدع، موقع يتحقق بواسطة الكلمة (شغل الكلمة للموقع) لكنه يعود إلى المضمون. هذا الموقع الذى تشغله الكلمة، والكلمة وحدها، يصبح منتجًا ومنجزًا إنجازًا إبداعيًا كاملاً للمضمون بفضل عزله - عزل لا واقعيتيه (أو بشكل أدق وفلسفى صارم - عزل واقعية خاصة ذات نسق جمالى خالص). والعزل هو الخطوة للوعى المشكل، هو هبة الشكل الأولى للمضمون التى تجعل كل هبات الشكل الإيجابية الخالصة المثريّة التالية ممكنة للمرة الأولى.

(١) يجب التفريق بشكل صارم بين نشاط المؤلف المبدع المنشئ للشكل والحركة المحاكية السلبية، الفعلية أو المحتملة، التى تكون ضرورية أحيانًا للمعاناة المشتركة الأخلاقية أو الإحساس الأخلاقى، كما يجب التمييز بالقدر نفسه من الصرامة بين النبذة الأخلاقية والنبذة الجمالية المنجزة.

إن لحظات الكلمة المحققة تأليفيًا للشكل تصبح كلها تعبيرًا عن علاقة المؤلف الإبداعية بالمضمون: فالإيقاع المرتبط بالمادة يخرج خارجها ويبدأ يتغلغل في المضمون بوصفه علاقة إبداعية وينقله إلى مستوى قيمى جديد هو حدث الوجود الجمالى؛ وشكل الرواية المنسق للمادة اللفظية ينشئ، بعد أن يصبح تعبيرًا عن علاقة المؤلف، الشكل المعماري المنسق والمنجز للحدث بمعزل عن حدث الوجود الواحد، المفتوح دائمًا.

وفى هذا الأصالة العميقة للشكل الجمالى: إنه نشاطى المتحرك عضوياً والمقيم والمدرّك، لكنه فى الوقت نفسه شكل الحدث الذى يواجهنى وشريكه (شخصيته، شكل جسده ونفسه).

الإنسان، الذات الفردية، لا يشعر بنفسه مبدعًا إلا فى الفن. إن الشخصية الذاتية الإيجابية المبدعة هى لحظة مكونة للشكل، هنا تجد الذاتية تحققها الموضوعى الأصيل وتصبح ذاتية مبدعة ذات قيمة ثقافية. وهنا أيضًا تتحقق الوحدة الأصيلة للإنسان العضوى الجسدى والداخلى، النفسى والروحى، لكنها وحدة معاشة من الداخل. المؤلف بوصفه لحظة مكونة للشكل، هو نشاط منظم ينبعث من الداخل لإنسان متكامل يحقق مهمته بالكامل ولا يفترض شيئًا خارجه لينجزه وهو ضرورى هنا كله؛ من أخمص قدميه حتى رأسه، ضرورى متفلسًا (الإيقاع) ومتحركًا ورائيًا وسامعًا وذاكرًا ومحبًا وفاهمًا^(١).

(١) إن فهما ودراسة منهجيين دقيقين للمؤلف بوصفه لحظة الموضوع الجمالى هما وحدهما الكفيلان بإيجاد أساس لطرائق دراسته السيرية والنفسية والتاريخية.

هذا النشاط المنظم من الداخل لشخصية المبدع يختلف جوهرياً عن الشخصية السلبية المنظمة من الخارج للبطل، الإنسان موضوع الرؤية الفنية، المحدد جسدياً ونفسياً؛ وصفته المحددة هذه مرئية ومسموعة ومتخذة شكلاً، إنها صورة الإنسان، إنها شخصيته مجسدة ومتخذة مظهرًا خارجيًا، في حين أن شخصية المبدع لا مرئية ولا مسموعة بل تعاش ويشعر بها وتتظم من الداخل كنشاطٍ راءٍ، سامعٍ، متحركٍ، ذاكرٍ، كنشاط مجسّد لا مجسّد ومن ثم منعكس في موضوع منجز شكلاً.

الموضوع الجمالي هو مبدع يتضمن مبدعه: فيه يجد المبدع ذاته ويشعر شعورًا متوترًا بنشاطه الإبداعي أو بعبارة أخرى: هو المبدع كما يبدو في عيني المبدع ذاته الذي أبدعه بحرية وحب (صحيح أنه ليس إبداعًا من لا شيء، فهو يفترض واقع المعرفة والتصرف، إنما يقوم فقط بتحويله وصياغة شكله).

إن مهمة علم الجمال الأساسية هي دراسة الموضوع الجمالي في أصلاته دون أن نستبدل به مرحلة متوسطة من مراحل طريق تحقيقه. وعلينا في المقام الأول أن نفهم الموضوع الجمالي فهمًا تركيبياً (synthetique)، نفهمه في كليته، نفهم الشكل والمضمون في علاقتهما المتبادلة الجوهرية والضرورية: نفهم الشكل شكلاً لمضمون والمضمون مضموناً لشكل، نفهم أصالة العلاقة المتبادلة بينهما وقانونها. وعلى أساس هذا الفهم وحده يمكن أن نحدد معالم التوجه الصحيح نحو تحليل جمالي مشخص للأعمال المتفرقة.

يجب أن يكون واضحًا من كل ما قلناه أن الموضوع الجمالى ليس شيئًا، إذ إن شكله (أو بتعبير أدق شكل المضمون إذ إن الموضوع الجمالى هو مضمون متخذ شكلًا) الذى أشعر فيه بنفسى ذاتًا نشطة، والذى أدخل فيه بوصفى لحظة مكونة ضرورية من لحظاته، لا يمكن أن يكون بطبيعة الحال شكل شىء.

إن الشكل الخلاق فنيًا يصوغ الإنسان فى المقام الأول والعالم بوصفه عالم الإنسان فقط إما بإحيائه وأنسنته مباشرة، أو بربطه بعلاقة قيمية مباشرة مع الإنسان بحيث يفقد هذا العالم بجانب الإنسان استقلاله القيمى، ويصبح مجرد لحظة فى قيمة الحياة الإنسانية. وتبعًا لهذا تحمل علاقة الشكل بالمضمون فى وحدة الموضوع الجمالى طابعًا شخصيًا أصيلًا، بينما يكون الموضوع الجمالى نوعًا من الحدث الأصيل المتحقق عن الفعل والتفاعل بين المبدع والمضمون.

إن الطابع الحدثنى للموضوع الجمالى فى الإبداع الفنى الكلمى واضح بشكل خاص، فالعلاقة المتبادلة بين الشكل والمضمون تكاد تكون ذات طابع درامى هنا، وواضح على نحو خاص دخول المبدع، الإنسان الجسدى والروحى النفسى، فى الموضوع. وواضح ليس عدم انفصال الشكل والمضمون فقط، بل عدم اندماجهما أيضًا، فى حين أن الشكل فى فنون أخرى يتغلغل فى المضمون أكثر كأنما يتشأ فيه وتزداد صعوبة فصله عنه والتعبير عنه فى حالة فصله وتمييزه المجردين.

ولهذا تفسيره فى طابع مادة الشعر أى الكلمة التى يستطيع المؤلف وهو الإنسان المتكلم أن يأخذ بمساعدتها، موقعه الإبداعى مباشرة، فى حين إن أجساماً غريبة تدخل بوصفها وسائط تقنية فى عملية الإبداع فى فنون أخرى، وعلى سبيل المثال الأدوات الموسيقية، الإزميل وغيرها. زد على ذلك أن المادة لا يمكنها أن تستوعب إنساناً نشطاً على هذا القدر من تعدد الجوانب. إن نشاط المؤلف المبدع وهو يمر عبر هذه الأجسام - الوسائط الغريبة - يتخصص، يزداد ضيقاً ومحدودية، ولهذا يصبح أقل قابلية للانفصال عن المضمون الذى شكله.

عام ١٩٢٤

المؤلف فى سطور: مikhail ميخائيلوفيتش باختين:

يُعدّ ميخائيل ميخائيلوفيتش باختين (١٨٩٥-١٩٧٥) واحدًا من أبرز النقاد الروس الذين تجاوزت أفكارهم النطاق الإقليمى، وراجت نظرياتهم حتى اقتحمت أغلب جامعات العالم الحديث، وأصبح اسم باختين مرتبطًا بما عُرف لاحقًا باسم "المدرسة الباختينية". له من الدراسات الكثير التى غطّت مناحى الأدب والثقافة والفولكلور ونظرية الأنواع الأدبية. من أهم كتاباته:

- ١- الماركسية وفلسفة اللغة.
- ٢- شعرية دوستويفسكى.
- ٣- الفرويدية.
- ٤- المنهج الشكلى فى دراسة الأدب.
- ٥- رابليه وعالمه.

ومن اللافت أن بعض كتابات باختين قد نُشرت بتوقيع "فولوشينوف" و"ميدفيديف"، وهما اثنان من أشهر حوارى باختين وأعضاء حلقة التى روّجت لأفكاره. لقد وفّرت سيرة باختين، التى ساد فصولها الكثير من سنوات النفي والانتقال الاضطرابى من مكان إلى آخر فى أراضى الاتحاد السوفياتى الشاسعة، مثالًا لافتًا ومثيرًا لعناد الباحث والفيلسوف الذى لا تقتر عزيمته مهما واجه من صعوبات.

تعرّض باختين خلال حياته للاضطهاد والسجن والمنع من النشر، وذلك خلال حكم ستالين وما بعدها. وبعد أن حاز باختين شهرة عالمية واسعة، قبل وفاته بفترة قصيرة، أخبر عددًا من حواريينه وتلامذته الجدد بوجود عدد من مخطوطات كتاباته الأولى مخبأة في "سارانسك"، عاصمة قازاخستان. وعندما ذهب تلامذته للبحث عن هذه المخطوطات وجدوا أن المياه قد أُلِفَت الكثير من هذه الكتب. وما استطاع هؤلاء التلامذة استنقاذه يضم كتابين: الأول بعنوان "الفن والمسؤولية" والثاني بعنوان "تحو فلسفة للفعل".

المترجم فى سطور:

يوسف الحلاق:

ولد فى عام ١٩٣٩ فى بيروت، وهى مدينة صغيرة من ريف دمشق، وفيها أتم دراساته الابتدائية قبل أن ينتقل إلى مدرسة مار يوحنا (الخنثارة - جبل لبنان) ثم إلى مدرسة الآباء العازاريين فى دمشق، حيث حصل شهادته الثانوية وتمكن من الفرنسية مع إمام باللاتينية واليونانية.

عام ١٩٥٨، أوفد فى أول بعثة علمية إلى موسكو حيث حصل على بكالوريوس فى اللغة الروسية وآدابها. برسالة عن رواية "أنا كرينينا" لتولستوى.

ما بين عامى ١٩٦٤ و ١٩٨٠ درس اللغة الروسية فى ثانويات دمشق، قبل أن يعين مديراً لمعهد الدراسات الروسية فى جامعة دمشق حتى تقاعده. وطوال هذه المدة أعتد مترجماً رسمياً لدى وزارة الثقافة فى سورية للوفود السوفياتية ثم الروسية.

بموازاة عمله فى التدريس، قام بترجمات كثيرة عن الروسية (راجع الثبأ أدناه) تابعها بعد تقاعده، ونال عليها جائزة المترجمين من موسكو. وافته المنية عام ٢٠٠٦ وهو منكب على ترجمة "شعرية دوستويفسكى".

من أعماله:

- ١- ألكسندر بلوك: "دراسات أدبية و فكرية"، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٧.
- ٢- ن. غ. تشرنيشفسكى: "علاقات الفن الجمالية بالواقع"، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٣.
- ٣- ميخائيل باختين: "الكلمة فى الرواية"، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٨.
- ٤- ميخائيل باختين: "أشكال الزمان والمكان فى الرواية"، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٠.
- ٥- ميخائيل بولغاكوف: "المعلم ومرغريتا"، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٦. (طبعة ثانية عن دار رادوغا - موسكو ١٩٩٠).
- ٦- تورغنيف، كوبرين، راسيبوتين... وآخرون: "النخب" (قصص روسية مختارة)، الدكتور غلاس، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٨.
- ٧- فلاديمير نابوكوف: "ماشينكا"، دمشق، وزارة الثقافة .
- ٨- ليونيد أندرييف: "حياة إنسان"، المجلس الوطنى للثقافة، الكويت، ١٩٩٨.

- ٩- أ. لوناتشارسكى: "قصص عن لينين" (خمس مقالات عن لينين)، دار الفن الحديث العالمى، ١٩٧٠.
- ١٠- رسول حمزاتوف: "بلدى"، بيروت، دار الفارابى، ١٩٧٩،
(طبعة ثانية عن دار الملوحي - دمشق ١٩٩٩).

التصحيح اللغوى : سوزان عبد العال
الإشراف الفنى : حسن كامل



ليست "الكلمة" لفظة دالة تفتح المعجم فتجد دلالاتها وحسب، فهذه الدلالات تحيل إلى أبعد منها طولاً وعرضاً وعمقاً. إن الكلمة في النص مركز استقطاب لعلائق عديدة نفسية واجتماعية تاريخية وأيديولوجية وغيرها... ولقد ركز مؤلف كتابنا هذا بحثه على بعديها الاجتماعى والأدبى، ولم ينس الأبعاد الأخرى: منتقلاً من الكلمة إلى ما يتجاوزها أى العبارة، وحاول أن يلتقط هذا العالم فى الصورة - المجاز التى هى بدورها عالم كامل من الاشعاعات.

الكتاب مبدئياً، نقد أدبى . إلا أن مداه هو فلسفة اللسان الأدبى ، والحق أن دراسات المؤلف تشكل جنساً أدبياً فريداً فى نوعه هو عالم ميخائيل باختين، فقراءة باختين تشعرك بأن فى النص ، كما فى الإنسان ، فائضاً، والقراءة الأصح هى التى تعيد اعتباره.

